



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر - بسكرة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية



الرقم التسلسلي: 161

رقم التسجيل: 05/PG/D/LMD/HIS/18

صورة العثمانيين في الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية من القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث
تخصص: تاريخ المغرب العربي الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد الطاهر بنادي

إعداد الطالبة:
لبنى مهدي

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
01	الطيب العماري	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	رئيسا
02	محمد الطاهر بنادي	أستاذ	بسكرة	مشرفا ومقررا
03	مصطفى تويريت	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	مداعوا
04	علي آجقو	أستاذ	باتنة-1	مناقشا
05	صالح لميش	أستاذ	المسيلة	مناقشا
06	لخميصي فريخ	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية: 2022-2023



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر - بسكرة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية



الرقم التسلسلي: 161

رقم التسجيل: 05/PG/D/LMD/HIS/18

صورة العثمانيين في الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية من القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث
تخصص: تاريخ المغرب العربي الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد الطاهر بنادي

إعداد الطالبة:
لبنى مهدي

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
01	الطيب العماري	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	رئيسا
02	محمد الطاهر بنادي	أستاذ	بسكرة	مشرفا ومقررا
03	مصطفى توريريت	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	مداعوا
04	علي آجقو	أستاذ	باتنة-1	مناقشا
05	صالح لميش	أستاذ	المسيلا	مناقشا
06	لخميصي فريخ	أستاذ محاضر (i)	بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية: 2022-2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى أصحاب الفضل بعد الله سبحانه وتعالى

والديّ الكريمين أطال الله في عمرهما

إلى شقيقتي اللواتي كنّ خير معينات لي في هذه الرحلة

إلى رفيقات الدرب اللواتي كنّ أكبر دعم لي في السراء والضراء

إلى جميع الطلبة الذين يسعون إلى طلب العلم رغم كل

الصعاب

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

شكر وعرفان

قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾

النحل، الآية 19

قال الرسول ﷺ:

«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»

أشكر الله عز وجل على أن أعاني لإنجاز هذا البحث فله الحمد أولاً وآخراً
أتقدم بأسمى معاني التقدير والاحترام إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور: " محمد الطاهر
بنادي " الذي رافقني طيلة مراحل إنجاز هذه الأطروحة بتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة،
فكان بذلك له الأثر الطيب في إخراجها بهذه الصورة
كما أتقدم بالشكر الجزيل وعظيم الامتنان إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم وقبولهم
مناقشتها

الشكر موصول كذلك إلى أساتذتي الكرام: " حفيظة بن دحمان "، " سالم بوتداره "، " خليفة
حماش " على كل ما قدموه لي من توجيهات.

وأخيراً أشكر كل من ساعدني على إنجاز هذا البحث ولو بكلمة طيبة، والذين لا يتسع المقام
لذكرهم جميعاً ولكن الله الذي لا تخفى عليه خافية سيحفظه لهم ويجزيهم به خيراً

قائمة المختصرات:

أولاً: باللغة العربية

الرمز	المعنى
ت	توفي
تح	تحقيق
تر	ترجمة
تع	تعريب
تق	تقديم
تل	تعليق
ج	جزء
د.ت	دون تاريخ
د.ن	دون ناشر
د.ب	دون بلد
ع	عدد
مج	مجلد
هـ	هجري
م	ميلادي
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة

ثانياً: باللغات الأجنبية

ENAL	Entreprise national algérienne de livres
<i>N</i>	<i>Numéro</i>
<i>P</i>	<i>Page</i>
<i>PP</i>	<i>Pages contenues</i>
<i>VOL</i>	<i>Volume</i>
<i>T</i>	<i>Tome</i>
<i>R.A</i>	<i>Revue africaine</i>
<i>J.A</i>	<i>Journal Asiatique</i>
<i>TRa</i>	<i>Traduction</i>
<i>op.cit</i>	<i>Ouvrage Précédemment cité</i>
<i>Ibid</i>	<i>Ibidem (Même Ouvrage)</i>

مقدمة

شهدت الجزائر العديد من الأحداث التاريخية خلال الفترة الممتدة من بداية القرن الثامن عشر ميلادي والى غاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي، التي أثارت اهتمام العديد من المؤرخين الجزائريين، الذين ألفوا الكثير من الكتابات التاريخية، التي عكست مستجدات تلك الفترة، حيث نقلوا لنا وجهات نظرهم في مختلف القضايا والأحداث التاريخية التي عاصروها.

لقد كان التركيز في موضوعنا "صورة العثمانيين في الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية من القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م" منصبا حول نظرة الكتابات المحلية للسلطة العثمانية الحاكمة خلال هذه الفترة، حيث اختلفت في وجهات نظرها بين مؤيد لهذه السلطة وما اكتسبته من شرعية دينية، وبين ناقد عليها ومحملا إياها الانتكاسات خلال فترة حكمها، هذا الاختلاف بقي محل جدل بين مختلف الباحثين حتى يومنا هذا.

لقد سعت العديد من الكتابات التاريخية الأجنبية إلى تشويه صورة العثمانيين في الجزائر وتفسير فترة حكمهم في غير سياقها، وذلك بغرض تحقيق أهداف إيديولوجية استعمارية تخدمها بالدرجة الأولى، من أجل التبرير لعملية تغلغل الاحتلال وتسهيل مهامه للاستحواذ على الجزائر. من هنا يأتي دور الكتابات التاريخية المحلية من خلال نقل صورة العثمانيين لأجل إبراز محاسن ومساوئ حكمهم خاصة وأنها تعكس الواقع السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي المعاش حينها، وبذلك تعد الكتابات التاريخية المادة الخام التي يحتاجها الباحث لنقل الأحداث وتفصي الحقائق، كونها اللسان المعبر عن تلك الفترة.

إن موضوع دراستنا هذه يبرز الجانب الفكري لكتابات هؤلاء المؤرخين الجزائريين، من خلال نقل رؤاهم ومواقفهم، ودراستها بطريقة تحليلية نقدية لمعرفة مدى موضوعيتهم، لذا ظهرت العديد من الكتابات التاريخية لمؤرخين جزائريين في القرن الثامن عشر ميلادي (18م)، والتي اهتمت بالتأريخ لحدث فتح وهران الأول سنة 1708م والثاني سنة 1792م، أمثال: محمد بن ميمون، بن المفتي، عبد القادر المشرفي، الحسين الورتلاني، محمد بن رقية

التلمساني، عبد الرزاق بن حمادوش، أحمد بن سحنون الراشدي، أحمد بن هطال، بن زرفة وأبو راس الناصري.

أما كتابات مؤرخي النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي (19م)، فعدّ أصحابها من الكتاب المخضرمين، الذين عاصروا نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، الذي يعد منعطفًا حاسمًا في مسار الكتابات التاريخية الجزائرية، كما أن نظرتهم للعثمانيين من خلال المواضيع التي تطرقوا إليها اختلفت عن كتابات القرن 18م، بسبب الظرفية التي كانت منطلقًا لكتاباتهم أمثال: مسلم بن عبد القادر، حمدان خوجة، محمد بن العنابي، أحمد الشريف الزهار، صالح العنتري والحاج أحمد بن المبارك.

لقد استثنينا من دراستنا هذه، كتابات مؤرخي النصف الثاني من القرن 19م، رغم أنهم كتبوا عن العهد العثماني، على اعتبار أنهم في اعتقادنا كانوا بعيدين عن الأحداث، بل إن هناك من لم يعاصر تلك الفترة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي في كتابه "القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط"، محمد بن عبد القادر الجزائري صاحب "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر".

كما يرجع الفضل إلى مساهمة العديد من الكتاب والمحققين في إخراج الكثير من المخطوطات إلى النور، فعلى سبيل المثال أبو القاسم سعد الله الذي قام بتحقيق رحلة بن حمادوش "لسان المقال" ومحمد بن عبد الكريم الذي أسهم بشكل كبير في نشر التراث الجزائري، حيث حقق العديد من المخطوطات مثل "فتح الإله" لأبو راس، "السعي المحمود في نظام الجنود" لابن العنابي، "المرآة" لحمدان خوجة، "التحفة المرضية" لابن ميمون، إضافة إلى "رحلة محمد الكبير" لابن هطال، "بهجة الناظر" للمشرفي، كذلك محمد غانم "عجائب الأسفار" لأبو راس، والأستاذ المهدي البوعبدلي محقق "الثغر الجماني" لابن سحنون، "دليل الحيران" للزياني، كما ساهم رابح بونار في تحقيق "خاتمة أنيس الغريب

والمسافر "لمسلم بن عبد القادر و"مجمعات قسنطينة" للعنترى، إضافة إلى أحمد توفيق المدني محقق "مذكرات أحمد الشريف الزهار" ويحي بوعزيز محقق "قريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة" للعنترى. وبهذا لعبوا دورا بارزا في إعادة إحياء التراث الوطني وحفظه من الضياع وغياب النسيان.

- أهمية الدراسة وأهدافها:

- تعد من الدراسات التاريخية الفكرية البالغة الأهمية، فهي جزء هام من تراث تاريخ أممتنا، والتي بقيت مثار جدل واختلاف بين الباحثين إلى يومنا هذا.
 - دراسة تعتمد على الجانب التحليلي النقدي في نقل نظرة المؤرخين الجزائريين للسلطة العثمانية الحاكمة، وهو ما نفتقده حسب اعتقادنا في العديد من الدراسات التاريخية.
 - تناولت هذه الدراسة مرحلة مفصلية في تاريخ الجزائر من القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م.
 - لذا كان هدفنا منها هو تسليط الضوء على نظرة المؤرخين الجزائريين للعثمانيين لأجل معرفة الكتابات التاريخية المؤيدة أو الناقمة على السلطة العثمانية ومدى موضوعيتها وصدقها في طرحها للأحداث التاريخية.
- أسباب اختيار الموضوع:
- الأسباب الذاتية:
- الرغبة في إثارة النقاش حول أطوار الحكم العثماني في الجزائر.
 - الميول الشخصي لدراسة ما ألفه المؤرخين الجزائريين حول العثمانيين في مختلف القضايا التاريخية.

-الأسباب الموضوعية:

- تتطلب الدراسات التاريخية الاعتماد على المصادر التاريخية المحلية كونها تضيف على الموضوع بعدا ودقة تاريخية، خاصة وأنه موضوع فكري، يعتمد على نقل نظرة المؤرخين للسلطة الحاكمة بطريقة تحليلية نقدية.
- اختلاف رؤى ووجهات نظر الكتابات التاريخية الجزائرية حول نظرتها للسلطة الحاكمة بين مؤيد لها وناقم عليها، وهذا ما حفزنا لدراسة هذا الموضوع من باب الإنصاف التاريخي للجزائر العثمانية، وذلك بتطرقنا لما لها وما عليها بطريقة موضوعية دون تحيز، خاصة بعد الاتهامات التي طالتها من قبل الكتابات الغربية الهادفة إلى تشويه صورتها بنظرتها الإيديولوجية الاستعمارية، لذلك كان اعتمادنا بالدرجة الأولى على الكتابات التاريخية الجزائرية المعاصرة للعثمانيين في الجزائر.
- التعريف بالمؤرخين الجزائريين وإنتاجهم الفكري، مع الاطلاع على مختلف القضايا التاريخية التي كتبوا فيها والتعرف على منطلقاتهم الفكرية تجاههم.
- إحياء التراث الجزائري وإبراز دور المؤرخين الجزائريين في الكتابة التاريخية.
- التدليل على أن العهد العثماني، كان غنيا بتأليف المؤرخين الجزائريين، وهو ما يبطل مقولة أن العهد العثماني كان متدهورا ثقافيا.

-إشكالية الموضوع:

لقد عنونا موضوع الدراسة كآتي: "صورة العثمانيين في الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية من القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م".
يطرح الموضوع إشكالية رئيسة هي:

- كيف كانت نظرة أصحاب الكتابات التاريخية الجزائرية للسلطة الحاكمة في

الجزائر من القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م؟

وللإجابة على هذه الإشكالية وجب علينا طرح مجموعة من التساؤلات لمعرفة ملامح

الموضوع، منها:

- من هم المؤرخون الجزائريون الذين ألفوا خلال القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م؟ وهل ساهمت البيئة التي عاشوا فيها في التأثير على كتاباتهم؟
- كيف صورت لنا هذه الكتابات سيرة الحكام العثمانيين في الجزائر؟
- فيما تتمثل الأسباب التي دفعت ببعض المؤرخين إلى النظر لأعمالهم نظرة نقد وتذمر؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار طرحهم موضوعيا؟
- هل ساهم الوضع العام الذي آلت إليه الجزائر أواخر العهد العثماني في احتلالها؟
- كيف صورت لنا الكتابات التاريخية الجزائرية الحكمين العثماني والفرنسي؟
- فيما تمثلت القيمة التاريخية لهذه الكتابات؟

-الدراسات السابقة:

هناك العديد من الدراسات التي تناولت مسألة صورة الوجود العثماني في الجزائر التي استفدنا منها كثيرا في موضوعنا، وكانت الأرضية لمنطلقنا هي دراسة "نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر" لمحمد شاطو، الذي خصصها لدراسة الفترة الزمنية بدءا من عام 1512 إلى غاية عام 1830م، كذلك دراسة رقية شارف المعنونة بـ: "الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م وبداية القرن 19م -دراسة تحليلية نقدية-"، إضافة إلى أطروحتها في الدكتوراه "التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1250هـ/1850م -دراسة وصفية تحليلية نقدية مقارنة في المنهج التاريخي-".

-عرض الموضوع:

للإجابة على هذه التساؤلات قسمنا الموضوع إلى: مقدمة، مدخل تمهيدي مع أربعة فصول وخاتمة.

مدخل تمهيدي: الأوضاع العامة في الجزائر من القرن 16م حتى بداية القرن 19م، تطرقنا فيه إلى الأوضاع السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، حيث ارتأينا أن

نعطي لمحة عامة من خلاله حتى نلم بالموضوع بدءا من القرن 16م إلى غاية الاحتلال الفرنسي.

الفصل الأول: المؤرخون الجزائريون وإنتاجهم خلال القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م، تناولنا فيه التعريف بهم، شيوخهم، تلامذتهم وإنتاجهم الفكري.

الفصل الثاني: سير الحكام وأعمالهم من وجهة نظر الكتابات التاريخية في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م، حيث أبرزنا فيه:

أولا: مجابهة الحملات الخارجية وتأمين الحدود، تطرقنا فيه إلى المنظومة الدفاعية للعثمانيين تجاه الحملات الخارجية على الجزائر من خلال فتح وهران الأول والثاني، إضافة إلى سلوك الحكام العثمانيين وجهودهم في الإصلاح والتعمير.

ثانيا: العنف والأعمال غير المشروعة، خصصناه للحديث عن اغتالات الحكام، انتشار ظاهرة الظلم، الرشوة، نهب الأموال، إضافة إلى البغاء وشرب الخمر.

ثالثا: الواقع الثقافي للجزائر في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م، عرضنا فيه حالة الركود والتخلف الثقافي، كما أشرنا إلى وضع التعليم وإسهامات بعض الحكام العثمانيين في تشجيع الحركة الثقافية في الجزائر العثمانية، أمثال الباي محمد الكبير ببايلك الغرب والباي صالح ببايلك الشرق، كما تطرقنا أيضا إلى التزام الحكام العثمانيين بأحكام الشريعة الإسلامية مع حفظ الأمن والعدل.

الفصل الثالث: جدلية علاقة السلطة العثمانية في الجزائر بالمجتمع، تناولنا فيه:

أولا: تأرجح العلاقة بين الاتفاق والاختلاف، تتبعنا فيه علاقة السلطة العثمانية بالعلماء والنخب المثقفة من حيث أسباب التحالف والقطيعة بينهما، مع علاقتها بالطرق الصوفية والقبائل.

ثانيا: علاقة التوتر والقطيعة مع السلطة، عرضنا فيه ظاهرة التهميش السياسي، الضرائب والثورات التي قامت ضد السلطة الحاكمة.

ثالثاً: موقف الكتابات التاريخية الجزائرية من سقوط نظام الحكم العثماني في الجزائر سنة 1830م حاولنا من خلالها الحديث عن موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر وأسباب زوال نظام الحكم فيها من منظور مؤرخي القرن 19م، كما تناولنا فيه الحكمين العثماني والفرنسي من منظور الكتابات التاريخية الجزائرية.

الفصل الرابع: دراسة تحليلية نقدية للكتابات التاريخية الجزائرية في القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م، تضمن دوافع تأليف الكتابات التاريخية الجزائرية، ومدى موضوعيتها في نظرتها للسلطة الحاكمة مع ذكر للقيمة التاريخية لهذه الكتابات. وخلصنا في النهاية إلى خاتمة تضمنت الإجابة عن الإشكالية المطروحة، حيث احتوت على مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا.

-منهج البحث:

اتبعنا في دراستنا هذه عدة مناهج منها: المنهج التاريخي الوصفي، من خلال وصف الواقع الثقافي في الجزائر، سيرة الحكام العثمانيين ومآثرهم، البيئة التي عاش فيها المؤرخون الجزائريون، إضافة إلى وصف العلاقة بين السلطة العثمانية والمجتمع، كما اعتمدنا على المنهج التحليلي النقدي في تحليل ونقد نظرة الكتابات التاريخية الجزائرية للسلطة العثمانية في مختلف القضايا التاريخية من أجل معرفة مدى موضوعيتها، كما وظفنا المنهج المقارن من خلال المقارنة بين الحكمين العثماني والفرنسي من منظور الكتابات التاريخية الجزائرية، إضافة إلى المقارنة بين رؤى ووجهات نظر المؤرخين الجزائريين لمعرفة مدى صدق الأحداث التاريخية.

-مصادر ومراجع الموضوع:

استعنا بمادة ثرية ومتنوعة تخص موضوع البحث، والتي كانت أغلبها لمؤرخين جزائريين، الذين اتخذناهم نماذج لدراستنا.

1-المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ-المصادر:

- المخطوطات: تحصلنا عليها من قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بالجزائر مثل:
 - التحفة المرضية في الدولة البكداشية لمحمد بن ميمون.
 - الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكفرة لمحمد بن رقية التلمساني.
 - عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لمحمد أبو راس الناصري.
 - خاتمة أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر.
 - فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها لصالح العنصري.
 - الرحلة القمرية لابن زرفة.
 - تاريخ قسنطينة للحاج أحمد بن المبارك.
 - رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري لأحمد بن هطال.
 - نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار لحسين الورتلاني.
- كل هذه المخطوطات محققة، إلا أننا ارتأينا أن نضعها كملاحق كونها تفيد موضوع دراستنا.

ب-المطبوعات:

- أحمد بن سحنون الراشدي: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" الذي أفادنا في الحديث عن جهود الباي محمد الكبير في الفتح الثاني لمدينة وهران ومشاركة العلماء وأهم إسهاماته الثقافية.
- محمد بن ميمون: "التحفة المرضية في الدولة البكداشية" استعنا به في التطرق إلى فتح وهران الأول ودور الحاكم العثماني بكداش في هذا الفتح.

- عبد القادر المشرفي: "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإِسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر" تناول في رسالته هذه القبائل المتعاونة مع الإِسبانيين بمدينة وهران و ذم أفعالهم وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.
- حسين الورتلاني: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، تحدث في هذه الرحلة عن بعض التجاوزات التي شاهدها كانتشار الظلم وظاهرة الرشوة، إضافة إلى تدهور الأوضاع الثقافية في الجزائر أثناء العهد العثماني.
- مسلم بن عبد القادر: "خاتمة أنيس الغريب والمسافر"، حققه رابح بونار، ذكر فيه الثورات التي قامت ضد السلطة الحاكمة كالثورة الدقاوية.
- حمدان خوجة: "المرآة"، أفادني كثيرا في الحديث عن الاحتلال الفرنسي للجزائر وموقف الدولة العثمانية من ذلك، ودواعي زوال النظام العثماني.
- أحمد الشريف الزهار: "مذكراته"، أتاحت لنا معرفة سيرة الحكام العثمانيين وأهم أعمالهم العمرانية، إضافة إلى تطرقه للعديد من القضايا كظاهرة الاغتيالات، انتشار الرشوة، نهب الأموال والبغاء.

ب-المراجع:

- يعد كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" لأبي القاسم سعد الله الجزء الأول والثاني من الكتب الأساسية التي اعتمدنا عليها في دراستنا، حيث أسهب في الحديث عن العديد من القضايا التاريخية منها: الأوضاع الثقافية في الجزائر أثناء العهد العثماني، علاقة السلطة الحاكمة بالعلماء والطرق الصوفية، التهميش السياسي للرعية، كما تعرض إلى ظاهرة الرشوة، نهب أموال الأوقاف والبغاء في الجزائر أثناء العهد العثماني، ومن خلاله تعرفنا على تراجم بعض المؤرخين الجزائريين، إضافة إلى كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" الجزء الأول والخامس ومؤلفه "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال"، حيث تعرض إلى تراجم بعض المؤرخين وإنتاجهم الفكري ووضع التعليم.

- كما كانت لكتابات ناصر الدين سعيدوني أهمية كبرى في دراستنا فعلى سبيل المثال لا الحصر كتاب "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي"، الذي أفادنا كثيرا في الحديث عن تراجم المؤرخين الجزائريين وإنتاجهم الفكري، إضافة إلى مؤلفيه "تاريخ الجزائر في العهد العثماني" و "الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان)" اللذين سلط فيهما الضوء على علاقة السلطة العثمانية بالقبائل.
- حنيفة هلايلي "أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، من خلاله تعرفنا عن الثورات ضد السلطة الحاكمة وعلاقتها بالطرق الصوفية، إضافة إلى ظاهرة البغاء في الجزائر أثناء العهد العثماني.

ج- الأطروحات:

- اطلعنا على العديد من الأطروحات في موضوع دراستنا من أهمها:
- محمد شاطو "نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر" وهي رسالة ماجستير نوقشت سنة 2006م، تحدث فيها عن فتح وهران الأول.
- رشيدة شكري معمر "العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830م"، وهي رسالة ماجستير نوقشت سنة 2006م، وقد سلطت فيها الضوء على علاقة السلطة العثمانية بالعلماء.
- فاطمة الزهرة طوبال "النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد البايات 1671-1830م"، أطروحة دكتوراه نوقشت سنة 2020م، عالجت فيها ظاهرة الاغتيالات الرشوة، الضرائب وعلاقة السلطة الحاكمة بالعلماء.
- عبد القادر بكاري "منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830م)"، أطروحة دكتوراه نوقشت 2016م، عرضت دوافع التأليف.

د-المقالات:

اعتمدنا على العديد من المقالات المتنوعة التي تهتم بموضوع دراستنا، والتي صدرت عن مجلات متخصصة منها: مجلة الحوار المتوسطي، عصور الجديدة، المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العلوم الإنسانية، قضايا تاريخية، حوليات المجلة الجزائرية للمخطوطات، العبر للدراسات التاريخية والأثرية، عصور، الحضارة الإسلامية، الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية.

2-المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

أ-المصادر: من أهمها

- *Henri L'éon Fey: Histoire D'Oran avant Pendant et après la domination Espagnole.*
- *Aramburu : Oran et L'ouest Algérien au 18^{ème} Siècle D'après le Rapport Aramburu.*

الذي يعد تقريراً لأرمبورو، ترجمه كل من محمد القورصو وميكائيل دي إديباليزا

- *A. Devoux : Tachrifat recueil de Notes historiques sur L'Administration de L'ancienne D'Alger.*

أفادتنا هذه المصادر الأجنبية في الحديث عن فتح وهران الأول في عهد بكداش

سنة 1708م.

- *Alponse Rousseau : chronique de La régence D'Alger*
الذي تضمن الحديث عن حادثة مقتل الداوي بكداش.
- *Thomas Shaw : Voyage dans la régence D'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc de cet état.*
تطرق فيه إلى الوضع الثقافي في الجزائر أثناء العهد العثماني.
- *M. walsin Estrhazy : de la domination turque dans L'ancienne Régence D'Alger.*
من خلاله تعرفنا على شخصية الباوي محمد الكبير.
- *Ernest mercier : L'Algérie en 1880.*

أفادنا في الحديث عن الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ب-المقالات:

استعنت بالعديد من المقالات المنشورة بالمجلة الإفريقية التي تعد ترجمة للغة الفرنسية لإنتاج مؤرخين جزائريين، أمثال: عبد القادر المشرفي، مسلم بن عبد القادر، أبو راس الناصري، والتي كانت من تأليف: مارسيل بودان *Marcel Bodin*، قرقوس *A. Gorgous*، أرنو *Arnaud*، أدريان دلبش *Adrien Delpech*.

-الصعوبات:

من الصعوبات التي واجهتنا هي أن موضوع الأطروحة في بدايته كان واسع جدا، مما جعلنا نضبط العنوان النهائي على الشكل التالي: "صورة العثمانيين في الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية في القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م"، حتى تكون الدراسة مركزة وأكثر دقة، وهذا ما أخذ منا جهدا مضاعفا وفترة زمنية طويلة كي نلم بجوانب الموضوع المختلفة، خاصة وأنه يركز على الجانب الفكري للكتابات التاريخية، ويحتاج إلى تحليل، نقد ومقارنة لنظرة المؤرخين الجزائريين للعثمانيين.

كما واجهتنا صعوبات في ضبط خطة البحث وهيكلتها، لكثرة وتشعب المواضيع المتطرق إليها في الكتابات التاريخية.

مدخل تمهيدي

الأوضاع العامة في الجزائر من القرن 16م حتى

بداية القرن 19م

أولاً: الأوضاع السياسية.

- 1- عهد البايلربايات (1518-1587م).
- 2- عهد الباشوات (1587-1659م).
- 3- عهد الآغوات (1659-1671م).
- 4- عهد الدايات (1671-1830م).

ثانياً: الأوضاع الاقتصادية.

- 1- الزراعة.
- 2- الصناعة.
- 3- الحرف والأسواق.
- 4- التجارة.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية.

- 1- عدد السكان.
- 2- التركيبة الاجتماعية.
- 3- بعض ملامح الحياة الاجتماعية.

رابعاً: الأوضاع الثقافية.

أولاً: الأوضاع السياسية

عاشت بلاد المغرب الإسلامي والأندلس تحت حكم الدولة الموحدية، التي تعتبر من أهم الدول في تاريخ الغرب الإسلامي، فقد بلغت ذروة قوتها خلال فترة العصور الوسطى بعد أن تمكنت من توحيده، حيث حكمته لفترة طويلة، لكن ما لبثت أن بدأت في الانهيار، بعد هزيمتها على يد الصليبيين في الأندلس، في موقعة العقاب الشهيرة سنة 1212م، هذا الحدث عدّ بداية النهاية لحكم المسلمين في الأندلس وعلامة لتشتتهم وتناحرهم في الغرب الإسلامي.(1)

شجعت هذه الهزيمة ملوك النصارى، للاستيلاء على الحصون الإسلامية دون مقاومة، بعد أن بدأت إماراتهم في الانهيار فيما بين سنوات 1236-1243م، فسقطت قرطبة، إشبيلية، جيان، مرسية، بلنسية وجزر البليار، وبعد سقوطها تجمعت بقايا المسلمين في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر، الذي اعتصم في جبال غرناطة بعد أن اتخذها مقراً لمملكة صغيرة سنة 1232م، محافظة على الركن الجنوبي من الأندلس إلى غاية سنة 1492م إلى أن سقطت على يد فرناندو وإيزابيلا، وبذلك انتهت دولة الإسلام في الأندلس.(2)

بسبب ضعف الدولة الموحدية وسقوطها، فقد المغرب الإسلامي وحدته السياسية وانقسم على نفسه وتكونت به ثلاث دول، حاولت كل منها فرض سيطرتها على كل الإقليم لكنها لم تتجح في ذلك، تمثلت هذه الوحدات السياسية في الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (تونس)، الزيانية بالمغرب الأوسط (دولة بني عبد الواد) والمرينية بالمغرب الأقصى

(1) - أحمد سالم: السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2011م، ص ص: 61-62.

(2) - المرجع نفسه، ص: 62.

(الوطاسية)، وقد دخلت هذه الدول في صراع حاد فيما بينها، عانى منه بنو عبد الواد أكثر من غيرهم، في الوقت الذي بدأ يطغى فيها الضغط الأوربي المسيحي عليها ويهدد كيانها.(1) حاولت كل دولة من هذه الدول الثلاث فرض نفسها على المنطقة، فكان التنافس بينها قويا(2)، حيث ساد بينها التطاحن والشقاق سواء من الداخل أو صاحبه التهديدات الخارجية، فتونس الحفصية عانت من خطر الإسبان خاصة من ناحية صقلية ونابولي، وفي المغرب الأقصى دخل بنو وطاس في صراع مع السعديين على مدينة فاس، في حين عانت الدولة الزيانية من الضعف، فكان شيوخ البرابرة في نزاع واقتتال حيث سعى كل طرف للاستيلاء والسيطرة على الآخر.(3)

أصبح شرقي المغرب، أوسطه وأقصاه بسبب هذه الفوضى، عبارة عن فسيفساء سياسية بعد انقسام مملكة بني عبد الواد في تلمسان، ومملكتي بني حفص وبني مرين، إلى عدد من الإمارات والقبائل أو مجموعات مستقلة ومناطق نفوذ الأولياء، وهذا ما ذكره المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان بقوله: «أن العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية، كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيرا فانغمست في حروب طويلة مزمنة، وروت أرض هذه البلاد بالدماء، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط، فطوال قرن كامل لم يبق لأمرء هذه العائلات المالكة من السلطة إلا اسمها...».(4)

(1) - عائشة جميل: الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2017-2018م، ص 3.

(2) - خالد بلعربي: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية 633-681هـ/ 1235-1282م، [د.ن.، [د.ب.]، 2011م، ص: 131.

(3) - عائشة جميل: المرجع السابق، ص: 3.

(4) - صالح كليل: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: علي أجقو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2006-2007م، ص ص: 3-4.

بعد انقضاء القرن الخامس عشر، استقلت جهات عديدة في وسط وأطراف بلاد المغرب، مؤلفة إمارات إقطاعية، فلا تعرف حدود معروفة لدولة⁽¹⁾، كما رفضت هذه الإمارات الخضوع لأية سلطة مركزية⁽²⁾. من المؤكد أن هذه الأحوال ساهمت بشكل كبير في إضعاف إمارة بني زيان، التي عجزت عن مد نفوذها على كل المنطقة، وبذلك ظهرت حركات استقلالية تزعمتها مجموعة من الشيوخ والمرابطين، ولعل أقواها كانت إمارة كوكو بجبال جرجرة، في حين سيطر الشيخ الحفصي على الجهة الواقعة بين عنابة والقل، وسيطر الدواودة على الزاب والحضنة، كما ظهرت إمارة توقرت في واحات وادي ريغ وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة⁽³⁾.

إن هذا التطاحن والصراع ساعد الدول الأوربية المسيحية على استغلال هذه الأوضاع، وذلك بالعدوان على المدن والموانئ الساحلية لهذه المنطقة من الحوض الغربي للمتوسط، فرغم الخطر الخارجي لم يحاول حكام هذه الدول المتناحرة توحيد جهودهم للوقوف في وجه هذا العدوان الصليبي، خاصة بعد سقوط الأندلس سنة 1492م، مستهدفا تصفية الوجود الإسلامي في منطقة شمال إفريقيا في إطار حروب الاسترداد، ومع بداية القرن السادس عشر أوشك الإسبان على احتلال العديد من المراسي والمدن الساحلية⁽⁴⁾.

كان للظروف السائدة بأقطار المشرق في مستهل القرن السادس عشر الميلادي تأثير مباشر على تطور الأوضاع بالبلاد الجزائرية، فقد ساعد وقف النشاط البحري الإسلامي لفترة بالمياه الشرقية للمتوسط، نتيجة الاتفاق العثماني البندقي 1502م، بالإضافة إلى اعتلاء سليم بن بايزيد العرش العثماني، وتتبعه لأنصار أخيه قرقود المنافس له عام 1509م، كل ذلك

(1) - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1792-1492م، دار البعث، الجزائر، [د.ت]، ص: 65.

(2) - حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2008م، ص: 9.

(3) - عائشة جميل: المرجع السابق، ص: 4.

(4) - المرجع نفسه، ص: 5.

كان له دور كبير في توجه جماعات من المجاهدين الأتراك وعلى رأسهم الأخوة بربروس (خير الدين عروج إسحاق) نحو غرب المتوسط.⁽¹⁾

يفسر البعض أن توجه العثمانيين نحو غرب المتوسط، ما هو إلا لنجدة مسلمي الأندلس، يظهر ذلك من خلال مجهودات خير الدين وعروج في مهاجمة إسبانيا ومساندة الأندلسيين⁽²⁾، وأن سبب قدوم الأتراك هو تغلب النصارى على السواحل.⁽³⁾

قبل وصول العثمانيين إلى المنطقة، كانت بلاد المغرب عامة والجزائر خاصة تعاني من الاحتلال الإسباني، الذي تمكن من إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة 1492م، حيث تمكن من احتلال أجزاء واسعة ومهمة من الجزائر⁽⁴⁾، منها المرسى الكبير سنة 1505م، حجر باديس 1508م، وهران وبجاية سنة 1509م والجزائر العاصمة سنة 1510م.⁽⁵⁾ انتقل الإخوة بربروسة إلى جزيرة جربة، وذاع صيتهم بعد استقرارهم بمرسى تونس (حلق الوادي) بطلب من الحاكم الحفصي، وأصبحوا يشكلون قوة بحرية، وقد أثارت الغزوات التي قاموا بها والغنائم الوفيرة التي حصلوا عليها مخاوف رجال الدولة الحفصية، فشجعوهم على الاستجابة لطلب سكان بجاية، الذين استجدوا بهم لطرد الإسبان من مدينتهم حتى يتخلصوا منهم.⁽⁶⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية الجزائر - تونس - طرابلس الغرب، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2014، ص: 26.

(2) - محمد السعيد بويكر: العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مختار حساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، السنة الجامعية 2010-2011م، ص: 28.

(3) - الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص: 250.

(4) - مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان: "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518-1830م)"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: 5، ع: 16، [د.ن.]، [د.ب.]، 2013م، ص: 414-415.

(5) - نقولا زيادة: إفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان، رياض الريس للكتب، [د.ب.]، ط1، 1991م، ص: 56.

(6) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب...، المرجع السابق، ص: 26.

لم يوفق خير الدين وعروج في هجومهما على مدينة بجاية في أوت عام 1512م، فتحولوا إلى جيجل واتخذوها قاعدة لهما عام 1514م، بعد أن استرجعها من الجنوبيين، ثم تحولوا إلى مدينة الجزائر عام 1516م بطلب من أهلها، الذين رأوا فيهما المنقذين لهم من الاحتلال الإسباني⁽¹⁾، قائلين لهم: «المجد عاد إليكم يا حماة الإيمان لا وهنت عزيمتكم في حركم المقدسة قد علمنا قوة أسلحتكم لأنكم استعدتم مدينتي جيجل وبجاية ورددتموهما إلى أسيادهما الحقيقيين اسميكما سيظلان إلى الأبد مرتبطين بالنجاح الذي كلل مساعيكما النبيلة، والآن يعود القرار لكم وحدكم في المجيء لتخلصونا من ظلم الكفار لأننا واحصرناه نعيش في حالة جد مؤلمة»⁽²⁾، الأمر الذي جعل عروج يتوجه إلى مدينة الجزائر باثنتين من المراكب⁽³⁾، ثم أرسل إليه أخوه خير الدين بنحو 280 رجلا ومعدات حربية حديثة وسفنا⁽⁴⁾.

اتخذت عملية الجهاد ضد الإسبان التي تزعمها الأخوة بربروسة (عروج وخير الدين) طابع مشروع استراتيجي، يهدف إلى القضاء على الجيوب الإسبانية بالسواحل، لذلك اتخذ خير الدين مدينة دلس قاعدة له لبسط نفوذه على الشرق الجزائري، وتمكن من إخضاع مدن القل، قسنطينة، ميلة وعنابة، كما فرض سلطته على العشائر الكبرى بالشرق الجزائري، بينما توجه عروج نحو الغرب الجزائري⁽⁵⁾، وأثناء عودته من تلمسان سنة 1518م تم قتله من قبل الإسبان⁽⁶⁾، حيث قطع رأسه وأرسل إلى الملك كارلوس، وفي ذلك يذكر خير الدين في مذكراته ما يلي: «كنا أربعة إخوة، شهدت استشهاد ثلاثة منهم، ما أعظم حكمة الله تعالى

(1) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2014م، ص: 26.

(2) - Alphonse Rousseau: *chronique de La régence D'Alger Traduites d'un manuscrit arabe intitulé, Imprimerie du gouvernement, Alger, 1841, p: 14.*

(3) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح: خير الدين سعيدوني الجزائري، أوراق ثقافية، الجزائر، ط1، 2017م، ص: 84.

(4) - علي عبد القادر حلبي: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، [د.ن.]، الجزائر، ط1، 1972م، ص: 164.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب... المرجع السابق، ص: 27.

(6) - وليام شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر: إسماعيل العربي،

الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982م، ص: 40.

فأنا الوحيد الذي لم تقدر لي الشهادة، مما يعني أن إخوتي الثلاثة أفضل مني عند الله جعل الله مقامهم جميعا في الجنة...»⁽¹⁾.

بقي خير الدين يدافع عن الجزائر بعد مقتل أخيه عروج⁽²⁾، فقد واجه مصاعب عديدة بسبب المؤامرات الموجهة ضده⁽³⁾، وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل وفي الخارج، ففي الداخل كثر معارضوه بعد أن تمرد عليه أحمد بن القاضي في جبل كوكو وكذلك في شرشال وتنس، وتواطأ بنو زيان مع الإسبان، وتقاعس أمير تونس الحفصي عن مده بيد المساعدة، أما في الخارج كانت أخطار الإسبان تلاحق سواحل مدن الجزائر وبسبب هذه العوامل قرر خير الدين مغادرة الجزائر⁽⁴⁾، وهذا بعد أن جمع أهلها من العلماء والصلحاء قائلا لهم: «إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان، وأمنت على بلادكم من العدو، وما تركت عندكم من العدة، لأنني تركت في بلادكم أكثر من أربعمئة مدفع، ولم يكن من قبل في بلادكم ولا مدفع واحد» لكنهم ردوا عليه بالقول: «أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك فالله الله في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله يسألك عنهم»⁽⁵⁾.

وبذلك فإن أعيان مدينة الجزائر وكبرائها ألحوا عليه بأن يبقى في المدينة، فعرض عليهم فكرة ربط الجزائر بالدولة العثمانية وجعلها ضمن أملاكها، حتى تكسب نوعا من الحماية الدولية، فقبلوا عرضه⁽⁶⁾، وقد طلب منهم أن يكتبوا على لسانهم رسالة إلى السلطان فقبلوا⁽⁷⁾، فأرسل خير الدين وفدا إلى السلطان سليم الأول عام 1518م، يعرض عليه الفكرة

(1) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 92.

(2) - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ص: 459.

(3) - نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، تر: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988، ص: 104.

(4) - يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2009، ص: 15.

(5) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 107.

(6) - يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 16.

(7) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 108.

فقبلها وأرسل إلى خير الدين التعيين كأول حاكم تركي على الجزائر بلقب "بايلر باي"⁽¹⁾، وأمده بما يحتاج من السلاح والجنود⁽²⁾، وبذلك دخلت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية وأصبحت خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وضربت النقود باسمه.⁽³⁾

تعتبر هذه الرسالة شاهدا على أحوال الجزائر السياسية عام 1519م، حيث أوضحت الكثير من الأحداث التي أدت في النهاية إلى جعل خير الدين وأهالي الجزائر يطلبون العون من السلطان العثماني، من أجل الانضواء تحت سلطة الدولة العثمانية، كما أوضحت شعبية خير الدين لدى الجزائريين وشجاعته في الجهاد، وأن زعماء المدينة طلبوا منه ليبقى في الجزائر خوفا من مهاجمة الأعداء، فاختر خير الدين أن يرسل في مكانه الفقيه العالم أحمد بن القاضي.⁽⁴⁾

إن الحكم العثماني في الجزائر لم ينشأ من فراغ دفعة واحدة، ولكنه أخذ وقتا طويلا حتى يمتد ويتوطد، فإذا كانت البداية سنة 1518م في العاصمة، فبالنسبة لتلمسان لم تنشأ إلا سنة 956هـ-1549م، وبالنسبة لإقليم الصحراء وزواوة لم يكن موجودا إلا ظاهريا حتى قارب نهايته.⁽⁵⁾

بعد انضمام الجزائر للدولة العثمانية تطورت الأحداث السياسية، حيث مرّ نظام الحكم فيها بأربعة مراحل رئيسة هي:

(1) يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 16.

(2) عزيز سامح ألتتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1989، ص: 72.

(3) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: حسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981م، ص: 231.

(4) أحمد سالم: المرجع السابق، ص: 94-95.

(5) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص: 171.

1- عهد البايبريات (1518-1587م):

تميز هذا العهد بأنه العصر الذهبي للوجود العثماني، فمعظم ولاياته كانوا أقوىاء ذوي سلطة ونفوذ، من أشهرهم: خير الدين، ابنه حسن، صالح ريس، العلي وحسن فنزيانو حيث كان معظمهم من طائفة رياس البحر. انصبت جهود البايبريات في هذا العهد على مقاومة الإسبان في البحر الأبيض المتوسط ومساعدة مسلمي الأندلس، تمكنت خلاله الجزائر من تحقيق وحدتها الإقليمية والسياسية، حيث قضى البايبريات على كل الإمارات كالدولة الزيانية، الإمارات الحفصية في قلعة بني عباس (في بجاية والمناطق المحيطة بها)، قسنطينة، عنابة وإمارة جبل كوكو بالقبائل.⁽¹⁾

أصبح للجزائر في هذا العهد أسطول بحري قوي، مكنها من فرض سيطرتها على الدول الأوروبية، التي أرغمها على دفع الإتاوات مقابل ضمان الأمن والسلم لمراكبها في الحوض الغربي للمتوسط.⁽²⁾

يعود الفضل للإخوة بربروس في تشكيل النواة الأولى للبحرية الجزائرية، بعد مجيئهم من شرق المتوسط بالسفن المحملة بالبحارة، حيث أقاموا سلطتهم في الجزائر، فقد اهتموا بتطوير هذه النواة من الناحية المادية والبشرية، إلى أن أصبحت الجزائر تملك أسطولا كبيرا تعددت وحداته من السفن والعتاد البحري، منها ما هو محلي ومنها ما يأتي من العمليات البحرية والهبات خاصة من الدولة العثمانية والبلدان الأوروبية بما تقدمه من إتاوات في شكل عتاد⁽³⁾، وقد كان للبحرية دور كبير في مواجهة الحملات الأوربية الصليبية وفي إنقاذ مسلمي الأندلس.⁽⁴⁾

(1) - يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 21-22.

(2) - المرجع نفسه، ص: 24.

(3) - حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 321.

(4) - حمزة إسحاق زيتوني: البحرية الجزائرية وتأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية (1519-1800م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2011-2012م، ص: 24.

تمتع البايبربايات بالنفوذ والقوة، حيث استمرت مدة حكمهم تستمر لعدة سنوات، ما جعل الدولة العثمانية تشعر بمحاولة الانفصال عنها، لذلك فكرت في تقليص مدة حكم الوالي إلى ثلاثة سنوات لضمان ارتباط الجزائر بها وتغيير لقبه إلى الباشا سينتج نوعا من الاستقرار، فبعد انتهاء ولاية حسن فنزيانو عام 1587م، عينت الدولة العثمانية أحمد باشا واليا جديدا على الجزائر لمدة ثلاث سنوات.⁽¹⁾

2- عهد الباشوات (1587-1659م):

كان عصر المصلحة الشخصية للباشوات، باعتبارهم معينين من طرف السلطان العثماني لفترة محددة⁽²⁾، فكان مهم الوحيد هو جمع الأموال⁽³⁾. تميز هذا العهد بالصراع ضد إمارة بني العباس، وظهور العديد من الثورات في العاصمة وفي شرق البلاد والجنوب تبعه صراع بين القوات العسكرية الإنكشارية وطائفة رياس البحر، أما على الصعيد الخارجي فشهد توترا في العلاقات بين الجزائر وفرنسا بسبب الحروب البحرية.⁽⁴⁾

3- عهد الآغوات (1659-1671م):

سادته فوضى عارمة، تزعمها رياس البحر من جهة والجنود الإنكشارية من جهة أخرى، تميز هذا العهد منذ البداية بأن حمل في طياته بوادر الانحلال والفوضى، لأنه وضع الاغتيال كقاعدة أساسية⁽⁵⁾، حيث كان الجند ينتخبون كل شهرين آغا جديدا حسب الأقدمية وعلى هذا الأخير احترام هذا التغيير، فإذا رغب في الاحتفاظ بالسلطة تعرض لثورة الجند ثم القتل كما حدث للبلوكباشي خليل، مما أدى إلى ضعف السلطة وانتشار الفوضى، وأصبح

(1) - يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 33-34.

(2) - منصور درقاوي: الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 10-13هـ/16-19م بين التأثير والتأثر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فغور دحو، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2014-2015م، ص: 6.

(3) - حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 132.

(4) - جمال الدين سهيل: "ملاحم من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج:

3، ع: 2، جامعة غرداية، الجزائر، 2011م، ص: 145.

(5) - المرجع نفسه، ص: 146.

القتل الإجراء الوحيد لتغييرهم، وقد استمرت ظاهرة الاغتيالات ما بين سنوات 1659-1671م.⁽¹⁾

تعرضت الجزائر في هذا العهد إلى عدة غارات أوربية، منها غارة الأسطول الفرنسي بقيادة بوفور على جيجل سنة 1664م، مما جعل طائفة الرياس تحمل علي آغا مسؤولية الأضرار التي ألحقت بالموانئ والسفن الجزائرية، بعد أن وجهت له تهمة التقصير في أمور البحرية، لذلك تم اغتياله لتعين حاكما بدله عرف بالداي.⁽²⁾

4- عهد الدايات (1671-1830م):

تعتبر فترة الدايات من أهم الفترات التي مرت بها الجزائر، حيث استمرت من سنة 1671-1830م، وهي تعادل نصف تاريخ التواجد العثماني بالجزائر، ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة مرحلة الاستقلال الحقيقي للجزائر عن الدولة العثمانية⁽³⁾، وباعتبار أن الجزائر دولة ذات سيادة، وقعت عدة معاهدات مع هولندا وبريطانيا خلال القرنين 17 و18م.⁽⁴⁾

تميز هذا العهد بأن السلطان العثماني لم يبق له من مظاهر النفوذ الشكلية إلا الدعوة له على المنابر أيام الجمع والأعياد، أما مظاهر السيادة الأخرى فقد كانت الجزائر مستقلة فيها تماما، حيث تتواصل مباشرة بالدول الأجنبية وتعلن الحروب وتتعقد السلم وتستقبل القناصل الأجانب دون الرجوع إلى الباب العالي⁽⁵⁾، وقد مرت مرحلة الدايات بمرحلتين متميزتين هما:

(1) - محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، [د.ن.]، [د.ب.]، ط1، 1969، ص ص: 66-67.

(2) - أرزقي شويتم: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م، ص: 28.

(3) - جمال الدين سهيل: المرجع السابق، ص: 147.

(4) - حسين تريكي: هذه الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص: 29.

(5) - يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 48.

- المرحلة الأولى: 1671-1805م مرحلة القوة والاستقرار، تم فيها التصدي للحملات الأوربية وتحرير وهران الأول من الإسبان سنة 1708م، والتحرير الثاني سنة 1792م عرفت فيه البلاد استقرارا نسبيا.(1)
- المرحلة الثانية: 1805-1830م كانت بمثابة نهاية الحكم العثماني، حيث عرفت البلاد في هذه الفترة عدة انتفاضات داخلية، نتج عنها تدهور الحياة السياسية والعسكرية، نتجت عنها آثار سلبية على الأوضاع العامة، خاصة بعد الحملات المتتالية التي كانت تشنها الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية.(2)
- إن من بين أخطر الحملات التي تعرضت لها الجزائر بعد حملة شارلكان سنة 1541م، الحملات التي قادها الدون بيديدرو كاستيجون والدون أنطونيو بارسلو سنة 1784م(3)، والجنرال أوريلي "O. Riley" سنة 1775م.(4)
- تميزت الأوضاع في الجزائر أواخر العهد العثماني بالفساد، التنافس على السلطة الاغتيالات، فرض الضرائب، وتعرض السكان للاضطهاد، ما نتج عنها اندلاع عدة انتفاضات نذكر منها: ثورات بلاد القبائل سنوات 1804-1810-1823، ثورات درقاوة بالغرب الجزائري عام 1805م، ما بين 1812م و1817م ثورات النمامشة، الأوراس، سوف من 1818م إلى 1823م، ثورة الشريف بن الأحرش شمالي قسنطينة عام 1804م(5)، وثورة التيجاني بالجنوب عام 1816م.(6)

(1)- أزريقي شويتام: المجتمع وفعالياته...، المرجع السابق، ص: 30-31.

(2)- المرجع نفسه، ص: 31.

(3)- كاتكارث: مذكرات أسير الداى كاتكارث قنصل أمريكا في المغرب، تر: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص: 14.

(4)- المرجع نفسه، ص: 14.

(5)- بشير بلاح: تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989م)، ج:1، دار المعرفة، الجزائر، [د.ت.]، ص: 18-19.

(6)- حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 22.

-النظام الإداري:

عرف الجهاز الإداري تطورا ملحوظا منذ استقرار الحكم العثماني بالجزائر، حيث استقرت أجهزته مع نهاية القرن الثامن عشر، وأصبحت السلطة التنفيذية بيد الداوي، الذي كان يساعده في أداء مهامه الإدارية ديوان خاص، يتشكل من موظفين سامين، كان يتم اختيار الداوي من قبل الوجاق⁽¹⁾ في الفترة الأخيرة، يختار من بين كبار الموظفين والضباط المتقاعدين، من مهامه إحلال الأمن، السهر على خدمة مصالح الدولة، وتوفير المداخل الضرورية للإنفاق على موظفي الدولة⁽²⁾، أما الموظفون الذين كانوا يقومون بمساعدته في أداء مهامه فهم كالتالي:

أ- **الخرناجي:** هو المتصرف في خزينة الدولة.

ب- **أغا العرب:** قائد فرق الإنكشارية "الوجاق" وجماعات فرسان المخزن "الصباهية"، يتلقى الأوامر من الداوي مباشرة.

ج- **بيت المالجي:** يراقب الأملاك والثروات التي تعود للدولة نتيجة المصادرة أو انعدام الورثة.

د- **خوجة الخيل:** مكلف بإدارة أملاك البايليك.

هـ- **وكيل الحرج:** مكلف بمراقبة النشاط البحري⁽³⁾.

(1) - الوجاق Ucak (أوتشاق): ويعني لغويا الموقد، وهو محور تجمع الأسرة ومصدر دفئها، كما يعني المنزل أو الأسرة، ويطلق على الوحدات العسكرية الكبيرة والصغيرة، وفي كثير من الأحيان يطلق على الإيالة العثمانية، ومعنى ذلك أن الإنكشارية أسرة موحدة يجمعها كانون واحد، ينظر: (جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع ببايك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، إشراف: كمال فيلالي، كلية الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2007-2008م، ص: 08).

(2) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 110-111.

(3) - المرجع نفسه، ص: 111-112.

- أما من الناحية الإدارية فكانت الجزائر مقسمة إداريا إلى أربعة مقاطعات:⁽¹⁾
- **بايلك الجزائر أو دار السلطان:** تشمل مدينة الجزائر وضواحيها⁽²⁾، وسمي بدار السلطان لاستقرار الباييرباي بمدينة الجزائر، تمتد دار السلطان من دلس شرقا إلى شرشال غربا، ومن ساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتضم إقليم الساحل ومنتجة مع بعض الامتدادات في بلاد القبائل والтитيري⁽³⁾، وهي خاضعة مباشرة لسلطة الحاكم.⁽⁴⁾
 - **بايلك الشرق:** عاصمته قسنطينة، تم تأسيسه سنة 1565م، حكم الأتراك أغلب نواحيه الجبلية والصحراوية، عن طريق الرؤساء المحليين، أما الأراضي السهلية المجاورة لقسنطينة والغنية بفلاحيتها فقد وضعت تحت تصرف البايليك مباشرة، يوزعها على أعوانه مقابل خدماته⁽⁵⁾، إن هذا البايليك يعد مملكة حقيقية، اتسمت بشساعتها وغنى أراضيها وعلاقتها الجيدة مع تونس، وبعد أفضل من بايلك التيطيري ووهران، فلا مجال للمقارنة بينه وبين التيطيري ووهران، فهو يعد أفضلهما.⁽⁶⁾
 - **بايلك الغرب:** اختار حسن بن خير الدين في بداية الأمر مدينة مازونة مقرا للبايليك لتنتقل العاصمة فيما بعد إلى معسكر، ثم إلى وهران بعد تحريرها من الإسبان، يعتبر ثاني بايلك من حيث المساحة والأهمية الاقتصادية.⁽⁷⁾

(1) - محمد دلباز: الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في الجزائر أواخر العهد العثماني على ضوء تشریفات ترجمة وتعليق، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: حنيفي هلايلي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2014-2015م، ص: 16.

(2) - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص: 74.

(3) - أحمد سليمان: النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، [د.ت.]، ص: 37.

(4) - إبراهيم سعيود: "تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر"، مجلة الدراسات التاريخية، مج: 16، ع: 2، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2، الجزائر، [د.ت.]، ص: 160.

(5) - أحمد سليمان: المرجع السابق، ص: 37-38.

(6) - E. Vayssettes: «Histoire de derniers Beys de Constantine, Depuis 1793 Jusqu' à la chute D'Hadj-Ahmed», In R.A, Vol: 03, Alger, 1858, p: 117.

(7) - دلباز محمد: المرجع السابق، ص: 17.

- **بايلك التيطري:** عاصمته المدية أسس عام 1540م ويعتبر أصغر البايكات وأفقرها بالجزائر، يتولى أمور القيادات الأربع التي كان البايك يتكون منها.⁽¹⁾

يقسم البايك إلى عدة أوطان تشمل عدة قبائل أو دواير (جمع دوار)، على رأسها قواد كان معظمهم من الأتراك، يتم تزويدهم بسلطات مدنية، عسكرية وقضائية، وقد كان القائد هو من يعين الشيوخ المكلفين بإدارة القبيلة.⁽²⁾

لم تشمل سلطة الأتراك كل القبائل في الجزائر، فهناك قبائل قوية أو اتحاد قبائل، على رأسها أسر متنفذة بقيت تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، وهناك مجموعات قبلية يحميها بُعدها في الأنجاد أو في مناطق الجنوب أو في الجبال الوعرة، وهي في أغلب الأحيان مستقلة، كما كانت هناك اتحادات قبلية على أساس ديني كأولاد سيدي الشيخ، وبالتالي كانت السلطة التركية الفعلية لا تشمل سوى الجزائر، في حين ظلت سلطتهم مستقرة في القبائل، وحتى يحافظ الأتراك على أنفسهم من خطرها اتبعوا سياسة فرق تسد، حيث كانوا يثيرون التنافس فيما بينها.⁽³⁾

أدت العلاقات المتوترة بين الجزائر وفرنسا أواخر العهد العثماني إلى نهاية مأساوية للجزائر العثمانية، حيث أدت قضية الديون الجزائرية، التي كانت فرنسا ملزمة بتسديدها، إلى وقوع حادثة المروحة يوم 27 أبريل 1827م⁽⁴⁾، التي أشار فيها الداوي حسين باشا بمروحته على قنصل فرنسا دوفال⁽⁵⁾، ردا على سلوكه السيئ، حيث رأت أن هذا التصرف من قبل الداوي يعتبر مساسا بكرامتها، ومن ثمة سارعت إلى فرض الحصار البحري على الجزائر، ووجهت حملة عسكرية قوامها 400 سفينة و37617 جنديا، نزلت بساحل سيدي فرج

(1) - أحمد سليمان: المرجع السابق، ص: 37.

(2) - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص: 75.

(3) - المرجع نفسه، ص: 75.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب...، المرجع السابق، ص: 53.

(5) - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تح، تق، تع: محمد العربي الزبييري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1982م، ص: 180.

بضواحي مدينة الجزائر، واستولت عليها يوم 04 جويلية 1830م⁽¹⁾، وفي اليوم التالي وقع الداي شروط التسليم التي وضعها القائد دي بورمون.⁽²⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب... المرجع السابق، ص ص: 53-54.

(2) - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث الجزائر-المدية-مليانة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م، ص:

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية

1- الزراعة:

يعد المجتمع الجزائري أثناء العهد العثماني مجتمعا فلاحيا، حيث قدر بعض المؤرخين نسبة سكان الأرياف بأكثر من 90%، اهتم سكان المناطق الجبلية وسكان السهول القريبة من المدن، بزراعة الخضر والفواكه إلى جانب تربية الماشية، كما اشتهرت أرياف مدينة الجزائر بإنتاج العنب، في حين عرفت المناطق الجبلية والسهلية بإنتاج زيت الزيتون والتين.⁽¹⁾

عرفت مناطق غريس، وهران وقسنطينة إنتاجا كبيرا للحبوب، كما تركزت زراعة الأرز بالأراضي المروية بسهول الشلف ومينا، وقد تميز بايلك الشرق في عهد صالح باي⁽²⁾ بازدهار الإنتاج الزراعي خاصة في إنتاج القمح الصلب ذي المردودية العالية.⁽³⁾ تعتبر المنطقة الواقعة بين سطيف وقالمة من أهم المناطق إنتاجا للحبوب، أما زراعة الأشجار المثمرة فقد عرفت انتشارا واسعا في مناطق القبائل ذات الطبيعة الجبلية، كما انتشرت البساتين بالمدن الكبرى مثل: قسنطينة، عنابة، وهران، تلمسان، البليدة والمدية، أما عن المحاصيل الصناعية، فقد تركزت زراعة التبغ في الجزائر وعنابة، ويعتبر ما يزرع في الجزائر من أجود الأنواع في العالم، حيث يتم تصديره إلى تونس وبعض البلدان المجاورة.⁽⁴⁾

(1) - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، دار هومة، الجزائر، 2012م، ص: 335-336.

(2) - صالح باي: ولد في مدينة أزميز من عائلة متوسطة سنة 1725م، ويعمر 16 غادر موطنه إلى مدينة الجزائر ولم يلبث غير قليل حتى التحق بسلك الجندية فيها، ولاء محمد عثمان باشا بايا على قسنطينة سنة 1771م، ينظر: (أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 133).

(3) - رضوان شافو، عمر لمقدم: "تظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة قبس للدراسات

الإنسانية والاجتماعية، مج: 1، ع: 1، جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي، الجزائر، 2017م، ص: 65.

(4) - المرجع نفسه، ص: 65-66.

إن من بين المحاصيل التي كانت سائدة، وأشار إليها ابن زرفة عند حديثه عن احتفال يناير هي: التين، الجوز، الزبيب، السمن والبول... الخ⁽¹⁾، رغم أن السلطة العثمانية لم تول عناية كبيرة بالشأن الزراعي، إلا أنه رغم ذلك استحوذت عناصر من الإدارة التركية وأتباعها من الجزائريين لا سيما القبائل المخزنية على أجود الأراضي الزراعية، خاصة المنتجة للحبوب في عهد الدايات الأوائل (1671-1724م).⁽²⁾

تميز عهد الدايات محمد عثمان بالاستقرار السياسي، وهذا ما انعكس إيجاباً على الأوضاع الاقتصادية، حيث عرفت البلاد حالة من الرخاء والصعود المنتظم لمداخل الخزينة، لقد ركزت الإيالة على زراعة الحبوب، خاصة القمح الصلب ذو النوعية الجيدة، والذي عرف رواجاً كبيراً في أسواق أوروبا، والذي يأتي في مقدمة صادرات الإيالة، بحيث مثلت عائداته أهم مصدر لخزينة الدولة.⁽³⁾

يعود الفضل في تطوير الإنتاج الزراعي وتوزيعه في المناطق الساحلية للجزائر خاصة، إلى المزارعين الأندلسيين الذين أحيوا المزارع، استصلحوا الأراضي، جففوا المستنقعات وأدخلوا أساليب ملائمة لخدمة الأرض، فأنشأوا الطرقات والعيون، مدوا القنوات وحفروا الآبار والسواقي.⁽⁴⁾

عمل الأندلسيون وعلى رأسهم الصانع أوسطى موسى سنة 1610م، على توفير المياه لمدينة الجزائر، سقي البساتين المحيطة بها ومد بعض أجزائها بقنوات مياه تحت الأرض

(1) - رقية شارف: "الواقع الاقتصادي للجزائر من خلال نماذج لمؤرخين جزائريين نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م"، مجلة العلوم الإنسانية، مج: 25، ع: 2، جامعة منتوري قسنطينة-1، الجزائر، 2014م، ص: 58.

(2) - رضوان شافو، عمر لمقدم: المرجع السابق، ص: 64.

(3) - محمد موققي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا (1200-1425هـ/1786-1830م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مختار حساني، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2010-2011م، ص: 18.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي)"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، 2010م، ص: 29.

من عيون التلاواملي، بئر طريلية، الزبوجة والحامة، وقد بلغ طولها الإجمالي حوالي 23228 مترا، كما أدخلوا مزروعات جديدة لبلاد المغرب، والتي لم تكن معروفة أو شائعة مثل: النارج، الفلفل، البطاطس، الباذنجان، الزعفران، السبانخ، الملفوف، التوت، العنب، التين الزيتون⁽¹⁾، القطن الذي تركزت زراعته في منطقة مستغانم والقزاة (إنتاج الحرير) في القليعة وشرشال، غير أن تأثيرهم كان منحصرا على المناطق التالية، التي استقروا بها ولم يشمل باقي المناطق الداخلية، كما عرف الجزائريون زراعة الكتان، الذي يعد من النوع الجيد، حتى أنه كان يرسل ضمن الهدايا إلى الباب العالي⁽²⁾.

يشير مارمول كاريخال أن مدينة الجزائر تعد من أغنى مدن إفريقيا، حيث ذكر بأن: «مدينة الجزائر أغنى مدن إفريقيا قاطبة، ومقدار الجباية على تجارتها يعادل مقدار مداخل مجموع المملكة»⁽³⁾.

لقد خص أحمد بن هطال بالذكر في رحلته المناطق الجنوبية كالأغواط وعين ماضي، حيث يذكر بأن الباي محمد الكبير⁽⁴⁾ لم يوليها اهتماما بسبب عدم صلاحيتها للزراعة، وفي ذلك يقول: «وأجابهم لما طلبوه لشؤم بلادهم وأقبح أرضهم فماؤها حميم

(1) - ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية... المرجع السابق، ص: 29

(2) - رضوان شافو، عمر لمقدم: المرجع السابق، ص: 66.

(3) - مارمول كاريخال: إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، دار المعرفة، الرباط، [د.ت]، ص: 364.

(4) - الباي محمد الكبير: اسمه محمد بن عثمان الكردي يكنى بأبي عثمان، أبو الفتوحات، أمه جارية اسمها زائدة، أهداها لأبيه مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى لمودة كانت بينهما، وأما أخوه محمد الرقيق (بوكابوس) فأمه حرة اسمها خديجة وأبوها من أشرف المدينة، والده أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي، كان خليفة على مليانة ثم ارتقى فأصبح بايا على التيطري وأحوازها، كان والده مرتبطا بصداقة مع أبي إسحاق إبراهيم الملياني، وكان هذا الأخير قائدا على مليانة، لما توفي الباي عثمان تكفل إبراهيم بعائلته واعتنى بولديه محمد الكبير ومحمد الرقيق، ولما توسم إبراهيم في محمد الكبير نشاطا وشجاعة زوجه بابنته وعينه قائدا على فليقة سنة 1178هـ/1764م، كما عينه خليفة له سنة 1182هـ/1768م، وبعد مدة قليلة أشركه في جميع حكومته ومنحه إدارة جميع الناحية الشرقية من الإيالة الغربية، ينظر: (أحمد بن هطال: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، عالم النشر، القاهرة، ط1، 1969م، ص: 15-16).

وغبارها عميم، فلا توافق كل ذي طبع سليم... لا نبات فيها تعيش به الدواب ولا شجر بساحتها يكون منه الاحتطاب...»⁽¹⁾.

يورد بن زرفة أن الثروة الغابية في المنطقة الغربية والمتمثلة في أشجار الصفصاف تعد مصدرا أساسيا في الصناعة الحربية، أثناء تحرير وهران الثاني سنة 1792م كصناعة المدافع، وفي ذلك يقول: «وشاهدنا العجب العجاب، فيما يدخل الآلات والمدافع، من خشب وكأنها تحرق أو تذاب...»، كما يتحدث عن الجلود التي تستعمل في صناعة الأحذية، ليتم إرسالها إلى الجند المحاصرين لوهران.⁽²⁾

ساهمت عدة عوامل في تقليص مساحات الثروة الغابية في الجزائر أثناء الحكم العثماني، كقطع الأشجار سنة 1789م بمنطقة الساحل القريبة من مدينة الجزائر بأمر من الداوي، وذلك لبناء خمسين سفينة، كما أنها لم تسلم من الرعي الجائر حيث كانت عرضة لاجتياح مواشي أهل الريف، فتحولت إلى منطقة أعشاب طفيلية⁽³⁾، بالإضافة إلى أن الإنجليز كانوا يقومون بالتزود بالأخشاب، من غابات القالة، عنابة، بني مسوس وسيبوس مقابل 200 ألف فرنك إلى غاية سنة 1817م، كما ساهم الحكام الأتراك في نقص الثروة الغابية، بعد سماحهم للرؤساء المحليين باستغلال غابات مناطق جرجرة والبابور. كل هذه العوامل ساهمت في تراجع الثروة الغابية وتقلص مساحاتها، وهو ما أدى إلى الاهتمام بالحياة الرعوية لدى سكان الهضاب العليا القسنطينية، ومرتفعات بني راشد وأصبحت بهذا مهنة الرعي مكتملة للنشاط الزراعي.⁽⁴⁾

مرّ واقع الزراعة قبيل الاحتلال الفرنسي بثلاثة فترات متباينة، من حيث توالي سنوات الرخاء وفترة الإنتاج وسنين القحط وندرة المحاصيل وتعاقب الكوارث، فالفترة الأولى غطت

(1) - رقية شارف: الواقع الاقتصادي للجزائر...، المرجع السابق، ص: 58.

(2) - المرجع نفسه، ص: 58.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، دار البصائر، الجزائر،

ط3، 2012م، ص: 31.

(4) - المرجع نفسه، ص: 31.

السنوات التي سبقت عام 1791م، حيث عرفت فيها مقاطعة الجزائر نوعا من الرخاء استمر إلى غاية نهاية القرن 18م.(1)

أما الفترة الثانية فامتدت من عام 1792م إلى عام 1815م، تميزت بأزمات اقتصادية حادة، إلا أنها لم تصل إلى حد الكارثة، في حين شملت الفترة الثالثة السنوات الأخيرة من عهد الجزائر العثمانية من عام 1815م إلى عام 1830م، والتي ساءت فيها الأوضاع إلى أن أصبحت الإيالة الجزائرية تعيش انحطاطا اقتصاديا، كان أحد مظاهره البارزة انهيار الزراعة.(2)

عانت الزراعة في أواخر العهد العثماني من عدة مشاكل، شكلت عائقا أمام تطورها كاستعمال الآلات البدائية لخدمة الأرض، إضافة إلى أن الفلاح الجزائري كان يعيش ظروفًا صعبة، بسبب تعرضه للحملات العسكرية وتهديده من قبل قبائل المخزن المسلحة، كما أصبح مهددا كذلك نتيجة انتشار الأمراض والمجاعات التي تجتاح الجزائر بين الحين والآخر.(3)

كل هذه الصعوبات جعلت الفلاح الجزائري يفضل ممارسة الرعي على الاستمرار في خدمة الأرض، أو اللجوء إلى الزراعة المؤقتة والرعي المتنقل، خاصة في المناطق التي انعدم فيها الأمن وأصبحت تعرف بأرض الخلاء.(4)

لم يعد إنتاج إيالة الجزائر، يتجاوز عشية الاحتلال الفرنسي عام 1830م 7500000 قنطار، ولم تعد ملكيات الدولة بدار السلطان المعروفة بوفرة إنتاجها وكثرة مزارعها، تقدم ما يكفي لتغطية الاستهلاك المحلي لمدينة الجزائر، مما أدى بالحكام إلى الاستعانة بمحاصيل المقاطعات الأخرى.(5)

(1) - ناصر الدين سعيدوني: الملكية والجبابة في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2013م، ص: 95.

(2) - المرجع نفسه، ص: 95.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص: 32-33.

(4) - المرجع نفسه، ص: 33.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص: 32.

2-الصناعة:

كانت الصناعة يدوية بعيدة عما وصلت إليه الصناعة الأوربية، توزعت بين الريف والمدينة، فقد ركزت القبائل الرعوية على صناعة المنسوجات الصوفية، الخيام، الحياك والزرابي، أما سكان المناطق الجبلية فكانوا يصنعون الأدوات الفلاحية والأسلحة، في حين أن قبائل بني يني تعد من أكثر القبائل اهتماما بالصناعة حيث اشتغلت بصناعة المعادن.(1)

تعد قبيلة آيت عباس من أبرع القبائل في الصناعات المحلية، حيث امتلك أفرادها دكاكين في الجزائر يخيطنون بها البرانس، كما احتوت بعض المدن على الصناعات الغذائية من الطواحين، المخابز، معاصر الزيتون، كانت قسنطينة تصنع أجود الحياك، كما انتشرت في مدينتي الجزائر والبليدة ورشات مختلفة لصناعة الشاشيات(2)، يذكر أن صناعة الشاشية جاء بها الأندلسيون إلى الجزائر(3)

إن النشاط الصناعي في الجزائر، تميز أثناء الحكم العثماني بالبساطة، فكان التركيز على الصناعات المحلية اليدوية، وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة.(4)

يورد شالر أن أهم الصناعات في الجزائر، صناعة الحرير، الجلود والصوف، هذا الأخير الذي تخصص منه كميات كبيرة لنسج البرانس، الحايك والسجاد من أجل تغطية حاجات السوق محليا.(5)

عرفت هذه الفترة العديد من الصناعات الأخرى كصناعة الأسلحة، والتي شملت صناعة البنادق، سبك المدافع وتحضير البارود، كانت تصنع بقلعة بني راشد، قسنطينة والجزائر، وقد اعتمدت على اليد العاملة من الأندلسيين، الأتراك والأسرى الأجانب، بالإضافة

(1) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 337.

(2) - المرجع نفسه، ص: 337.

(3) - نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006م، ص: 145.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص: 33.

(5) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 93.

إلى الصناعات المعدنية المتمثلة في تدوير المعادن المختلفة، صناعة العملة، صناعة الحلي، الأحجار الكريمة وصناعة الصابون.(1)

لقد افتقدت الصناعة في الجزائر العثمانية لآفاق التطور والازدهار، نتيجة تأثيرها بمجموعة من العوامل، كارتفاع سعر تكلفتها، لأن رؤوس أموالها أصبحت موجهة لتغطية الضرائب المفروضة عليها، بالمقابل كانت السوق الجزائرية مفتوحة أمام السلع الأوربية، التي كانت أقل ثمنًا من السلع المحلية في ظل غياب سياسة حكومية لتطوير النشاط الصناعي، مما أدى إلى انهيار هذا القطاع.(2)

3- الحرف والأسواق:

احتوت مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية على ستة عشر حيا تجاريا، جمعت عدة نشاطات حرفية، تتخللها حوالي خمسة وأربعون سوقا، حيث احتوت مدينة الجزائر على 32 صنعة حرفية، وقد كان للأسطول البحري أثر في انتعاش النشاط الاقتصادي، من خلال جلبه للغنائم والإتاوات المفروضة على الدول الأوربية طيلة فترة الوجود العثماني.(3)

يقول فونتير دي بارادي: «كل الحرف في مدينة الجزائر لديها أمينها الذي يضبط السعر لسلعته يعين من طرف الداوي، وقد سجل صاحب مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر العديد من المعلومات الهامة حول الحرف وأمنائها هذا من جهة، ومن جهة أخرى تحدث عن كيفية تحديد أسعار السلع والمعروضات في المدينة».(4)

(1) - امحمد بن موقفي: المرجع السابق، ص: 19.

(2) - المرجع نفسه، ص: 19.

(3) - صورية متاجر، حنفي هلايلي: "بنو ميزاب والأنشطة التجارية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني في ضوء مخطوط قانون أسواق"، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مج: 16، ع: 1، مخبر أنثروبولوجية الأديان ومقارنتها، جامعة تلمسان، الجزائر، 2020م، ص ص: 238، 242.

(4) - فاتح العمري: الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص المدينة والحياة الحضرية في الغرب الإسلامي، إشراف: أحمد صاري، قسم التاريخ، كلية الآداب والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2016-2017م، ص: 310.

يشير مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر، أن بني ميزاب احتكروا ثلاثة مهن رئيسة في المدينة خلال العهد العثماني هي مهنة الجزارة المتمثلة في شراء الأغنام والأبقار وتهيئة المسالخ مع تحضير أنواع الأطعمة المرتبطة ببقايا اللحوم، مهنة الحمامات وما يتعلق بكرائها والسهر على نظافة الأبدان لسكان العاصمة، إضافة إلى مهنة الأفران وما ارتبط بها من تحضير الخبز وطحن الحبوب⁽¹⁾ «...بنو ميزاب والكواشون الذين يقومون بتحضير خبز العسكر...»⁽²⁾، كما ذكر هذا المخطوط طائفة اليهود، الذين مارسوا أنشطة حرفية كالحدادة والخياطة، كما مارس القبائليون نشاطات تجارية وحرفية، مثل العمل في ورشات الحرفيين، احتكار صناعة استخراج الفحم وبيعه، كما ساهموا في الحراسة الليلية، في حين اشتغل البسكريون بحراسة الغنائم وتجارة الأسواق.⁽³⁾

يذكر الأسير الإسباني هايدو، أن المرأة مارست في مجتمع مدينة الجزائر نشاطات حرفية خارج بيتها، حيث عملت في ورشات لصناعة الأنسجة الحريرية منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكانت النساء الأندلسيات في المقام الأول، اللواتي جلبن معهن خبرة في مجالات مختلفة، كالغزل، الخياطة والطرز.⁽⁴⁾

أشارت المخلفات أو التراكات العائدة إلى أواخر القرن 18م إلى أن المرأة عملت في نشاطات حرفية تتدرج ضمن حرف الخدمات، كالبيع خارج البيت أو الدلالة، التمريض والتوليد إضافة إلى الاشتغال في الحمامات، كما أن عملها لم يقتصر على المهن النسائية بل احترفت مهنا نادرة حتى لدى الرجال كصناعة الشمع.⁽⁵⁾

(1) - صورية متاجر، حنفي هلايلي: المرجع السابق، ص: 238.

(2) - عبد الله بن محمد الشويهد: قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/1695-1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار البصائر، الجزائر، [د.ت.]، ص: 69.

(3) - صورية متاجر، حنفي هلايلي: المرجع السابق، ص: 233.

(4) - عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، مقارنة اجتماعية-اقتصادية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بلحميسي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2000-2001م، ص: 315.

(5) - المرجع نفسه، ص: 315.

تمثل الأسواق المركز الحيوي للنشاط التجاري والاقتصادي، لذلك اهتمت العديد من الرحلات العربية والأوربية بذكر الأسواق وأنواعها وتعددتها⁽¹⁾، منها رحلة الرحالة التمقروتي الذي دامت مدة إقامته بمدينة الجزائر شهرين⁽²⁾، حيث أعجب بنظام أسواقها، ووفرة سلعها وكثرة السفن في مرساها، كما أبدى إعجابه ببسالة رياستها حيث يقول عنها: «وهي عامرة كثيرة الأسواق...كثيرة الجند، حصينة ومرساها عامر بالسفن...فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقيا، وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا، وأوجد سلعة ومتاعا، حتى أنهم يسمونها إسطنبول الصغرى»، وبالتالي فالجزائر في نظره مثلت قاعدة تجارية ببلاد إفريقيا وأروجها سلعة، لتتبع أسواقها وتعدد مشترياتها، هذه الحركية التجارية حسب ما هي إلا نتيجة قوة البحرية الجزائرية المتمثلة في رياس البحر⁽³⁾، كما وصف حسن الوزان أسواقها بالمنسقة وفي ذلك يقول: «...فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص...»⁽⁴⁾.

يشير المكناسي إلى مدينة قسنطينة بالقول: «... قسنطينة مؤسسة على ربوة وهي مدينة متوسطة...يمر السوق خارج بابها في سائر الأيام، ما رأيت بلدة أكثر واردا منها، وهي منبع البغال، فمنها تفرق في البلاد، فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق، في كل يوم لتتضي العجب، يأتي العرب بها أي بالبغال يسوقونها، كأنها القطيع من البقر، وبها رخاء

(1) - فاتح العمري: المرجع السابق، ص: 303.

(2) - صالح بوسليم، محمد الزين: "ملاح من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 6، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجبلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، [د.ت.]، ص: 83.

(3) - سعاد آل سيد الشيخ: "جوانب من الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية بالجزائر العثمانية من خلال كتابات بعض الرحالين المغاربة"، مجلة التراث، مج: 1، ج: 2، ع: 29، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، 2018م، ص: 234-235.

(4) - حسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ج: 2، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ص: 37.

كثير...»⁽¹⁾، وبهذا يصف أسواق مدينة قسنطينة بالعامرة وبأن أسعارها رخيصة، من أهم الأسواق بها سوق الجمعة، الذي يعد من أشهر الأسواق في هذه المدينة، خاصة في عهد صالح باي، حيث كانت مختلف السلع والبضائع تتوافد عليه من جميع المناطق، خاصة عن طريق القوافل التجارية، وأغلبها يجلب إليها عن طريق البغال، وهذا ما يدل على أنها لم تكن فقط عاصمة سياسية لبابك الشرق، بل تعدت ذلك لتحمل صفة عاصمة اقتصادية للشرق الجزائري، حتى أضحت تمثل ركيزة المبادلات التجارية بين الجزائر وتونس.⁽²⁾

إن من بين المدن التي أشار إليها مارمول كاريخال في كتابه "إفريقيا" مدينة معسكر التي تحدث عن سوقها، الذي ينعقد بها يوم الاثنين، حيث تتم به عملية بيع الماشية، الزرع وغيرها من منتجات الزبيب، العسل، الزيت والشمع من قبل البربر والأعراب، كما كان التجار يجلبون إليها المنسوجات، البرانس، العباآت... وغيرها.⁽³⁾

4- التجارة:

4-1- التجارة الداخلية:

شملت المبادلات التجارية الريف والمدينة، المناطق الجبلية والسهلية، بين التل والجنوب، في الأسواق الأسبوعية والسنوية، هذه الأسواق تقع غالبيتها في المناطق الريفية، حيث تقوم الإدارة بتقييمها، تنظيمها ومراقبتها لكي تحصل على الرسوم.⁽⁴⁾

تعرض كل ما يحتاج إليه السكان من منتجات ومصنوعات محلية كانت أو مستوردة⁽⁵⁾، وقد لعبت القبائل دورا كبيرا في تنشيط الأسواق السنوية، منها قبائل أولاد سيدي الشيخ، لرباع، أولاد نايل، النمامشة وغيرها، يتم فيها تبادل منتجات الصحراء وإفريقيا والمتمثلة في التمور، الماشية، الأصواف وريش النعام، بمنتجات التل المتمثلة أساسا في

(1) - سمير مشوشة: "الرحالة أبو عبد الله المكناسي يؤرخ للعلاقات الاقتصادية بين الجزائر وتونس خلال القرن 18م"،

المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، مج: 2، ع: 1، المركز الجامعي تندوف، الجزائر، 2017م، ص: 43.

(2) - المرجع نفسه، ص: 43-44.

(3) - مارمول كاريخال: المصدر السابق، ص: 324.

(4) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 339.

(5) - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، [د.ت.]، ص: 64.

الحبوب، الزيوت والتين، كما كانت تعقد أسواق سنوية يتم فيها تبادل منتوجات المناطق الجبلية بمنتجات المناطق السهلية.⁽¹⁾

4-2- التجارة الخارجية:

كانت التجارة الخارجية تتم مع بلدان المغرب العربي والولايات العثمانية بالمشرق احتوت على المواد الكمالية والترفيهية، ورغم طابع توتر علاقات الجزائر بالدول الأوربية، إلا أن فرنسا كانت تستورد المواد الأولية المتوفرة بالبلاد الجزائرية وبكميات كبيرة، كالأصواف الجلود، الشمع، الزيوت، الحبوب، مقابل تصدير الأشياء الكمالية والترفيهية، كالعطور والمصبرات من فرنسا، الزليج من إيطاليا، العتاد الحربي من إسكندنافيا، الرصاص والأقمشة القطنية من إسبانيا.⁽²⁾

يذكر فونتير دو بارادي أن مدينة الجزائر تصدر من مينائها الحبوب (القمح والشعير)، وكل أنواع الخضر باستثناء الفاصوليا البيضاء، كما تصدر أيضا حمولات من الزيت، الشمع، الصوف والجلود.⁽³⁾

إن من العوامل المساعدة على انتعاش الخزينة، اعتمادها على موارد كانت تنعم بها الجزائر، كالثروة الزراعية، الحيوانية، العائدات المعتبرة للتجارة والصناعة، كما لعب الأسطول الجزائري دورا إيجابيا على الصعيدين الداخلي والخارجي، كل هذه العوامل ساهمت في ثرائها⁽⁴⁾، غير أنه ومع تدهور حالة الأسطول الجزائري، ركزت السلطة العثمانية على الضرائب والرسوم المفروضة على القطاع الريفي، كمصادر رئيسة لدخل الخزينة أواخر العهد

(1) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 339.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص: 37-38.

(3) - فاتح العمري: المرجع السابق، ص: 310.

(4) - علي آجقو، شهرزاد شلبي: "مؤسسة الخزينة في الجزائر أواخر العهد العثماني ودورها الاقتصادي والعسكري 1798-1830م"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، مج: 5، ع: 4، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2016م، ص: 353.

العثماني، إن ثروات الخزينة الجزائرية الهامة كانت سببا في إثارة أطماع الدول الأوروبية ومنها فرنسا.⁽¹⁾

(1) -علي آجفو، شهرزاد شلبي: المرجع السابق، ص ص: 353-354.

ثالثا: الحياة الاجتماعية

1- عدد السكان:

يذكر معظم المؤرخين أن عدد سكان الجزائر خلال الحكم العثماني، بلغ ثلاثة ملايين نسمة، وهو رقم معقول بالنسبة لأواخر هذا العهد⁽¹⁾، في حين يقدر حمدان خوجة عددهم بعشرة ملايين نسمة⁽²⁾، وهو قول لا يمكن الأخذ به وإنما نحاول الاعتماد على الإحصائيات الموضوعية، مثل إحصاء بوتان لعام 1808م، الذي قدر عددهم بما لا يقل عن 2.800.000 ولا يزيد عن 3.000.000 نسمة، كذلك إحصاء شالر لعام 1822م، والذي ذكر فيه أن عدد السكان الخاضعين للحكم التركي يقدر بـ 2.500.000 نسمة⁽³⁾، أما تقديرات النشرة الإعلامية للجيش الفرنسي 1830م، فأرجعت عددهم إلى ما يناهز 1.870.000 نسمة، كما رأت اللجنة الأفريقية سنة 1832م، أن العدد تراوح ما بين 2.000.000 و 4.000.000 نسمة، أما فيما يخص مدينة الجزائر باعتبارها نموذجا لباقي المدن، فإنها عرفت نموا ديمغرافيا⁽⁴⁾، بسبب توافد عدد كبير من المسلمين، اليهود، الأندلسيين والأتراك إليها⁽⁵⁾، وهذا ما جعل سكانها يتزايدون ليرتفع عددهم من 30 ألف إلى ما يناهز مائة ألف نسمة، وقد استمر هذا النمو طيلة القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر، الذي بلغ فيه سكان مدينة الجزائر 150 ألف نسمة، بعدها تناقص عددهم لانقطاع سيل الهجرة الأندلسية، تناقص أعداد الأسرى، اشتداد الأمراض، تكرر المجاعات وحوادث الزلازل، حتى أصبح مع نهاية القرن 18م الخمسين ألف نسمة، وعشية الاحتلال الخمسة والثلاثين ألف نسمة⁽⁶⁾.

(1) - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية... المرجع السابق، ص: 47.

(2) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 52.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 221-222.

(4) - المرجع نفسه، ص: 222.

(5) - هشام بويكر، عياشي بلقاسم: "جوانب من الحياة الديمغرافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أواخر الفترة العثمانية (دراسة سوسيو تاريخية للجماعات السكانية الحضرية المكونة للمجتمع الجزائري)"، مجلة آفاق للعلوم، مج: 2، ع: 7، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2017م، ص: 297.

(6) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 222.

2- التركيبة الاجتماعية:

ضمت الجزائر خلال العهد العثماني من حيث التركيبة الاجتماعية العديد من الفئات يمكن تقسيمها كالتالي:

2-1- سكان المدن:

أهم المجموعات السكانية والأقليات العرقية بالمدن مثلتها الأقلية التركية، جماعة الكراغلة، طبقة الحضر، جماعات البرانية والدخلاء.⁽¹⁾

2-1-1- الأقلية التركية:

تتشكل في أغلبها من الجنود الأتراك الإنكشارية، الذين يستقرون في حصون وثكنات مدينة الجزائر أو يتوزعون على حاميات المدن، ومن أهم هذه الحصون التي كان يقيم بها الجنود الأتراك، حصن القصبية، برج النجمة، البرج الجديد، بطارية الباب الحديد، بطارية سيدي رمضان...، أما أشهر الثكنات، ثكنة الخراطين، ماكرون، أسطى موسى، الدروج اللبناجية، وهي أقدم الثكنات وأكبرها إذ تضم 1661 جنديا إنكشاريا.⁽²⁾

أما خارج مدينة الجزائر فنتوزع العناصر التركية على الحاميات التي بلغ عددها خمسة عشر حامية، وقد ظلت الأقلية التركية قليلة العدد، لم يتجاوز عدد أفرادها أواخر القرن السادس عشر العشرة آلاف نسمة، ولم يزد عددها في الربع الأول من القرن السابع عشر عندما كثر سكان المدن عن اثني عشر ألفا، وبقي هذا العدد ثابتا تقريبا حتى أوائل القرن التاسع عشر طبقا للمصادر التي ذكرت بأن عددهم كان يقارب العشرة آلاف نسمة.⁽³⁾

(1) ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 223.

(2) ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص: 92.

(3) ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: 92-93.

2-1-2- فئة الكراغلة:

هم الأبناء الناتجون عن زواج الأتراك من نساء جزائريات⁽¹⁾، تعد هذه العناصر أكثر انتشارا، تتواجد في كل المدن التي بها أتراك، وخاصة إنكشارية الحاميات كقسنطينة، عنابة، جيجل، بسكرة، المسيلة، المدية وتلمسان، كانوا يشكلون فئة متميزة في هذه المدن، كما تواجدها أيضا في الأرياف، وعلى الرغم من حركات التمرد التي تزعمها الكراغلة على سلطة آبائهم الأتراك، إلا أنهم احتفظوا ببعض الامتيازات كتولي بعض المسؤوليات الهامة.⁽²⁾

2-1-3- طبقة الحضر:

تتكون طبقة الحضر أو البلديّة من العائلات المقيمة في المدن، تميز الحضر بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، مما جعلهم يشكلون طبقة اجتماعية ميسورة، يشتغل أفرادها في المهن الصناعية ويتولون وظائف الإفتاء، القضاء والكتابة، من أهم العناصر التي كانت تتشكل منها هذه الطبقة الجالية الأندلسية، وجماعة الأشراف.⁽³⁾

فالمهاجرون الأندلسيون اتجهوا إلى مختلف مناطق إيالة الجزائر بعد سقوط غرناطة عام 1492م⁽⁴⁾، حيث ناهز عددهم بمدينة الجزائر وضواحيها سنة 1611م حوالي الثلاثين ألف نسمة، تمتعوا بنفوذ قوي، بعد أن أصبحت لهم أحياء خاصة وأماكن يعرفون بها انتشروا وسكنوا في العديد من المدن الجزائرية منها: تلمسان، تنس، دلس، عنابة، البليدة والقليعة... وغيرها، وقد ظلوا يتميزون عن غيرهم بنشاطهم الاقتصادي، معارفهم الثقافية

(1) - خديجة دوبالي: "إسهامات الكراغلة في بناء الجزائر العثمانية"، مجلة الخلدونية، مج: 10، ع: 1، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2017م، ص: 199.

(2) - صالح عباد: المرجع السابق، ص ص: 357-358.

(3) - محمد مقصودة: الكراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد دادة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2014م، ص: 55.

(4) - حنيفي هلايلي: "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492-1614م)"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 5، ع: 1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجبالي اليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014م، ص: 12.

ومهاراتهم الفنية⁽¹⁾، أما جماعة الأشراف فتشكلوا من الأسر التي قدمت من مواطن بعيدة وعرفت بنسبها الشريف.⁽²⁾

يعد الحضر أكبر مجموعة سكانية من حيث الأهمية العددية، وهو ما يقارب خمس السكان إذ قدرهم هايدو سنة 1580م بألفين وخمسمائة وافد أي حوالي 12.500 نسمة.⁽³⁾ وصف شالر حضر مدينة الجزائر بقوله: «...هؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن البربرية، التي يتصف بها بعض الجزائريين، فإن سلوكهم لباقة ومجاملة، وأنا قد وجدتهم في المعاملات اليومية دائما مهذبين ومتدينين وإنسانيين، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني أو كره الأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم...».⁽⁴⁾

2-1-4- فئة البرانية:

تتكون من مجموعات سكانية، هاجرت إلى المدن الكبرى كالجزائر، قسنطينة، تلمسان... وغيرها بدافع الإقامة والعمل، مارست النشاط الاقتصادي، كانت تنظم وتصنف حسب أصولها ومناطق انتمائها، تتمثل في البسكريون، الجيجليون، الأغواطيون، المزابيون، وسكان القبائل بالإضافة إلى العبيد، وقد اختصت كل فرقة بمهام معينة، أوكلت لها تحت تصرف أمين يختاره البايلك، وله صلاحية حق المراقبة في كيفية تسيير شؤونها.⁽⁵⁾

2-1-5- الجالية اليهودية:

تشكل إحدى العناصر البشرية المهمة بالمدن الكبرى، تعود في أصولها إلى اليهود المحليين، الذين استقروا بالبلاد الجزائرية في الفترة السابقة للإسلام، أو الذين اعتنقوا اليهودية

(1) ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص: 57.

(2) ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية...، المرجع السابق، ص: 123.

(3) محمد مقصودة: المرجع السابق، ص: 55.

(4) إيمان شريط، بن عمر حمدادو: "النساء الحضر والنشاط الحرفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية على ضوء الكتابات الأجنبية"، مجلة عصور الجديدة، مج: 10، ع: 2، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1 أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2020م، ص: 268.

(5) منصور درقاوي: المرجع السابق، ص: 18.

من أهالي البلاد، بالإضافة إلى يهود الأندلس "السافرديم"¹، الذين قدموا مع مسلمي الأندلس، هروبا من اضطهاد النصارى وما انضم إليهم فيما بعد من يهود ليفورن (إيطاليا) والموانئ الإيطالية الأخرى، بعد منتصف القرن 17م لممارسة التجارة وغيرها.⁽²⁾

بلغ عددهم في نهاية القرن 18م ما لا يزيد عن 7000 نسمة، وعند الاحتلال انخفض عددهم إلى 5000 نسمة، من مجموع كل اليهود بالبلاد الجزائرية البالغ عددهم 30.000 نسمة⁽³⁾، أما عن النشاطات التي مارسوها، فهي التجارة بجميع أنواعها مع عدة نشاطات حرفية أخرى.⁽⁴⁾

2-1-6-الدخلاء:

مثلوا العناصر الأجنبية عن المجتمع الجزائري، كالتجار الأجانب، القناصل الأوربيين، رجال البعثات الدينية، الإرساليات التبشيرية وجماعات الأسرى المسيحيين، الذين كانوا يؤلفون الغالبية الساحقة من هذه العناصر الدخيلة، ولم يعودوا يتجاوزون في الربع الأول من القرن 18م العشرة آلاف أسير، ثم تناقص عددهم كثيرا قبل أن يرتفع مرة أخرى بفعل تجدد نشاط البحرية الجزائرية أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م.⁽⁵⁾

كان الأسرى المسيحيون التابعون للبايليك، أو الذين يمتلكهم الخواص يكلفون بأعمال مختلفة، مثل العمل في ورشات بناء السفن أو غيرها، أما القناصل، مبعوثو الدول الأوروبية ممثلو الشركات والوكالات التجارية الأجنبية ورجال الدين فكانوا يعيشون في معزل عن باقي السكان.⁽⁶⁾

(1) - يهود السافرديم: طائفة كبرى ينتمي إليها اليهود المستقرون في حوض البحر الأبيض المتوسط، ينظر: (نجوى طوبال: "طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700-1830م)-الهجرات وأماكن الإقامة-"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 4، ع: 1، جامعة الوادي، الجزائر، 2013م، ص: 02.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: 102-103.

(3) - المرجع نفسه، ص: 103.

(4) - أمين محرز: الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671م، دار البصائر، الجزائر، [د.ت.]، ص: 160.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 244.

(6) - المرجع نفسه، ص: 245.

رغم العلاقات التجارية مع أوروبا، والحروب التي نتج عنها توافد العديد من الأسرى المسيحيين واختلاطهم بالسكان، إلا أن المجتمع الجزائري ظل خلال هذا العهد مجتمعا إسلاميا شرقيا منغلقا على نفسه، محتفظا بقيمه العربية الإسلامية.⁽¹⁾

2-2- سكان الأرياف:

بلغت نسبتهم حوالي 90% من السكان⁽²⁾، يتوزعون على المناطق الجبلية، السهلية والصحراوية، يعتمدون في حياتهم على الزراعة والنشاط الرعوي، بالإضافة إلى ممارستهم للصناعة التقليدية⁽³⁾، يمكن تصنيفهم حسب صلتهم بالحكام وعلاقتهم ببعضهم وطريقة حياتهم كالتالي:

- سكان متعاونون (قبائل المخزن)
- سكان خاضعون (قبائل الرعية)
- سكان متحالفون (الأحلاف)
- سكان ممتنعون (في المناطق النائية والجبال).⁽⁴⁾

2-2-1- قبائل المخزن:

هي مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية، عسكرية وإدارية، لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار، لا تعود في أصولها إلى نسب واحد أو أصل مشترك، فمنها العبيد الكراغلة، عرب الصحراء، سكان الهضاب والجبال، تشكل قبائل المخزن حلقة وصل بين الأهالي في الأرياف والحكام في المدن⁽⁵⁾، جندتها السلطة التركية لفرض سلطتها على الأرياف، من خلال المشاركة في استخلاص الضرائب وإيقاع العقاب بالمتنعين والمعادين

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ص ص: 152، 164.

(2) - مبارك بن محمد الهلالي الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج: 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص: 316.

(3) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 2011م، ص: 82.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص ص: 245-246.

(5) - المرجع نفسه، ص 246.

للبايلك، مقابل تمتعهم ببعض الامتيازات، من أشهرها الحراكطة في الشرق، لعمامرة في القبائل، عبيد في التيطري... وغيرها.(1)

2-2-2- قبائل الرعية:

ضمت المجموعات السكانية الخاضعة مباشرة للبايلك، والمقيمة بالدواوير والمداشر والقرى، والمنتشرة في الجهات التي تراقبها قبائل المخزن، تعبرها فرق الحامية التركية في طريقها لجمع الضرائب أو الالتحاق بمراكز الحاميات.(2)

تعرضت قبائل الرعية للاضطهاد والاستغلال، من طرف رجال البايلك وفرسان المخزن، الذين كانوا يستخلصون منها الضرائب ويرغمونها على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة(3)، من أشهرها بني عامر مجاهر... وغيرها.(4)

نظرا لاستقرار هذه القبائل بأماكن قريبة من تمركز قبائل المخزن، كانت ملزمة بدفع ضرائب كثيرة، كالمعونة، الغرامة، اللزمة والمكس، بالإضافة إلى العشور والزكاة.(5)

2-2-3- المجموعات السكانية المتحالفة "الأحلاف":

تتعامل مع البايلك عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين، الذين أصبحوا يتوارثون زعامتها، معتمدين في ذلك على نفوذهم الديني أو كفاءتهم الحربية أو أصالة نسبهم(6)، منهم من عرف بالأجاود أو النبلاء، وقد اضطرت السلطة للتعاون معهم مقابل إخضاع عائلاتهم، مثل الدواودة والأحرار في الشرق، الحنانشة وأولاد بن عاشور في فرجيو، كما نجد جماعات

(1) - ليلي تيتة: "تطور البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج:6، ع: 17، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2014م، ص: 138.

(2) - ناصر الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: 107.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 249.

(4) - ليلي تيتة: المرجع السابق، ص: 138.

(5) - فارس العيد: "التركيبية الاجتماعية في الغرب الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي"، مجلة عصور، مج: 11، ع: 1، مخبر البحث التاريخي، وهران، الجزائر، [د.ت]، ص: 3.

(6) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 250.

المرابطين الذين تقربت منهم السلطة التركية مانحة إياهم بعض الامتيازات مقابل التوسط بينهم وبين السكان.(1)

2-2-4- المجموعات السكانية الممتنعة عن سلطة البايليك:

تتألف في أغلبها من القبائل، التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة، كالباور، جرجرة، الونشريس، طرارة، شمال قسنطينة والأوراس، أو التي تجوب جهات الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي (أولاد نائل، العمور والقصور) وتخوم الصحراء، ونظرا لابتعاد هذه المجموعات السكانية عن نفوذ الحكام وعدم اعترافها بسلطتهم، فإن حكومة الداوي حاولت أن تحد من استقلاليتهم.(2)

3- بعض ملامح الحياة الاجتماعية:

يعتبر الإسلام أهم مصدر يأخذ منه الجزائريون تشريعاتهم، ويبنون عليه علاقاتهم الاجتماعية(3)، فبالنسبة للغات المستعملة للحديث في مدينة الجزائر، نجد العربية والتركية أو ما يسميه الرحالة الدكتور شاو بالشاوية، كانت اللغة التركية لغة الإدارة، بينما اللغة العربية هي لغة أغلب السكان(4). إن تواجد المرتزقة، الأسرى بأعداد كبيرة وكذلك التجار الأوربيين المقيمين، أدى إلى وجود لغة تدعى لغة فرنكا *Langua Franca*، وهي خليط من العربية، الإسبانية، التركية، الإيطالية والتعابير البروفنسالية (لهجة تتحدث بها مجموعة من سكان جنوب فرنسا)، وقد كانت وسيلة الاتصال في مدينة الجزائر.(5)

(1) - ليلي تيتة: المرجع السابق، ص: 138.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: 109.

(3) - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية...، المرجع السابق، ص: 48.

(4) - ويليام شالر: المصدر السابق، ص: 39.

(5) - وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زيادية، دار القصبة، الجزائر، 2006م، ص: 102.

أما من حيث اللباس، فقد كانت نوعية الملابس تختلف باختلاف طبقات الناس، ثروة الأفراد وفصول السنة⁽¹⁾، حيث يتميز اللباس بالبساطة، فلباس أهل الريف يتمثل في ملابس رجالية ونسائية خشنة وبسيطة، تفتقر إلى التنوع مقارنة بملابس سكان المدن المزخرفة.⁽²⁾ إن نظام الأكل في الريف، يحدده المكان والمكانة الاجتماعية للجماعة السكانية فالغذاء كان يفي بالحاجة، وهو مقبول من حيث الكمية والنوعية بالنسبة لسكان الميسورين يتميز غذاء أهل الريف بقدر كبير من البساطة، فأكلهم يفتقر إلى التنوع باستثناء أيام الأعياد، بينما يتأثر النظام الغذائي لسكان فحوص المدن بالتقاليد الحضرية، والتي يغلب عليها استهلاك أطباق غنية بالسكريات والدهنيات.⁽³⁾

أورد بن حمادوش وصفا لبعض عادات مدينة الجزائر كإحياء ليلة القدر وختم صحيح البخاري وغيرهما من المناسبات الدينية، كما شاعت عادات اجتماعية خلال هذا العهد منها حفلات الخطبة والزواج، الختانة وغيرها، يشير المفتي أحمد بن عمار أن أهل مدينة الجزائر أثناء احتفالهم بالمولد النبوي يقومون بإيقاد الشموع وإنشاد التواشيح.⁽⁴⁾

كما يتم شهر رمضان، ختم صحيح البخاري في المساجد، كذلك إحياء حفلات تسلي الناس وتدفع عنهم الضجر، مثل مسرح القراقوز أو (خيال الظل)، الذي أدخله الأتراك، ومن ذلك أيضا حلقات إنشاد الشعر الشعبي، كما شاع في الجزائر شرب القهوة بكثرة⁽⁵⁾، حيث اعتبرت المقاهي مكانا تلتقي فيه المعارف لاحتسائها والتمتع بنغمات الموسيقى الأندلسية.⁽⁶⁾

(1) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 83.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني 1791-1830م، دار البصائر، الجزائر، 2013م، ص: 354.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية...، المرجع السابق، ص: 351-353.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج 1، المرجع السابق، ص: 159.

(5) - المرجع نفسه، ص: 160-161.

(6) - بلبروات بن عتو: "تظرات استشرافية لعادات وتقاليد مجتمع مدينة الجزائر العثمانية مدينة الجزائر نموذجا"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 2، ع: 1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجبيلي، اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2010م، ص: 89.

لعبت المرأة في المجتمع الجزائري دورا أساسيا في مختلف المجالات، فالمرأة الريفية كانت تقوم بالعديد من الأعمال، فرغم قيامها بمهمة تربية الأولاد وبأشغال المنزل، كانت تنسج ملابس الأسرة من برانيس، فنابير، مناديل، الزرابي، الحياك.⁽¹⁾

اتسمت الحالة الصحية والمعاشية في الجزائر بالتدهور خاصة أواخر القرن 18م، فقد أثر وقوع الجوائح سلبا على نمو السكان، حيث شملت الطاعون، الزلازل، المجاعات والجفاف، ففي عهد عثمان باشا حدث طاعون جارف أودى بحياة الكثير من الناس خاصة الشخصيات العلمية، كالسيد عبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زرفة، السيد الهاشمي وابن عمه الفقيه مؤلف الرسالة القمرية مصطفى بن عبد الله.⁽²⁾

شهد إقليم مدينة الجزائر ثلاث موجات متتالية من الأوبئة الحادة، دامت الأولى عشر سنوات (1778-1788م)، الثانية اثنا عشر عاما (1792-1804م)، الثالثة سبعة أعوام (1816م-1822م).⁽³⁾

من أهم الأوبئة التي عرفت الجزائر خلال العهد العثماني:

- وباء 1654م المعروف بالكونية قضى على ثلثي سكان الجزائر.
- وباء 1664م تناقص فيه عدد سكان الجزائر إلى النصف.
- وباء 1787م، هلك فيه ستة عشر ألف وسبعمائة وواحد وعشرون نسمة من مدينة الجزائر وثلثي سكان عنابة.
- وباء 1794م أضر بكل الجهات خاصة وهران، الجزائر، عنابة وقسنطينة.
- وباء عام 1817-1818م قضى على أربعة عشر ألفا من سكان الجزائر وثلثي سكان عنابة كما تضررت أغلب الجهات الجبلية والصحراوية.⁽⁴⁾

(1)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 162

(2)- سعاد لبصير: «دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني»، أعمال الملتقى العلمي الأول حول سوسولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر ماي 2008م، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، جوان 2009م، ص ص: 69-70.

(3)- ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية...، المرجع السابق، ص: 442.

(4)- سعاد لبصير: المرجع السابق، ص ص: 71-70.

ونتيجة لانتشار أمراض خطيرة كالطاعون والكوليرا، توفي العديد من سكان المدن الكبرى مثل: وهران، عنابة، قسنطينة، واشتدت وطأة المجاعة، فكانت سنوات 1800م و1804م فترة قاسية عانى منها السكان ضائقة خانقة بفعل توالي الكوارث المتعددة بدون انقطاع.⁽¹⁾

إن ما زاد من خطورة هذه الأمراض، تزامنها مع انتشار الجفاف، المجاعات والكوارث الطبيعية المتمثلة في الزلازل واجتياح الجراد، كما زادت قلة الأدوية أيضا في تدهور الوضع الصحي⁽²⁾، ومن الكوارث الطبيعية التي ذكرها بن الفكون الآتي: «وقد ورد علينا جراد سد الآفاق كثرة، وكسا السهل والجبال، حتى كان قنطرة على الوادي يعبر الناس عليها، وتغير منه ماء الوادي ما يزيد على شهر، وصار كالقطران فوق الماء وعلا ولم يندفع إلا بالدخان».⁽³⁾

لقد نقلت هذه الأوبئة تنتقل إلى الجزائر من طرف الحجاج، المجندين والتجار القادمين من المشرق، وهذا ما أكده الزهار حيث يقول: «عندما بلغت المراكب المهداة من إستانبول، جاء معها الوباء إلى الجزائر، واشتعلت ناره سنة 1817م، وكان الوباء يتسرب إلى الجزائر في غالب الأحيان عن طريق البحر، نجد أول من كان يصاب به هم عمال الموانئ وبعد ذلك ينتشر في بقية أنحاء البلاد».⁽⁴⁾

لم يعط العثمانيون اهتماما بالحياة الصحية للسكان، ذلك أن معظم البايات والباشوات كان لهم أطباء أجانب عادة ما يختارونهم من الأسرى الأوربيين أو يجلبونهم عن طريق

(1) - محمد الزين: "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج:5، ع: 2، جامعة غرداية، الجزائر، 2012م، ص: 129.

(2) - عبد القادر بلغيث: الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: أحمد الحمدي، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م، ص: 121.

(3) - أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، تح، تق، تل: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة، قسنطينة، الجزائر، 2011م، ص: 50.

(4) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص: 84-85.

الأموال، لذلك اعتمد الناس على وسائلهم البسيطة، واستعملوا الطب التقليدي في علاجهم، وكانت أهم وسيلة طبقتها العثمانيون في الجزائر هي ما يعرف بالحجر الصحي.⁽¹⁾

(1) - أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 167.

رابعاً: الأوضاع الثقافية

إن مدلول الثقافة بمفهومها العام يرمي إلى: «جميع ما يتناوله الفكر البشري في كل عصر وفي كل جيل»⁽¹⁾، وقد عرف العهد العثماني في الجزائر بالركود الثقافي، شأنه شأن بقية البلاد العربية⁽²⁾، ورغم ذلك فقد كانت بالإيالة حركات تجديدية فكرية، منبعثة من علماء جزائريين تركوا بصماتهم الأدبية والتعليمية في حفظ التراث الجزائري والإسلامي وفي استمرار عمران المساجد، الزوايا، الكتاتيب، المكتبات، التي زخرت بأدب الرحلات بالإضافة إلى المؤسسات الدينية والتعليمية وعلى رأسها مؤسسات الأوقاف.⁽³⁾

إن الدولة العثمانية لم تتدخل في توجيه الحياة الثقافية في البلدان التابعة لها، وعلى هذا وصفت الثقافة العربية في عهد الأتراك بالركود⁽⁴⁾، غير أن هناك مجهودات فردية بذلت من قبل الجزائريين لتحقيق الرقي والازدهار الثقافي.⁽⁵⁾

توزعت الحركة الثقافية بنوعيتها العلمي والأدبي على بعض المدن وفي قليل من القرى والمدامر، ورغم ندرة الحركة الثقافية في القطر الجزائري خلال العهد العثماني، إلا أننا لا نستثني بعض الحواضر، التي كانت منارات للعلم والمعرفة في مختلف الميادين.⁽⁶⁾

إن من أهم الحواضر ومراكز الإشعاع العلمي والحضاري، مدينة تلمسان ومدينة مازونة في الغرب الجزائري، مدينة بجاية وقسنطينة في الشرق الجزائري، فقد عُدَّتْ هذه

(1) - محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح، تق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981م، ص: 46.

(2) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م، ص: 159.

(3) - حسان كشرود: رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر العثمانية 1659-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص التاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، إشراف: فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008م، ص: 19.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تأملات وأفكار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م، ص: 55.

(5) - مبارك بن محمد الهلالي الملي: المرجع السابق، ص: 318.

(6) - منصور درقاوي: المرجع السابق، ص: 41-42.

المراكز مقارنة مع الوضع العام للبلاد، من أهم مراكز هذا الإشعاع، حيث توارثت العلم وازدهرت بها المعرفة، كما اشتهرت بها أسر علمية.⁽¹⁾

عرفت مدينة مستغانم إشعاعا ثقافيا، خاصة عندما كانت مقرا للبايك، برز فيها عدد هام من رجال القضاء والفقهاء، كما كانت مدينة الجزائر مقصدا للطلبة سواء من داخل أو خارج الجزائر، فحسب سعد الله "فإن دروسها كانت تفوق أحيانا مساجد المشرق"، رغم افتقارها إلى معهد رئيس يضاها القرويين والأزهر والزيتونة، التي كان تأثيرها واضحا على حواضر الجزائر، وهذا عن طريق الاحتكاك بخريجي هذه المعاهد خلال رحلات الحج أو عن طريق البعثات العلمية.⁽²⁾

اشتهر المغرب الأوسط بعلماء في النحو، وعلى رأسهم ابن معطى الزواوي، يحيى الشاوي وعبد الكريم الفكون وأحمد البوني، كما اشتهرت مدنه بالدراسات النحوية كزاوية خنفة سيدي ناجي وزواوة، ونظرا لعائق اللغة فان الباشوات والبايات الأتراك كان اهتمامهم قليلا بالدراسات اللغوية من بلاغة وبيان، لأن لغة هؤلاء الحكام كانت اللغة التركية.⁽³⁾

لقد أنتج الجزائريون خلال هذا العهد أدبا راقيا نسبيا شعرا ونثرا، تناولوا فيه شتى الأغراض، وقد غلب الشعر السياسي على جميع أنواع الشعر الأخرى ماعدا الشعر الديني، وذلك يعود إلى استمرار الجهاد ضد الاحتلال الإسباني، رغم أن العثمانيين لم يشجعوا الأدباء والعلماء، ورغم هذا كان هناك تراث أدبي وعلمي معتبر، غير أن هذا الإنتاج بأنواعه كان خارج نطاق الحكم.⁽⁴⁾

(1) - أحمد بحري: حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500-1900م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1 - أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2012-2013م، ص: 205.

(2) - رشيدة شكري معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: فلة موساوي قشاعي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م، ص ص: 38-39.

(3) - عثمان سعدي: الجزائر في التاريخ، دار الأمة، الجزائر، 2013م، ص ص: 425-426.

(4) - أبي العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: رسائل المقرئ، تح: أسماء الحسني، دار الخليل القاسمي، الجزائر، ط1، 2008م، ص ص: 63-64.

أما العلوم من طب، صيدلة، كيمياء، فلك وحساب، فقد كان انتشارها بالجزائر محدود، قابلها هيمنة الطب الشعبي، الذي يعتمد على الأعشاب، الكي أو الرقية، أما الموسيقى فلم تكن تعرف كعلم يدرس وإنما كسماع يردد في المناسبات، وقد أتى الأندلسيون بالموشح الأندلسي وقاموا بنشره بالمدن التي سكنوها⁽¹⁾، كما أثر وجودهم في الجزائر بمختلف العلوم والفنون، حيث ارتقت بوجودهم العلوم الطبية، الموسيقى، التعليم، الخط، الوراقة وصناعة الكتاب.⁽²⁾

ارتكزت الثقافة في البلاد الإسلامية على العلوم الدينية، من تفسير، حديث، فقه وعقائد، لكن الجزائر امتازت في العهد العثماني إضافة إلى الثقافة المذكورة بانتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا غربي البلاد وشرقيها⁽³⁾، أما بالنسبة للتعليم فقد عرف انتشارا واسعا وكان مورده الأساس هو الأوقاف، حيث كان يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية، في حين أن جهود الدولة كانت منصبة في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب، وكان أساسه هو الدين فحفظ القرآن كان عمدة التعليم الابتدائي ومعرفة بعض علوم القرآن كان عمدة التعليم الثانوي والعالي أيضا.⁽⁴⁾

تميزت الجزائر خلال العهد العثماني بكثرة المكتبات الخاصة والعامة وكانت الكتب تنتج محليا تأليفا أو نسخا، كما كانت تحمل من مصر، إستانبول والحجاز، حتى أن تلمسان اعتبرت أكبر مركز لحركة التأليف والنسخ والجمع.⁽⁵⁾

عرفت حركة التأليف في هذا العهد نشاطا ملحوظا، فلا نكاد نجد عالما إلا وله قائمة من المؤلفات في مختلف العلوم المتداولة شملت الشروح، الحواشي، التقايد، التعاليق

(1) - عثمان سعدي: المرجع السابق، ص: 435.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 148.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص: 137.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص ص: 313-315.

(5) - نقولا زيادة: المرجع السابق، ص: 208.

والرسائل، من أشهر المؤلفين في هذه الفترة عبد الرحمان الأخضرى، أحمد المقري، بن مريم، أحمد البوني قدورة وغيرهم، كما ألف بعضهم كتبه داخل الجزائر والبعض الآخر خارجها.⁽¹⁾

(1) - أحمد المقري: المصدر السابق، ص: 10.

الفصل الأول

المؤرخون الجزائريون وإنتاجهم خلال القرن

18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م

أولاً: مؤرخو القرن 18م.

- 1- محمد بن ميمون.
- 2- ابن المفتي.
- 3- عبد القادر المشرفي.
- 4- الحسين الورتلاني.
- 5- محمد بن رقية التلمساني.
- 6- عبد الرزاق بن حمادوش.
- 7- أحمد بن سحنون الراشدي.
- 8- ابن زرفة.
- 9- أحمد بن هطال.
- 10- أبو راس الناصر.

ثانياً: مؤرخو النصف الأول من القرن 19م.

- 1- مسلم بن عبد القادر.
- 2- حمدان بن عثمان خوجة.
- 3- محمد بن العنابي.
- 4- أحمد الشريف الزهار.
- 5- صالح بن محمد العنتري.
- 6- الحاج أحمد بن المبارك.

أولاً: مؤرخو القرن 18م

1- محمد بن ميمون:

1-1- التعريف به:

هو أبو عبد الله بن ميمون الزواوي النجار الجزائري الدار، يورد محمد بن عبد الكريم محقق مخطوطة التحفة "المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" أن جميع المصادر أهملت التعريف بهذه الشخصية ولم تحدد تاريخ ومكان الولادة والوفاة⁽¹⁾، وبما أنه كان في سن الشيخوخة أثناء مدحه للداي بكداش (1707-1710م)⁽²⁾، وحين نطلع على المقامة السابعة والتي جاء فيها ما نصها: «... لا أعلم أي لقب من سن الطفولة إلى ما فوق زمان الكهولة أبرع منه في هذه الطريقة ولا أقوى شاهداً فيها منه على الحقيقة»، يتأكد لنا بأنه كتبها وهو في سن الشيخوخة والتي عبر عنها بما فوق زمان الكهولة⁽³⁾، وبالتالي فيقدر أنه عاش ما بين القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر⁽⁴⁾.

نشأ في عائلة اشتهرت بالعلم، فكان جده أبو العباس أحمد بن عبد الله الزواوي عالماً بالفقه واللغة وواضع "المنظومة الجزائرية" في التوحيد⁽⁵⁾، تولى خطة قضاء الجزائر لفترة زمنية في عهد الداوي محمد بكداش (1707-1710م)، كما شغل فترة وظيفة خطة المواريث زمن الداوي إبراهيم باشا (1745-1748م)، عرف بنظمه للمقامات ومشاركته في مجالس

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: ب.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1267هـ/1850م -دراسة وصفية تحليلية نقدية مقارنة مقارنة في المنهج التاريخي-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: أرزقي شويباتم، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2-أبو القاسم سعد الله، السنة الجامعية، 2016-2017م، ص: 113.

(3) - الجيلالي سلطاني: "فتح وهران من خلال كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج:9، ع:12، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2005م، ص ص: 66-67.

(4) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 113.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص: 398.

العلم بين بعض علماء الجزائر آنذاك كابن علي، بن عمار، محمد بن سيدي، محمد بن نيقرو وعبد الرزاق بن حمادوش، اعتزل الوظيفة وتفرغ للتأليف ونظم الشعر.⁽¹⁾

اكتسب ثقافة واسعة، فقد وصفه محمد بن عبد الرحمن الجامعي⁽²⁾ بـ"الأديب الأريب، كما ذكره عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته المسماة لسان المقال بقوله: «القاضي الأديب»⁽³⁾، إن ما ميزه عن باقي علماء محيطه كونه أديبا بارعا وحافظا للأشعار والأسجاع وملاحظا لأحداث مجتمعه، غير أنه تشابه معهم كونه فقيها غلب عليه طابع التصوف⁽⁴⁾، كانت وفاته بعد سنة 1159هـ/1746م.⁽⁵⁾

1-2- شيوخه وتلامذته:

لم يصرح ابن ميمون بكل شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، لكنه صرح فقط بشيخه⁽⁶⁾ أبي عبد الله محمد بن محمد الثغيري⁽⁷⁾، من خلال تهنئة هذا الأخير للداي بكداش على فتح وهران الأول سنة 1708م بقصيدة من ثمانية عشر بيتا مطلعها:

الحمد لله الذي فتحا وهران على أيدي الرجال الصلحا.⁽⁸⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 398-399.

(2) - محمد بن عبد الله الجامعي: أبو زيد عبد الرحمن الجامعي، يعتبر من بين الكتاب المغاربة الذين زاروا الجزائر خلال القرن 17م، حيث اتصل بعلماء الجزائر وتعلم على أيدي البعض منهم كالحلفاوي الذي ذكر في أرجوزته التي خصصها هذا الأخير لتخليد فتح وهران الأول 1708م، فشرح الجامعي هذه الأرجوزة وأضاف إليها معلومات أخرى اعتمادا على الرواية الشفهية وما كتب عن الفتح من طرف العلماء الجزائريين، كما كان للجامعي دور في تخليد هذا الفتح في بعض قصائده، ينظر: (مختار حساني: تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين: الجزء الأول: فتح مدينة وهران للجامعي، الجزء الثاني: الرحلة القمرية لابن زرفة، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003، ص: 07).

(3) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 398.

(4) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 113.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 398.

(6) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 113.

(7) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 233.

(8) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 113.

حيث يشيد بشيخه في قوله: «...فنجم ونجب ووعظ وخط وأقرأ وتكلم ودرس وعلم وأرشد وفهم وحكم وقضى وأنفذ وأمضى معتمدا على حفظ أصيل وبيان وتحصيل وعلم راسخ وبيت شامخ وعقل راجح...فهو اليوم عين مصره بل فريد عصره وقديح مجده بل نسيج وحده يقرئ من العلم فنونا ويستحضر من تلك الفنون عيوننا يستدعي خشوع المهور بوعظه ويزين مجالس الموعظة بحفظه...»⁽¹⁾.

أخذ العلوم الفقهية واللغوية على يد العديد من علماء مدينة الجزائر، وفي مقدمتهم أبو عبد الله محمد الشغيري الجزائري، من تلامذته ابن حمادوش الذي قرأ معه العديد من الكتب مثل القلصادي في الحساب والفرائض⁽²⁾، ومسائل ابن حجة في الأدب وتاريخ الكردبوس⁽³⁾.

1-3- إنتاجه الفكري:

اشتهر بن ميمون بتأليفه المعنون بـ "التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، وقد قام ليون فاي (Léon Fey) بترجمة هذه المخطوطة ونشرها سنة 1845م، وأشار بأن مؤلفها مجهول، غير أنها لم تر النور إلا مع محمد بن عبد الكريم، الذي حققها وقام بنشرها مطبوعة بالجزائر سنة 1972م مؤكدا على نسبتها لابن ميمون⁽⁴⁾، وقد لاقى اهتمام معاصريه، حيث أورد محمد بن عبد الرحمن الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي قوله: «فإنه (أبي محمد بن ميمون) ألف في سيرة هذا السيد (محمد بكداش) نصره الله كتابا سماه بالمقامات، وهي في الحقيقة قلائد عقيان ولولا مشاهدة رقم سطوره في باب المحروسة لقلت وسجعات حمائم البستان»⁽⁵⁾.

تناول في مخطوطه "التحفة المرضية" سيرة الداوي محمد بكداش، أعماله وآراؤه أثناء فترة حكمه، كما خصص جزءا كبيرا منه للحديث عن الفتح الأول لمدينة وهران على يد هذا

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 233.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 398.

(3) - عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري: رحلة ابن حمادوش الجزائري لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص: 216.

(4) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 114.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 399.

الداي⁽¹⁾، وقد جمع فيه ست عشرة مقامة⁽²⁾ ضمت العديد من القصائد⁽³⁾ بلغ عدد أبياتها الشعرية 795 بيتا، كل مقامة تحمل عنوانا حسب موضوعها⁽⁴⁾، مخصصا أغلبها للحديث عن الحاكم العثماني محمد بكداش، بدءا من المقامة الأولى إلى المقامة الثامنة⁽⁵⁾، حيث يشير في الأولى إلى اسم والده والتبؤ لولده بالرئاسة على الجزائر، أما المقامات الثانية، الثالثة، الرابعة، والسادسة فيذكر فيها تاريخ إسناد المناصب إلى هذا الداي، كما يشير إلى وقوف صهره أوزن حسن إلى جانبه، في حين ذكر في المقامة الخامسة تاريخ نفي محمد بكداش من الجزائر إلى طرابلس الغرب وكيف عاد إليها.⁽⁶⁾

لقد أورد في المقامة السابعة التعريف بالداي محمد بكداش، من حيث ذكر اسمه، نسبه، صفاته، ذكر ولده، صهره، وزرائه، كتابه، ترجماته وقضاته، احتوت المقامة الثامنة على ذكر بعض العلماء والشعراء، الذين هنؤوه بمناسبة توليته منصب داي الجزائر ضمت ثلاثمائة وأثنين وسبعين بيتا من الشعر، كما خصص في المقامة التاسعة حديثه حول تاريخ استيلاء الإسبان على مدينة وهران، وما فعلوه بأهلها من قمع وتكيل وذلك بمساعدة بعض القبائل.⁽⁷⁾

إن بن ميمون تطرق من المقامة العاشرة إلى غاية المقامة الثانية عشر، إلى كيفية استعادة المسلمين لبرج العيون، برج جبل المائدة، برج بن زهو، أما في المقامة الثالثة عشر فيشير إلى فتح مدينة وهران والمعارك التي تقدمت هذا الفتح، مع ذكر قصائد الأدباء والعلماء الذين هنؤوه بهذا الإنجاز، كما تناول في المقامتين الرابعة عشر والخامسة عشر واقعة فتح البرج الأحمر والمرسى، خاتما مقامته السادسة عشر بعودة الخليفة حسن أوزن إلى

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 83.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2017م، ص: 208.

(3) - المهدي البوعبدلي: الحياة الثقافية بالجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2013م، ص: 180.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 400.

(5) - الجيلالي سلطاني: المرجع السابق، ص 67.

(6) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 86-88.

(7) - المصدر نفسه، ص ص: 88-89.

الجزائر، مع ذكر انتصاره على الإسبان وكيفية فتح مدينة وهران، حيث أجاد المؤلف في وصف هذه العودة وسرور الناس بهذا الفتح.⁽¹⁾

2- ابن المفتي:

2-1- التعريف به:

كل من ترجم لابن المفتي مثل دوفو، دلفان وأبو القاسم سعد الله وفارس كعوان لم يتمكن من الكشف عن اسمه، غير أن ما أكده بن المفتي في تقييداته أنه بن المفتي حسين وحفيد رجب بن محمد⁽²⁾، كما أنه لم يذكر تاريخ مولده، غير أنه ذكر معلومات نستطيع من خلالها معرفة تاريخ مولده، لذا رجح أبو القاسم سعد الله بأن يكون من مواليد عام 1095هـ- 1688م، لأنه ذكر في كتابه أنه سمع في صباه عن شهرة المفتي محمد بن سعيد قدورة الذي توفي عام 1107هـ/1694م، فيكون عمر المؤلف حينئذ حوالي سبع سنين.⁽³⁾

عاش بمدينة الجزائر وتزوج بها وأنجب أولادا، غير أنه فقدهم، فأصابه الحزن في أواخر حياته⁽⁴⁾، فوالده هو المفتي حسين بن رجب شاوش بن محمد⁽⁵⁾، وصفه ابنه في كتابه ب: «الشيخ الصالح الكامل الأصولي الفقيه المتبحر»، كان مولده بمدينة الجزائر، التي توفي بها، تولى الفتوى سنة 1102هـ/1691م وعمره ثلاثون سنة، مما يدل على أنه ولد سنة 1072هـ/1661م، وبهذا يكون قد أنجب ولده ابن المفتي وهو في سن الثالثة والعشرين من عمره.⁽⁶⁾

ذكر بن المفتي أن والده يعد أول كرغلي تولى الفتوى الحنفية في الجزائر، بعد أن كانت سابقا محصورة في أيدي علماء الحنفية الموفدين من إسطنبول، وقد مدح والده بأنه

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 88-91.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 115.

(3) - حسين رجب شاوش ابن المفتي: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص: 12.

(4) - المصدر نفسه، ص: 12.

(5) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 369.

(6) - ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 12.

حافظ على وظيفته، فكان خطيباً ماهراً ومفتياً وقوراً، دام في منصبه ثماني سنوات أو اثني عشر سنة⁽¹⁾، إلى أن عزله أهشمي مصطفى وولى مكانه الحاج محمد النيار⁽²⁾، أما جده فهو رجب بن محمد، ولد في قارة حصار بالقرب من أزمير في آسيا الصغرى⁽³⁾، حلّ بالجزائر في فترة شبابه ليمارس رفقة أخيه تجارة السفن، التي كانت ترسلها الدولة العثمانية لإعانة الجزائر آنذاك، ثم تولى رئاسة الحراس على سفينتان كانت تملكهما امرأة تدعى "زهرة باي"، قلد سنة 1663م رتبة شاوش العسكر بمدينة الجزائر إلى غاية سنة 1671م، ثم رتبة بولوكباشي بعدها أحيل على التقاعد، توفي نتيجة مرضه بحصر البول ودفن بالمقبرة التي هي قرب الفخار خارج باب الواد بين ضريحي الثعالبي ومحمد السعدي⁽⁴⁾.

ساهمت عدة عوامل في بلورة شخصية ابن المفتي، فقد نشأ في جو مفعم بالأحداث مليء بشيوخ العلم ورجاله، فقد كان متأثراً بوالده الذي كان دائماً يوصيه بأن يكون طموحاً ومهتماً بالعلم، كما ساهمت رحلته إلى مسقط رأس جده سنة 1128هـ/1715م وزيارته لقبر الباشا حسين ميزومورطو في جزيرة شيو في صقل تجربته وتوسيع آفاق معلوماته، يضاف إلى ذلك الأوضاع الداخلية والخارجية التي عاصرها⁽⁵⁾.

2-2- شيوخه:

ذكر بن المفتي ثلاثة من شيوخه وهم:

- محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو (ت 1152هـ/1739م): ذكره تلميذه ابن المفتي بـ: «العالم الفقيه، النحوي الأصولي، البياني المنطقي، المتكلمي، الحيسوبي، الفرائض، المحدث سيدي محمد بن سيدي إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو الأندلسي الأصل، الجزائري الولادة والمنشأ والقبر»، كان يجمع بين الفتوى، الخطابة، التدريس بالجامع

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 369.

(2) - نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص: 284.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 368.

(4) - ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 13.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 116.

الأعظم ورواية الحديث بزواوية الأندلس⁽¹⁾، تصدى للتدريس بمدينة الجزائر، فكان ابن المفتي أحد طلابه، وقد عاصر ثلة من رجال العلم والأدب بها.⁽²⁾

-**عمار المستغامي (ت1144هـ/1731م):** هو عمار بن عبد الرحمن التلمساني المستغامي الأصل والولادة، الجزائري المنشأ، وصفه ابن المفتي بأنه: «فقيه بياني أصولي نحوي متكلم منطقي فرائضي، صالح، جاهل بأحوال الدنيا، بعيد عن أمورها»، عمل بوظيفة الكتابة لأوقاف الجامع، توفي بسبب مرض الجنب (نوع من الأمراض التنفسية) يوم الاثنين سنة 1144هـ/1731م.⁽³⁾

-**مصطفى بن رمضان العنابي (ت 1130هـ/1718م):** من العلماء البارزين، أصله تركي أو تركماني، ولد بمدينة عنابة نشأ وتعلم بها، انتقل إلى مدينة الجزائر قبل سنة 1664م، حنفي المذهب، درس على العديد من العلماء الجزائريين، تولى وظيفة القضاء والإفتاء الحنفيين بمدينة الجزائر، توفي سنة 1130هـ/1718م.⁽⁴⁾

2-3- إنتاجه الفكري:

ترك بن المفتي تأليفا، غير أنه لم يضع له عنوانا، فقد ذكر بأنه عبارة عن تقايب *"Des notes"* دون أن يضع عنوانا للكتاب، يذكر فارس كعوان أن الكتاب كاملا يمكن تسميته بـ"تاريخ باشوات وعلماء جزائر الغرب"، وهي نفس التسمية التي وردت عند المؤرخ أحمد توفيق المدني⁽⁵⁾، قسمت تقايباته إلى ثلاثة أقسام: مقدمة، قسم العلماء والمجتمع، قسم الباشوات والحياة السياسية والاقتصادية⁽⁶⁾، إن تقايب بن المفتي غطت تاريخ الجزائر في

(1) فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246هـ/1520-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، السنة الجامعية 2013-2014م، ص: 97-98.

(2) - المرجع نفسه، ص: 98.

(3) - ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 15.

(4) - فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية...، المرجع السابق، ص: 44-46.

(5) - ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 19.

(6) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 372.

الفترة الممتدة ما بين 1515-1753م، بداية بتاريخ أسرة الكاتب ثم تاريخ الباشوات وعددهم أربعة وخمسون بدءا بإسحاق باشا ثم تاريخ العلماء، حيث يركز على من تولى الإفتاء سواء من المالكية أو الأحناف.(1)

3- عبد القادر المشرفي:

3-1- التعريف به:

هو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي، الغريسي، المعسكري، المعروف بـ"بن عبد الله" أو بـ"سقط"(2)، يرجع نسبه إلى أسرة المشارف، وهي أسرة إدريسية النسب من الفرع الحسيني حسب أبي حامد المشرفي(3)، كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ في قرية الكرط قرب معسكر، تنقف في المنطقة على علماء عصره(4)، تولى التدريس بمعهد القيطنة، حيث اختاره الشيخ مصطفى بن مختار الراشدي جد الأمير عبد القادر مدرسا عندما أسس هذا المعهد(5). يحدثنا أبو راس أحد تلاميذ الشيخ المشرفي، أن هذا الأخير حضر استيلاء الإسبان على وهران عام 1732م «حضر سيدي معلمي الشيخ السي عبد القادر بن عبد الله المشرفي -رحمه الله- هذا الرجل طوال حياته عاش حياة استثنائية باستمرار، وكان آخر أولئك الذين في إيمانهم الراسخ بإرادة محفزة وموجهة كرسوا حياتهم للبحث عن الحقائق العقائدية»(6)، كما أضاف

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 116.

(2) - عبد القادر المشرفي الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبنني عامر، تح: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م، ص: 05.

(3) - قدور بوجلال، دحو فغرور: "إسهامات الشيخ عبد القادر المشرفي في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج:17، ع: 29، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2006م، ص ص: 548-549.

(4) - يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ص: 231.

(5) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 37.

(6) - Marcel Bodin: «L'Agrément du Lecture Notice Historique sur les arabes Soumis aux Espagnoles pendant les occupation D'Oran par si ABDEL KADER EL MECHERI », In R.A, Vol : 65, Alger, 1924, p :196

أيضا: «...شيخنا الأكمل وأستاذنا الأمثل خاتمة أهل التحقيق وعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدي عبد القادر المشرفي شرف الله في الجنان مكانة...»⁽¹⁾.

يذكر عنه العالم الرحالة المعمر أبو حامد العربي بن عبد القادر المشرفي في كتابه "ياقوتة النسب الوهاجة في نسب أهل مجاجة"، قوله: «كان حافظا حجة في السيرة النبوية، لا يفوته فيها سؤال وإن أعضل، يحفظ البخاري متنا وإسنادا، وكذا صحيح مسلم، أعلم أهل زمانه بالتاريخ وأنساب العرب العرباء وشيوخ المذهب، طأطأ له العلماء الرؤوس، حج واعتمر ولقي أشياخا أخذوا عنه وأخذ عنهم، وفهرسته تشهد له بذلك»⁽²⁾، أسس زاوية دينية ومعهدا علميا بمسقط رأسه "الكرط"، أصبح فيما بعد في مستوى زاوية ومعهد القيطنة⁽³⁾، ظل يحظى بتقدير طلبته وعامة الناس حتى وافته المنية بموطنه غريس يوم الخميس العاشر من رمضان سنة 1192هـ أكتوبر سنة 1778م، ودفن بمقبرة الكرط.⁽⁴⁾

3-2- شيوخه وتلامذته:

درس المشرفي على يد العديد من الشيوخ، وأخذ العلم عن فطاحل علماء المشرق والمغرب، الذين أجازوه منهم: محمد بن محمد بن عربي، البناني المكي المالكي، علي بن محمد الميلي، محمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني، محمد بن حسن الميقاتي الإسكندري المالكي، مفتاح الدين بن حسان الدين البخاري⁽⁵⁾، الحافظ مرتضى الزبيدي محمد بن قاسم المحجوب التونسي... وغيرهم.⁽⁶⁾

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 37.

(2) - عبد الحي عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، ج2، اعتنى به: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص: 577.

(3) - فوزية لزغم: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1518-1830م، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، الجزائر، [د.ت.]، ص: 132.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي... المرجع السابق، ص: 412.

(5) - عبد القادر المشرفي الجزائري: المصدر السابق، ص: 06.

(6) - عبد الحي عبد الكريم الكتاني: فهرس الفهارس...، ج2، المصدر السابق، ص: 578.

حظي بمكانة هامة بين معاصريه من العلماء والفقهاء، خاصة بعد أن تولى التدريس في معهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة، وبذلك أصبح من الأساتذة البارزين وما يؤكد ذلك كثرة طلبته، فقد وصفه تلميذه الشيخ أبو راس بقوله: «انتفع به خلق كثير شريعة وحقيقة... له دروس حسنة بسلس عبارة وألف إشارة»⁽¹⁾.

قام بتأسيس زاوية دينية ومعهد، فكان مواظبا على بث العلم، فلا تخلو زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات⁽²⁾، تخرج علي يديه عدد كبير من الطلبة فقد ذكر أبو راس أن شيخه المشرفي: «أتقن علوما جمّة وبرع فيها... وأقر له كل من رآه بالبراعة والكفاية»، كان متمكنا في علم الأصول والفروع، وهو ما أشار إليه أبو حامد المشرفي: «فقد كان في علم الأصول والفروع بحر لا يجارى»⁽³⁾.

كان أبو راس يقضي وقته طيلة الليل منكبا على مطالعة الكتب والبحث في مشاق ومضان الحواشي والشروح، فكانت ابنته "زولة" تلاحظ تعبه فتطلب منه الاقتصار فيجيبها قائلا: «كيف ينام والدك وخلفه سقط»⁽⁴⁾، ظل المشرفي يدرس طلبته المتكاثرين على دروسه إلى أن وافته المنية⁽⁵⁾.

3-3- إنتاجه الفكري:

ترك عبد القادر المشرفي العديد من المؤلفات، منها رسالة محمد بن علي الخروبي⁽⁶⁾ المعروفة بـ: "الدرة الشريفة على أصول الطريقة"، نظمها بعنوان: «عقد الجمان الملتقط من

(1) - قدور بوجلال، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 549.

(2) - فوزية لزغم: الإجازات العلمية...، المرجع السابق، ص: 132.

(3) - قدور بوجلال، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 550.

(4) - عبد القادر المشرفي الجزائري: المصدر السابق، ص: 06.

(5) - قدور بوجلال، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 550.

(6) - محمد بن علي الخروبي: لا يعرف أين ولا متى ولد الخروبي ولكن نسبته إلى صفاقس وإلى طرابلس قد تكون إشارة إلى موطنه الأصلي، أما وفاته فكانت سنة 963هـ/1555م بالجزائر، خدم الخروبي الوجود العثماني في المغرب العربي وخصوصا في الجزائر بقلمه ودرسه وطريقته الصوفية، ينظر: (أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 498).

قعر قاموس الحقيقة الوسط»⁽¹⁾، كما ترك مجموعة رسائل إخوانية اهتمت بالفقه والأدب، من ضمنها رسالة موجهة للشيخ الحبيب الفيلاي، توجد ضمن أوراق الخزانة العامة بالرباط (تحت رقم: 258د)، وقد ذكر الدكتور عبد الله الركبي في كتابه "تطور النشر الجزائري" أن للمشرفي رحلة مخطوطة متواجدة بزواية الهامل.⁽²⁾

ألف رسالة ندد فيها بالقبائل التي تعاونت مع النصارى الإسبان بوهران أسماها⁽³⁾ "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبنى عامر"⁽⁴⁾، حققها الدكتور محمد بن عبد الكريم⁽⁵⁾، تعتبر هذه الرسالة من أهم مؤلفاته التي أتمها ما بين سنتي (1764-1765م)⁽⁶⁾، والتي حث فيها على الحذر من بعض المسلمين الذين تعاونوا مع الاحتلال الإسباني لمدينة وهران⁽⁷⁾، وقد قام مارسال بودان "Marcel Bodin" بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ونشرها في المجلة الإفريقية.⁽⁸⁾

4-الحسين الورتلاني:

4-1-التعريف به:

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن عبد القادر بن يحيى بن أحمد الشريف بن علي البكائي البجائي الحسين من شرفاء تافيلالت الورتلاني (نسبة إلى قبيلة قرب بجاية)

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 412.

(2) - المرجع نفسه، ص: 412-413.

(3) - يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة...، ج2، المرجع السابق، ص: 231.

(4) - بني عامر: هم الذين تنتسب إليهم القبيلة الآن نسبة لجدهم "عامر" بن إبراهيم بن يعقوب بن معروف، ينظر: (عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 21).

(5) - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، دار الوعي، الجزائر، 2017م، ص: 404.

(6) - قدور بوجلال، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 550.

(7) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 413.

(8) - Marcel Bodin: *Op.cit*, P: 193.

الجزائري⁽¹⁾، ولد عام 1125هـ/1713م، نشأ في وسط أسرة فقيرة، درس في المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده، وفي الزوايا أين تزلع في الفقه وعلم التوحيد، اهتم بالتصوف الروحي، التبخر في اللغة العربية وآدابها، النحو ودراسة التاريخ، كما درس لدى علماء وفقهاء منطقة زواوة، وفي ذلك يقول: «هؤلاء فقهاء مدرسون متبعون للسنة، وقد ظهرت عليهم آثار الفضل وأنوار الحق مشرقة عليهم، وقد صحبتهم وأحببتهم وشهدت من جميع ما يدل على ذلك»⁽²⁾.

حفظ القرآن الكريم في زاوية جده ووالده بقرية أنو المجاورة لقرية بني ورتلان على يدي شيخه يوسف بن بشران⁽³⁾، برز في أسرته العديد من العلماء، الفقهاء والمتصوفة، فوالده محمد السعيد كان عالما في التوحيد مدركا للتصوف وفقهيا محققا، يصفه بقوله: «...الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه إذ أنه في التحقيق بمكان...»، كان جده الحسين مدرسا، مطالعا، باشا وحافظا لمختلف الكتب التي تتناول علوم الظاهر والباطن، اشتغل مفتيا ومدرسا بجامع الأزهر بمصر⁽⁴⁾.

يصف الحفناوي في كتابه "تعريف الخلف" الورتلاني بقوله: «هو الإمام العالم العلامة، الكامل، الأستاذ الهمام، شيخ مشايخ الإسلام، الورع الصالح العابد، المتبع لأثر

(1) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية، ج1، تع: العلامة بن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها: محفوظ بوكراع-عمار بسطة، [د.ن.]، [د.ب.]، [د.ت.]، ص: 15.

(2) - عبد القادر بكاري: "حسين الورتلاني والكتابة التاريخية علم التاريخ والأخبار"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج:8، ع:1، جامعة معسكر، الجزائر، 2017م، ص: 44.

(3) - يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ص: 44.

(4) - عبد القادر صحراوي: "الورتلاني مقدمة عن رحلاته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:6، ع:2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجبالي اليباس، سيدي بلعباس، الجزائر، [د.ت.]، ص: 96.

الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق وكنز الدقائق، مفيد الطالبين ومربي السالكين، وقدوة العلماء العاملين»⁽¹⁾.

تشير الكتابات التاريخية بأنه شريف من أصل عربي وهو ما يؤكد في شجرة أنسابه⁽²⁾، مالكي المذهب أشعري الاعتقاد شاذلي الطريقة⁽³⁾، يعد من أسرة المرابطين (أهل الطرق) تدعي الشرف، تتقف في وطنه ثقافة عصره، يتردد على الزوايا الموجودة بمنطقته إلى أن أصبح مرابطا (شيخ الطريقة الشاذلية)، مما جعل الناس ينظرون إليه نظرة احترام وإجلال⁽⁴⁾.

صاهر أحفاد عائلة أولاد سيدي امحمد أمقران البطل الشهير في انتفاضة 1871م، حيث تزوج الورتلاني بعائشة بنت أحد أعيان القبيلة المرابطية من بني عيدل واسمه سيدي مسعود بن عبد الرحمن، كان لمؤلفنا وابنه زوجتان عويشة وفاطمة ابنتا عبد الله شيخ وفقهيه ورجل نبيل من قبيلة أولاد دراج، التي لا تزال تعيش حتى اليوم بين جبل بوطالب وشط الحضنة في الولجة بالقرب من بركة⁽⁵⁾، كما تزوج أيضا من بنت الشيخ سيدي بركات من بني يعلي، وقد اكتسب شهرة كبيرة بسبب مصاهراته المتنوعة التي وسعت من نفوذه الديني والاجتماعي⁽⁶⁾.

أدى فريضة الحج لثلاث مرات، الأولى رفقة أبيه وهو ابن الثامنة عشر 1153هـ/1740م، والثانية عندما بلغ الواحدة والأربعين 1166هـ/1752م، والثالثة سنة 1179-

(1) - أبي القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، تح: خير الدين شترة، دار كردادة، بوسعادة، الجزائر، ط1، 2012م، ص: 136.

(2) - Mahammed Hadj Sadok: «À travers la berbèrie orientale du 18 siècle avec le voyageur Al-Warhilânî», in R.A., Vol: 95, Alger, 1951, p: 317.

(3) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنتظار...، ج1، المصدر السابق، ص: 16.

(4) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص: 188.

(5) - Mahammed Hadj Sadok: *Op.cit.*, p: 318.

(6) - عبد القادر صحراوي: المرجع السابق، ص: 101.

1181هـ/1765-1767م والتي دامت ثلاث سنوات، وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره، وهذا ما ساعده على توسيع وتنمية معارفه أثناء حجه وإقامته بالحجاز ومصر.⁽¹⁾ نبغ في مختلف الفنون والعلوم، فقد كان مجدا في طلب العلم وتحصيله، وهو ما جعله يتبوأ مكانة هامة في قريته، حتى أصبح من العلماء البارزين، يرجع إليه في الفتوى وغيرها من المسائل الشرعية⁽²⁾، اعتلى خطبة الجمعة في عدة مساجد، لدرجة أنه كان ينتقل إلى المساجد في القرى البعيدة والمجاورة⁽³⁾، توفي بعد عمر قضاه معلما ومتعلما وهو في سن الثمانية وستين في شهر رمضان عام 1779م، ودفن بقريته بني ورتلان.⁽⁴⁾

4-2- شيوخه وتلامذته:

درس الحسين الورتلاني على يد العديد من الشيوخ، سواء في قريته بني ورتلان أو من خلال تنقله إلى بعض المدن الجزائرية، ففي بلدته أخذ العلم على يد والده خاصة ما تعلق بالفقه، كما درس لدى الشيخ أحمد زروق بن أحمد بن الشيخ العنابي، الشيخ علي بن أحمد بن عبد الله، الشيخ اليعلاوي وهو تلميذ جده الحسين⁽⁵⁾. إن رغبته في زيادة طلب العلم والمعرفة، جعلته يرتحل خارج الجزائر قاصدا مراكز علمية أخرى، وقد ساهمت رحلاته باتجاه الحج بشكل كبير في توسيع معارفه من خلال الاحتكاك بعلماء من تونس، ليبيا، مصر والأراضي المقدسة.⁽⁶⁾

اجتمع بالشيخ الهماق صاحب الطريقة المشهورة بالمدينة المنورة، كما درس لدى علماء مصر أبرزهم الحفناوي، النفراوي، البليدي، الصباغ والفيومي، حيث حصل أثناء إقامته

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 418.

(2) - العمري بلاعة: "الرحلات الجزائرية الحجازية الرحلة الورتلانية أنموذجا"، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، مج: 1، ع: 1، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2016م، ص: 125.

(3) - Mahammed Hadj Sadok: *Op.cit*, p: 318.

(4) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنتظار...، ج 1، المصدر السابق، ص: 17.

(5) - عبد القادر صحراوي: المرجع السابق، ص: 98.

(6) - المرجع نفسه، ص: 98.

بالأزهر على إجازة في العلوم العقلية، النقلية وبأوراد الطريقة الشاذلية⁽¹⁾، كما أخذ بتونس عن الشيخ محمد بن عبد العزيز، واجتمع بكثير من علمائها منهم الشيخ قاسم المحجوب، محمد الغرباني والشيخ صالح الكواش وغيرهم كثير.⁽²⁾

يورد الحفناوي أن الورتلاني بعد رحلاته للمشرق وطلبه للعلم رجع إلى قريته⁽³⁾، حيث قرر الاستقرار بمسجد أسرته، معتكفا للعبادة والتدريس والوعظ⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول: «...ثم رجع من المشرق بعد أن امتلأ وطابه (حصل الكثير من العلوم)، وفاض عبابه، فعلم وأفاد وألف وأجاد، ودعا إلى الله العباد، وقهر الجهلة أهل التعصب والعناد»⁽⁵⁾. وبسبب شهرته قصده الطلاب والزوار من داخل الجزائر وخارجها طلبا للعلم⁽⁶⁾، منهم محمد بن الفقيه، محمد السكلاوي الجزائري، يحيى بن حمزة، محمد بن عبد الله، محمد الجوادي، محمد بن خروف، محمد الصالح.⁽⁷⁾

4-3- إنتاجه الفكري:

ترك العديد من المؤلفات في مختلف العلوم، كالفقه، الحديث، التصوف والنحو⁽⁸⁾، غير أن أغلبها ضاع، من بين شروحه شرح على الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني، شرح على وظيفة الشيخ يحيى العيدلي وبعض كراماته وحاشيته على كتاب الماردي⁽⁹⁾، شرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضرى في التصوف، وهي منظومة في آداب

(1) - العمري بلاعة: المرجع السابق، ص ص: 125-126.

(2) - محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص: 257.

(3) - أبي القاسم محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص: 137.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 419.

(5) - أبي القاسم محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص: 137.

(6) - عبد القادر صحراوي: المرجع السابق، ص: 100.

(7) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار...، ج1، المصدر السابق، ص: 16.

(8) - عائشة دباح: "الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات-رحلة الورتلاني أنموذجاً"-، مجلة قضايا تاريخية، مج:2، ع:4، مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة بالمدرسة العليا بوزريعة، الجزائر، 2017م، ص: 53.

(9) - يحيى بوعزيز: أعلام الفكر...، ج1، المرجع السابق، ص: 46.

السلوك في طريق السنة نظمها عام 1538م، حيث شرحها في كتاب سمي "الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية"، إضافة إلى شرح بردة البوصيري، وكتاب الصلاح والعديد من التأليف.(1)

من أشهر مؤلفاته، رحلته الموسومة(2) "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"(3)، ونظرا لأهميتها تعتبر من المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها في التعرف على أوضاع الجزائر، تونس، ليبيا، مصر والحجاز في القرن 12هـ/18م، فهي تصف بدقة حالة المسالك، العمران، محطات القوافل، الواقع الثقافي والفكري، كما قدمت ترجمة للعديد من العلماء(4)، حيث وصفها الحفناوي بقوله: «الرحلة السنية، التي سارت بها الركبان، وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها، فهي حصن حصين، ودرع متين...».(5)

عرفت هذه الرحلة بـ "الرحلة الورتلانية"(6)، فقد كان أثناء رحلاته الثلاث للحج يسجل كل ما يشاهده أو يسمع به أثناء فترة استراحة القافلة في دفاتر وأوراق على شكل مذكرات وتقييدات، حتى لا تضيع منه المعلومات، وبعد عودته إلى وطنه أخذ في كتابة الرحلة وترتيبها، حيث انتهى من تدوينها ونسخها ضحى الإثنين الفاتح من شهر شعبان عام 1182هـ (18م). (7)

(1) - عبد القادر بكاري: حسين الورتلاني والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 45.

(2) - العمري بلاعة: المرجع السابق، ص: 126.

(3) - دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003م، ص: 292.

(4) - حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 218.

(5) - أبي القاسم محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص: 137-138.

(6) - عائشة دباح: المرجع السابق، ص: 53.

(7) - بلاعة العمري: المرجع السابق، ص: 126-127.

5- محمد بن رقية التلمساني:

5-1- التعريف به:

هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني بن رقية الجديري الأصل والتلمساني الدار والمنشأ، لم تتح معلومات كثيرة حول حياته، ولم تذكر المصادر تاريخ ولادته، لكن يستنتج ذلك من خلال معاشته لأحداث بارزة عرفت الجزائر خلال القرن 12هـ/18م.⁽¹⁾

يعد من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية⁽²⁾، وذلك بفضل شيوخ وعلماء تلمسان كما هو مقيد في خاتمة تأليفه⁽³⁾، أما فيما يخص وفاته، فقد اتفق أغلب من ترجم له أنها كانت بعد سنة 1194هـ/1780م⁽⁴⁾، وهو ما ذهب إليه خير الدين الزركلي، أي بعد الانتهاء من وضعه لمخطوط "الزهرة النائرة"، غير أن الراجح أن سنة وفاته كانت بعد ذلك بكثير وتحديدا بعد سنة 1222هـ/1807م، وهو تاريخ آخر الدايات⁽⁵⁾، وما يثبت ذلك هو أن الآغا بن عودة المزاربي في كتابه "طلوع سعد السعود" ذكر قائمة لحكام الجزائر خلال العهد العثماني أقر فيها أنه نقله من محمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني، حيث تنتهي باسم دالي إبراهيم حاكم إيالة الجزائر سنة 1222هـ/1807م، مما يدل على أنه توفي سنة 1808م، على اعتبار أن دالي إبراهيم آخر الحكام العثمانيين الذين عايشهم محمد بن محمد بن عبد الرحمن⁽⁶⁾،

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 121.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 425.

(3) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 121.

(4) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 18.

(5) - خير الدين سعدي: "الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1518-1775م) من خلال مخطوط الزهرة النائرة لابن رقية التلمساني"، مجلة دراسات وأبحاث، مج: 15، ع: 29، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2017م، ص: 90.

(6) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 19-20.

عاصر بن رقية التلمساني مرحلة من مراحل حكم الدايات، والتي تميزت بالاستقرار النسبي خاصة في عهد محمد بن عثمان باشا.(1)

5-2- إنتاجه الفكري:

من مؤلفاته كتاب "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها الكفرة"(2)، خصصه للحديث عن تاريخ غارات النصارى على الجزائر، انتهى من تأليفه في الرابعة عشر من ذي الحجة سنة (1193هـ/1779م)، وهو ما أشار إليه في تصنيفه، ركز فيه على ذكر الحملات التي تعرضت لها الجزائر منذ بداية العهد العثماني إلى غاية حكم الدايات محمد عثمان باشا.(3)

توجد عدة نسخ مخطوطة للزهرة النائرة، منها نسخة بالمكتبة الوطنية الجزائرية في حوالي خمسين ورقة تحت رقم: 1626 بتاريخ 12 جمادى الثانية 1194هـ(4)، كما توجد نسخة أخرى تحت رقم: 419 بمكتبة ميونيخ، وأخرى بمكتبة سعد الدين بن أبي شنب، وقد كان ألفونس روسو (A. Rousseau) أول من ترجم الزهرة النائرة للغة الفرنسية بعنوان: "يوميات إيالة الجزائر" والتي نشرت سنة 1841م.(5)

قام الباحث سليم بابا عمر بتحقيق النص الأصلي للزهرة النائرة ضمن دراسة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة من جامعة الجزائر، حيث نشره في مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 1967/3م.(6)

(1) - خير الدين سعدي: المرجع السابق، ص: 91.

(2) - عادل نويهض: المرجع السابق، ص: 108.

(3) - ناصر الدين سعديوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 425.

(4) - المرجع نفسه، ص: 427.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 122.

(6) - ناصر الدين سعديوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 427.

6- عبد الرزاق بن حمادوش:

6-1- التعريف به:

هو أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج بن محمد بن محمد بن امحمد المعروف بابن حمادوش الجزائري الدار، الأشعري العقيدة، المالكي المذهب، الشريف النسب، مؤرخ، نسابة وطبيب⁽¹⁾، عاش خلال القرن 12هـ/18م، ولد في مدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م، تلقى تعليمه بها، وتزوج هناك، تولى بها بعض الوظائف الدينية، أخذ يجوب العالم الإسلامي منذ العشرينيات من عمره.⁽²⁾

عرفت عائلته بحرفة الدباغة، لذا كان والده يعرف بالحاج محمد الدباغ، وقد تحدث ابن حمادوش عن حرفة أخرى كان يمارسها وهي تجليد الكتب ونسخها⁽³⁾، عانى في حياته من الضيق والفقر، لذلك اضطر إلى الهجرة طالبا للعلم والرزق عن طريق التجارة، غير أنه لم يوفق في الجمع بين العلم والتجارة بسبب عدم مفارقتها للكتب حسب ما ذكر.⁽⁴⁾

عُرف بترده على المغرب الأقصى للتجارة والعلم، حيث أطل فيه الإقامة واصفا نشاطه هناك، وبعد أكثر من عام عاد إلى وطنه، وقد اكتسب علما غزيرا، لكن تجارته كسدت وأوشك على الهلاك كما صرح بذلك⁽⁵⁾، أدى فريضة الحج مرتين بين سنوات (1130 و1161هـ)، كما انتقل إلى المغرب الأقصى مرتين على الأقل بين سنوات (1145 و1156هـ).⁽⁶⁾

(1)- عبد القادر بكاري: "عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، مجلة عصور الجديدة، مج:7، ع: 26، مختبر تاريخ جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2017م، ص: 237.

(2)- عبد الرزاق بن حمادوش: المصدر السابق، ص: 09.

(3)- فريدة مقلاتي: "صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري (المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج:8، ع:4، المركز الجامعي، تمنراست، الجزائر، 2019م، ص: 444.

(4)- حنيفة هلايلي: أوراق... المرجع السابق ص: 257.

(5)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 426-427.

(6)- ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 432.

عُرف بميله إلى العلوم الرياضية والطبية، فهو صيدلي، طبيب، حساب، فلكي ومنطقي، وهذا ما ميزه عن ثقافة معاصريه الذين اهتموا بالعلوم الدينية، كما برع أيضا بالفقه، النحو، التصوف، الأدب والتاريخ⁽¹⁾، وقد أُلّف في هذه العلوم، إلى جانب ذلك اهتم بكتب التراث العلمي العربي واليوناني، حيث طالع كتب إقليدس، غاليلان، بن سينا، الأنطاكي، بن البيطار، الفلصادي، الحسن المراكشي وأمثالهم، كما أعجب بكتاب الملطي وهذا ما يظهر مدى اهتمامه بالجانب العلمي وإهماله للجانب التجاري، مما جعله يعيش مع عائلته وضعا اقتصاديا صعبا.⁽²⁾

كان أول زواج له من ابنة عمه البكر، أما في زواجه الثاني فقد تزوج ثيبا وهي ابنة أمين النحاسين، التي أنجب منها ولدين، توفي أحدهما وهو صغير، ولم يكن سعيدا في زواجه الثاني ولا مع أسرته (أمه وأخته)، بسبب فقره من جهة، ولانشغاله بالكتب وطلب العلم من جهة أخرى.⁽³⁾

يمكن القول بأنه من العلماء الذين لم يستفيدوا من الحكام العثمانيين، حيث يذكر أبو القاسم سعد الله أنه: «لم يتقلد مناصب إدارية ولا مناصب دينية كالفتوى والقضاء والتدريس الرسمي، ولم يتقرب إلى الولاة والوزراء»، فرغم الصعوبات المادية والمشاكل العائلية إلا أنه فضل ضيق العيش على التذلل والتقرب للحكام العثمانيين.⁽⁴⁾

عاصر بن حمادوش العديد من الأحداث التي جرت بالجزائر وفي العالم، كاستقلالها عن الدولة العثمانية في عهد الدايات، وتسلم اليهود للاقتصادي على مستوى العالم الإسلامي، كما شهد الصراعات التي جرت بين الجزائر وتونس والعديد من الأحداث.⁽⁵⁾

(1) - عبد الرزاق بن حمادوش: المصدر السابق، ص: 10.

(2) - فريدة مقالاتي: المرجع السابق، ص: 445.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص: 223.

(4) - حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 258-261.

(5) - عبد الرزاق بن حمادوش: المصدر السابق، ص: 9-10.

يذكر أبو القاسم سعد الله بأنه عاش، إلى أن تجاوز التسعين حسب ما ذهب إليه بعض الباحثين⁽¹⁾، وأنه توفي في مكان وتاريخ مجهولين، لكن أغلب الظن أن المنية وافته وهو بالمشرق بين سنوات 1197هـ/1783م و1200هـ/1786م.⁽²⁾

6-2- شيوخه وتلامذته:

تلقى ابن حمادوش العلم على يد علماء الجزائر، المغرب، تونس والشرق، حيث قرأ عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون⁽³⁾، من أهم الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم في مدينة الجزائر الشيخ محمد بن ميمون⁽⁴⁾، محمد بن نيكرو، القاضي مصطفى بن رمضان العنابي⁽⁵⁾، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحق والمكانة في مجتمع عصرهم أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) والمفتي الشاعر بن علي، عبد الرحمن الشارف وأحمد الزروق البوني.⁽⁶⁾

إن من أبرز العلماء المغاربة الذين قابلهم وحضر دروسهم، الشيخ محمد البناني، وهو رجل تقى ذو ميل واهتمام بجميع العلوم الفقهية والأدبية، حيث التقى به في مدينة تطوان سنة 1156هـ/1743م، وقد ذكره كثيرا في مؤلفه، بعد أن خصه بقصيدة مدحه فيها حيث يقول:

أيا شيخنا البناني الاسم محمد فقد شهدت لك الأكابر بالفضل
كأنك لقمان في علمك والهدى أو أنك حسان إذا فهت بالقول.⁽⁷⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 425.

(2) - عبد القادر بكاري: عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 237.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 224.

(4) - فريدة مقالاتي: المرجع السابق، ص: 445.

(5) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 426.

(6) - فريدة مقالاتي: المرجع السابق، ص: 445.

(7) - عبد القادر بكاري: عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 255.

إضافة إلى الشيخ أحمد الورززي الذي ناقشه عند حضور دروسه وتبادل الآراء معه⁽¹⁾، كما درس عند أحمد السرائري وأحمد بن المبارك، وحصل منهما على إجازتين، وأخذ في الطب على يد عبد الوهاب أدراق طبيب السلطان إسماعيل وأولاده⁽²⁾، وقرأ في تطوان على يد الشيخ عبد الله جنان، أما في مكناس فقد التقى بالشيخين عبد السلام القباب والشيخ عبد القادر الفاسي، غير أنه لم يحصل منهما على علم حسب رأيه يذكر أن أحمد المبارك من الذين أجازوا ابن حمادوش⁽³⁾، أما في تونس فتدارس العلم على يد الشيخ محمد زيتونة والشيخ محمد الشافعي⁽⁴⁾.

يظهر من خلال العلماء الذين درس عندهم، أنه كان شغوفا بطلب العلم، لذلك كان كثير الترحال، حيث طاف العديد من مدن العالم الإسلامي كتطوان، مكناس، فاس، تونس والحجاز، والتقى بعلمائها واستفاد من علمهم طالبا للإجازة لنفسه أيضا، وهو ما جعل رحلته مليئة بأخبار عصره⁽⁵⁾.

6-3- إنتاجه الفكري:

ترك العديد من التأليف، التي تميزت بالطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي، الذي كان منتشرا لدى علماء عصره ومن مؤلفاته:

- شرح على قصيدة الربع على كردفر، تأليف في الاسطرلاب والربع المقنطر، إضافة إلى تأليف أخرى في المنطق "الدرر على المختصر"، وفي النحو "السانح" وهو شرح على ألفية بن مالك، كما ترك في الأدب "ديوان شعر"، إضافة إلى بعض المقامات الأدبية⁽⁶⁾.

(1)- عبد القادر بكاري: عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية... المرجع السابق، ص: 255.

(2)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 426.

(3)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 238.

(4)- المرجع نفسه، ص: 225.

(5)- فريدة مقالاتي: المرجع السابق، ص: 445.

(6)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 227.

- كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب.(1)
 - تعديل المزاج.(2)
 - بغية الأديب في علم التكعيب.
 - الجوهر المكنون من بحر القانون.(3)
- كما كانت له تآليف أخرى لم يذكر لها عناوين منها:
- تآليف في الفلك جمع فيه التواريخ السبعة التي تعلمها.
 - تآليف في علم البلوط (أو معرفة الطرق البحرية).
 - خارطة لرسم اتجاهات رياح البحر.
 - تآليف في عمل البونبة.
 - تآليف في الطاعون الذي أصاب الجزائر في وقته، لكنه لا يعرف له عنوان.(4)
- اشتهر ابن حمادوش في مجال أدب الرحلة والتاريخ برحلته المعروفة بـ "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، والتي سجل فيها ما شاهده شخصيا من أحداث ووقائع لفترة الأربع سنوات من حياته 1156-1161هـ/1743-1748م، وقد وضعها في شكل مذكرات شخصية⁽⁵⁾، تتكون من عدة أجزاء، غير أن المتوفر منها هو الجزء الثاني وهو بدوره مبتور، في حين أن الجزء المتوفر من رحلته لا يتحدث عن الحياة بالجزيرة العربية رغم أنه أدى فريضة الحج سنة 1125هـ/1713م، مقتصرًا على وصف الحياة بالمغرب الأقصى يشير سعد الله أن هذه الرحلة من هذه الناحية ليست حجازية، لكنه يكون قد سجل تفاصيل كثيرة عن أوضاع الجزيرة العربية أثناء حجه، غير أننا لا نملك بقية أجزاء الرحلة⁽⁶⁾، ومما يدل على أن رحلة ابن حمادوش في جزئها الأول مفقودة، هو ذكره من البداية في رحلته بأنها

(1)- نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص: 223.

(2)- حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 259.

(3)- عبد القادر بكاري: عبد الرزاق بن حمادوش والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 238-239.

(4)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 430-431.

(5)- ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 433.

(6)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 182.

الجزء الثاني من الرحلة، مما يوحي لنا على أن هناك جزءاً أولاً منها، لكنه في حكم المفقود. (1)

أشار أبو القاسم سعد الله، إلى أن النسخة الوحيدة من المخطوط موجودة بالخرانة العامة بالرباط تحت رقم: 463 وهي في شكل مسودة⁽²⁾، أما الجزء المتبقي من رحلة "لسان المقال" فيتكون من ثلاثة أقسام، الأول خصص للمغرب الأقصى، الثاني يتعلق بنشاطه الشخصي بالجزائر من تأليف، قراءات وتدریس، أما القسم الثالث فيتألف من النصوص والوثائق المختلفة كقائمة بولاية الجزائر ونقولات مطولة من بعض الكتب. (3)

تعد هذه الرحلة مصدراً مهماً للتعرف على الحياة الاجتماعية والثقافية للجزائر والمغرب في القرن 12هـ/18م، فقد انفردت عن غيرها من رحلات الرحالة المغاربة كونها خاصة بالمغرب دون المشرق، وهي تعد جزءاً من التراث العلمي والأدبي الجزائري في 12هـ/18م. (4)

اهتم المسلمون برحلة بن حمادوش، لما تحتويه من أخبار سياسية، دينية واجتماعية، غير أن اهتمام العلماء الأوروبيين بها، كان منصباً حول تأليفه العلمية، منهم لوسيان ليكيريك وغبريال كولان، اللذين اهتمتا به لأنه ألف عن الطب الشعبي العربي، فترجم له الأول الجزء الخاص بالأعشاب والمعروف (بكتشف الرموز) والذي نشره بالفرنسية. (5)

7- أحمد بن سحنون الراشدي:

7-1- التعريف به:

هو أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، ينتسب إلى أسرة من بني راشد، عرفت بمساهماتها في الجهاد، يشير ناصر الدين سعيدوني أنه لا يعرف عن حياته إلا

(1) - عبد الرزاق بن حمادوش: المصدر السابق، ص: 13.

(2) - نصيرة بحري: "استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائر"، مجلة مدارات تاريخية، مج: 1، ع: 4، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، الجزائر، 2019م، ص: 393.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 433-434.

(4) - عبد القادر بكاري: عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 238.

(5) - عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص: 11.

القليل، فهو من مواليد النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، نشأ بمدينة معسكر، تولى وظيفة الكتابة لدى الداوي محمد الكبير باي الغرب 1193-1211هـ/1779-1796م⁽¹⁾، أما والده قاضي معسكر الشيخ محمد بن علي سحنون، والذي كان أستاذا للناصري، عاصر ابن سحنون أحداث فتح وهران أثناء تحريرها، فقد لازم بلاط الباوي الفاتح، حيث يعد صديقا مقربا لابنه عثمان⁽²⁾، كما كان ملازما للداوي مصطفى بن يوسف بوشلاغم الذي شارك معه في صد الهجوم الإسباني على مدينة وهران أثناء تحريرها الأول عام 1119هـ/1708م.⁽³⁾ إن أساس ثقافته ديني (فقيه)، كما يعد أيضا شاعرا وناثرا، ذلك أنه تميز بتمكنه الأدبي خاصة في اللغة، وعموما فإن ثقافته تميزت بالشمولية، كونه ملما بالعديد من الأحداث التي جرت في عصره⁽⁴⁾، توفي عام 1211هـ/1796م.⁽⁵⁾

7-2- شيوخه وتلامذته:

تتلمذ على يد شيخه محمد بن عبد الله الجلاوي متولى المدرسة المحمدية بمعسكر⁽⁶⁾، الذي ذكره في إجازته بأنه قرأ عليه صحيح البخاري، القرآن الكريم وألفية بن مالك⁽⁷⁾، تولى بن سحنون وظيفة تدريس طلبة الرباط أثناء محاصرة الباوي لوهران سنة 1203هـ/1789م.⁽⁸⁾

7-3- إنتاجه الفكري:

ترك عدة تأليف منها:

اختصاره لكتاب الأغاني في نحو ثمانين صفحة، جمع طب القاموس وزاد عليه من كلام الأطباء، كتاب في الأدب سماه "عقود المحاسن" والذي ذكر أنه لم يقدمه إلى الباوي،

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 439.

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م وبداية القرن 19م -دراسة تحليلية نقدية-، دار الملكية، الجزائر، ط1، 2007م، ص ص: 68-69.

(3) - يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة...، ج2، المرجع السابق، ص: 248.

(4) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 69.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 439.

(6) - المرجع نفسه، ص: 439.

(7) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 69.

(8) - المرجع نفسه، ص: 69.

كتاب شرح العقيقة، الأزهار الشقيقة، غير أن إنتاجه هذا يعد في حكم المفقود⁽¹⁾، وفي ذلك يقول ابن سحنون: «...ثم أمرني باختصار (الأغاني) فاختصرته في نحو الثمانين كراسة فأثابني بمائة سلطاني، ثم أمرني أيضا بجمع طب (القاموس) فضممته وزدت عليه من كلام الأطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب فأثابني عنه بخمسين سلطانيا، وقد كنت ألفت باسمه كتابا في الأدب سميته (عقود المحاسن) فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه، وفي أيامه السعيدة شرحت (العقيقة) شرحا ضخما عجيبا»، وهنا إشارة إلى أن الباي محمد الكبير هو من طلب منه التأليف فلبى طلبه مما أدى بالباي إلى إكرامه.⁽²⁾

يعد كتاب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"⁽³⁾ مصدرا هاما، ركز فيه على شرح أرجوزة وضعها ابن سحنون في الفتح الثاني لوهران (1206هـ/1791م)، حيث أشاد بفتحها محمد الكبير⁽⁴⁾، بدأ في نظم هذه الأرجوزة عندما سمع بحدث محاصرة وهران من طرف الباي محمد الكبير أثناء عودته من الحج وهو بجزيرة جربة وأتمها مع فتح وهران في الخامس من شهر رمضان من سنة سبع ومائتين وألف⁽⁵⁾ الموافق لشهر أبريل 1793م⁽⁶⁾ يعد من المصادر الأساسية للتعرف على الحياة الثقافية والاجتماعية للغرب الجزائري⁽⁷⁾ توجد منه نسخة نادرة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: 5114، ومخطوطة خاصة بملكية الشيخ المهدي البوعبدلي وأخرى بالملكية التيمورية بالقاهرة تحت رقم: 2186.⁽⁸⁾

(1) -رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 69-70.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 155.

(3) - يحي بوعزيز: أعلام الفكر...، ج2، المرجع السابق، ص: 248.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 439.

(5) - المرجع نفسه، ص: 439-440.

(6) - ودان بوغفالة: الثورة الفرنسية الكبرى عند علماء معسكر - أحمد بن سحنون الراشدي نموذجا-، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2014م، ص: 29.

(7) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 442-443.

(8) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 70.

8-ابن زرفة:

8-1-التعريف به:

هو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن زرفة الدحاوي-زرفة هي مرضعة جده-من شرفاء غريس بالغرب الجزائري⁽¹⁾، وهو حفيد العالم الجليل عبد الرحمن بن علي⁽²⁾.

يشير المختار بن الطيب الغريسي إلى نسب الشيخ مصطفى بن زرفة بقوله: «هو من الأشراف الذين لا شك في شرفهم ولا خلاف أولاد سيدي دحو بن زرفة وهذه القبيلة من أصح القبائل نسبا وأوضحها حسبا وأشدّها بأسا وأعظمها في القديم جاها وأكثرها تعاطيا لله للعلوم وأولاهما بتحقيق المنطوق والمفهوم ولجدهم احترام عند ملوك الأتراك»⁽³⁾، ويضيف قائلا حول أصولهم: «أن سلفهم من الأندلس وهم من بني حمود الذين كانوا ملوكا بها... لذلك لم يخرجوا عن طريقة أهل الأندلس من تعاطي الشعر والتأنق في الكلام وارتكاب أبواب الفصاحة وكانت الرياسة فيهم زمن ولاية الأتراك»⁽⁴⁾.

لا يعرف بالتحديد مولده، لكنه يعد من المشاركين في حصار فتح وهران الثاني، حيث يرجح بأنه كان في عنفوان شبابه سنة 1206هـ/1791-1792م⁽⁵⁾.

بقي الكثير من الغموض يكتنف هذه الشخصية، حيث لا توجد معلومات كثيرة حول حياته الخاصة أو العائلية، فلا يعرف عن والده عبد الله أية معلومات ولا عن والدته أيضا، غير أن ابن سحنون يشير إلى أن له أخا شارك معه في فتح وهران، لكنه لم يذكر اسمه ولا

(1) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 71.

(2) - فاطمة درعي: "العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 7، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجيلالي اليباس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2016م، ص: 151.

(3) - المرجع نفسه، ص: 151.

(4) - المرجع نفسه، ص: 151.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 127.

نشاطاته خلال الفتح، ولا يعلم من هي زوجته أو أزواجه وعدد أولاده، هذا التعظيم مرده للشيخ محمد المصطفى الدحاوي نفسه، ففي جل كتاباته لم يذكر شيئاً عن نفسه غير اسمه.⁽¹⁾

ارتكز تعليمه في المرحلة الأولى على حفظ القرآن الكريم، حيث اهتم بالفقه، الحديث والتوحيد، ونبغ في علوم عصره خاصة العلوم الدينية، تولى منصب الكتابة لدى الباي محمد الكبير، وعين كمساعد لرئيس رباط إيفري للطلبة قرب وهران، وبعد فتحها عينه الباي محمد الكبير قاضياً بها.⁽²⁾

مدح أبو راس تلميذه ابن زرفة في قوله: «كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين، الذي لا يتحرك إلا بقلب حاضر، ولسان ذاخر، عظيم القدر، رفيع الذكر، العالم الأصفى، والتقي الأضفى، تلميذنا الشيخ مصطفى بن عبد الله بن دحو، أنجب من كل من حثوا في طلب العلم ولحوا، جليل متفنن حفيل، عدل ماجد، كاتب بارع، ناظم ناثر، ذو المعاني والإعراب، والفنون والآداب، والكرم والفضائل، مع الحسب الأصيل، والمعارف والتحصيل نشأ على عفاف وطهارة، وحسن سمت وشارة، مجتنب المواضيع الأريبة حتى توفي في حال الشيبة».⁽³⁾

يعرف المزارى صاحب كتاب "طلوع سعد السعود" ابن زرفة في قوله: «من علماء الراشدية الأذكياء، السادات الكرام الأصفياء وهو العلامة الأجل والقودة الأجل، مؤلف كتاب: فتح وهران النقاد الراوي الخالي من سائر المساوى، أحد شرفاء غريس الشريف الحسني السيد مصطفى بن عبد الله الدحاوي».⁽⁴⁾

(1) - تقي الدين بوكعير، دحو فغرور: "الإسهامات العلمية للشيخ محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي المعسكري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج:15، ع:1، جامعة معسكر، الجزائر، 2019م، ص: 87-88.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 128.

(3) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [د.ت.]، ص: 72.

(4) - الآغا بن عودة المزارى: المصدر السابق، ص: 63.

توفي ابن زرفة بالطاعون سنة 1215هـ/1800-1801م، في عهد الباي عثمان بن محمد الكبير⁽¹⁾، كما يثبتته مسلم بن عبد القادر الوهراني، فقد عاش تسع سنوات فقط بعد فتح وهران الثاني، وبالتالي كانت وفاته في فترة شبابه⁽²⁾.

8-2- شيوخه وتلامذته:

شيوخه الذين تتلمذ على أيدهم هم:

الشيخ المكي بن عيسى، وقد ذكره محمد المصطفى في رحلته بأوصاف تنم عن عمله وتفوقه بين أقرانه، حيث يقول: «شيخنا الفقيه الفرضي النحوي اللغوي الشاعر العروضي آخر قضاة العدل أبو عبد الله السيد المكي بن عيسى»⁽³⁾.

يظهر من خلال ما ذكره ابن زرفة عن شيخه، أنه حصل منه علم الفقه والفرائض وعلم النحو، وقد كان الشيخ المكي من المقربين من الباي محمد الكبير، حيث كان رسوله إلى الطلبة برباط وهران، من شيوخه أيضا أبو طالب المازوني، يذكر البعض أنه من مواليد المائة الحادية عشر هجري، تعلم بمسقط رأسه، حيث حفظ القرآن الكريم على يد والده علي بن عبد الرحمن، أخذ علم الحديث على يد علماء عصره من أشهرهم شيخ الجماعة بالجزائر القاضي المفتي أبي عبد الله محمد بن جعدون والشيخ بن علي الشريف الزاوي، كما تولى التدريس طيلة أربع وأربعين سنة بعد وفاة والده سنة 1189هـ/1775م⁽⁴⁾.

يعد ابن زرفة من تلامذة أبي راس الناصري، كان يقوم بتقريض (الإشادة والثناء) بعض تآليف شيخه⁽⁵⁾، وقد مدحه من خلالها، والذي نقله لنا هذا الأخير في قوله: «ومما مدح به العلامة الأبر الجهبين الأشهر، حائز رئاسة "وهران" و"أم معسكر"، الأستاذ

(1) - الباي عثمان بن محمد: عثمان بن محمد بن عثمان ثالث بايات وهران، تولى الحكم سنة 1799م بعد موت أبيه بأيام قلائل، وقد نقل مقر الحكم من البرج الأحمر إلى القصبية، بقي في الملك ثلاثة أعوام، ينظر: (الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 298).

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 71.

(3) - تقي الدين بوكعبر، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 88.

(4) - المرجع نفسه، ص: 88-90.

(5) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 71.

النحير، ذو الإتقان والنحير، المؤيد بالله أبو عبد الله سيدي محمد المصطفى بن عبد الله هذا التأليف ومؤلفه وهو شيخه أنجب الأكياس، ذو النور فوق نور النبراس، الشيخ محمد "أبو راس" أمنا وإياه من الشيطان الماكر الغادر الوسواس قدس الله روحه وأسكنه دار الفرديس أعلى بحبوحة» وهو قوله:

ليت شعري هل أرى من نصير	منصف لمجد الكرام الأفاضل
يطنب القول في امتداح فقيه	لاح نوره في سماء الفواضل
أبا راس للعلماء أنت عماد	أنت نجم الهدى شفاء العراقل
لم تزل عاضد الفقه منذ زمان	ككوكب سعد منه حين تناضل
فثنيت عنان نصحك للنحو	وفيه شفيت كل غلائل.(1)

نظرا لمكانته العلمية استطاع أن يستقطب العديد من الطلبة، الذين وصفهم أبو راس بالنجباء، غير أن المصادر لم تشر إلى أسمائهم⁽²⁾، كما عين الباي محمد الكبير نخبة من كبار العلماء على رأسهم مصطفى بن زرفة الدحاوي، وذلك أثناء قيامه ببناء المدرسة المحمدية الملحقة بالجامع الأعظم والتي جهزت بخزانة كتب، كانت من الأحباس التي أوقفها على هذه المدرسة، وقد عُين للإشراف على طلبتها.⁽³⁾

عُرف عن الشيخ محمد المصطفى تأثيره الكبير على المشاركين من الطلبة في فتح وهران، حيث كانوا المساندين له⁽⁴⁾ أثناء وقوع خلاف بينه وبين أحد أبناء عمه، وهو ما أدى إلى انقسامهم إلى فريقين، أحدهما معه والآخر ضده⁽⁵⁾، حيث يشير ابن سحنون أنه خلال فتح وهران تم إبعاده عن الرباط وأعيد إلى معسكر بسبب خلافه مع ابن عمه داخله، مما أدى بكلا الفريقين إلى مراسلة الباي يشكوانه تصرفات كل طرف، فقرر هذا الأخير إبعادهما

(1) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله... المصدر السابق، ص: 72-73.

(2) - تقي الدين بوكعبر، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 93.

(3) - فاطمة درعي: المرجع السابق، ص: 154.

(4) - تقي الدين بوكعبر، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 93.

(5) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 252.

عن الرباط، ولم يعد بن زرفة إلا بعد توسط الطلبة له لدى الباي بطلب من أخيه⁽¹⁾، وفي ذلك يقول ابن سحنون: «...إن أخا السيد المصطفى بن عبد الله قدم في غمارهم وسأل منهم أن يطلبوا الأمير برد أخيه السيد المصطفى إلى يفري فأسغفهم بذلك...»⁽²⁾.

8-3- إنتاجه الفكري:

يشير يحي بوعزيز أن لابن زرفة كتاب "فتح وهران وجامع الجوامع الحسان"، وفي اعتقاده أنه نفس الكتاب الذي سماه الرحلة القمرية، لأن موضوعها واحد على ما يبدو⁽³⁾، يورد أبو راس تأليفه في قوله: «...وله كتابات على أسئلة كبار، كأنها من "الدرر" أو "العيار"، ومناظرات وأجوبة مع العلماء... وله أيضا -في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم- قصائد فيها من البلاغة عجائب وغرائب، وبالجملة أني لم أر من يخلفه في الغالب، فهو خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق، يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق، مع عقل وديانة، وعفاف وكفاف وصيانة...»⁽⁴⁾.

إن الإشارة إلى "الدرر" يقصد بذلك "كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة لابن زكريا بن يحي" أو المعيار إشارة إلى كتاب "المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والمغرب لمؤلفه أبي العباس بن يحي الونشريسي"⁽⁵⁾، وله كتاب "الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء"، والذي نشره أرنيست مرسييه بعدما حصل عليه من هوداس⁽⁶⁾ -أستاذ المدرسة العليا للغات الشرقية في باريس-، وقد وجد في المخطوط سنة الانتهاء من تأليفه في 24 محرم 1199هـ الموافق لـ 07 ديسمبر 1783م، الذي يتكون من أربعة فصول، تناول في الثلاثة الفصول الأولى حقوق الأمراء، جباية الضرائب، الهدايا التي يمكن لهم قبولها،

(1) - تقي الدين بوكعير، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 93-94.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 252.

(3) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 63.

(4) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله... المصدر السابق، ص: 72.

(5) - فاطمة درعي: المرجع السابق، ص: 152.

(6) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون... المرجع السابق، ص: 128.

العمليات التجارية المسموح لهم بها، في حين تطرق في الفصل الرابع إلى تقدير طبيعة ثروات بيت المال ودراسة حالة الأعراب في الريف.⁽¹⁾

يعد هذا الكتاب أول عمل ألفه ابن زرفة بأمر من الباي محمد الكبير، فهو يعطي لنا صورة عن علاقة العلماء بالسلطة الحاكمة بين مؤيد ورافض لها، وحتى لهباتها، التي كان يوزعها الدايات والبايات على العلماء والفقهاء، كما يشير إلى الخلافات الفقهية بين فقهاء تلمسان وفقهاء معسكر، وإلى مشاركة الباي محمد في التصدي للهجوم الإسباني.⁽²⁾

إن هذا الكتاب يظهر سعة اطلاعه على أمهات كتب المذهب المالكي، ومدى تمكنه من حسن انتقاء النصوص التي تخدم موضوعه وترجيحه، وهو بذلك يعد كتاب دفاع عن السلطة بأدلة دينية لتبرير بعض ما يصدر عنها من تصرفات تثير العامة باعتبارها نوعا من أنواع الاستبداد.⁽³⁾

من بين تآليفه أيضا "تلخيص الجمان من حياة الحيوان"، حيث يعتبر هذا المؤلف آخر ما ألفه في حياته، فقد أنهاه كما صرح بذلك أوائل شهر رمضان 1213هـ/05 فيفري 1799م، يعد هذا الكتاب دليلا طبيا يعرفنا على بعض الأمراض المنتشرة في المنطقة وطرق علاجها، كما يعطي ترجمة للباي عثمان بن محمد وصورة للواقع الثقافي في عهده.⁽⁴⁾ أما في مجال الشعر فله قصيدة رائية من ثمانين بيتا في مدح الباي محمد الكبير، جاء في مطلعها:

تبسم الثغر في الحدائق ناير يعرض على در النداء وهو شاكر.⁽⁵⁾

إن من أشهر تآليفه والتي تهتم دراستنا هذه كتابه المعنون ب: "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، هذه الرحلة التي لخصها هوداس وقدمها في بحث إلى مؤتمر المستشرقين

(1) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص ص: 72-73.

(2) - تقي الدين بوكبير، دحو فغرور: المرجع السابق، ص ص: 98، 101.

(3) - المرجع نفسه، ص ص: 101-102.

(4) - المرجع نفسه، ص ص: 105، 107.

(5) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 72.

بالجزائر عام 1905م، وقام بنشرها في وقائع المستشرقين هؤلاء⁽¹⁾، تضم النسخة التي اعتمدها هوداس جزأين: الأول يتكون من 186 صفحة منسوخة بتاريخ 21 محرم سنة 1296هـ/15 جانفي 1779م من طرف المولود بن المختار بن حمو العبدلي الشلبي، كتبت بخط مغربي واضح، أما الجزء الثاني فهو نسخة تتكون من 155 صفحة، نسخت بتاريخ 23 شعبان سنة 1207هـ/05 أفريل 1793م، أصلية كتبت بخط مغربي واضح.⁽²⁾

قام الدكتور مختار حساني بتحقيق هذه الرحلة القمرية، معتمدا في ذلك على نسختين الأولى موجودة بمكتبة متحف وهران، والثانية متاحة بالمكتبة الوطنية تحت رقم: 1521 تشير الباحثة رقية شارف إلى وجود نسختين بالمكتبة الوطنية، الأولى تحت رقم: 3322 والثانية تحت رقم: 2597، حيث تذكر أن جزأها الثاني عثر عليها الدكتور مختار حساني، وهو الذي أخبرها بذلك.⁽³⁾

يورد ابن سحنون أن ابن زرفة بدأ بتقييد هذه الرحلة فيما يخص أحداث فتح وهران عندما كان متواجدا مع الطلبة ب(يفري)، ثم توقف عن التقييد إلى أن تم الفتح⁽⁴⁾، حيث أتمه في 05 أفريل 1793م بشهادته في النسخة التي اعتمدها هوداس.⁽⁵⁾

قسمت هذه الرحلة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، تناول في الفصل الأول فضل الجهاد ومحاربة العدو، أما الفصل الثاني فتحدث فيه عن أسباب فتح وهران، في حين خصص الفصل الثالث للحديث عن الباي محمد الكبير، كما تطرق في الفصل الرابع إلى التعريف بمدينة وهران منذ نشأتها، وهذا بالاعتماد على كتب المؤرخين والرحالة، والمحاولات

(1) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 63-64.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 129.

(3) - المرجع نفسه، ص: 129.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 155.

(5) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 74.

السابقة لفتح وهران من قبل البايات والدايات، وفي الخاتمة ركز على الترغيب في سكنى وهران وفضل الرباط بها، كما عرف ببعض علمائها.⁽¹⁾

يمكن القول أن مصطفى بن زرفة يعد من العلماء البارزين في الجزائر خلال العهد العثماني، والذين لعبوا دورا هاما في إثراء الثقافة في تلك الفترة، من خلال كتاباتهم في مختلف المجالات، ورغم هذا إلا أن هذه الشخصية مازال يكتنفها الكثير من الغموض.⁽²⁾

9- أحمد بن هطال:

9-1- التعريف به:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني⁽³⁾، لا نعرف تاريخ مولده، غير أنه من المحتمل أن يكون من مواليد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ذلك أنه كان معاصرا لثلاثة بايات من الغرب الجزائري: محمد باي الكبير، ابنه عثمان والباي مصطفى بن عبد الله العجمي⁽⁴⁾ 1215-1220هـ/1800-1805م، نشأ نشأة دينية وتلقى تعليما بسيطا.⁽⁵⁾

يورد أبو القاسم سعد الله عنه قائلا: «ابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر، ولكنها مغمورة فهو كمستشار وكاتب وديپلوماسي ومحارب، قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد جديرة بالتسجيل والبعث»⁽⁶⁾، عمل كاتباً ومستشاراً لمحمد الكبير باي

(1) - تقي الدين بوكعبير، دحو فغرور: المرجع السابق، ص ص: 102-103.

(2) - فاطمة درعي: المرجع السابق، ص ص: 160-161.

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 13.

(4) - الباي مصطفى بن عبد الله العجمي: تولى سنة 1215هـ/1800م، حدثت في أيامه الثورة الدرقاوية، وفي السنة الثانية من توليه الحكم غزى أهل أنكاد وانهزم أمامهم وقتل آغته بن عودة واضطرب رجال المخزن وعاد الباي إلى وهران مقلولا ثم ثار الدرقاويين على العثمانيين وزحفوا إلى وهران لمحاصرتهم فخرج العثمانيون لمهاجمتهم وتمكنوا من هزيمتهم وعادت الثقة إلى رجال المخزن، ثم عزل هذا الباي واستبدل بمحمد بن محمد باي، ينظر: (مسلم بن عبد القادر: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تح، تق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص: 27).

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 141.

(6) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص ص: 357-358.

الإيالة الوهرانية ومبعوثا له في المهمات الخارجية⁽¹⁾، فقد أرسله إلى سلطان المغرب رفقة بن سحنون قاضي المحلة، حاملا معه هدايا للسلطان العلوي، بهدف السماح للباي بشراء ما يحتاجه من أسلحة وعتاد استعدادا لفتح وهران، فنجح في مسعاه وعاد من جبل طارق بحمولة من البارود قدرت بقنطارين ونصف⁽²⁾، كان مرافقا لمحمد الكبير في جميع تنقلاته خاصة في رحلته نحو الجنوب الجزائري، فقد كان حاضرا ومشاركا وشاهدا على ما جرى فيها من أحداث.⁽³⁾

حافظ ابن هطال على منصب الكتابة حتى بعد وفاة الباي محمد الكبير (1212هـ/1798م)، الذي خلفه ابنه عثمان باي، وظل على هذه الوضعية حتى عند تولي الباي مصطفى بن عبد الله العجمي بايالك الغرب (1215هـ/1800م).⁽⁴⁾

توفي إثر ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الباي مصطفى بن عبد الله العجمي باي وهران، في معركة فرطاسة⁽⁵⁾ في ربيع الأول 1219هـ/جوان-جويلية 1804م، والتي سميت بوادي الأبطال تخليدا للمعركة.⁽⁶⁾

(1) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 13.

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية... المرجع السابق، ص: 75.

(3) - الطاهر حسيني: الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، إشراف: العيد جلولي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م، ص: 244.

(4) - ناصر الدين سعيديوني: من التراث التاريخي... المرجع السابق، ص: 448.

(5) - فرطاسة: مكان بين "مينا" و "واد العبد"، وقد انتصر في هذه المعركة ابن الشريف الدرقاوي وأنصاره، وتم مقتل العديد من جنود الباي مصطفى، ومن بين القتلى كان الحاج أحمد بن هطال وأبو عبد الله محمد الغزلاوي، ينظر: (أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 14).

(6) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 107.

9-2- إنتاجه الفكري:

من تأليفه رحلته المسماة "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"⁽¹⁾، وكان أول من نشر هذه الرحلة هو قرقس (*Gorguos*) في ترجمة فرنسية، بقي الأصل العربي منها مخطوطا في عدة نسخ، منها نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية، إحداهما من نسخ محمد بن البشير أقرى التلمساني مؤرخة في 29 ذو القعدة سنة 1182هـ، وقد نشر محمد بن عبد الكريم الرحلة محققة على عدة نسخ بالمكتبة الوطنية وبمكتبته، وهو بذلك ساهم في إخراج هذا المخطوط إلى النور⁽²⁾، حيث يرجع له الفضل في استفادة الباحثين منه. ثم تم تقييد أوراق الكتابة خلال فترة الرحلة الممتدة من يوم الخروج من معسكر يوم الخميس 09 ربيع الأول 1119هـ/19 يناير 1785م إلى تاريخ الرجوع يوم الأربعاء 28 ربيع الثاني 1119هـ/10 مارس 1785م⁽³⁾، وقد اهتم بتسجيل وقائع حملة محمد الكبير باي الغرب على الجهات الجنوبية والأقاليم الصحراوية التابعة لبابلك وهران بهدف إخضاع نواحي شلالة، عين ماضي والأغواط، وللحد من عداء التيجاني بتلك الجهات.⁽⁴⁾

يورد أبو القاسم سعد الله أن هذه الرحلة تضمنت أخبارا جغرافية، اجتماعية، سياسية، عسكرية وأدبية، فلا يستطيع أي باحث الاستغناء عنها، خاصة وأن شخصية محمد الكبير جديرة بتسليط الأضواء عليها، نظرا لكونه شهد عدة تطورات أهمها مشاركته في الحرب ضد

(1) - الشافعي درويش: "علاقات قبائل أولاد نايل بالسلطة العثمانية في الجزائر من خلال كتاب رحلة الباي محمد الكبير"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج:4، ع:1، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2020م، ص: 841.

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 76.

(3) - بلبروات بن عتو: "اهتمام الاستشراق الفرنسي برحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:3، ع:1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2012م، ص: 107.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 448.

الإسبان، كما أنه كان له الفضل في إثراء الثقافة⁽¹⁾ من خلال نشاطاته الإصلاحية والتنظيمية عبر تنقلاته داخل البلد.⁽²⁾

10- أبو راس الناصر:

10-1- التعريف به:

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري الجزائري⁽³⁾، ولد بناحية جبل "كرسوط" حوالي 1150هـ/1737م⁽⁴⁾، أخذه والده إلى متيجة وهناك توفيت والدته⁽⁵⁾، بعد وفاتها اتجه به والده إلى حوز مجاجة، حيث اهتم بتعليم الصبيان القرآن إلى أن توفي، فكفله أخوه عبد القادر الذي أخذه إلى المغرب. اشتهر أمره بفاس فطلب منه السلطان سليمان البقاء هناك، لكنه رفض ذلك، وما لبث أن عاد إلى معسكر، حيث تزوج وعمل مدرسا، وتولى القضاء ومكث ستا وثلاثين سنة وهو يمارس هذه المهنة.⁽⁶⁾

اشتغل بالتدريس في زاوية الشيخ سيدي محي الدين والد الأمير عبد القادر في بلدة القيطنة⁽⁷⁾، وقد كان والده من القراء الماهرين والأساتذة، وأما جده فهو الشيخ عبد القادر⁽⁸⁾،

(1) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 358.

(2) - الطاهر حسيني: الرحلة الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 243.

(3) - عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس...، ج1، المصدر السابق، ص: 150.

(4) - حنفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 218.

(5) - G. Faure Biguet: « Notice sur Le Cheikh Mohammed Abou-Ras EN NASRI de MASCAR » in J.A, Série 9, T: 14, Publié Par La Société Asiatique, Imprimerie Nationale Ernett leroux éditeur, Paris, 1899, p: 326.

(6) - الساسي حسناوي: "الحافظ محمد أبو راس الناصري الجزائري وأجوبته الفقهية من خلال كتابه فتح الإله"، مجلة الشريعة والاقتصاد، مج:4، ع:7، كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، [د.ت]، ص: 355.

(7) - بلهاشمي بن بكار: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبوعة ابن خلدون، تلمسان، 1961م، ص: 13.

(8) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص: 25.

ارتحل إلى المشرق العربي مرتين تفصل بينهما مدة عشرين سنة، كانت الرحلة الأولى سنة 1205هـ/1791م، ورحلته الثانية سنة 1227هـ/1812م.⁽¹⁾

يورد أبو القاسم سعد الله أن أبا راس عانى في حياته الكثير، فقد ذاق مرارة الجوع وألم اليتيم ومارس الشحاذة ومشى بين الناس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين، عاري البدن، وغسل حتى ثياب غيره، وفلا القمل⁽²⁾، توفي يوم 15 شعبان 1238هـ الموافق لـ أبريل 1823م، وتم دفنه أمام بيته ومسجده في ضاحية بابا علي في معسكر⁽³⁾، وقد أُنْبَه محمد بن يوسف الزباني في دليل الحيران بقوله: «وفي وقته (أي زمن الباي حسن آخر بايات وهران)، مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة والتصانيف المديدة، الشريف الأمد، العلامة الفرد الحافظ أبو راس محمد...وصلّى عليه العلامة الأسد الهائج فريد وقته الشيخ أحمد الدايج ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر فنسبت له العقبة وبها اشتهر وعلى ضريحه قبة...»⁽⁴⁾.

10-2- شيوخه وتلامذته:

أخذ أبو راس الناصر العلم على يد العديد من العلماء، كان لهم أثر كبير في تلقينه وفي نبوغ ملكته الفكرية والمعرفية، الذين بلغوا حوالي واحدا وأربعين عالما أخذ منهم علوما متنوعة⁽⁵⁾، منهم والده الشيخ أحمد الذي يعد أول شيوخه قرأ عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ...﴾⁽⁶⁾. يذكر أبو راس أن والديه كانا يأخذانه إلى الشيخ علي بن موسى اللبوشي من

(1) - عبد القادر بكاري: "الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري - رحلة أبو راس الناصري نموذجا" - مجلة عصور

الجديدة، مج: 5، ع: 20، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران -1 - أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2015م، ص: 213.

(2) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص 337.

(3) - G. Faure Biguet: *Op.cit*, p: 319.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص ص: 460-461.

(5) - حمدادو بن عمر: "أبو راس الناصر العسكري وعدوة الأندلس من خلال عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، مجلة

العلوم الإنسانية، مج: 2، ع: 1، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران-1 - أحمد بن بلة، وهران، الجزائر،

2012م، ص: 132.

(6) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص: 42.

اليقوبية في جنوب معسكر، هذا الأخير كان يمتلك مدرسة ويمارس مهام القضاء، وقد تتبأ لأبو راس بأنه سيصبح مدرسا⁽¹⁾، تلقى العلم على يد الشيخ منصور الضرير، وقرأ الفقه على يد الشيخ السيد محمد بن مولاي علي بن سحنون قاضي معسكر، وحضر حلقة الشيخ السيد علي بن الشنين، ومن شيوخه أيضا مصطفى بن هني، الشيخ محمد بن إبراهيم ومصطفى بن يونس.⁽²⁾

لقد التقى بالعديد من العلماء بمدينة فاس التي وصفها بمحل العلم والإيناس، وذكر مناظراته لهم في العديد من القضايا الدينية والمسائل الفقهية منهم الشيخ الطيب بن كيران، والعالم أديب فاس الشيخ حمدون، كما التقى بعبد القادر بن شقرون نحوي فاس⁽³⁾، أما في تونس فكانت له لقاءات مع علمائها وفقهائها بجامعة الأعظم، منهم الشيخ المفتي محمد بن قاسم المحجوب، الذي درس على يديه فقه النوازل، والشيخ محمد بيرم مفتي الحنفية، حيث قرأ عليه فقه أبي حنيفة بمختصر الكنز، كما اتجه إلى مصر وهناك التقى بعلمائها منهم الشيخ أبو الفيض مرتضى الزبيدي، الشيخ عبد الله الشراوي شيخ جامع الأزهر، وكلهم أجازوه ولقبوه بالحافظ تارة وبشيخ الإسلام تارة أخرى.⁽⁴⁾

يذكر أنه أثناء توجهه للحج اجتمع في مكة بعلمائها وفقهائها، كالعلامة السيد عبد المالك الحنفي المفتي الشامي الذي أجازوه، وأيضا مفتي الشافعية ابن الشيخ السيد عبد الغني، كما اجتمع بالشيخ الكبير الصوفي عبد الرحمن التادلي المقرئ، كذلك التقى بعلماء الوهابية منهم الشيخ علي وحصلت بينهم مناظرات.⁽⁵⁾

بدأت مرحلة العطاء العلمي لأبو راس عند مغادرته البادية التي رأى أنها آفة العلم، متجها نحو معسكر التي درس فيها مدة ست وثلاثين سنة، ولما ذاع صيته واشتهر، عمل

(1)- G. Faure Biguet: *Op.cit*, p: 326.

(2) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله... المصدر السابق، ص ص: 42-43.

(3) - عبد القادر بكاري: الرحلة ودورها... المرجع السابق، ص ص: 223-224.

(4) - المرجع نفسه، ص ص: 224-225.

(5) - عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج2، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان لتراث الإسلام، مكة المكرمة، السعودية، 2005م، ص: 456.

البايات على تخصيص كرسي خاص به للتدريس، وأنشأت له مكتبة المدرسة المحمدية أو مكتبة المذاهب الأربعة⁽¹⁾، يذكر أنه في بعض السنوات اجتمع سبعمائة وثمانون طالبا لحضور مجلسه وتدارس العلم على يديه، وفي ذلك يقول: «...حتى صارت حضرتي في العلم تذكر في الآفاق وتنسيك دروس مصر والشام وتونس والعراق...»⁽²⁾.

تتلمذ عنه العديد من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد من العلماء العظام، منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي، الذي كان كاتباً للباي محمد بن عثمان⁽³⁾، إضافة إلى تلميذه بن السنوسي الذي يصف شيخه بالإمام الحافظ، وفي هذا الصدد يقول: «كان حافظاً متقناً لجميع العلوم، عارفاً بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن نازلة إلا يجيب عنها بداهة، كأنها حاضرة بين شفثيه، محققاً لمذهب مالك، غاية لا سيما مختصر خليل، فله فيه الملكة التامة، بحيث يلقيه على طلبته في أربعين يوماً، والخلاصة في عشرة أيام»⁽⁴⁾.

يذكر الشيخ السيد الحبيب بن البخاري الوهراني عن والده الذي عاصر الشيخ أبو راس، أن مجموعة من تلاميذه أرادوا أن يعرفوا قوة ذاكرته، فقاموا بتكريب اسم نطق كل واحد منهم بحرف منه، وقد كان اسماً لملك فسألوا الشيخ عنه، فأجابهم وأملى لهم عن سيرته وأعماله، فظنوا أن الشيخ كاذب، وفي أحد الأيام اطلع أحدهم على سيرته في كتاب تاريخي مثلما أملاه الشيخ أبو راس عليهم، فعلموا أنه صادق وهم من اتهموه⁽⁵⁾ على أن له قوة في الحفظ بشكل كبير.

(1) - يوسف ولد النبية: السردية عند أبي راس الناصري من خلال سيرته الذاتية فتح الإله، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2014م، ص: 121.

(2) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص: 22.

(3) - حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر العسكري...، المرجع السابق، ص: 134-135.

(4) - عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني: فهرس الفهارس...، ج1، المصدر السابق، ص: 151.

(5) - المصدر نفسه، ص: 151.

10-3- إنتاجه الفكري:

يعتبر على رأس المؤرخين الجزائريين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسات التاريخية، ومن المكثرين في التأليف، حتى قال عنه أحد المستشرقين: «إنه من أنشط كتاب المغرب في ذلك الوقت، وأحفلهم إنتاجا، وبلغت مجموع تصانيفه في مختلف العلوم مائة وأربعين مصنفا»⁽¹⁾، هناك من يذكر أن مجموع تأليفه بلغت نحو الخمسين كتابا في التفسير، الأدب التراجم والرحلات، وأنه ألف نحو ثلاثة وستين كتابا، ونسب إليه مائة وسبعة وثلاثون مصنفا في مختلف الأغراض، منها ما هو موجود ومنها ما هو مفقود.⁽²⁾

ترك العديد من التأليف في الفقه، التاريخ، الأنساب والأدب، أهمها: لب أفيآخي في عدة أشياخي، السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى، له تخريج أحاديث دلائل الخيرات، ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس⁽³⁾، ومنظومته السينية في التاريخ "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، زهر الشماريخ في علم التاريخ⁽⁴⁾، درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة⁽⁵⁾، "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" التي ترجمت إلى الفرنسية من قبل الجنرال فور بيجو " *Faure Biguet* ".⁽⁶⁾

من أهم تأليفه رحلته التي أطلق عليها عدة تسميات منها: "عدتي ونحلتني في تعداد رحلتي"، أو "فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربّي ونعمته"، والتي تحدث فيها كثيرا عن العلماء والشيوخ الذين التقى بهم ودرس على أيديهم، أكثر مما تحدث عن المعاهد، الديار المشاهدات والأخبار⁽⁷⁾، وهي تعد ترجمة ذاتية له، صنفا في خمسة أبواب تحدث فيها عن

(1)- عبد القادر بكاري: الرحلة ودورها... المرجع السابق، ص: 212.

(2)- حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر المعسكري...، المرجع السابق، ص: 136.

(3)- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس...، ج1، المصدر السابق، ص: 150.

(4)- بلهاشمي بن بكار: المصدر السابق، ص: 13.

(5)- حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر المعسكري...، المرجع السابق، ص: 137.

(6)- Mohammed Abou-Ras En-Nasri : *Les Vêtements au sujet D'Oran et de la péninsule Espagnole Poésie*, Tra : G. Faure Biguet, Imprimerie Orientale P. Fontana, Alger, 1903.

(7) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج1، المرجع السابق، ص: 186.

ابتداء أمره، شيوخه، رحلاته بالمشرق، ثم أجوبته ومؤلفاته⁽¹⁾، وقد كتبها في آخر حياته، أي بعد سنة 1817م حسبما ذكره أبو القاسم سعد الله في تصديره للرحلة، ولكن المؤكد أنها كانت بعد سنة 1812م، وهو ما أشار إليه أبو راس في مخطوطه المسمى بـ "زهر الشماريخ في علم التاريخ".⁽²⁾

أكثر أبو راس من التأليف كثرة لا يضاهيه فيها أحد، باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تأليفه المائة، تميزت بطابع العصر (أواخر العهد العثماني)، ولم يركز جهده الفكري على تخصص معين، بل تناول كل التخصصات تقريبا، وهو بذلك يعد مؤلفا موسوعيا.⁽³⁾

(1) - عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص: 455.

(2) - عبد القادر بكاري: الرحلة ودورها...، المرجع السابق، ص: 221.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج2، المرجع السابق، ص ص: 337-338.

ثانيا: مؤرخو النصف الأول من القرن 19م

1-مسلم بن عبد القادر:

1-1-التعريف به:

هو أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الحميري الوهراني، الزايري نسبة لقبيلة أولاد زاير العربية⁽¹⁾، لم تذكر المصادر تاريخ مولده، يشير الحاج احميدة بن قايد مفتي وهران آنذاك وأحد أعيانها البارزين في مذكرته، أن مسلم قد أنجب ولدا يسمى "الحاج بن عبد الله" وبنت تسمى "يمينة"، وفي الغالب يكون قد أنجبهما من زواجه الأول، أما زوجته الثانية فتدعى "مامية"⁽²⁾.

تولى في شبابه وظيفة خوجة للأغا المزاربي أحد قواد مخزن الأتراك بنواحي وهران، قبل أن يترقى إلى منصب رئيس الكتاب "باش كاتب" لدى الباي حسن بن موسى⁽³⁾ آخر بايات وهران، حيث بقي على اتصال مباشر به طيلة حكم هذا الباي للغرب الجزائري⁽⁴⁾، شارك في القوة العسكرية التي أرسلها الباي حسن للدفاع عن مدينة الجزائر سنة 1830م، وعند عودته لوهران ترك ديوان بايلك الغرب، وغادر مدينة وهران قبل سقوطها في يد الفرنسيين، واستقر نهائيا في عين تيموشنت⁽⁵⁾.

يعد من ذوي المعرفة بالعلوم الفقهية والفنون الأدبية، وقد ذكره أبو راس الناصر بقوله:

«إن السيد مسلم بن عبد القادر من أجلّ أدباء هذا الزمان وأحرزهم لنصب السبق في هذا

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 149.

(2) - صادق بن قاعة: "الذاكرة المكتوبة والتاريخ أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران القرن 13هـ/19م"، مجلة إنسانيات، مج: 1، ع: 3، مركز البحوث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 1997م، ص ص: 37-38.

(3) - الباي حسن بن موسى: تولى هذا الباي 1232هـ/1826م، عرف عند العامة بالباهي حسن وهو آخر بايات وهران، كان أول أمره طباحا لأربعين جنديا من الأتراك ثم صار بائعا للتبغ، وقد وصفه صاحب "در الأعيان في أخبار وهران" بأنه ذا عقل وسياسة، لما شهد الباي محمد الرقيق أبو كابوس هذه المزاي في أحبه وصاهره وقربه إليه، ثم أسند إليه قيادة فليته، غير أن سيرته فيما بعد فسدت، ينظر: (مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص ص: 29-30).

(4) - ناصر الدين سعيديوني: من التراث...، المرجع السابق، ص: 470.

(5) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص ص: 85-86.

الميدان»، يشير محمد الطاهر بن حواء في زهر الآداب إليه بقوله: «...فناثرته وناظمته فأعياني وقصدته الشعراء من كل فج ومدحته ببديع الشعر المغنّج...»⁽¹⁾، يذكره محمد بن يوسف الزياني في كتابه "دليل الحيران" بقوله: «الشيخ العلامة النحرير الخلاصة القدوة الكبير الكاتب السيد مسلم بن عبد القادر الحميري ذي العلم الباهر والنسب الفاخر، حيث جعل لها للجزائر بأمر البها، فلقد أصاب وأجاد ووافق الاسم المسمى فأفاد وما قيل في مدحها من الكلام ما لا يضبط بحصر ما بين النظم والسجع والنثر».⁽²⁾

يظهر أن الفئة التي كان ينتمي إليها، هي فئة أعيان المخزن، وذلك لتوليته منصبا في الجهاز الإداري للبايلك، من خلال مصاهرته لشخصيات من المخزن التي كانت تمتلك العديد من الأملاك العقارية، كان يحوز على إقطاعات فلاحية كبيرة، ما يؤكد ذلك هو أن ابنه بن عبد الله كان يملك في سنة 1868م ما ينيف عن 2622 هكتار من الأراضي الفلاحية ببلدية واد برقش، والتي ورث جزءا منها عن أبيه، وبالتالي يفهم أن مسلم بن عبد القادر كان ميسور الحال عكس العديد من العلماء الذين عانوا من الفقر.⁽³⁾

احتك بالعديد من العلماء ورجال الفكر والثقافة، أمثال أبي راس الناصر الذي شهد على تكوينه وتميزه في مجال الأدب، وتخصصه في الحكم والمواعظ، ومحمد الطاهر بن حواء الذي أشاد ببراعته في النثر والشعر، وكذلك قضاة وأدباء مثل محمد الصادق الحميسي المازوني، وأحمد بن الطاهر الرزيوي، والقاضي محمد بن الجيلاني الخروبي⁽⁴⁾، بعد خروجه من وهران، اتجه إلى ناحية عين تيموشنت، حيث توجد مضارب قبيلته، التي مكث بها، حتى أدرسته المنية سنة 1248هـ/1832م، وما يثبت ذلك هي تصفية التركة التي تمت سنة

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 470.

(2) - محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، دار عالم

المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ص: 46.

(3) - صادق بن قادة: المرجع السابق، ص: 38.

(4) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون والجزائريون...، المرجع السابق، ص: 149.

1833م، بعد عام واحد من وفاته، دفن بضريح سيدي مسعود ببلدة تارقة حسبما أشار إليه ابن يوسف الزياني. (1)

1-2- إنتاجه الفكري:

تولى مسلم بن عبد القادر وظيفة الكتابة الديوانية، حيث يبدو أنه كتب رسائل عديدة، والتي لم يعثر عليها، وربما تكون هذه الرسائل لا زالت تحتضنها الخزائن العامة والخاصة. (2) جاء نظمه للشعر على شكل قصائد رجزية، أشهرها تلك التي حمل فيها الأتراك مسؤولية الهزيمة أمام القوات الفرنسية عشية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر، وفي هذا الصدد فإن هذه القصيدة لا يوجد لها أثر إلا في مخطوط أبي حامد العربي المشرفي الذي ألفه ضد الأمير عبد القادر بعنوان: "طرس الأخبار فيما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار" (3)، هذه المنظومة الشعرية التي ذكر المهدي البوعبدلي، بأن أسلوبها كان مهلهلا، إلا أن لها وزنا وقيمة تاريخية، حيث كان مؤلفها شاهد عيان على انهزام الجيش العثماني ودخول الفرنسيين مدينة الجزائر. (4)

تنسب إليه عدة تصانيف، منها نظم الجواهر في سلك أهل البصائر، وهو شرح لمفردات لغوية وإيضاح لحكم منظومة، جعل فصوله عدد منازل القمر حسب قوله، وطلب من أبي راس أن يشرحه في الأمثال والحكم (5)، كما طلب من أبا راس أن يجمع تأليفا في الأمثلة السائرة، فجمعه الشيخ وسماه "كشف النقاب، ورفع الحجاب، على أمثال سائرة وحكم باهرة ومواعظ زاجرة". (6)

(1) - صادق بن قاعة: المرجع السابق، ص: 37.

(2) - المرجع نفسه، ص: 42.

(3) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 149-150.

(4) - صادق بن قاعة: المرجع السابق، ص: 44.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 470-471.

(6) - الأغا بن عودة المزابي: المصدر السابق، ص: 108.

اشتهر مسلم بن عبد القادر بتأليفه المعنون بـ: "خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطرائق والنوادر"، والذي أضاف إليه محققه رابح بونار "تاريخ بايات وهران المتأخرة"، ألفه حسب ما ذكره الناسخ في المقدمة سنة 1230هـ/1814م، ويظهر أنها بداية التأليف لا نهايته⁽¹⁾، ركز فيه خاصة على أخبار وهران وناحيتها في الخمسين سنة الأخيرة، التي سبقت الاحتلال الفرنسي 1778-1832م، حيث حاول فيه الإلمام بما حدث في عهد البايات المتأخرين، وهم على التوالي: محمد الكبير، عثمان بن محمد الكبير، مصطفى بن عبد الله العجمي، محمد المدعو بالمقلش، مصطفى بن عبد الله العجمي، محمد بن عثمان المعروف بيوكابوس⁽²⁾، علي قاربغلي وحسن بن موسى.⁽³⁾

يعد هذا الكتاب فصلا ختاميا لكتاب شامل في اثني عشر بابا وخاتمة، فإذا كانت الخاتمة موجودة، فإن الاثني عشر بابا مفقودة، وقد قام راح بونار بتحقيق هذه الخاتمة، معتمدا على نسختين مخطوطتين بالمكتبة الوطنية تحت رقم: 2317-1635، الأولى كتبت سنة 1816م والثانية سنة 1832م، نشر هذا الكتاب محققا بالجزائر سنة 1974م، بعدما ترجم إلى الفرنسية بالمجلة الإفريقية عام 1874م من طرف أدريان دلبشي "Adrien Delpech".⁽⁴⁾

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 151.

(2) - الباي محمد بن عثمان الرقيق والمسلوخ أبو كابوس: كان يقال له الباي محمد الصغير للتفريق بينه وبين أخيه الباي محمد الكبير فاتح وهران، لقب أيضا بالرقيق لأنه رقيق الجسم، وأما كنيته بأبي كابوس فلأنه كان يحمل الكابوس وهو البشطول، حيث اشتهر بذلك لما قتل به السياح بن حضرا، تولى في آخر سنة 1808م، بقي في الحكم خمسة أعوام، ينظر: (الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 328).

(3) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 471.

(4) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص: 87.

2- حمدان بن عثمان خوجة:

2-1- التعريف به:

يعود أصله إلى الكراغلة، حيث يقول: «أنا الكرغلي بالذات كنت مستشارا في حكومة **الداي...»**(1)، ولد سنة 1775م(2) بالجزائر العاصمة، وترعرع فيها، ينسب إلى حضر الجزائر(3)، ينتمي إلى أسرة عريقة، كانت تمتلك الأراضي الشاسعة في سهول متيجة، والبنيات الضخمة والمحلات التجارية في مختلف أنحاء العاصمة وضواحيها، وبحكم وضعها الاجتماعي استطاع بعض أفرادها أن يلعبوا أدوارا هامة في تسيير الإيالة، فكان والده فقيها وأمينا عاملا للإيالة "مكتابجي"، يشرف على الميزانية وعلى السجلات، أما خاله محمد فكان أمينا للسكة قبل الاحتلال.(4)

أنهى المرحلة التعليمية الأولى في سن الحادية عشر، ثم شرع في المرحلة الثانوية، حيث تبحر في علم الأصول وتمكن من الفروع الفقهية، ثم درس التاريخ والمنطق وجمال في عالم الفلسفة والتصوف(5)، أجاد العربية والتركية كتابة، يتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة، ولكنه لا يكتبهما.(6)

من العوامل التي ساعدته على صقل شخصيته، رحلاته، أولاها تلك التي سافر فيها رفقة خاله الحاج محمد وآغا الهدية سنة 1784م إلى إستانبول، وهو بن التاسعة من عمره، إضافة إلى رحلاته باتجاه المشرق الإسلامي، البلقان، تونس وأوروبا خاصة فرنسا، وقد أشاد

(1) - مراد بوعباش: "أعلام الجزائر حمدان بن عثمان خوجة المواقف السياسية والقضية الوطنية"، مجلة الباحث، مج: 2، ع: 1، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2010م، ص: 112.

(2) - محمد بن عبد الكريم: حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م، ص: 94.

(3) - مراد بوعباش: المرجع السابق، ص: 112.

(4) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 11.

(5) - المصدر نفسه، ص: 13.

(6) - عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس، الجزائر، ليبيا من 1816 إلى 1871م، تق: روبرار منتران، الدار التونسية، تونس، ط1، 1972م، ص: 184.

بفضل الرحلة في تعلمه بقوله: «وكننت قد تجشمت أسفارا كما قيل هي أبعد من أمالي، صرفت فيها برهة من العمر، لولا اتهام النفس لعددتها من صالح أعمالى». (1)

إن ثقافة الترحال، سمحت له بأن يكون على اطلاع بما يجري في أوروبا، والعالم الإسلامي، والإلمام بأحوالهما ومعرفة خبايا الأنظمة القائمة مما أدت إلى تأثره بما رآه من تخلف في العالم الإسلامي، حيث يقول عن نفسه: «عشت في أوروبا وتذوقت ثمرة مدنيته وأنا واحد من المعجبين بالسياسة المتبعة في كثير من الحكومات الأوروبية». (2)

عندما توفي والده عثمان، كان الابن حمدان قد أنهى دراساته بعد أن استقى من مختلف ينابيع العلم والمعرفة، حيث تولى بعد ذلك وظيفة والده، يدرس العلوم الدينية لأبناء الجزائر والوافدين إليها⁽³⁾، تولى وظيفة الترجمة في المطبعة العامرية بالقسطنطينية⁽⁴⁾، ومن المهن التي مارسها هي الفلاحة والتجارة مع خاله، حتى أصبح من كبار الأغنياء في مدينة الجزائر، حيث قدرت ثروته قبيل الاحتلال بأربعين مليوناً من الفرنكات. (5)

أما بعد الاحتلال، فقد شغل منصب مستشار في مجلس البلدية، حيث كان همزة وصل بين الجزائريين والقادة العسكريين الفرنسيين، عينه أعيان وفقهاء الجزائر ممثلاً لهم ومفاوضاً عنهم في البرلمان الفرنسي بباريس، حيث غادر الجزائر سنة 1833م، وفي باريس استعان ببعض الصحف الفرنسية لفضح ما يحدث في الجزائر. (6)

غادر باريس سنة 1252هـ/1836م باتجاه إستانبول، بعد أن ترك ولديه علي وحسن بها، وبقي ينتظر عائلته المشتتة بين الجزائر وباريس ومصر⁽⁷⁾، إلى أن توفي بها حوالي عام 1261هـ/1845م، دفن بمقبرة الصحابي أبو أيوب الأنصاري. (8)

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 152-153.

(2) - مراد بوعباش: المرجع السابق، ص: 112.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 16.

(4) - المصدر نفسه، ص: 109.

(5) - المصدر نفسه، ص: 17.

(6) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 154.

(7) - المرجع نفسه، ص: 154-155.

(8) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 490.

2-2- شيوخه:

لم تذكر جميع المصادر شيوخه، غير أنه ومما لا شك فيه هو تتلمذه على يد والده عثمان خوجة وخاله الحاج محمد، حيث يعدان من أوائل أساتذته، وقد اعترف حمدان في رسالة بعث بها من لوندرا (لندن)، ذكر فيها أنه تتلمذ على يد محمد بن علي مفتي المالكية، وقد أشار محمد بن عبد الكريم إلى اثني عشر من شيوخه منهم: الشيخ محمد الشاهد الجزائري، الشيخ أحمد الحنفي، الشيخ الحاج أحمد الشريف الزهار والشيخ محمد بن أحمد بن مالك... وغيرهم.⁽¹⁾

2-3- إنتاجه الفكري:

ترك حمدان خوجة العديد من التأليف منها: كتاب "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء"، وقد نشره بالعربية والتركية وأهداه إلى السلطان محمود الثاني حيث يشير أبو القاسم سعد الله بأن هذا الكتاب يظهر مقدرته العلمية والدينية⁽²⁾، ألفه سنة 1836م⁽³⁾ ومن بين رسائله كذلك رسالة وجهها لشيخه محمد بن علي، وترجمة رسالة الشيخ حسين الشرنيلالي "نور الإيضاح ونجاة الأرواح" في الفقه الحنفي إلى اللغة التركية، تحت عنوان: "أمداد الفتاح"، كما أن له رسالة "حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع" تأثر فيها بأبي حامد الغزالي ألفها سنة 1836م.⁽⁴⁾

ألف في الفترة ما بين 1833-1835م بباريس مجموعا أو مصنفا يتكون من أربعمئة وأربعة وخمسين (454) صفحة، وهو عبارة عن نقول وتلخيصات لعدة كتب سبقت عصره في شتى الفنون، وعلى ما يبدو أنها كانت ملكا لابنه رضا⁽⁵⁾، كما أن له مذكرة قدمها للجنة الإفريقية *La Commission D'Afrique* في جويلية 1833م، ترجمها محمد العربي الزبيري

(1) - محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق، ص ص: 123-124.

(2) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات...، المرجع السابق، ص: 83.

(3) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 156.

(4) - ناصر الدين سعيديوني: من التراث...، المرجع السابق، ص ص: 490-491.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 157.

تحت عنوان: "مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة" سنة 1981م، كذلك رسالته إلى اللجنة الإفريقية، والتي حررها في باريس يوم 26 أكتوبر 1833م، حفظ نصها بالأرشيف الفرنسي تحت رقم: 980، نشرها جورج إيفر "G.Yver" بالمجلة الإفريقية سنة 1913م من أرشيف حكومة الجزائر. (1)

إن من أشهر تآليفه كتاب "المرآة"، كتبه بالعربية ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية صديقه حسونة دغيز، وزير الخارجية للحكومة الطرابلسية، نشر بالفرنسية تحت عنوان: "Aperçu Historique Et Statistique Suer La Régence D'Alger" "لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر"، وذلك في أواخر أكتوبر سنة 1833م (2)، تعرض فيه إلى أحوال الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي سنة 1830م (3) وذلك بهدف تنوير الرأي العام، وقد ذكر بأنه سيكون في جزأين، يتناول في الأول الجزائر في العهد العثماني وإدارة بورمون وكلوزيل الأولى، في جزئه الثاني فيتطرق إلى إدارة برتزين وبيشون، غير أنه لم يظهر منه سوى الجزء الأول (4)، الذي وجدت ترجمته الفرنسية، غير أن أصله العربي في حكم المفقود، حيث ذكر ولده علي رضا باشا في كتابه "مرآة الجزائر" في النسخة التركية المترجمة عن العربية، متحدثا عن والده: «عندما كان مقيما بفرنسا ألف كتابا بالعربية وترجمه إلى الفرنسية وطبعه ليطلع وزراء الحكومة الفرنسية على مساوئ الإدارة المدنية الفرنسية بالجزائر». (5)

أما فيما يخص تعريف كتاب "المرآة" وتحقيقه، فقد قام به كل من محمد بن عبد الكريم تم طبعه بالجزائر سنة 1972م، محمد العربي الزبيري في طبعة أولى سنة 1975م، ثم ثانية سنة 1982م، وثالثة سنة 2005م. (6)

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 94.

(2) - محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق، ص: 125.

(3) - سلطانة عابد: "قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830م أنموذج حمدان خوجة وأحمد بوضربة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 2، ع: 1، جامعة معسكر، الجزائر، 2012م، ص: 341.

(4) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات...، المرجع السابق، ص: 82.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 491.

(6) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 159.

3- محمد بن العنابي:

3-1- التعريف به:

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري⁽¹⁾ الأزميلي المعروف بالعنابي أو بن العنابي نسبة إلى مدينة عنابة، العالم الفاضل، الجزائري الحنفي المذهب، المحدث، الفقيه، القاضي، الحافظ مفتي الجزائر والإسكندرية، العالم بالفقه والأصول والتجويد، القائد المصلح المجاهد المجدد.⁽²⁾

ولد في مدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م⁽³⁾، ينتمي إلى عائلة عريقة، جده الأعلى حسين بن محمد العنابي، الذي وجد اسمه ضمن قائمة الأحناف في الجزائر سنة 1735م، كان واسع المعرفة بعلوم الشريعة، كما اشتهر من أسرته عالم آخر هو مصطفى بن رمضان، أما والده فهو محمود بن محمد الذي يعد من زمرة العلماء.⁽⁴⁾

تولى سنة 1208هـ/1793م مهمة القضاء بالجزائر وهو بن ثمانية عشر سنة، وبقي فيه سنتين، ثم عزل نفسه منه بسبب أمر مخالف للشرع، لكن عاد إليه ثانية بعد أشهر سنة 1210هـ/1795م، وبقي فيه ثلاث سنوات، ثم تولى بعدها الفتوى إلى غاية سنة 1236هـ، حيث قرر الحج هو ووالده رفقة محمد أفندي أخ حسين باشا والي الجزائر، وأثناء وصوله الإسكندرية مكث بها مع والده.⁽⁵⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م، ص: 22.

(2) - صادق غريش: "قراءة تأصيلية في مخطوط إمعان البيان في حكم الأجرة على القرآن لابن العنابي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج: 11، ع: 12، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2015م، ص: 52.

(3) - أحمد سلطاني: "من قضايا الإصلاح عند المفتي الجزائري ابن العنابي (1775-1850م)"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج: 1، ع: 2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2018م، ص: 294.

(4) - صادق غريش: المرجع السابق، ص: 53.

(5) - أبو القاسم سعد الله: "الجديد عن ابن العنابي"، مجلة حوليات جامعة الجزائر-1، مج: 1، ع: 1، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 1986م، ص: 48-49.

انتقل إلى القاهرة وبقي مدرسا بالجامع الأزهر مدة تسع سنوات، وفي سنة 1244هـ/1828م أرسل إليه حسين باشا والي الجزائر سفينة خاصة يطلبه للمجيء، فعاد إلى الجزائر وتقلد منصب الإفتاء من جديد.⁽¹⁾

من بين المهام التي قام بها خارج الجزائر سفريته إلى المغرب في عهد المولى سليمان (1792-1822م) بطلب من الداوي عمر باشا (1815-1817م)، حيث أرسل هذا الأخير لطلب المعونة العسكرية بعد تحطم الأسطول الجزائري في حملة الإنجليزي اللورد إكسموث على الجزائر سنة 1816م، كما كلف بسفيرة أخرى إلى إستانبول سنة 1817م في عهد السلطان محمود الثاني. تولى الكتابة لدى الداوي أحمد باشا (1805-1808م) إلى باي تونس حمودة باشا (1782-1814م) حسب ما أشار إليه أحمد الشريف الزهار في مذكراته، كل هذا يظهر أن بن العنابي كان دبلوماسيا وخبيرا بالشؤون الدولية، حيث تعددت ثقافته ولم ينبغ في الفقه فقط، بل تعدى علوم الدين.⁽²⁾

يعد أحد كبار العلماء الموسوعيين المحققين، إذ جمع بين علمي المنقول والمعقول، فهو قامة من قامات الفقه الإسلامي تفرعا وتأصيلا، إضافة إلى معرفته الفائقة بقضايا عصره، الشؤون الحربية، السياسة الشرعية، مسائل الفتوى والأمور القضائية⁽³⁾ أورد العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وهو أحد معاصريه ما يلي: «لقيت بمصر مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري، فوجدته حسن العقيدة طويل الباع في العلوم الشرعية»، وهذا ما أشار إليه عبد الحميد بك في تاريخه «وكان رحمه الله تعالى إماما فاضلا عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها واختلاف أقوالها،

(1) - فكرات عابد: "الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن لابن العنابي الجزائري الحنفي نموذجا"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج: 8، ع: 9، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2012م، ص: 32.

(2) - أحمد سلطاني: المرجع السابق، ص: 295.

(3) - فكرات عابد: الموسوعية العلمية...، المرجع السابق، ص: 33.

والراجع منها والضعيف فيها وعالما في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية، وله إنشاءات وشعر»⁽¹⁾.

عند احتلال فرنسا للجزائر ولاء حسين باشا رئاسة العسكر، فقاتل المستعمر لكن بعد الاحتلال أقام في بيته يحرض الناس على الجهاد، مما أدى إلى حبسه من قبل السلطات الفرنسية، التي قررت نفيه خارج الجزائر⁽²⁾، وفي هذا الصدد يشير حمدان خوجة أن ابن العنابي كان يملك العقارات والأثاث، ويبدو أنه كان من الأغنياء، حيث طلب حمدان من كلوزيل أن يعطيه فترة يتدبر فيها أموره ويبيع ممتلكاته قبل مغادرته، فمنحه مهلة عشرين يوما، استطاع من خلالها ابن العنابي أن يقضي حاجاته⁽³⁾، ومن ثمة نفي من الجزائر وتوجه بأسرته إلى مصر وأقام بالإسكندرية⁽⁴⁾، حيث توفي بها في شهر ربيع الثاني سنة 1267هـ/1850م عن عمر ناهز ثمانين وسبعين عاما⁽⁵⁾.

3-2- شيوخه وتلامذته:

أخذ العلم على يد العديد من شيوخه، منهم شيخه الأكبر وهو والده الذي قرأ عليه القرآن، وتلقى عنه الفقه الحنفي، مختلف العلوم وصحيح البخاري قراءة وسماعا وقد أجاز به بذلك، أما شيخه الثاني فهو جده محمد بن الحسين قاضي الجزائر، الذي قرأ عليه جزءا من صحيح البخاري، وحصلت له منه إجازة⁽⁶⁾، من شيوخه أيضا علي بن عبد القادر بن الأمين⁽⁷⁾ مفتي المالكية بالجزائر، الذي حصل منه على إجازة في بعض كتب الحديث، كما

(1) - فكرات عابد: الموسوعة العلمية... المرجع السابق، ص: 34.

(2) - فكرات عابد: "قراءة في مخطوطات ثبت ابن العنابي الجزائري"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج:6، ع:7، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2010، ص: 85.

(3) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات... المرجع السابق، ص: 75.

(4) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد... المرجع السابق، ص: 42.

(5) - صادق غريش: المرجع السابق، ص: 55.

(6) - فكرات عابد: قراءة في مخطوطات... المرجع السابق، ص: 84.

(7) - أحمد سلطاني: المرجع السابق، ص: 295.

يعد الشيخ حمود بن محمد المقايسي الجزائري من شيوخه كذلك، حيث روى عنه الحديث المسلسل بالأولية، إضافة إلى شيخه محمد جكيكن⁽¹⁾.

أثناء إقامته بمصر تصدر تدريس الحديث والفقہ في الجامع الأزهر⁽²⁾، حيث انتفع به علماءه فضلا عن طلابه، وذلك خلال تسع سنوات، ومن الذين أخذوا عنه: إبراهيم السقا، الشيخ محمد الكتبي، الشيخ أحمد التميمي الخليلي مفتي القاهرة والشيخ محمد البنا مفتي الإسكندرية⁽³⁾، كما أجاز الشيخ عبد القادر الرفاعي الحنفي بعدما قرأ عليه الحديث، وغيرهم من العلماء، أما في تونس، فقد منح إجازات لعدد من العلماء الذين لجأوا إليه وطلبوا منه ذلك نثرا وشعرا منهم الشيخ محمد بيرم الرابع⁽⁴⁾، الذي وصف شيخه ابن العنابي في تقييده لكتاب "شرح الدر المختار"، فقال: «هو العلم النحرير، رضيع لبان العلم والتحرير، مجمع بحري المعقول والمنقول، كشاف مخدرات الفروع والأصول، العلم الأوحد والطود المفرد...»، كما مدحه قائلا:

ولو قيل من حاز العلوم بأسرها إليه جميع العالمين تشير⁽⁵⁾.

كما استجاز عمه مصطفى بيرم، ولعله قد منح إجازته لعدد آخر من علماء الجزائر وغيرها من البلدان التي زارها، فقد كان ذائع الصيت، ومقصودا من قبل أهل العلم في كل بلد حل به⁽⁶⁾.

3-3- إنتاجه الفكري:

يذكر أبو القاسم سعد الله أن ابن العنابي عرف بقلته تأليفه، ورغم هذا فقد كان مكثرا في الفتاوى حيث اشتهر بذلك، حتى أن بعض العلماء الجزائريين كالمفتي حميدة العمالي

(1) - فكرات عابد: قراءة في مخطوطات...، المرجع السابق، ص 84.

(2) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 42.

(3) - أبو القاسم سعد الله: الجديد...، المرجع السابق، ص: 49.

(4) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 43.

(5) - فكرات عابد: الموسوعية العلمية...، المرجع السابق، ص: 33-34.

(6) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 44-45.

كان ينقل فتاويه بنصها في كناشه، وكان ابن العنابي يوقع فتاويه وهو بالإسكندرية (مفتي السادة الحنفية بثغر الإسكندرية)، كما كان الدايات يستكتبونه في المسائل السياسية أيضا. (1) هناك احتمالين وراء قلة إنتاجه: إما أنه أُلّف بحكم معاشته للأحداث التي جرت على مستوى الجزائر والعالم الإسلامي، وما تزال مؤلفاته مغمورة وبعيدة عن متناول الباحثين، وإما أنه لم يكن متفرغا للتأليف بقدر ما كان يجيد ويجيب بالإفتاء، ويُكُونُ ويجيز الطلبة. (2) من تأليفه: "صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة"، "مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة"، "رسائل ثماني عشرة في وقف العقار" (3)، "إمعان البيان في مسألة أخذ الأجرة على القرآن" (4)، "بلوغ المقصود في اختصار السعي المحمود"، وهو تلخيص قام به تلميذه إبراهيم السقا بطلب من محمد علي والي مصر، له مجموعة فتاوى في مسائل مختلفة منها "الفتح القيومي بجواب أسئلة الرومي"، كما ترك مجموعة أشعار وتقاريف ونصوص أدبية مثل شعره الذي قاله في آل بيرم بتونس، كما خَلّف مجموعة كبيرة من الإجازات كإجازته لعبد القادر الرافعي (5)، له شرح في الفقه الحنفي سماه "شرح الدر المختار" لكنه لم يتمه. (6)

من أشهر كذلك تأليفه كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود"، ألفه في مصر سنة 1826م (7) في عهد محمد علي باشا، حيث ساعد جو الإصلاح والتفتح على الحضارة الأوروبية بمصر على بروز هذا التأليف، حاول فيه إعطاء حلول للخروج بالعالم الإسلامي

(1) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد... المرجع السابق، ص: 45.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون... المرجع السابق، ص: 163.

(3) - فكرات عابد: الموسوعية العلمية... المرجع السابق، ص: 35.

(4) - فكرات عابد: قراءة في مخطوطات... المرجع السابق، ص: 85.

(5) - أبو القاسم سعد الله: الجديد... المرجع السابق، ص: 53-54.

(6) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد... المرجع السابق، ص: 46.

(7) - أحمد سلطاني: المرجع السابق، ص: 299.

من دائرة التخلف والانهيـار دون وقوعه في يد الاستعمار، داعيا إلى ضرورة إصلاح أمور المسلمين وفي مقدمتها الجيش والسياسة.(1)

قسّم ابن العنابي كتابه إلى مقصد خاص بالشؤون الحربية، وفي ستة عشر فصلا، تحدث فيه عن الأمور السياسية والحربية وضرورة تعلم العلوم الآلية من الأوروبيين، ومقصد تناول فيه الشؤون السياسية، وجاءت الخاتمة في أسباب النصر(2)، يذكر أبو القاسم سعد الله أنّ ما لاحظته عن تأليف بن العنابي ما يلي: «ولكن الظاهرة العامة في تأليف ابن العنابي أنها تأليف صغيرة الحجم، وأنها تتناول مسائل دينية شائكة في شكل رأي معلل ومدعم بالشواهد والأمثال...»، لذا اعتبره من أوائل علماء المسلمين الذين طرحوا قضية التجديد في النظم الإسلامية أوائل القرن 19م، كما عالج قضايا عصره في الكتب والفتاوى التي كان يصدرها.(3)

يمكن القول بأن مؤلفات بن العنابي، كانت متنوعة في العلوم الشرعية وقضايا العصر، بالرغم من أن مؤلفات أقرانه كانت لا تخرج عن طابع علوم اللغة العربية والإسلامية في تلك الفترة.(4)

4-أحمد الشريف الزهار:

4-1-التعريف به:

هو الحاج أحمد بن الحاج علي النقيب(5)، ينتمي لأسرة يعود نسبها إلى الأشراف الأدارسة، التي توارثت نقابة أشراف الجزائر أبا عن جد(6)، ولد بمدينة الجزائر سنة 1196هـ/1781م في عهد محمد عثمان باشا، تعلّم وتفقه على يد كبراء العلماء، تولى نقابة

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 163-164.

(2) - المرجع نفسه، ص: 164.

(3) - صادق غريش: المرجع السابق، ص: 55.

(4) - أحمد سلطاني: المرجع السابق، ص: 300.

(5) - أحمد الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص: 09.

(6) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 515.

الأشراف بعد وفاة والده، شارك في الدفاع عن الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وعمره خمسون سنة⁽¹⁾، قامت فرنسا بإبعاده من الجزائر سنة 1832م، فاتجه إلى تونس لطلب العلم، ثم عاد إلى قسنطينة، حيث تولى الكتابة لدى الحاج أحمد باي، وعند سقوط المدينة في يد الاحتلال سنة 1837م⁽²⁾، تولى الكتابة لدى الأمير عبد القادر، وبعد وقوع العاصمة المتقلبة للأمير (الزمالة) في الأسر في واقعة طاقين، تحول إلى المغرب الأقصى، ومكث بتطوان ثلاث سنوات استزاد فيها من العلم والمعرفة، ثم رجع إلى الجزائر بعد ذلك رفقه ولديه الحاج قدور وسيدي محمد، ليتولى من جديد نقابة الأشراف عام 1843م تحت ظل الإدارة الفرنسية، وهو في الثالثة والستين من عمره⁽³⁾، اشتغل بالتجارة في دكان استأجره، اهتم بالكتابة والتأليف إلى أن وافته المنية سنة 1289هـ/1872م، وقد تجاوز سن التسعين⁽⁴⁾.

4-2- شيوخه:

ساهمت رحلات الحاج أحمد في تكوينه وتوسيع دائرة ثقافته، حيث اطلع على ثقافات عديدة وتفاعل مع العلماء، خاصة في تونس والمغرب، وتردد على حلقات الدروس في جامع الزيتونة سنة 1832م، وأخذ على علمائها⁽⁵⁾، كالشيخ إبراهيم الرياحي، الذي أخذ عنه الفقه⁽⁶⁾، والشيخ الحاج الطيب بن عيسى الجزائري، وأثناء ذهابه إلى المغرب الأقصى ظل يستزيد من العلم والمعرفة ويعطي دروسا للطلبة⁽⁷⁾.

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 09.

(2) - المصدر نفسه، ص: 09.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 515-516.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 10.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 167-168.

(6) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 09.

(7) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 515.

4-3- إنتاجه الفكري:

ترك مذكرات في دفاتر وكراسات خاصة، بعضها كان مستعملا لتقييد حسابات عائلية⁽¹⁾، وقد ذكر محقق هذه المذكرات أحمد توفيق المدني، أنه تحصل على هذه المخطوطة من عند حفيده المدعو "محمود الشريف الزهار" نقيب الأشراف الأخير بعد انتزاعها من يد مسيو ميرانت مدير الأمور الأهلية بالولاية العامة بالجزائر، الذي كان يلح على نقيب الأشراف بأن يسلمه هذه النسخة من أجل مطالعتها حسب زعمه، لكنه في حقيقة الأمر كان يريد الاستيلاء عليها.⁽²⁾

تعد النسخة المحققة هي القسم الثاني من كتاب كبير ضاع أو فقد بدأ قسمه الأول بقدم الإخوة بربروس، وهو ما أثبتته الشريف الزهار في خاتمة مذكراته: «فانظر أيها المعتبر كيف أول أيام هذه الدولة... كما تقدم أول الكتاب»⁽³⁾، حيث يذكر توفيق المدني أن الزهار يشير إلى أحداث، فيقول مثلا: «وقد تقدم لنا ذكر ذلك، عن وقائع وولاة ليسوا في كتاب اليوم»، وبالتالي فهذا الكتاب الذي تحصلنا عليه يعد الجزء الثاني، أما الجزء الأول فقد فُقد⁽⁴⁾، وحتى القسم الثاني فإنه يظهر ناقصا ومبتورا، تحدث فيه عن ظروف الاحتلال⁽⁵⁾، أخذ مسيو لوساني مدير الأمور الأهلية سابقا بالولاية العامة الفرنسية⁽⁶⁾ من السيد الحاج قدور بن أحمد الشريف الزهار، لأن أحداثه تمس بسمعة فرنسا وتعيق سياستها الاستعمارية، فهي تعد جريمة في حق الكتاب والتراث، تضاف لجرائم الاستعمار الفرنسي.⁽⁷⁾

رتب الزهار كتابه ترتيبا زمنيا، حسب فترة حكم كل داي مع ذكر مميزاتهما، حيث بدأ بفترة حكم الداوي علي باشا بوصب الذي تولى سنة 1168هـ/1774م إلى غاية حكم الداوي

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 516.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 05.

(3) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 10.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 10.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 169.

(6) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 10.

(7) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 169.

حسين باشا (1818-1830م)، وأضاف إليه المحقق الأحداث البارزة التي لم يذكرها الزهار، أما الخاتمة فقد جاءت في فلسفة التاريخ، مقتبسا أفكارها من عبد الرحمن بن خلدون.⁽¹⁾

5-صالح بن محمد العنتري:

5-1-التعريف به:

هو صالح بن محمد العنتري⁽²⁾، ولد بقسنطينة في أوائل القرن التاسع عشر ما بين 1205هـ/1790م أو 1215هـ/1800م، ينتسب إلى عائلة عريقة اشتهرت بتوليها لوظائف الكتابة والمهام الإدارية⁽³⁾، كان جده أحمد العنتري كاتباً في خدمة صالح باي أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، أما والده محمد العنتري، فقد كان أيضاً من الموظفين عند أحمد باي آخر بايات قسنطينة، حيث أرسله إلى الفرنسيين لمفاوضتهم⁽⁴⁾ حينما هاجموا قسنطينة، حيث اجتمع بهم محمد بن العنتري وفاوضهم حول المهمة التي كلفه بها، ثم عاد إلى قسنطينة وأخبر الباي بما رأى وسمع، فنقم عليه واتهمه بالخيانة ثم قتله، وفي هذا الصدد يشير ولده صالح العنتري، أن قتله كان بسبب دسائس ووشايات بعض الحاقدين عليه من أعدائه⁽⁵⁾، حيث أن بن عيسى القائد الحربي لأحمد باي اتهمه بالخيانة، وبأخذ رشوة من الفرنسيين ليظهر قوتهم بين السكان ويستسلموا، غير أن ابنه صالح العنتري أنكر هذه التهمة.⁽⁶⁾

تولى وظيفة الكتابة لدى المكتب العربي الذي أنشئ وسط مدينة قسنطينة، تحت إشراف الضابط بواسوني، حيث كان ماهراً في العلوم العربية منذ شبابه⁽⁷⁾، ما جعله مطلعاً

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 169.

(2) - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تح: رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص: 06.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 533.

(4) - أبو القاسم سعد الله: "رسالة من العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو"، مجلة الدراسات التاريخية، مج: 1، ع: 1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر-2، الجزائر، 1986م، ص ص: 101-102.

(5) - صالح العنتري: المصدر السابق، ص: 06.

(6) - المصدر نفسه، ص: 06.

(7) - أبو القاسم سعد الله: رسالة...، المرجع السابق، ص: 102.

على الثقافة الفرنسية، كما اشتغل مدة بالتدريس، وتولى القضاء بقسنطينة، يعد من مجموعة أعيان قسنطينة الذين شاركوا في رحلة باريس سنة 1844م.⁽¹⁾

يعتبر صالح العنتري مؤرخا مخضرمًا، عاش الفترة الأخيرة من العهد العثماني ما يزيد عن ثلاثة عقود من الاحتلال الفرنسي، الذي كان شاهداً عليه⁽²⁾، أما بالنسبة لتاريخ وفاته فلم توجد وثيقة تذكر ذلك بالضبط، غير أن وفاته كانت على الأرجح بعد انتهائه من تأليف كتابه "المجاعات" سنة 1870م بقليل.⁽³⁾

2-5- شيوخه:

تعلم بمدينة قسنطينة على يد شيوخ أجلاء، أشهرهم أحمد العباسي، علي الونيسي عمار المغربي ومحمد بن عبد الرحمن باش تارزي.⁽⁴⁾

3-5- إنتاجه الفكري:

ترك العديد من المؤلفات أهمها:

- "تاريخ قسنطينة"، انتهى من تأليفه أواخر عام 1846م، عرف بعناوين مختلفة منها كتاب "الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة"، أو "الأخبار المبينة في تاريخ قسنطينة"⁽⁵⁾، أما العنوان الذي ذكره العنتري فهو "فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها"، وقد حققه يحي بوعزيز⁽⁶⁾، الذي ذكر فيه العنتري كل البايات الذين تعاقبوا على حكم المدينة منذ مجيء فرحات باي سنة 1647م إلى غاية سقوط الحاج أحمد باي عام 1837م⁽⁷⁾، وقد

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 533.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 170.

(3) - صالح العنتري: المرجع السابق، ص: 07.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 533.

(5) - المرجع نفسه، ص: 534.

(6) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 171.

(7) - Charles Saint Calbre: «Constantine et quelques Auteurs Arabes Constantinois», in R.A., Vol: 57, Alger, 1913, p: 74.

قام دورنو بترجمته إلى الفرنسية عام 1929م، ونشره في مجلة مجموعة ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية.⁽¹⁾

- كتاب "سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة"، ألفه سنة 1870م⁽²⁾ تحدث فيه عن الأحوال الاقتصادية في أواخر العهد العثماني وأوائل العهد الفرنسي مع مقارنة لكلا العهدين⁽³⁾، حققه رابح بونار اعتمادا على نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم: 2330، ونشره تحت عنوان "مجاجات قسنطينة"، وذلك سنة 1974م.⁽⁴⁾
- كتاب "هدية الإخوان"، وهو عبارة عن تقويم مقارن للتاريخ الهجري والميلادي، إضافة إلى رسائل شخصية للعنتري "إخوانيات"، كتبها لبعض أصدقائه ومعارفه، منها رسالة وجهها إلى المترجم فيرو، يعرض فيها حالته ويشكو من معاملة الفرنسيين له.⁽⁵⁾

6-الحاج أحمد بن المبارك:

6-1-التعريف به:

هو أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد بن العطار المسمى بالشيخ الحاج أحمد بن المبارك، ولد بمدينة قسنطينة سنة 1790م، تولى في مدينة ميله على يد أعمامه الذين ينتمون إلى عائلة كبيرة في ناحية بني عطار، بدأ دراسته في الزاوية العائلية لكنه سرعان ما غادر نحو قسنطينة لإكمال دراسته⁽⁶⁾، طالبا للعلم بمساجدها على يد علمائها.⁽⁷⁾

(1)- صالح العنتري: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تح: يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص: 05.

(2)- المصدر نفسه، ص: 05.

(3)- أبو القاسم سعد الله: رسالة...، المرجع السابق، ص: 104-105.

(4)- ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 535.

(5)- المرجع نفسه، ص: 536.

(6) - A. Dournon: « *Kitâb Tarîkh Qosantina par El-Hadj Ahmed EL. Mobârek* », In R.A., Vol: 57, Alger, 1913, p: 266.

(7)- أحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص: 03.

اشتغل بالتجارة في شبابه، فكان كثير التردد على تونس للتزود بالبضائع كعمائم الحرير وأنواع العطور، وأثناء تواجده بها كان يحضر بعض الدروس بجامع الزيتونة، بعد عودته من أداء فريضة الحج، استقر بقسنطينة مجددا وتولى التدريس بالجامع الأعظم بعد وفاة شيخه العباسي، ثم أسند له الإفتاء المالكي بعد وفاة محمد العنابي، تم تعيينه عضوا بالمجلس الشرعي الإسلامي بقسنطينة، كما تولى أثناء ذلك مهمة التعليم بالمدرسة الحكومية "La Medersa" تحت إدارة الشيخ محمد الشاذلي، إلى أن تم عزله من مهامه بسبب اتصاله بالحاج أحمد باي المغضوب عليه من طرف الإدارة الفرنسية.⁽¹⁾

عرف بانتمائه إلى الطريقة الحنصالية التي عرفت بقسنطينة، والتي تنسب إلى مؤسسها الشيخ يوسف الحنصالي، وهي أحد فروع الطريقة الشاذلية، التي لها علاقة بالطريقة الرحمانية⁽²⁾، وصفه الحفناوي بقوله: «...كان وَقَاد القريحة، بديه الإدراك، واسع الفكر، عريض الفهم والإدراك...».⁽³⁾

توفي يوم 01 رجب 1287هـ الموافق لـ 05 أكتوبر 1870م⁽⁴⁾، دفن بمقر الزاوية الحنصالية بجبل شطابة قرب قسنطينة، توجد على قبره أبيات منقوشة يليها تاريخ وفاته من نظم الشيخ عاشور الحنقي.⁽⁵⁾

6-2- شيوخه:

أخذ العلم على يد العديد من علماء مدينة قسنطينة أمثال الشيخ العلامة أبو راشد عمار الراشدي المعروف بالغربي، الذي أشار إليه الحفناوي بأن له الباع الطويل في المعقول والمنقول، تولى الفتوى المالكية والخطابة بسيدي علي بن مخلوف، والتدريس بمدرسة سيدي

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 509.

(2) - أحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص: 07.

(3) - محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص ص: 77-78.

(4) - A. Dournon: *Op.cit*, p : 267.

(5) - بلقاسم ميسوم: الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962م -دراسة تحليلية-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر-2، الجزائر، السنة الجامعية 2011-2012م، ص: 66.

الكتاني، كما تتلمذ على يد شيخ الشيوخ أحمد بن سعيد العباسي، الذي كان آية زمانه حفظاً وإتقاناً وبياناً في علم البلاغة والبيان وعالماً بالقراءات السبع، من شيوخه أيضاً أبو منصور عمار الشريف القسنطيني، ذكره الحفناوي بأنه "كان نخبة قسنطينة ودرّة أعيانها، فقيهاً أديباً بيانياً مشاركاً في جميع الفنون"، كما تلقى التعليم على يد الشيخ العلامة أبي عبد الله محمد العربي بن عيسى القسنطيني، الذي يعد من أجلاء العلماء.⁽¹⁾

6-3- إنتاجه الفكري:

ألف الحاج أحمد بن المبارك العديد من التأليف منها: حاشية على شرح الأخصري لـ"جوهر المكنون"، له قصائد عدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم⁽²⁾، ميثاق للطريقة الحنصالية بعنوان "السلسلة في طريقة الشيخ الزواوي"⁽³⁾، منظومة في الإشادة بشيخه العباسي⁽⁴⁾، من أشهر تأليفه تاريخه حول مدينة قسنطينة المعروف بـ"تاريخ حاضرة قسنطينة"، وهو مصنف صغير الحجم⁽⁵⁾ ألف سنة 1852م⁽⁶⁾، تناول فيه الأحداث التي عرفت المدينة في العهد العثماني، ركز فيه بالخصوص على بعض الأعمال العمرانية لصالح باي، وقضية مقتله⁽⁷⁾، كما أشار إلى بعض الهجومات التي تعرضت لها قسنطينة، مع ذكر أهم الأحداث التي جرت في عهد باياتها، وقد قام بترجمة هذا الكتاب السيد "دورنو" إلى الفرنسية، ونشره في المجلة الإفريقية عام 1913م⁽⁸⁾، كما قام بإصدار الأصل العربي مع

(1) - أحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص: 3-4.

(2) - محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص: 78.

(3) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 66.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 510.

(5) - المرجع نفسه، ص: 510.

(6) - A. Dournon: *Op.cit*, p: 265.

(7) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 510.

(8) - صالح العنتري: فريدة منيصة...، المصدر السابق، ص: 03.

الفصل الأول المؤرخون الجزائريون وانتاجهم خلال القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م

تصحيحه والتعليق عليه، ووضع عبد القادر نور الدين عناوين لفقراته بالجزائر سنة 1952م.⁽¹⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 511.

الفصل الثاني

سير الحكام وأعمالهم من وجهة نظر الكتابات

التاريخية الجزائرية في القرن 18م والنصف

الأول من القرن 19م

أولاً: مجابهة الحملات الخارجية وتأمين الحدود.

1- المنظومة الدفاعية للعثمانيين تجاه الحملات الخارجية على الجزائر.

2- فتح وهران الأول 1708م.

3- فتح وهران الثاني 1792م.

4- سلوك الحكام العثمانيين وجهودهم في الإصلاح والتعمير.

ثانياً: العنف والأعمال غير المشروعة.

1- اغتيالات الحكام.

2- انتشار الظلم.

3- الرشوة ونهب الأموال.

4- البغاء وشرب الخمر.

ثالثاً: الواقع الثقافي للجزائر في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م.

1- حالة الركود والتخلف الثقافي.

2- وضع التعليم.

3- جهود بعض الحكام العثمانيين في تشجيع الحركة الثقافية في الجزائر

العثمانية.

4- الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية.

5- العدل وحفظ الأمن.

أولاً: مجابهة الحملات الخارجية وتأمين الحدود

1- المنظومة الدفاعية للعثمانيين تجاه الحملات الخارجية على الجزائر:

تشير العديد من المصادر المحلية إلى جهود العثمانيين منذ ظهورهم في الحوض الغربي للمتوسط، فقد رفعوا لواء الجهاد منذ أول تواجد لهم، بعد أن اتجهوا لنجدة مسلمي الأندلس وذلك بنقلهم إلى البلاد المغاربية، التي لم تسلم هي الأخرى من هجمات الإسبان، حيث عملوا على تحرير مدينة الجزائر من احتلالهم لها⁽¹⁾، من بين تلك المصادر نجد محمد بن رقية التلمساني في كتابه "الزهرة النائرة"، الذي خصصه للغارات الأوروبية، فقد ذكر تسع حملات تعرضت لها مدينة الجزائر منذ بداية العهد العثماني حتى فترة حكم الداوي عثمان باشا.⁽²⁾

يرى بن رقية أن الأتراك هم أكثر من يقوم بالجهاد في الجزائر، بتصديهم للحملات الأوروبية على مدينة الجزائر، لذا نجده يذكر أولى الحملات الإسبانية التي أشار إليها في كتابه الحملة الإسبانية على هذه المدينة أوائل سنة 1518م⁽³⁾، حيث يورد سبب القيام بها وهو أن إسبانيا كانت متخوفة من سيطرة خير الدين على حصن البنيون، والتي تخلصه من سطوتهم، وبذلك تحرم من تلك الضريبة السنوية التي كان السكان يقدمونها لها.⁽⁴⁾

يذكر هذه الواقعة بقوله: «فبادروا في إحضار العدة والعسكر فأجمعوا على غزوها وتوجهوا إليها في ثلاثمائة وعشرين جفنا وكان عساكرهم المقاتلة خمسة عشرة ألفا فوصلوا إليها وأرسوا أجفانهم بقربها وأنزلوا في البر بقصد حصارها والتضييق عليها فلزم عروج راييس وكذلك من معه من الغزاة وكافة أهل المدينة...وتهايأ لقتالهم مستعينا بالله

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2020م، ص: 44.

(2) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 108.

(3) - المصدر نفسه، ص: 39-40.

(4) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 94.

عليهم...»⁽¹⁾ ، غير أن عروج اتفق مع عسكريه على الهجوم عليهم قائلين: «إن الخروج إليهم واجب علينا لأننا نحن السبب لمجيئهم لهذه المدينة وأهلها ضعفاء لا طاقة لهم على دفاعهم»، فقد رأوا أنه من واجبهم دفاعهم عن المدينة، لذلك خرج وتبعه كافة مقاتليه وقاموا بالهجوم على الإسبان.⁽²⁾

كانت نتيجة هذه الحملة انتصار عروج ومن معه على الإسبان، حيث قاموا بقتلهم وأسروهم وفرّ من بقي منهم إلى سفنهم⁽³⁾، وفي ذلك يصف ابن رقية هذا النصر بقوله: «فمنحهم الله أكتفاهم يقتلون كيف شاؤوا ويأسرون كيف شاؤوا وتوجه الكفار إلى الفرار عن المحل الذي كانوا تترسوا فيه وتركوا ألويتهم منصوبة فنكسها المسلمون وتبعوا أثرهم فاستأصلوهم قتلا حتى صارت دماؤهم تجري كالنهر حتى قالوا: "لم ينج منهم إلى قدر ألف والباقي قتلوا عن آخرهم" ثم هذه البقية ركبوا في أجانهم وذهبوا إلى بلادهم، فلما سمع الطاغية بهم وبما لحقهم من أهل الجزائر ثم لطم وجهه وشق ثيابه ونادى بالويل والثبور». ⁽⁴⁾

تطرق ابن رقية التلمساني إلى حملة ديبغو دوفار "Diego de vara" في عهد عروج سنة 1516م⁽⁵⁾، والتي كانت باتفاق بين سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" وبعض نصارى إسبانيا، حيث قام بمراسلتهم يلومهم على عدم مساعدته في مواجهة الإخوة بربروس، فردوا عليه قائلين: «أنت لم تستعن بنا ولم تطلب منا مددا، ولو فعلت لبذلنا أنفسنا في نظرك والآن نحن معك نمذك بما تريد فتوجه إلى عدوك وقاتله فكل ما تحتاج إليه فنحن مكفلون به»، وبدوره كتب لهم ما يلي: «أمدوني بكذا من المال لأنفقه على الجيش ونخلص المدينة من الأتراك، فحين ترجع العمالة إلي أمدكم بما كنت أمدكم». ⁽⁶⁾

(1) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 87.

(2) - المصدر نفسه، ص: 87.

(3) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 95.

(4) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 87-88.

(5) - ناصر الدين سعيدي: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 425.

(6) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 95.

زحف سلطان تلمسان باتجاه مدينة الجزائر شرقاً، تزامناً مع تحرك السفن الإسبانية باتجاه المدينة، حيث أمر قائد الحملة هغو دي منكادو "Hugo de Moncado" جنوده بالنزول إلى الساحل، ولما سمع خير الدين بذلك عمل على مضاعفة الحراسة على المدينة⁽¹⁾، وبهذا الصدد يورد بن رقية التلمساني ذلك بقوله: «فسمع خير الدين بنزولهم فعين ثلاثمائة من الجند برسم حراسة المدينة ومثلهم من أهلها، وجعل خمسة آلاف من الجند مهيين للقائم واستعدوا غاية الاستعداد واشتغل الكفار يومين عن القتال بسبب إنزال آلاتهم الحربية إلى الساحل، ثم انقسموا فرقتين، وقصدت كل فرقة منهم ناحية من المدينة وصفوا سفنهم تجاه المدينة، ووقعت المحاربة بينهم برا وبحرا، فخرج إليهم خير الدين في جماعته المجاهدين من المدينة وشرعوا في قتال الكفار مستعينين بالله عليهم، وجعل خير الدين يحرض المسلمين على القتال تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وتارة في القلب، فاشتد المسلمون عند ذلك في القتال وأخلصوا نيتهم لله عز وجل وهجموا على الكفار من كل ناحية»⁽²⁾.

كان النصر حليف المسلمين، حيث وصفه بن رقية التلمساني بقوله: «وكان من قدر الله سبحانه وتعالى أنهم لما أقلعوا عن ساحل الجزائر قاصدين إلى بلادهم هاج عليهم البحر... فألقى البحر سفنهم إلى البر فعطبت عامتها... فقاتل المسلمون الكفار الذين رماهم البحر إلى البر فاستغاثوا بأصحابهم الذين في الأجفان فشغلهم ما بهم من هيجان البحر عنهم فاستولى المسلمون عليهم قتلاً وأسراً فكان جملة الأسارى ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثين أو ستة وثلاثين من رؤسائهم، ومن جملة الرؤساء مقدم العسكر قايد الجيش، يقال له بلسانهم الجنرال [وكذا مقدم الأجفان الذي يقال له أميرال]، وكان اللعين في أثناء انهزامه من المسلمين يمني نفسه بالعودة مرة أخرى إلى الجزائر والاستيلاء عليها، فقطع

(1) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 96.

(2) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 100.

الله رجاءه بالأسر»⁽¹⁾ بعد نهاية الحملة رجع خير الدين وجنوده محملين بالأسارى إلى الجزائر، وقد وصف بن رقية هذا اليوم بأنه كان يوماً مشهوداً، ولما سمع سلطان تلمسان بأسر قائد الجيش الإسباني رجع إلى تلمسان خائباً.⁽²⁾

تكمن أهمية هذه الحملة في فشل الإسبان في الاستعانة بالحكام المحليين مثل سلطان تلمسان مع تأكيد الوجود العثماني بالجزائر، وزيادة نفوذ خير الدين على مدينة الجزائر والأقاليم التابعة لها⁽³⁾، كما تواصلت حركة الجهاد التي نوهت بها العديد من المصادر المحلية، والتي أثبتت قوة العزيمة الجهادية لدى العثمانيين لحماية هذا البلد من الحملات الأوروبية.⁽⁴⁾

تمثلت أكبر مواجهة حربية عرفت الجزائر في مواجهتها للإسبان في حملة الإمبراطور شارلكان⁽⁵⁾ على مدينة الجزائر سنة 1541م⁽⁶⁾، وبعد نجاح خير الدين في صد الهجوم الثاني للإسبان على المدينة، تم استدعاؤه من قبل السلطان سليمان القانوني إلى دار الخلافة الإسلامية في إسطنبول من أجل قيادة الأساطيل البحرية العثمانية، حيث خلفه ابنه حسن على إيالة الجزائر وفي عهده زاد عدد السفن وامتد نفوذه ليهدد الإسبان في عقر دارهم من خلال حملاته المتكررة⁽⁷⁾، وفي ذلك يذكر بن رقية التلمساني عن حسن آغا قائلاً: «وكان أنشأ إحدى وثلاثين غليوطة بعد انتقال خير الدين من الجزائر، فاشتدت بذلك

(1) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 100-102.

(2) - المصدر نفسه، ص: 102.

(3) - نعيمة بوحمشوش: مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، دار القافلة، الجزائر، 2016م، ص: 69.

(4) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 45.

(5) - ناصر الدين سعيدي: ولايات المغرب...، المرجع السابق، ص: 29.

(6) - يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص: 58.

(7) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 97.

وطأته على أهل إسبانيا واحتوى على كثير من أجفانهم وعات في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعل خير الدين بهم أو أكثر». (1)

نزل الإسبان على شاطئ الجزائر وقاموا بوضع متاريس تحميهم من هجمات الجزائريين، ولما رأى شارلكان التحضيرات التي يقوم بها حسن آغا راسله وحذره من مواجهته وطلب منه الاستسلام، فما كان من حسن آغا إلا أن رد عليه بالتالي: «يا كلب النصرانية هل أنت إلا كلب من كلاب النصارى [أنت لا تقدر] على إضعاف بلاد البرابرة فكيف على مدينة الجزائر؟... وقد أتيتم لهذه المدينة مرتين، مرة في مدة عروج راييس ومرة في مدة أخيه خير الدين باشا، وقد سود الله وجوهكم فيهما، وفي هذه المرة كذلك إن شاء الله». (2)

جمع حسن آغا علماء البلد ومشايخهم ووضع ديوانا لاستشارتهم وخاطبهم بقوله: «يا أهل الجزائر فقد تعين الجهاد علينا معشر المسلمين لا لغرض الحياة الدنيا بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل الدرجات العليا بالشهادة...». (3)

حاول الإمبراطور شارلكان حصار المدينة، غير أنه وجد صدا من قبل المدافعين عنها بقيادة حسن آغا وكيل خير الدين في حكم الجزائر، مما اضطره إلى التراجع بعد أن تضررت قطع أسطوله بسبب عاصفة بحرية شديدة (4)، وفي ذلك يذكر صاحب "طلوع سعد السعود" قائلا: «...و حين رأى الطاغية ما حصل بأجفانه من الغرق والعطب انكسرت شوكته وضعفت قوته وأخمدت ناره...». (5)

يشير أحد المؤرخين الأتراك، بأن هذه العاصفة تسببت في دفع الكثير من سفنهم على الشاطئ، مما جعل الأسرى المسلمين يفرون منها، صاحب ذلك هجوم أهل المدينة على

(1) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 111.

(2) - خير الدين سعيدي: المرجع السابق، ص: 98.

(3) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 113.

(4) - ناصر الدين سعيدي: ولايات المغرب...، المرجع السابق، ص: 30.

(5) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 224.

ربابين هذه السفن الذين تمكنوا من قتلهم⁽¹⁾، بعدها انسحب الإمبراطور شارلكان من المعركة، حيث سقط أكثر من عشرة آلاف من جيشه بين قتيل وأسير ومفقود، إضافة إلى تحطم 114 سفينة بخليج الجزائر وفقدانه لكميات كبيرة من العتاد والمؤن⁽²⁾.

يصف ابن رقية التلمساني هذا النصر الذي حازه المسلمون بالقول: «...وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حلها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار، ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة»⁽³⁾.

إن من بين الحملات الإسبانية التي حاول العثمانيون القضاء عليها، حملة "الكونت داكادوت *Le Conte D'Alcadonte*" والي وهران من سنة 1534م إلى سنة 1558م، فقد حاول الاستيلاء على مرسى مستغانم في سنة 949هـ/1542م ثم في سنة 952هـ/1545م غير أنه فشل، لكنه في المرة الثالثة تجهز لها جيدا واختار جيشا معظمه من الفرسان، إلا أنه فشل مرة أخرى. استمرت هذه المعركة مدة ثلاثة أيام خسر فيها الإسبان تسعة عشر ألفا بين قتيل، جريح وأسير من بينهم خمسون ضابطا، كما هلك فيها قائد الحملة الوالي الكونت دالكادوت⁽⁴⁾، وقد سجل هذه المعركة أحد الشعراء المشاركين فيها في منظومة شعرية، وهو الشاعر الشيخ الأكلح بن خلوف الشهير بالأخضر، حيث تحدث عن الطريق التي سلكها حسن باشا الجزائر بداية من خروجه من العاصمة إلى غاية وصوله إلى مستغانم، مشيرا إلى القبائل التي شاركت في هذه المعركة وانضمت إليها منها قبائل سويد حيث يقول:

يا سايطني عن طراد الروم قصة مزگران معلومة

(1) - جون. ب. وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830م، تر، نع: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص: 57.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب...، المرجع السابق، ص: 30.

(3) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 124.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 26-27.

ياسايلني كيف ذا القصة ما بين النصراني وخير الدين.(1)
كما يشير أيضا إلى تجهيز الباشا للجيش واتجاهه إلى مستغانم، اخترنا بعضا من أبياتها، وفي ذلك يقول:

ظل يسير بعساكره والقوم في وطن متيجة أولج الما
في أمره جات العرب أطموم سلطان عادل طاعته الأمة

قصة مزغران معلومة

جاوا اشيوخ سويد للسلطان وفيهم أبو بكر ومحمد
قالوا للأمر لاتليان لادين إلا دين محمد
استشرح سلطاننا وازيان جاتوا القوم زاهية ترعد.(2)
يقول في نهاية قصيدته:

الأمير حسن يوم مزغران خلف الثأر من العدو تحقيق
ترى البهجة روضة البلدان غرناوط إلى امسات حريق.(3)

كما يشير الشاعر إلى أن انتصارهم في هذه المعركة يعد أخذًا لثأر الأندلسيين الذين عانوا من الاحتلال الإسباني، وقد كان تاريخ هذه المواجهة سنة 965هـ/1557م، التي أرخ لها بعض الأدباء الجزائريين فقال:

فتح خير الدين مزغرانة مرتجيا لفتحته وهـرانا.(4)

لقد مدح ابن رقية حسن آغا، حيث يقول: «كان رجلا عاقلا حاسما سديدا في رأيه جيدا في تدبيره، وكان له حظ من العلم والصلاح، كريم النفس سخيا بالمال باذلا بالمعروف يراعي العلماء والصلحاء وأهل الخير مع العدل الشامل والاهتمام الكامل

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 27-28.

(2) - المصدر نفسه، ص: 29.

(3) - المصدر نفسه، ص: 31.

(4) - المصدر نفسه، ص ص: 31-32.

بالرعية، ولذلك تفرس فيه خير الدين فجعله نائبا عنه لما احتوى عليه من هذه المناقب العظيمة». (1)

إن من بين الحملات التي تعرضت لها مدينة الجزائر حملة الضابط أوريلي الإيرلندي حاكم مدينة مدريد سنة 1775م⁽²⁾ في عهد إمارة محمد باشا المكروي، فبعد وصول خبر الحملة إلى الجزائر بأن عمارة الإسبان قادمة إليهم⁽³⁾، أرسل محمد باشا إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق وباي ناحية التيطري، كما بعث إلى خليفة ناحية الغرب يطلبهم لمؤازرته، وقد استجاب هؤلاء الأمراء الثلاثة وقدموا إلى الجزائر مع وصول السيد محمد باشا. (4)

يشير بن رقية أن مصطفى خوجة الخيل وقف في ميدان القتال مع فرسانه في "حملة أوريلي" على الجزائر، حيث كان كثير العطاء والإحسان لجيشه، إضافة إلى خليفة الغرب محمد بن عثمان الذي شارك في ميدان القتال بشجاعته وببذله للمال قبل السؤال، كما بذل صالح باي جهده وطاقته في الدفاع عن المسلمين ببذنه وماله. (5)

كان بن رقية من المشاركين في صد هذه الحملة التي دارت بين الطرفين، والتي تمخض عنها انتصار المسلمين وجرح من الإسبان أكثر من ثلاثة آلاف، وقتل أكثر من ثمانية آلاف، أما المسلمين فلم يبلغوا ثلاثمائة ممن استشهدوا، كما قتل مساعده، وفي ذلك يقول بن رقية: «لو وجد في مائة ألف نصراني واحد من الذين نزلوا في البر وشاهدوا تلك الواقعة وما حل بهم من الشدة والمضايقة لكفى في ترهيب هؤلاء المائة ألف وتخويفهم». (6)

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 111.

(2) - يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 59.

(3) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 140.

(4) - ناصر الدين سعيديوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 428.

(5) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 155-156.

(6) - المصدر نفسه، ص: 22، 153، 157.

لعل من بين العوامل التي أدت إلى الانتصار في هذه المعركة، قوة شخصية الـداي محمد عثمان باشا، الذي أشرف على العمليات العسكرية بنفسه، ونجاحه في تجنيد أغلب إمكانيات الدولة لصد هذه الحملة، حيث شاركت أغلب مناطق الجزائر (التيطري، قسنطينة، معسكر، القبائل وفرسان سباو⁽¹⁾).⁽²⁾

2-فتح وهران الأول 1708م:

تشير العديد من الكتابات التاريخية الجزائرية إلى المحاولات الأولى لفتح وهران، من بينها كتابات أبو راس في مؤلفه "عجائب الأسفار" الذي تحدث عن أول محاولة للأتراك لفتح وهران، والتي كانت عن طريق حملة إبراهيم باشا أواسط القرن 11هـ/17م، غير أنه فشل في إخضاعها، فما كان من الإسبان إلا أن قاموا بإعادة تحصين المدينة، أما المحاولة الثانية فكانت على يد الباي شعبان الزناقي⁽³⁾ الذي حاول فتحها عدة مرّات وهزم الإسبان، حيث اتجه إليهم في نحو أربعة آلاف جندي، بعد أن جاؤوا بجنودهم ومعهم مرّدة العرب من بني

(1) - سباو: منطقة من الناحية الإدارية مقسمة بين بايليك التيطري وبايليك قسنطينة ثم أغاليك دار السلطان. ينظر: (محمد الحبيب العزيمي: ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث-المحلة التونسية أنموذجاً-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 2006-2007م، ص: 74.

(2) - محمد السعيد بوبكر: العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري-الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ / 1708-1792م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مختار حساني، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، السنة الجامعية: 2010-2011م، ص: 113.

(3) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تح، تق: محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا، وهران، الجزائر، [د.ت.]، ص: 46.

عامر، قيزة⁽¹⁾ وكرشتل⁽²⁾، والنقى الفريقان وتقاتلا حيث انهزمت جيوش الإسبان، وقاتلهم حتى استشهد سنة 1687م.⁽³⁾

أشار ابن سحنون الراشدي صاحب "الثغر الجماني" بأن السيد شعبان كاد أن يفتتحها لولا استشهاد⁽⁴⁾، فقد ذكر الجامعي بأن الذي قتله كان أحد المتعاونين مع الإسبان يدعون بالمغطسين، وقد دفن بمدينة الجزائر⁽⁵⁾، ثم كانت المحاولة الثالثة على يد سلطان المغرب الأقصى المولى إسماعيل سنة 1112هـ/1700م⁽⁶⁾، الذي أراد الانتقام لمقتل الباي شعبان، حيث اتجه إلى وهران وقائل الإسبان مدة، غير أنه ارتحل عنها وعاد إلى المغرب، كونه لم يستطع إلحاق ضرر بالمدينة لتحصينها ببرج مرجاجو⁽⁷⁾، وفي ذلك يقول أبو راس:

أعيته حيلتها حزما ومنعتها عقاب جو قد ارتقى من الحرس

فقال هذه أفعى تحت صخرتها تضر لا الضر يأتي لها من أنس.⁽⁸⁾

أما المحاولة الرابعة فكانت على يد الباي مصطفى بوشلاغم⁽⁹⁾ سنة 1119هـ/1708م

(1) - قيزة: يقال لهم "جيدزة"، وهم فرقة من بني عامر من أولاد عامر بن إبراهيم نسبة لجدهم قيزة بن عامر بن إبراهيم بن معروف، كان مسكنهم بنواحي تارقة بتلك الجبال، وبهم سمي الجبل الذي يقال له جبل قيزة وجيدزة، ولما لحق بهم إخوتهم "الونازرة"، انتقلوا لملاحة فسكنوا بضواحي تمزوعة كانوا أهل بطش وفتك بالمسلمين، عددهم نحو الثلاثة عشر دوارا، عرفوا بحبهم الشديد والنفع للإسبانيين ونقل الأخبار لهم، ينظر: (عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 28-29).

(2) - كرشتل: نسبة لجدهم "كرشتل" بن محمد بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمن المغروي، وهم فرقة في غاية الضعف يبلغون التسعين نواله شأنهم عمل البحابر والخضر والتجارة، إلا أنهم مع ضعف عددهم لهم قوة، وأصل مسكنهم أين يصب نهر الشلف بالبحر الروم، ثم انتقلوا إلى تمزعران غربي مستغانم، استقروا بها فترة طويلة ثم انتقلوا إلى سيرات ثم جاءوا إلى أرض متوعرة فألفوا بها بني زيان فأجلوهم منها وسكنوا بها في السنة الثامنة من الهجرة (1301-1398م)، وبنوا بها متجرا محصنا بالجبال من البر، فاستقروا بها للآن، وقد عرفوا بجلب الأخبار ونقلها للإسبانيين، ينظر: (عبد القادر المشرفي الجزائري: المصدر السابق، ص: 13-14).

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 14.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 198.

(5) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 15.

(6) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 46.

(7) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 15.

(8) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 46-47.

(9) - الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي: يعد أول بايات وهران مصطفى أبو الشلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي الذي جمع في توليته بين الإيالة الشرقية والغربية، حيث تولى بايا على مازونة وتلمسان، وهو أول من جمعت له=

والأخيرة على يد الباي محمد الكبير سنة 1205هـ/1791م.⁽¹⁾

من بين المصادر التي تناولت حدث وهران الأول 1708م في عهد الداوي محمد بكداش كتاب "التحفة المرضية" لابن ميمون⁽²⁾، هذا الأخير الذي خصص أغلب مقاماته للحديث عن شخصية محمد بكداش⁽³⁾، فقد وصف توليته لمنصب حامل الراية سنة سبع ومائة وألف، حيث يقول: «فكانت توليته لذلك المنصب نعمة عميمة، وكمال راحة ومنة جسيمة، وتمام صحة على كل ناحية من سفك دمها تميمة...»، كما أنشد في حقه ما يلي:

هي السيادة حلت منزل القمر وأنت منها سواد القلب والبصر
وهي الجلالة لا تري لها صفة لكنها عبرة جاءت من العبر
أما المعالي فقد حطت رواحها لديك والخبر قد يغني عن الخبر.⁽⁴⁾

تمت توليته سنة 1118هـ/1707م دايا على الجزائر⁽⁵⁾، وقد بقيت الناس تلقاه بالود وتقدمه في الأعيان، فلما أبصروه خاصة الأمير (حسين خوجة الشريف) على هذه الحالة حسدوه، وصاروا ينسبون إليه الفحشاء حتى نبذوه، بعدها تم نفيه وإخراجه من الجزائر.⁽⁶⁾

يؤرخ ابن ميمون لحدث هام، والمتمثل في الفتح الأول لمدينة وهران، حيث يشير إلى أن الإسبان مكثوا في المدينة مائتين وخمسة أعوام، قاموا فيها ببناء الحصون وتشييدها وغزوا بلاد الإسلام وأسروا علماءها، وقد تحالفت معهم قبائل بنو عامر، وهم أول من دخل في بيعتهم من المسلمين، عليهم ما يستحقون من الخزي إلى يوم الدين⁽⁷⁾، فهم من آزرُوا الإسبان

=الإيالة الغربية بتمامها سنة 1686م ونقل مقر الحكم من مازونة وتلمسان معا للقلعة ثم معسكر وجعلها قاعدته، أمده الباشا محمد بكداش بالجيش لنظر وزيره أوزن حسن ففتح وهران سنة 1119هـ/1708م، ينظر: (الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 274-275).

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 47.

(2) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 203.

(3) - الجيلالي سلطاني: المرجع السابق، ص: 67.

(4) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 86، 119-120.

(5) - المصدر نفسه، ص: 139.

(6) - المصدر نفسه، ص: 135.

(7) - المصدر نفسه، ص: 203.

ووقفوا إلى جانبهم⁽¹⁾، وقد عرفوا بالغدر والخديعة⁽²⁾، لذلك طلب منهم علماء وأعيان بني عامر وزناتة الإغاثة وكاتبوهم نظما ونثرا⁽³⁾، ولكثرة جند بني عامر وشدة بأسهم ودخولهم تحت ذمة الكافر، وحصول الإهانة لهم، خاطبهم العلامة العالم أبو العباس سيدي أحمد ابن القاضي ابن سيدي عبد الله بن أبي محلي السجلماسي المساوري، شيخ العلامة عثمان سيدي سعيد قدورة الجزائري، على سبيل المعايرة والإغراء في قصيدته الرائية ظنا منه إقلاعهم عن مناصرتهم للإسبان، اخترنا منها بعض الأبيات:

فمن مبلغ عني قبائل عامر	ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
أناشدكم بالله ما عذر كلكم	لدى الله في وهران أم الخنازر
أذلكم الجبار كيف رضيتهم	بسبي العذارى من بنات الأكابر
فصرتم من جور البغاة كأنكم	يهود الجزا تعطونها في الأصاغر
فلا همة تعلقو بكم عن دنية	ولا غيرة تدعوكم للمـآثر
عليكم إكاف الذل أين فحولكم	أما أبصروا في السبي غير الحرائر

غير أنهم لم يلتفتوا إلى هذا الخطاب، بل ازدادوا نفورا إلى الكوافر الإسبان⁽⁴⁾، كما كانت دعوة العلماء الجزائريين للجهاد من العوامل التي شجعت العثمانيين على تجديد الحملات العسكرية لتحرير وهران، لذا فقد اعتبر العالم ابن أبي محلي تولية الأتراك للجزائر علامة على فتح وهران إذ قال:

ألستم أخذتم دار ملككم التي من أشرط فتحها وذا في العلائم.⁽⁵⁾

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 22.

(2) - عبد القادر المشرفي الجزائري: المصدر السابق، ص: 24.

(3) - أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي: مدينة وهران الرباط والتحرير من خلال شرح أرجوزة الحلفاوي التلمساني،

تح: العربي بوعمامة، حمدادو بن عمر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2015م، ص 42.

(4) - عبد القادر المشرفي الجزائري: المصدر السابق، ص ص: 32-33.

(5) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 45.

إن من العلماء من كان يحث على الجهاد عامة وتحرير وهران خاصة، ومنهم من تنبأ بالفتح قبل وقوعه تشجيعاً للحكام⁽¹⁾، ومثال ذلك قول الشاعر محمد أقوجيل الذي دعا إلى الجهاد بقوله:

والتفت نحو الجهاد بقوة والكفر أقطع أصله بذكور.⁽²⁾

يورد صاحب التحفة إلى أن الداوي محمد بكداش، أرسل جيشاً بقيادة صهره أوزن حسن لفتح المدينة، التي بقيت تحت سلطة الإسبان مدة خمس ومائتي سنة، معززا الجيش بالعدة والعتاد⁽³⁾، مقدما خطابا يدعوهم فيه إلى مساندة حسن أوزن: «أقدم لكم القائد السيد الملازم الذي يمثلني في كل أمر، فقد أسندت له مهمة المحافظة على مصالحكم من أي سوء، وطلبت منه حمايتكم جميعا، فقبل رغم صعوبة المهمة، وأنا متيقن انه سيعمل بكل تفان، لذا أطلب منكم مساعدته... لا أنكر لكم خصاله وقدراته وشجاعته، ستتأكدون بأنفسكم من خلال المعارك، ساعدوه في مهمته بطاعة وأوامره وبالانقياد لواجباتكم... والذي لا يعمل على تنفيذ هذه الأوامر فالعقوبة القاسية ستلحق به...»، وبعد سماع هذه الكلمات من قبل الحشود قامت بالهتاف وانطلقت نحو مقاومة الاحتلال الإسباني.⁽⁴⁾

يذكر الضابط الإسباني أرامبورو "Aramburu"، أن الداوي محمد بكداش أرسل أسطولا حربيا، بقيادة صهره أوزن حسن لإحكام الحصار البحري على مدينة وهران، غير أن الباي مصطفى بوشلاغم أمره بتطويق القاعدة الإسبانية برا.⁽⁵⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 203.

(2) - نفسه، ص ص: 203-204.

(3) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 30.

(4) - Henri Léon FEy, *Histoire D'oran Avant Pendant et après la domination Espagnole*, typographie Adolphe éditeur, Oran, 1858, pp 127-128.

(5) - Aramburu, *ORAN ET L'OUEST ALGERIEN AU 18^{ème} SIECLE d'après le rapport Aramburu*, TRa: Mohamed EL KORSO, Mikel DE EPALZA, Bibliothèque Nationale, ALGER, 1978, p23.

تم فتح المدينة عنوة على يدي صهره ومعه الباي مصطفى بوشلاغم⁽¹⁾، هذا الأخير الذي كان بايا على مازونة وتلمسان، اتجه لوهران وقام بحصار وقتال من بها بجيشه، فكان تدبير أمر الحرب يصدر عن أوزن حسن والباي مصطفى بن يوسف المسراتي، وقد تم الفتح صبيحة الجمعة السادس والعشرين شوال سنة 1119هـ (1708م)، فكان أول ما فتح من أبراجها برج العيون⁽²⁾، الذي شيد من طرف الإسبان حتى يوفروا منه المياه للمدينة⁽³⁾، أما برج المرسى فلم يفتح إلا بعد إخضاعها مع سائر حصونها⁽⁴⁾، بعدها انتقل الباي مصطفى إلى وهران وجعلها مقرا لحكمه، وقفل أوزن عائدا إلى الجزائر منتصرا ومعه الأسرى حاملا الغنائم، وفي شأن ذلك يقول ابن ميمون: «الكفر قد ذل واستكان ودخل عزه في خبر كان...والجهات بشادي الفتح تتعطر اجتمعت الخلائق من كل فج عميق لميعاد لقائه»، وفي هذا إشارة إلى حسن أوزن.⁽⁵⁾

بعد هذا الانتصار أرسل محمد بكداش هدية ثمينة إلى الباب العالي⁽⁶⁾، تمثلت في ثلاثة مفاتيح ذهبية طالبا منه قفطانا للباشا⁽⁷⁾، ليلبسه صهره أوزن حسن كشعار لترقيته إلى رتبة باشا لكن السلطان رفض طلبه⁽⁸⁾، لقد بقي الباي مصطفى بوشلاغم في مدينة وهران، يقيم في خرائبها ويعيد بناءها وأخذ الناس يتوافدون على المدينة، ويبنون بها دورهم وينشؤون حولها حدائقهم، حتى أصبحت بعد مدة قصيرة مدينة عامرة ومرسى زاخرا بالحركة والعمران، وتظهرت من الاحتلال الإسباني⁽⁹⁾، كما كان له دور كبير أيضا في تطوير الزراعة بها،

(1) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 30.

(2) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 47.

(3) - Henri Léon FEy, *op.cit*, p 35.

(4) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 47.

(5) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 30.

(6) - المصدر نفسه، ص: 30.

(7) - Henri Léon FEy, *op.cit*, p 35.

(8) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 236.

(9) - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص: 465.

وفي تجديد عمرانها وبناء مخزنها مع حمامين ما يزالان قائمان إلى اليوم⁽¹⁾، أقام المساجد وزين ساحتها العامة بالأقواس، فانتعشت الحرف والصنائع وازدهرت التجارة، وعادت العلاقة بين المدينة والريف إلى ما كانت عليه، وتحول ميناءها إلى أكبر قاعدة تجارية بعد الجزائر العاصمة، وعاد الأمن والاستقرار من جديد إلى المنطقة.⁽²⁾

يصف ابن ميمون أوزن حسن بأنه قبل مصاهرته للداي محمد بكداش، كان سكيما مدمنا على شرب الخمر، يقضي جل أوقاته في اللهو: «وكان -قبل- قام زمانا على المدامة معتكفا، ولثغور البطالة مرتشفا، لا يغدو إلا ثملا ولا يروح إلا بنشوة مشتملا»⁽³⁾ هذا من جهة، ومن جهة أخرى مدحه بوصفه أنه أبو الفتوح حسن أكرم الناس عطاء بساما، وفي حومة الحروب عبوسا، ومن عاداته نقاما ولما صاهر بكداش أكرم سريرته⁽⁴⁾، ذلك أن حسن أوزن تغيرت حياته بعد أن أصبح صهره.⁽⁵⁾

لقد نعت الداوي مصطفى أهجي بالظلم، الطغيان، العتو، التجبر، البغي، العدوان، سوء المعاملة، نهبه لأموال الرعية وإهماله لشؤون الدولة⁽⁶⁾، وفي هذا الصدد يقول: «ساد وطغى في البلاد واستوى عنده العالم والجاهل... وعامل الناس أسوأ معاملة، وأعطاهم المقابحة عوضا عن المجاملة، وأهمل حال الدولة وناطها، وفرط في مصالحها وما حاطها، وتجبر وعتا وأتى بذلك ما أتى واشتغل بنهب الأموال وإجراء المظالم في كل حال»، وهو بذلك أراد أن يرسخ في ذهن المتلقي شخصية محمد بكداش، بصورة ناصعة مناقضة تماما

(1) - رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية...، المرجع السابق، ص ص: 193، 197.

(2) - Aramboro, *op.cite*, pp: 24-25.

(3) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 29.

(4) - المصدر نفسه، ص: 144.

(5) - عبد المجيد دقياني، دليلة الباح: "سيمائية المركز والهامش في مقامة التحفة المرضية"، مجلة العلوم الإنسانية، مج: 14، ع: 2، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مارس 2014م، ص: 458.

(6) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 13.

لشخصية مصطفى أهجي⁽¹⁾ كما مدح الداوي حسين خوجة الشريف فيذكر أنه حليف الصواب ملازم الطهارة معجز ببيانه موجز في كلامه.⁽²⁾

لاقى حدث فتح وهران الأول إشادة الكثير من العلماء، كالعالم أبو زيد عبد الرحمان الذي وصف الأفراح التي نتجت عن هذا الفتح بقوله: «ولما أقبلت رسل البشائر، وتليت صحف فتحها على الأمير، وعم الخطاب بالفرح... أمر الأمير نصر الله الداوي محمد بكداش باشا، بصنع وليمة الفرح وعيده، وتسريح من كان في هم وعيده (أي جماعة المسجونين)، وتزيين سوق البلاد وتجديده وتعطيل البيع والشراء وقطع الجدل والمرء، ورفع الأحكام وتنويع اللباس والطعام، ففتحت الناس صناديق ذخائرها، وتأرجحت الأرجاء بنفحات الند والعود...»⁽³⁾، وقد استقبل الداوي محمد بكداش فتح وهران بالفرح، فعمل على مكافأة الجيش للشجاعة التي اتصف بها في المعارك، وقام بإلغاء الضرائب والعفو عن المساجين⁽⁴⁾، وبهذه المناسبة اخترنا بعضاً من أبيات الحافظ أبو راس في قصيدته السينية منها:

أقام بالجزائر مذهب الـدندس	لما أراد الله عود الإيمان بها
قد فاق الأكفاء في الدهاء والرغس. ⁽⁵⁾	محمد بكداش أضحى بأشتها
من بعد سكنى ره والدين في وكس. ⁽⁶⁾	ففتحت عنوة في تسع عاشره

(1) - الطاهر حسيني: تجليات سلطة الكاتب من خلال النص المقامي في التحفة المرضية لابن ميمون"، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج:3، ع:3، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2011م، ص: 45.

(2) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 13.

(3) - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص: 462-463.

(4) - Devoulx A, *Tachrifat recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne d'Alger, conservateur d'archives arabes des domaines, imprimerie du gouvernement Alger, 1852, p p 13-14.*

(5) - الرغس: كان الطابع الأساسي لمحمد بكداش هو عمل الخير بخلفيته الإسلامية ملأ حياته بعلامات الخير الذي أعطاه البهجة والفضل والإحسان للمزيد ينظر:

(ARNAUD : «Voyages Extraquidinaires et nouvelles Agréables par Mohammed abou Ras Ben Ahmed Ben Abd-El-Kader En-NASRI ,Histoire de L'Afrique Septentrionale», In R.A. Vol :26, Alger, 1882, p : 118).

(6) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 210.

لقد أشاد الكثير من الشعراء والعلماء بهذا الفتح وخلصوه بقصائد ومقالات شتى، من خلال الاستماتة الجهادية التي بذلها العثمانيون في سبيل ذلك، وهذا ما ذكره الحلفاوي في أرجوزته الشهيرة، حيث يثني على محمد بكداش وصهره حسن أوزن، الذي كلف بهذه المهمة الصعبة التي انتظرها الجزائريون وتفاعلوا معها:

لما أراد الله بالدين جلا
عن أرض وهران بني الكفر جلا
أجاد من حاد عن الخلافة
فاستهض فتى لها خلافة
فجهز جيشا حمى الدين فساد
إذ ظهرت به بقاع من فساد
مؤمر صهره أوزن حسنا
قوما رضى فسار سيرا حسنا.(1)

إن الفتح الأول لمدينة وهران ألهم الكثير من العلماء والمؤرخين، فكان سببا في بعث الحركة الفكرية والعلمية من جديد، والتي ظهرت أهم تجلياتها في الكتابات الشعرية والنثرية(2)، من بين الذين كاتبوا محمد بكداش أحمد بن قاسم البوني، حيث قام بتهنئته بأرجوزة تحتوي على ثمانية وثمانين بيتا وذكر موالا وخصمه له:

قلبي إليكم صبا والحب في جاشي
والسر منى سرى في سر بكداشي
يا لائمي في هوى هذا الفتى الناشي
أقصى ملام كان خيره فاشي.(3)
كان أول من راسله بالقصائد يحيى بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم وفي ذلك يقول:
بشارك يا بكداش قد نلت المنى
عمرت أرض الكفر بالإيمان.(4)

عرف عن محمد بكداش أنه كان يتقرب إلى العديد من العلماء، ويمنحهم الهدايا والعطايا(5)، رغم أنه لم يحكم الجزائر لأكثر من ثلاث سنوات.(6)

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2005-2006م، ص: 53، 55.

(2) - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 31.

(3) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 87، 118.

(4) - المصدر نفسه، ص: 152، 176.

(5) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 413.

(6) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، المرجع السابق، ص: 190.

كما مدحه العالم الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد الثغيري بقوله:

الحمد لله الذي قد فتـحاً
وهـران على أيدي الرجال الصلحاً
ففتحت سنة تسعة عشر
ومائة من بعد ألف تعتبر
في سادس العشرين من شوال
صبيحة الجمعة خذ مقالي
عن يد من صير الجزائر
جنة كل قاطن وزائر
محمد البكداش فخر الدولة
وحسن صهره الصولة.(1)

لقد راسله شيخ الإسلام السيد مصطفى بن عبد الله البوني الخطيب مهنتاً إياه بالفتح

قائلاً:

يا سيدي محمد
لقد فتحت وهرانا
بالنصر والرعب معا
وحسن سلطانهم
بكداش نجل الأمد
بالعسكر المؤيد
وكل سيف ماجد
بينهم كالأسد.(2)

لم يدم هذا الفتح طويلاً بسبب الاحتلال الإسباني، الذي استرجع مدينة وهران سنة 1144هـ/1732م، فلم تبق تحت حكم الباي مصطفى بوشلاغم سوى 24 سنة وهذا ما ذكره أبو راس بالقول: «من بعد عشر وعشر ثم أربعة... عادوا إليها قرة أعين التعس»، مؤكداً أن أمر استعادتها لم يكن بالأمر الصعب، بسبب ضعف مقاومة الباي بوشلاغم، فقد تمثل دخول الإسبان إليها للمرة الثانية بزحفهم عليها في مراكب كثيرة، مع عدة وعتاد، ورسوا بمرسى الحريشة غربي المدينة، لكنهم وجدوا في مواجهتهم مصطفى بن يوسف رفقة 4000 جندي، وهناك دارت معركة بين الجيشين، كانت فيها الغلبة للإسبان.(3)

يورد أبو راس الظروف التي استرجع فيها الإسبان وهران سنة 1144هـ/1732م، حيث يذكر: «لقد أخبرني شيخنا... سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي شرف الله في

(1) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 233-234.

(2) - المصدر نفسه: ص ص: 235-237.

(3) - محمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار...، ج1، المصدر السابق، ص: 47.

الجنان مكانه، وكان حاضرا لتلك الواقعة، أن الكفرة لما تكامل عسكرهم في البر وبقي جل مددهم في البحر، لم يعملوا صفا للقتال، ولم يطلبوا مجادلة الرجال، وإنما زحفوا للبلد الرّجّالة والفرسان... بارودهم كرعده متصل ورمصاصهم كمطر منهطل، لا يستطيع أحد قريهم ولا يكر شجاع نحوهم، وأن الباي مصطفى بوشلاغم (باي وهران) وفاتها مع بكداش باشا سنة 1119هـ سقط في ذلك اليوم عن فرسه، لشدة تعرضه على الجهاد وكثر عدوه...»(1).

دام احتلالهم للمدينة ما يقارب ثلاثة قرون، إذ احتلوها سنة 914هـ/1508م وطردوا منها سنة 1119هـ/1708م، ثم استرجعوها سنة 1144هـ/1732م، وبقوا بها ربع قرن إلى أن انتهى احتلالهم لها نهائيا سنة 1206هـ/1792م، على يد الباي محمد بن عثمان الكبير(2)، بعد حشده لقوات عسكرية ضخمة، مكرها إياهم على الجلاء منها بصفة نهائية(3).

كانت نهاية الداوي محمد بكداش كما أشار إليها صاحب التحفة بمقتله نتيجة ثورة الإنكشارية عليه، حيث اغتيل سنة 1710م، بسبب عدم دفع أجورهم نتيجة تأخر تحصيل الضرائب إلى خزانة الدولة(4)، غير أن هناك من يشير إلى أن مقتله كان على يد دالي إبراهيم(5)، الذي نصب بدلا منه، وألبسته قفطان الداوي السابق الملطخ بالدماء(6).

اعتبر أبو زيد عبد الرحمن الجامعي، أن الفتح الأول لمدينة وهران يعد من المعارك الإسلامية الخالدة التي عرفتها الأمة الإسلامية، حيث شبّهه بمعركة اليمامة التي كانت أيضا من المعارك العربية الخالدة في تاريخ الأمة العربية(7)، ومعركة خيبر التي كانت سببا أساسيا في تخليص النواحي المجاورة للمدينة المنورة من الوجود اليهودي، وفي ذلك يقول: «...كاد

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 37.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 13.

(3) - يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 63.

(4) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 31.

(5) - Alphonse Rousseau: *Op.cit*, p: 210.

(6) - محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص: 31.

(7) - مختار حساني: المصدر السابق، ص: 13.

أن يكون كفتح اليمامة أو خيبر، ويجب عليه مع ذلك إذاعة الثناء الجميل، على من أظهر الله على يده هذا الخبر الجزيل، من جنود المسلمين العثمانية وفر الله عددهم وقوى مددهم وعددهم...»(1).

هناك من يرى أن فتح وهران الأول لا ينسب إلى بكداش، وأن الناس يرون أن مصطفى بوشلاغم هو من فتحها، لكن بن سحنون يجيب عن هذا بالقول أن بكداش هو من أمر بوشلاغم بالفتح، وبالتالي فهو الأحق بأن تنسب له عملية الفتح لسعيه للجهاد بنفسه دون أن يأمر أحدا بذلك، فقد أنفق على الجهاد الكثير من ماله الخاص الذي بلغ مائتين وستين ألفا وثلاثين ريالاً، لذلك فالفتح ينسب له، بينما يعد بوشلاغم من نوابه الذين يعملون على تطبيق أوامره.(2)

3- فتح وهران الثاني 1792م:

يشير ابن هطال في رحلته "رحلة محمد الكبير" باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، إلى سعي محمد الكبير إلى فتح وهران سنة 1205هـ/1791م واستعادتها من يد الإسبان، وقد أرسل إلى الداوي محمد عثمان باشا طالبا استشارته فأذن له الداوي بذلك، لذا دعا الباوي الناس إلى الجهاد وأرسل إلى نواحي معسكر ليخبرهم بذلك، فلبوا طلبه وأتوه من كل نواحي الإيالة الغربية، فانضوى أهل تلمسان وفليطة وما جاورهما من القبائل تحت قيادة ابنه عثمان، أما أهل مازونة، مستغانم، قلعة بني راشد وقبائل نواحي الشرق، فكانت تحت قيادة محمد بن إبراهيم صهر الباوي، كما جعل القسم الأكبر تحت قيادته.(3)

كما سعى إلى الاتفاق مع علماء معسكر وضواحيها من أجل جمع الطلبة وقرآء القرآن والمدرسين، بهدف الرباط بجبل المائدة بالقرب من مدينة وهران بهدف تثبيت همم الإسبان ومنع وصولهم إلى ما يأتيهم من الخارج من أسلحة ومؤن.(4)

(1) - أبي زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي: المصدر السابق، ص: 33.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 117.

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 19.

(4) - المصدر نفسه، ص ص: 19-20.

عزم الباي على محاصرتهم وأنفق من ماله الخاص ما يحتاجه من المؤن والعدة والعتاد، وطلب بأن لا تتم عملية التدريس إلا في ذلك الجبل، بعد أن كلف محمد بن عبد الله بتدريس الطلبة⁽¹⁾، هذا الأخير الذي اتجه إلى معسكر مع 200 من طلبته وولديه الشيخ سيدي الهاني وسيدي محمد، وقد رحب بهم الباي بكل حفاوة وتوجهوا إلى يفرى⁽²⁾.

يشير ابن سحنون الراشدي إلى أن الرباط الذي أحياه الباي محمد بن عثمان بوادي يفرى كان هو من يشرف عليه، حيث عمل على تطويره، فعين له رئيسه ومساعديه وتولى تسليحه وتنظيمه وأرسل إليه الطلبة ليدرسوا به، كما تكفل به ماديًا، حيث كان يرسل المساعدات والتموين بجميع أنواعه للمرابطين والمرضى⁽³⁾، وقد كانت عائلات بأكملها تجتمع أيضا حول يفرى بعد أن أعفى الباي جميع من يذهبون للعيش في جبل المائدة من الضرائب، كما منع فتح مدارس في أي مكان آخر غير هناك⁽⁴⁾.

يذكر صاحب "الثغر الجماني" التحاق الجيش النظامي بالرباط واستعراض الباي لكتائبه: «فانتشرت الأخبية والمضارب والقياطين والخيم على جميع تلك الآكام، وذلك الوطاء الفيح، فكستها ومازالت الكتائب تتواصل والجيوش تتراسل والمواكب تجتمع أعدادها والأبطال تنتظم أزواجها وأفرادها»⁽⁵⁾، حتى وصل عدد الطلبة إلى الأربعمائة طالب، فأرسل لهم الباي الأسلحة والأطعمة والمال وكل ما يحتاجونه، وأكرمهم بالإعانة وبنى لهم ثلاث أرحاء ماء بنهر "مسرقين"، وكان يتصدق عليهم، ونظرا لعددهم المتزايد اشترى لهم نحو الألف سيف ووزعها عليهم، وفي ذلك يقول ابن سحنون:

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 240-241.

(2) - Gorguos: «Notice sur le bey D'Oran Mohammed ELKEBIR», In R.A., Vol: 2, Alger, 1857, p: 46.

(3) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 81-82.

(4) - A. Gorguos: «Notice sur le bey D'Oran...», Op.cit, p: 46.

(5) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 83.

ملتزما لرزقهم جميعا ملبيا لقولهم سميعا.(1)

بعد استقرار الطلبة بالجبل، وقع قتال شديد بينهم وبين الإسبان الذين قتلوا ستة منهم وجرحوا اثنا عشر آخرين. إن نفاذ البارود والرصاص منهم جعلهم يرمونهم بالحجارة، ولما علم الإسبان بذلك استغلوا الفرصة لقتالهم حيث توفي ثلاثة من بينهم حامل الراية، ولما علم السيد قاضي معسكر الطاهر بذلك، اتجه لمواجهة العدو، حيث أصيب وقد تأثر الطلبة لذلك كثيرا، وجرح من الإسبان نحو الستة عشر، ولما تفرقوا مساء أخذوا السيد الطاهر مرتثا، حيث توفي بعدها بليلتين أول ليلة من جمادى الأولى، وقد رثاه ابن سحنون بقوله:

إنما قد فقدنا من ليس للقلب على الصبر عن نواه يدان
ماجد شهدت عليه البرايا إنه سيد بكل مكان
ساد بالعلم والتقى العطايا وبنى المجد فهو أكرم باني.(2)

سعى الباي لتعزيز قوته، وذلك بشراء الأسلحة والمدافع من مختلف الأقطار، وأرسل أحمد ابن هطال مع قاضي المحلة إلى المغرب الأقصى ليشتريا سلاحا، كما قام بإطلاق سراح جميع المساجين حتى يقدموا له المساعدة في فتح وهران، في حين اتجه محمد الكبير من مدينة معسكر إلى مدينة وهران يوم الخميس في الثالث عشر من شهر صفر سنة 1205هـ/1791م رفقة خمسة آلاف مقاتل بهدف فتحها.(3)

يرى أبو راس أن الباي محمد الكبير، يعد بطلا من أبطال الجهاد في الإسلام، حيث شبهه بسيف الدولة: «لقد كان سيف الدولة محبا للجهاد كثير الغزوات والفتوحات، لقد طالت مواقفه مع الكفرة»، كما يورد بأن حصاره لمدينة وهران ترك صدى كبيرا في المخيلة المغاربية، فقد وصل صدهاء إلى إقليم تونس أثناء عودته من الحج «لما خرجنا من البحر في شهر شعبان سنة 1205هـ...وجدنا خبر محاصرة المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 242-243.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 244-245.

(3) - أحمد ابن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص ص: 20-21.

لوهران بسوسة والمنستير وصفاقس... ووجدنا خبر جهاد وهران عند أهل جربة وأيضا أهل تونس سمعوا...»⁽¹⁾.

يشير صاحب الثغر الجماني إلى مشاركة العلماء في هذا المجهود الحربي، في مقدمتهم محمد بن عبد الله الجلاي، محمد بن علي وأبو طالب المازوني، الذي التحق بالرباط رغم كبر سنه رفقة ولديه وبمعية مائتي طالب، حيث جمع بين التدريس والجهاد.⁽²⁾

3-1- المفاوضات بين الجزائر وإسبانيا:

بدأت المفاوضات بين الحكومتين الإسبانية والجزائرية في جوان 1785م، كان الهدف منها إبرام معاهدة صلح بين الدولتين، انتهت بعد جوان 1786م دون تسوية مسألة وهران، لقد نصت اتفاقية الصلح في مادتها العشرين "تبقى مدينة وقاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليهما من قبل دون اتصال بالضواحي وأن لا يهاجمها داي الجزائر أبدا ولا يقوم باي معسكر بأي غارة عليها إذا لم يتلق أمرا من الداوي...".⁽³⁾

شن محمد الكبير سنة 1787م غارات على القاعدتين، بسبب أن الحامية الإسبانية كانت تقوم من حين لآخر بالتهب والسبي والقتل، حيث قام بجمع الجنود لقتالها بعد أن جمع السلاح، المدافع، أرباب الصنائع من النجارين، الخراطيين والحدادين من كل بلد، ثم انتقل إلى وهران، وعندما استكمل استعداداته لتجديد الحصار دعا الناس للجهاد، وبذلك تجددت العمليات العسكرية حول الأبراج الواقعة في وادي وهران، وهو ما جعل الحكومة الإسبانية تطلب من قنصلها بالجزائر مباشرة المفاوضات مع الداوي محمد بن عثمان، حيث عرضت عليه التنازل عن وهران والاحتفاظ بقاعدة المرسى.⁽⁴⁾

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 33، 35.

(2) - ناصر الدين سعيديوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 441.

(3) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 37.

(4) - المصدر نفسه، ص: 38.

لم يقبل الداوي والباي معا هذا الاقتراح⁽¹⁾، ولما رأى الإسبان شدة الباي وقوته أيقنوا بأن البلاد ستأخذ من أيديهم، لذلك طلبوا منه إيقاف القتال مدة شهر كامل، وبعد انتهاء هذه الفترة يقوموا بتسليم البلاد كاملة بأبراجها وقصورها، فقبل الباي محمد بن عثمان عرضهم، غير أنهم نقضوا العهد فيما بعد، لذا قام بمواجهتهم رفقة جنوده، وفي ذلك يقول ابن سحنون: «واستمر الحال في كل يوم تأتي كتائب أخرى إلى أن انفض سوق الجلاذ ورجع الناس إلى مقر الأهل والأولاد»⁽²⁾.

عادت الحرب من جديد في (ماي/جوان 1791م)، وتوفي الداوي محمد بن عثمان في هذا الحصار⁽³⁾، وعين خلفه حسن باشا، فطلب منه الإسبان هدنة نصف شهر، على أن يدفعوا جميع المصاريف التي أنفقها المسلمون عندما احتلت وهران، فقبل الباشا طلبهم وأخبر الباي بذلك⁽⁴⁾، وقد وقع الاتفاق على الهدنة يوم 20 جويلية 1791م، والتي ينتهي أجلها في 03 أوت 1791م، وعندما اقترب أجل انتهاء مدتها حضر إلى مدينة الجزائر وفد إسباني وأخبر الداوي حسن باشا بأن ملك إسبانيا يرفض دفع التعويضات الحربية للباي محمد، وفي أواخر أوت 1791م كتب الملك الإسباني للداوي حسن يؤكد له أنه اختار نهائيا تسليم البلاد كلية على الصورة التي تركها المسلمون سنة 1732م⁽⁵⁾، ومن ثم تم توقيع عقد الصلح من قبل الداوي حسن باشا في 12 سبتمبر 1791م، وصادق عليه الملك الإسباني في 12 ديسمبر 1791م، وقد نصت المعاهدة على: جلاء الإسبان من القاعدتين وهران والمرسى الكبير في مدة أقصاها أربعة أشهر بعد التوقيع، إضافة إلى حقهم في إقامة شركة تجارية بوهران مقابل

(1) - بلبراوات بن عتو: "التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م"، مجلة عصور، مج: 3، ع: 2، مخبر البحث التاريخي-مصادر وتراجم-، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران -1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2004م، ص: 267.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 266، 273، 277، 282.

(3) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 38.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 85.

(5) - بلبراوات بن عتو: التحرير الثاني...، المرجع السابق، ص ص: 267-268.

دفع الرسوم⁽¹⁾، واتفقوا على تسليم البلاد مع ترك جميع ما أخذوه من آلات المسلمين في عهد بوشلاغم مع تهديم ما قاموا ببنائه، وأن يدفعوا خمسة وخمسين ريالاً عن كل سفينة ترسو بوهران.⁽²⁾

بعد الاتفاق بين الطرفين أمر قائد النصارى جنوده بأن يحصوا كل موضع أو برج تم إنشاؤه في الفترة التي تلت عهد بوشلاغم أو قبله ففعلوا، وبعد ذلك عين لهم مواضع جديدة أمرهم بهدمها منها برج الفرنسيس، البرج الجديد، زيادات وراء برج العيون وكنائس.⁽³⁾

3-2- دخول الباي محمد الكبير مدينة وهران 1792م:

في يوم الاثنين 27 فيفري 1792م، دخل الباي محمد الكبير مدينة وهران⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول محمد بن يوسف الزياني في كتابه "دليل الحيران": «...فحاصر مدينة وهران وضيق عليها من كل فج نزهة الزمان، ودام عليها إلى أن فتحها صبيحة الإثنين خامس رجب سنة ست من القرن الثالث عشر دون ثلب...»⁽⁵⁾، كما يصف ابن سحنون الراشدي هذا الفتح بقوله:

وارتحل الكفار بالصليب	تحدو بهم عواصف الجنوب
والحزن في أحشائهم قد استكن	من خيبة القصد وفرقة الوطن
فطُهرت تلك البقاع الدنسه	من خبث الكفر وأمست آنسة
وانقطعت علائق التلبيث	والاعتقاد الفاسد الخبيث. ⁽⁶⁾

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص ص: 38-39.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 319-320.

(3) - المصدر نفسه، ص: 321.

(4) - حسين بوخلوة: "العلماء وطلبة العلم ودورهم في تحرير مدينة وهران 1792م"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج: 2، ع: 2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م، ص: 269.

(5) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 261.

(6) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 468.

اتجه البايع محمد بن عثمان رفة ابنه عثمان إلى عاصمة الجزائر، فاستقبلها الباشا حسن بالترحيب، وألبس البايع حلية من ذهب تسمى عند الدولة العثمانية بالنيشان وعند الجزائريين بالريشة، والتي لا تقدم إلا للأمرء الفاتحين لبلد، توضع على العمامة، وبعد الفتح قام الباشا بتوكيل البايع وإعطائه الإذن المطلق بالتصرف في مدينة وهران، حيث قال له: «هي بلدك فتحتها بجدك واجتهادك وأعدتها إلى الإسلام بجهدك فأمرها موكول لأمرك لا يتقدم فيها نظر على نظرك»، كما عين ابنه عثمان وليا لعهد أبيه، كما عين أخ البايع قيادة قبيلة "فليتة"، ثم اتجه البايع إلى وهران والتقى بعلماءها، حيث ناقشوا مصير المتعاونين مع الإسبان، فكان رأيه العفو عنهم وتأمينهم.⁽¹⁾

لقد انتقل البايع إلى بلاد "هيرة"⁽²⁾ وأرسل ابنه إلى وهران وأتى بأواني مليئة بمائها، وطلب منه أن يرسلها إلى السلطان بالجزائر ليعيها بدوره إلى الخليفة "سليم بن مصطفى خان" ومعها مفاتيحها فأرسلها له⁽³⁾، وقد أشار إلى ذلك الشريف الزهار في مذكراته بقوله: «وبعث حسن باشا بشارة فتح وهران ومفاتيحها إلى السلطان سليم، ولما وصل الرسل إلى إستمبول وقابلوا الوزير وبلغوا له الرسائل وبلغ الوزير البشارة للسلطان ففرح بذلك واستبشر المسلمون بهذا الفتح العظيم والنصر المبين».⁽⁴⁾

بعد رجوع البايع من سيق حمل صحيح البخاري، وقد وصف ابن سحنون الراشدي ذلك بقوله: «... حمل صحيح البخاري في ربة رائعة بين صندوقين ملآنين بالكتب على بغلة فارهة وغطى الربع بسجف حرير مغشى بلباس الكعبة المشرفة موسى أحسن توشية

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 86-87.

(2) - هيرة: بين مدينتي وادي سيق والمحمدية، ينظر: (المصدر نفسه، ص: 473).

(3) - المصدر نفسه، ص: 473.

(4) - حبيب بوزوادة: "نور علماء معسكر في فتح وهران من الاحتلال الإسباني (1206هـ/1792م)"، مجلة عصور، مج: 18، ع: 1، مخبر البحث التاريخي - مصادر وتراجم -، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1 - أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019م، ص: 154-155.

مكتوبة بكلمة الإخلاص وعين له راية رائقة تحمل أمام قائد البغلة، وأمر العلماء أن يسيروا وراءه يقرؤون البردة وسائر الأمداح النبوية...»⁽¹⁾.

لما وصل خبر رحيل جميع الإسبان إلى مسمع الباي، أرسل الأعلام الإسلامية ووضعت على أعالي الأبراج، كما اتجه مع العلماء وحُمل صحيح البخاري وتعالق أصوات الصلاة على النبي والتكبير والآذان من الجميع، وتعالق أصوات البنادق وتزاحم الناس على السبق في دخول وهران، التي أعجبوا بها وبشدة تحصينها، وكان أول من دخلها بعد الذين وضعوا الأعلام، العلماء ثم يليهم الباي رفقة جنده، وكان أول موضع نزل به هو البرج الأحمر⁽²⁾، حيث صلى به ركعتين شكرا لله، بعدها أطلقت مدافع التهنئة ودخل الناس يهنئونه وأنشد له ابن سحنون قائلا:

أبشر فثغر الفتح أصبح باسمها	يثني عليك بربه المعطار
ولوامع النصر المبين تكاثرت	حتى كستك أشعة الأنوار
طهرت هذا القطر من دون الردى	ورفعته عن سائر الأقطار
وسعيت للرحمن سعيا صادقا	فجزاك عنه بخير عقبى الدار. ⁽³⁾

فما كان منه إلا أن أكرم ابن سحنون وأعجب بنظمه، ورأى أنها من النظم البديع، وقد أشار صاحب الثغر الجماني، أن من جوده وعطائه عليه صار غنيا، كما أمره بكتابة رسائل للملوك يبشرهم بفتحه الذي تم في الرابع من رجب سنة ست ومائتين وألف⁽⁴⁾، وهكذا عمت الأفراح والأعراس في كل أنحاء البلاد⁽⁵⁾. يشير الزهار في مذكراته أن الناس دخلوا

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 474.

(2) - البرج الأحمر: "روساكسا" من أعظم حصون هذه المدينة وأكثرها غناء عنها وأشدّها دفاعا عليها برا وبحرا يحمل ثلاثمائة مدفع، كأنها مدينة مستقلة يتطابق منها شرر المدافع من كل جهة، وهو يعد من آثار المسلمين لكونه بناه أبو الحسن المريني حسب ما ذكره شارح الحقاوية، ينظر: (المصدر نفسه، ص ص: 208، 300).

(3) - المصدر نفسه، ص ص: 477-479.

(4) - المصدر نفسه، ص ص: 480، 482.

(5) - حبيب بوزوادة: المرجع السابق، ص: 154.

وهران وعمرها وأصبحت سكنا للباي محمد وبنيت فيها المساجد⁽¹⁾، كما نقل إليها الباي كرسي الإيالة وقضى بقية أيامه في ترميمها وتوسيعها، وأصبحت في عهده مدينة غنية زاخرة⁽²⁾، كما أمر بتعميرها، حتى أن ابنه كان يشرف على توزيع المساكن على أهالي المدينة.⁽³⁾

استمر محمد باي الكبير في جهوده الإصلاحية والعلمية إلى أن توفي سنة 1213هـ/1798م، بعد أن أدركته الوفاة ببلاد صبيح عقب عودته من الجزائر⁽⁴⁾ بعد استمراره في الحكم لمدة عشرين سنة بايا مستقلا، وسبعة أعوام خليفة مفوضا.⁽⁵⁾

يضع صاحب "الثغر الجماني" مقارنة بين الباي محمد بن عثمان وبين أهل الرياسة، حيث يرى أنه فاز عنهم، وهو من قام بالفتح، وفي ذلك يقول: «ومن أين لهم أن يجدوا في هذا القطر مدينة كفر يفتحونها فيفوزون بهذا الأمر وهب أنهم وجدوا مدينة، وإن لم تكن مثلها حصينة، فمن أين لهم بأسه المشهور وعزمه المعضود بالمجاهدة... هيهات هيهات قد سبق إليها، وهم نيام فلا يلحقونه فيها، وإن وجدوا على ممر الأيام...»⁽⁶⁾.

عقد بن سحنون الراشدي مقارنة بين بوشلاغم والباي محمد بن عثمان في محاولة منه إظهار هذا الأخير في صورة أحسن من فاتح وهران الأول، فقد أشار إلى أن بوشلاغم كان كثير التعسف والقتل على كل أمر هين بمدينة وهران، لذلك أخذها الإسبان من بين يديه فغادرها، بينما عرف الباي محمد بن عثمان برفقه وحسن تعامله مع الرعية مع تقديمه لمصالح الناس على مصالح نفسه، ذلك أنه سعى إلى تطبيق ما يقتضيه الشرع.⁽⁷⁾

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 63.

(2) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 25.

(3) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 39.

(4) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 26.

(5) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 23.

(6) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 444.

(7) - المصدر نفسه، ص: 200.

يمكن القول أن التحرير الثاني لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م، كان له الأثر الإيجابي في إبعاد الخطر الإسباني عن بايلك الغرب الجزائري، كما ساهم في استعادة الوحدة الترابية لإيالة الجزائر وتعزيز سيادتها في الداخل والخارج، إضافة إلى إظهار الدور الفعال للمتقنين (الفقهاء، الأدباء والطلبة) في تسيير كبريات قضايا الدولة، وأن سيادتها ومستقبلها هو شأن الجميع.(1)

3-3- الأشعار التي قيلت في الباي محمد بن عثمان:

نقل لنا بن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني" العديد من الأشعار التي قيلت في الباي محمد بن عثمان، اخترنا بعضا من الأبيات منها:

ملك يهاب الليث شدة بأسه	ويخاف سطوته الشجاع الفاتك
أسد يصول على الأسود ومرهق	قلب المريب لبأسه يتهاك
ملئت بلاد الغرب أمنا عندما	أمسى بها وهو الرئيس المالك
ما بعد خوف عم في أقطارها	وتوعرت سبل به ومسالك
الناس كل يشهدون بفضله	ذو العدل منهم والتقي الناسك.(2)

كما قال فيه أيضا:

مدوخ الأقيال والأبطال	ومنجز الوعد بلا مطال
فكاك كل معدم أسير	وكل صعب مبهم عسير
من قد أذاع العدل والأمان	وأبطل الجور أبو عثمان
محمد محي رسوم المجد	سليل عثمان الهمام الكردي.(3)

تدل هذه الأبيات على أن محمد بن عثمان قهر وأذل الملوك النصرانية، وأنه يحب الخير ويسعى لإنجازه دون تماطل أو تسويق، بنشره للعدل والقضاء على الجور وإطلاق

(1) - بوخلوة حسين: المرجع السابق، ص: 269.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 170.

(3) - المصدر نفسه، ص: 124.

سراح الأسرى⁽¹⁾، وهذا ما قاله فيه الأديب محمد بن الطيب المازري البليدي لما نزل إليه:

أقام بحده الحدود فلن ترى
غزا أرض وهران بجيش عرمم
أكثر بن سحنون في مدحه منها قوله:

وتمت محاسنه فغدا
محمد نجل الأمير الذي
وأخبر راوي العلى أنه
هو البدر تمت محاسنه
فلولا ظهور الأمير به
يكاد بأوصافه يعرب
بتفضيله شهر الأدب
إلى المجد والفضل منتسب
وذاك الزمان هو العقب
لدام به النحس والعطب.⁽³⁾

إن المدح لم يقتصر عليه فقط، بل شمل صهره الباي محمد بن إبراهيم قائلاً:
هو البدر الذي يستضاء به من حنادس (شدة الظلام)...حسن الصفات على الإطلاق
حليم صبور لا ينادي عند الحوادث بالثبور...⁽⁴⁾

كتب أبو راس عن أبي الفتوحات محمد بن عثمان في "عجائب الأسفار" العديد من
الأشعار التي تظهر إعجابه بهذه الشخصية، اخترنا منها بعضاً من الأبيات في قوله:

ولكن إحسان الملك محمداً
ففاق ملوك الأرض طراً كأنهم
فقد سادهم علما وحلما ونجدة
ورعى نظام وافتقاد رعيته
دعتني إلى شعر في مدحه بارع
نجوم وهو بينها البدر طالع
وبالجود والأقدام لكل جامع
يراعي حدود الله بالحق صادع

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 128.

(2) - المصدر نفسه، ص: 170.

(3) - المصدر نفسه، ص: 226.

(4) - المصدر نفسه، ص: 223.

وقد حاصر وهران حتى افتتحها
كما يقول أيضا:
ووجهت تلقاء العروات المدافع.⁽¹⁾

هنيئا هنيئا فتح وهران إننا
وشرد أهل الكفر عنها وأقبلت
لجادلون وقد يقاضي جحود
فيارب وفقه وأصلح فعاله
أولوا الدين دان منهم وبعيد
كفار وهران تركوها غامرة
وأصلح به شأن الورى فيهود.⁽²⁾
فالحمد لله أمنا من الهجس
باي عثمان وعثمان قد رجعا
إلينا ما يبلي من أرض أندلس

إنه يقصد بذلك أن نصارى الإسبان تركوا أرض مدينة وهران غير سالحة، وبإي عثمان هو أبو الفتوحات محمد بن عثمان وقوله "عثمان" المقصود به ابنه خليفته على الإيالة الشرقية الذي يتسم بالجود، الأدب، العلم، الشجاعة والحلم، وهما من أعاد مدينة وهران إلى ديار الإسلام، بعد أن كان النصارى قد استولوا عليها.⁽³⁾

يعتبر أبو راس أن تحرير وهران يعد تعويضا لضياح الأندلس، بعد عودتها إلى الإسلام وتطهيرها من أوثان التثليث والكفر⁽⁴⁾، كما يعتقد أن الباي محمد الكبير هو نموذج للحاكم الذي تحلم به الجماعة الإسلامية، لتمييزه بالحزم، فقد عمل على مقاومة الفتن والتصدي للثورات ضد السلطة، حيث حقق وحدة الدولة والمجتمع، وساهم في تحقيق الأمن والأمان وحماية دار الإسلام، كما أن السياسة التي اتبعتها قامت على العدل والاهتمام بشؤون العلم والعلماء، فبنى المساجد والمدارس وجلب الكتب، متعهدا بدفع رواتب الطلبة وشيوخهم، محييا تجارة وهران منعشا الحرف والصنائع.⁽⁵⁾

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص ص: 59-60، 62.

(2) - المصدر نفسه، ص: 130.

(3) - المصدر نفسه، ص: 121.

(4) - المصدر نفسه، ص: 40.

(5) - المصدر نفسه، ص: 40.

يبالغ أبو راس في مدح وذكر مآثر هذا الباي، حيث قارنه بالملوك الكبار، فجعل شعره في مدحه:

فاق ملوك الأرض طرا كأنهم نجوم وهو بينهم البدر طالع

فلم يبلغوا في الملك مثل محمد ولا بذلوا كبذله المتوسع.(1)

ما عرف عنه، أنه لم يكن من شعراء البلاط يتقرب من السلطة من أجل الكسب، وإنما كان ما يحرك قريحته الشعرية هو عاطفته الإسلامية وحلمه بعودة عظمة الإسلام في ظل واقع تميز بتكالب الدول المسيحية وضعف الأنظمة القائمة.(2)

4- سلوك الحكام العثمانيين وجهودهم في الإصلاح والتعمير:

أشارت العديد من الكتابات التاريخية الجزائرية إلى سيرة وسلوكات الحكام العثمانيين في الجزائر وجهودهم ومآثرهم الإصلاحية والعمرانية، حيث يذكر محمد الشريف الزهار أن حسن باشا أثناء توليته الحكم سنة 1205هـ/1791م، قام بتعيين حفيده مصطفى خزناجيا، حيث وصفه بأنه رجل كريم صالح، لا يقوم بفعل إلا بأوامر خاله، وفي ذلك يقول: «...لأن هذا حسن باشا كان عارفا عاقلا وله فطنة في الأمور، غير أنه في بعض الأحيان كان يعتريه الحمق حتى يفعل أمورا لا تصادف محلا» من أعماله العمرانية تجديده لمسجد كتشاوة، الذي حوله الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر إلى كاتدرائية وبنى الدار البديعة الملاصقة له، كما استرجع مرسى القالة من فرنسا.(3)

لقد أشاد في مذكراته بسيرة محمد بن عثمان باشا الحسنة، حيث ذكر بأنه اشتهر بالعدل، عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة، محبا للجهاد، قاد العديد من الحروب وانتصر فيها، ومن شدة تواضعه كان يقوم كل سنة بإرسال ملبسه لترقيعها فلا يفصل ثوبا إلا إذا لم يجد كيف يرقع القديم، وكان من عادة الملك ووزرائه أنهم يحملون الليطغانات (نوع من السيوف) من الذهب وقت ذهابهم للصلاة أو اجتماعهم في مقر الحاكم مع الأمير، الذي

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 40.

(2) - المصدر نفسه، ص: 40.

(3) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 61، 68.

كان يحمل يطغانا من الفضة⁽¹⁾، يصفه دي غرامون قائلاً: «لقد كان رجلاً حكيماً مجتهداً عادلاً وحازماً جداً». (2)

من مآثره العمرانية، بناؤه عدة أبراج للجهاد أولها برج سردينة، البرج الجديد وبرج راس عمار، الذي بناه في قتاله الأخير ضد الإسبان⁽³⁾، كما ذكر الزهار بأن هذا الباشا يعد أول من صنع اللنجور العتيق وجدده، ومن حسناته كذلك أنه أعاد بناء المسجد العتيق وجدده، وأتى بمياه الحامة للبلاد، وبنى له ساقية وأوقف عليها أوقافاً لخدمة مجراها إن فسدت، كما أمر بتفريقه على أبراج باب الجهاد وعلى المساجد والميضات، وما بقي فرقه على العيون بزقاق البلاد يملأ الناس منه للديار. (4)

أنشأ مصطفى باشا برجا بباب الواد، بعد أن كان عبارة عن مفرغة عمومية للبلاد قبل تشييده، كما بنى برج راس التافورة، وقد كانت له رغبة في تجديد برج قانت الفول، صنع فرقاطتين كبيرتين، أنجز بستاناً محاطة به القصور وغرس به كل أنواع الفواكه، شيد الحاج علي باشا المخازن، جدد قنطرة وادي الحراش وبنى قنطرة وادي شلف. (5)

إن من بين محاسن الرجل التي أشار إليها الزهار، قيامه بتنظيم حفل كبير لختان ولديه، حيث عزم أهل البلد من الخاص والعام، كافة الفقهاء، الطلبة، البايات وعمالهم، وأكرمهم من جميع أنواع الأطعمة، وقد استمر الاحتفال والوليمة لمدة سبعة أيام، وفي اليوم السابع أعطى لكل الحاضرين وأهل المدارس والزوايا عشرة محبوب (قطعة ذهبية)، كما تكلف بختان أولاد الفقراء من العمالة لمدة شهر، وأكثر من الصدقات كما سدد على كل من

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 23-24، 53.

(2) - Henri delmas de Grammont: *Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)*, ERNEST LE ROUX Éditeur, Paris, 1887, p: 317.

(3) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص ص: 80، 97.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 24.

(5) - المصدر نفسه، ص ص: 80، 110.

لديه دين خاصة الفقراء منهم، كما أطلق سراح جميع المساجين في عمالته، فلم يبق في السجن إلا من لم يقبل الشرع إطلاقه، ولكثرة عطائه هنأه الشعراء بقصائد كثيرة.(1)

أثناء نكبة قرية القليعة بسبب الزلزال بالجزائر، والتي قضى فيها على الكثير من الناس، سمع مصطفى باشا بالخبر، فاتجه لمعاينتها بنفسه وأمر بإخراج من كان تحت الردم، فمن وجده حيا قام بكسوته مع إعطائه بعض المال، تولى تكفين جميع المتوفين ووزع الكثير من الأموال وكسى الفقراء، وأعاد بناء جامع سيدي علي مبارك والزاوية، حيث وصفه الزهار بقوله: «...وكان رجلا صالحا، حليما كريما، محبا للعلماء والصلحاء، رحيفا بالفقراء والأيتام، محبا للمجاهدين والغزاة وكان شجاعا رحمه الله»، يصف علي برغل بأنه رجل عاقل، ومنصف للحق، أما يحي آغا، فقد كان من أحسن رجال تلك الدولة عقلا ومعرفة.(2)

كان حسين باشا 1818-1830م، آخر حكام الأتراك بالجزائر(3)، وقد امتدحه الزهار في مذكراته بقوله: «...كان قوي النفس لا يتزعزع لعظائم الأمور، ولا يتضعض لنواب الدهر، وأما سيرته في أهل البلد وأهل مملكته، فقد سار فيهم سيرة حسنة لم يسرها من تقدمه من لين الجانب وسهولة المجاب والعفو عن الجرائم، والصفح عن الزلات والكف عن الدماء والمحارم، ورفع الظلمات وتفقد أحوال الضعفاء، وكان تقيا محبا للصالحين ولمن انتسب إليهم...»، من مآثره العمرانية شروعه في إكمال بناء القصبنة ورتب السرايا وبنى المسجد للخطبة.(4)

رغم مدحه للعديد من الحكام الأتراك، إلا أنه عرف بصراحته في نقده لبعض رجال الدولة وبعض أفعالهم، فنجده مثلا يقول عن عمر باشا ما يلي: «...ولما أفاق من نومة أهل الكهف...»، ويقول عن الشواش الأتراك في اجتماعاتهم بالبايات: «...منكسي الرؤوس

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 82-83، 92.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 63، 71، 83، 163.

(3) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان...، المرجع السابق، ص: 59.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 144، 176.

مثل الثيران التي تتعلم الحراث...»، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على روح المؤلف وفكره الحر. (1)

أشار الحسين الورتلاني إلى المآثر العمرانية للعثمانيين، وذلك من خلال قوله: «...ولأن مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة البر وعلى تقدير وجود الأموال...بنو الحصون بها والأبراج والأسوار والثغور، وأقاموا العساكر والنوبات في كل محلّ محوّف كثر بجاية وجيجل والقل وبونة وغير ذلك مما يحتاج إليه الحفظ من العدو». (2)

نوهت العديد من المصادر التاريخية المحلية إلى مآثر بايات الغرب "وهران" وإنجازاتهم، منهم عثمان باي بن إبراهيم، الذي تولى الحكم بتلمسان حوالي سنة 1747م، فقد دام في الحكم تسع سنوات، من مآثره بناؤه الجامع الأعظم بمعسكر، الدار والقبة الملاصقتين له، كما حاول فتح وهران عدة مرات لكنه لم يستطع، توفي سنة 1756م، إضافة إلى أبي إسحاق إبراهيم باي الملياني (3) هذا الأخير تولى الحكم سنة 1756م، كان محبا للعلماء، من مآثره بناؤه برج العسكر بمعسكر، توفي سنة 1771م. (4)

أشادت الكتابات التاريخية بالباي محمد بن عثمان الكردي أو الباي محمد الكبير كما هو شائع عنه، والذي يعد من الذين ساهموا في صناعة تاريخ الجزائر العثمانية في أواخر القرن 18م، إذ حكم بايلك الغرب بصفة باي من جويلية 1779م إلى نوفمبر 1797م، وقد تميز عن بقية البايات بأعماله التي عبرت بوضوح على أن الرجل كان مسائرا لمشروع حضاري تغذيه حركة إصلاحية عاشت المخاض في عهد الداوي محمد بن عثمان باشا

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 13.

(2) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 73.

(3) - الباي إبراهيم الملياني: هو أبو إسحاق إبراهيم باي الملياني، باي الإيالة الغربية وتلمسان، تولى عام السبعين ومائة وألف الموافق لـ 1756-1757م، توفي سنة خمسة وثمانين ومائة وألف الموافق لـ 1771-1772م، دفن بمعسكر بالقبة التي بناها الباي الحاج عثمان للشيخ عبد القادر الجيلاني الملاصقة للجامع الأعظم، ينظر: (الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 285).

(4) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص ص: 20-21.

1766-1791م⁽¹⁾، لقد تطرق مقربو الباي في مؤلفاتهم لحزمه وشجاعته، فقد كتب أبو راس الناصري: «لا يترك أمرا يرجى نجاحه وطرق التوصل إليه غير سهل حتى يزاوله بالسيف والخيال والمزاولة والمعالجة والمحالة»، أما بن زرفة فقال عنه: «ما توجه لحد عسكريه إلا فله والأرض قفلا صعب فتحته إلا حله ولا رمى غرضا إلا أصابه...»⁽²⁾.

تحدث بن هطال عن اعتناء الباي محمد الكبير بالفقراء والمساكين، حيث كان يقوم بحفظ الحبوب أثناء فترة الحصاد ويعمل على توزيعها للمحتاجين، يتصدق على الفقراء بالألبسة خاصة في فصل الشتاء، مداواته للمرضى الفقراء، إكرامه للطلبة والقائمين على خدمة المساجد في كل المناسبات، وذلك بتوزيع الأموال عليهم، كما كان يرسل في كل سنة هدايا إلى الحرمين الشريفين "مكة والمدينة"⁽³⁾.

يذكر ابن سحنون الراشدي أنه كان من المحسنين، خاصة في سنوات القحط والمسغبة، مكثرا من الصدقة والإطعام، وعندما يشتد الحال بالرعية يقوم ببيع زرعه بأقل الأثمان الموجودة في السوق، كما كان يدخل الفقراء ممن ليس لهم القدرة على العمل للأكل في بيته، وعموما عرف بكثرة عطائه لكل محتاج، يلجأ إليه طالبا منه المساعدة، فقد أثر عنه أن شخصا أراد تزويج أبنائه فقدم إليه لطلب المساعدة فأكرمه بالنفقة، وأمده بمائة ريال⁽⁴⁾.

ولكرمه وكثرة عطائه شاع أمره، فلجأ إليه أبناء الملوك فاستقبلهم وأحسن إليهم، ومن أمثلة ذلك لجوء حسن باشا للباي محمد بن عثمان لما نفي عن بلده فأكرمه وأسكنه بتلمسان،

(1) - بلبروات بن عتو: "الباي محمد الكبير باي وهران 1779-1797م حياته وسيرته"، مجلة عصور، مج:2، ع:1، مخبر البحث التاريخي-مصادر وتراجم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2003م، ص: 151.

(2) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري، كوكب العلوم، الجزائر، 2016م، ص: 109.

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 24.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 144، 152.

وقد وفد إلى الباي عدد كبير من الناس فكان كريما معهم معطاء، وفي ذلك يقول ابن سحنون: (1)

أنتك وفود الناس من كل جانب لجودك إن الجود للناس جالب. (2)

يشير ابن هطال إلى اعتناء الباي بالتشبيد والبناء، فقد قام بتجديد بناء مدرستين بتلمسان، وزاد على حُبسِهَمَا القديم، ومن ثمة استعادت المدرستان مكانتهما العلمية، كما بنى منزلا بالجزائر العاصمة وأثته ومنحه لممثليه ووكلائه هناك، وشيد قصرا في مستغانم ومعسكر، وأنشأ السوق العتيق بمعسكر، وتكفل بنقل الماء بالقنوات إلى مدينتها الجديدة، وأنشأ مقبرة لمشاهير شخصياتها، وجدد الجامع العتيق وبنى خمسة أحواض للوضوء. (3)

أشاد بن سحنون بالباي الذي تولى بناء مسجد زمن المسغبة وأنشأ مدرسة، كما قام بحبس خزانة كتب وحمام واشترى له ماء وجعل منها سقايات لعابري السبيل، كما حبس له حدائق ودورا وحوانيت اشتراها، وبنى له فرنا (4)، وفي ذلك يقول بن سحنون في أبيات شعرية اخترنا منها ما يلي:

انظر رعاك إله الخلق واعتبر لمسجد رائق قد لاح للبشر
متوج بالبها بالحسن مشتمل بالظرف مؤتزر باللفظ مشتهر
ذاك الأمير محمد بن عثمان ذو الـ عزم الذي فاق حد الصارم الذكر
فهو الهمام الذي عمت نوافله كل الرعية من بدو ومن حضر. (5)

خصص للمسجد خطيبا وإماما ومدرسين، وكان يعطي لكل موظفيه رواتب (6)، من أهم مآثره التي ذكرها مسلم بن عبد القادر صاحب "أنيس الغريب" بناؤه لمسجد بن ناصيف بمعسكر، ومعه قلعة البرج الأحمر سنة 1792م، تشييده للمدرسة بخنق النطاح التي يوجد

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 153-154.

(2) - المصدر نفسه، ص: 144.

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 27-28.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 135-136.

(5) - المصدر نفسه، ص: 137-138.

(6) - المصدر نفسه، ص: 141.

فيها ضريحه بمدينة وهران ومعها جامع حسن باشا⁽¹⁾، كما بنى مسجدا بمأذنة أنيقة والذي سمي المسجد الأكبر أو الأعظم، بنى الجامع الأكبر المسمى جامع المستشفى يعرف عند الجزائريين بجامع المكان "Place" بسبب الساحة المحاطة بالبيوت ذات الشرفات التي تم بناؤها من طرف الإسبان في هذا المكان المنخفض من المدينة⁽²⁾، ومن أعظم مآثره فتح مدينة وهران.⁽³⁾

بعد وفاته تولى حكم الإيالة الغربية ابنه محمد عثمان باي سنة 1213هـ/1798م، وبقي في الحكم ثلاث سنوات، ثم نقل القصبه من البرج الأحمر إلى القصبه التي بأعلى الساحة من ناحية مرجاجو⁽⁴⁾، اهتم بتشييد القصور والمعالم المروقة، وغرس الأشجار وأجرى المياه في القوارير.⁽⁵⁾

أشاد أحمد الشريف الزهار في مذكراته بصالح باي، حيث ذكر بأنه كان مجاهدا محسنا للفقراء، عرف برفقه بالرعية وحبه للعلماء والصالحين.⁽⁶⁾

أشار صالح العنتري إلى ذلك في مؤلفه "تاريخ قسنطينة" قائلا: «...وأجرى للضعفاء والقليلين، فبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة والرعية طائعة إليه ومنقادة...وهو الذي أسس مرسى سكيكدة وشهرها وصاروا كل الأجناس يأخذون الوسق منها، وقد انجرت له من تلك المرسى فوائد عديدة وذخائر نفيسة».⁽⁷⁾

أثنى عليه أحمد الشريف الزهار أثناء مقاومته للاحتلال الإسباني، حيث يقول: «وفي الوقت الذي تقدم فيه صالح باي إلى العدو، رأى الناس نورا مثل البرق على المتارز

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 24.

(2) - M. walsin Esterhazy: *de la domination turque dans L'ancienne Régence D'Alger*, Librairie de Charles gosselin, Paris, 1840, p: 196.

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 24.

(4) - المصدر نفسه، ص: 26.

(5) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 270.

(6) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 65.

(7) - صالح العنتري: فريدة منيصة...، المصدر السابق، ص: 62.

الإصباتيولية ونزل بعده مطر واستمر ذلك النور فرآه جميع الناس حتى النسوة في البلاد من فوق السطوح»⁽¹⁾، ومن مآثره تجميل مدينة قسنطينة وجعلها عاصمة لائقة بمركزها.⁽²⁾

يشير إليه أحمد المبارك في "تاريخ بلد قسنطينة" أنه قام بغرس البساتين المعتبرة وبنى القنطرة، وجلب لها المهندسين من بلد النصارى وأنفق عليها المال الكثير⁽³⁾، وقام ببناء أبراج وصهاريج للفلاحة.⁽⁴⁾

ساهم صالح باي في توجيه القطر الجزائري بحدوده الحالية حول السلطة المركزية الجزائرية، وإليه يرجع الفضل في ضم بلاد الجنوب الجزائري إلى سلطة الديوان بصفة نهائية، فقد جهز حملة سنة 1785م ضد مجموعة في جبال عمور بعد أن أعلنت التمرد والعصيان، وقد نجح في إخضاعها وإرجاعها للطاعة، ومن ثمة اتجه نحو بلاد الأغواط حيث هاجمها وأخضعها.⁽⁵⁾

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 26.

(2) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان...، المرجع السابق، ص: 134.

(3) - أحمد بن المبارك: المصدر السابق، ص: 138.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: الشرق الجزائري بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف مراسلات وتقابيد ومذكرات وتقارير، دار البصائر، الجزائر، 2013م، ص: 48.

(5) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان...، المرجع السابق، ص: 137.

ثانيا: العنف والأعمال غير المشروعة

1- اغتاليات الحكام:

تشير العديد من الكتابات التاريخية المحلية إلى انتشار ظاهرة الاغتيالات في الجزائر أثناء العهد العثماني، والتي كانت تطال الحكام العثمانيين، وهذا ما أورده ابن المفتي "صاحب تقييدات" أن ولاية دولاتي الحاج أحمد كانت سنة 1695م، وعند توليته أمر بخنق شعبان خوجة، كما ثارت الإنكشارية على يورك رمضان، حيث قاموا بقتله مع حراسه سنة 1661م، كما يشير إلى حادثة ذبح أوزن حسن من قبل الفرسان الذين لحقوه إلى المكان المسمى "ذراع الكلخ" وحز رأسه ثم حمل إلى الجزائر، حيث دفن إلى جانب حمو بكتاش قرب معمل الفخار خارج باب الوادي سنة 1710م، كما قتل إبراهيم باي دولاتي أعلى قصره بعد دفاعه المستميت، ودفن قرب سيدي الكتاني كما قام بكتاش بحبس خوجة سيدي أحمد وسيدي علال في مكان مليء بالدنس حتى كادا يختنقان، ثم أخرجوا من السجن وقتلا في الشارع سنة 1715م، وقد ذكر ابن المفتي أن سيدي أحمد بن سيدي سعيد كان له باع طويل في النحو وأصول العقيدة، تميز بالفصاحة والأدب، إلا أن نهايته كانت بمقتله.⁽¹⁾

توالى سلسلة الاغتيالات للدايات بكثرة، فقد أعدم كل من الحاج مصطفى باشا خنقا سنة 1705م، ومحمد بكداش باشا من طرف الجيش سنة 1710م، وقتل محمد بن حسن باشا سنة 1724م وسمم إبراهيم كوتشوك سنة 1748م. إن هذا الجو من الصراع على تداول الحكم، جعل السلطة تصب اهتمامها على محاولة التخلص من المؤامرات والبحث عن طرق لتفادي مخاطر الاغتيال، مما جعلها تهمل الشؤون العامة للرعية، خاصة لما تولى شؤون الحكم في هذه الفترة حكاما ضعافا ليست لهم خبرة سياسية.⁽²⁾

(1) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص ص: 54-55، 58، 60، 106.

(2) - فاطمة الزهراء طوبال: النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد البايات 1671-1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: رابح لونيسي، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران -1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2019-2020م، ص ص: 149-150.

يشير الزهار في مذكراته إلى مقتل "صالح باي"، حيث يذكر أن هذا الأخير كان سببا في مقتل الخرناجي محمد باشا، وعند مقتله تولى حسن باشا الذي كان زوجا لابنة محمد باشا التي طالبت بقتل صالح باي لتأخذ بثأر أبيها، حيث أرسل حسن باشا محلة مع صهره علي وكيل الحرج، وأرسل مع الوزناجي باي التيطري لتوليته بايا على قسنطينة، وتم القبض على صالح باي، ومن ثم دخل وكيل الحرج مع الوزناجي وقتلاه، بعدها تولى الوزناجي مكانه، كما استولى وكيل الحرج على جميع الأموال التي وجدها في الخزينة، إضافة إلى المجوهرات، الأسلحة والأثاث الذي وجده ببيته. يتساءل الزهار عن مقتل صالح باي بقوله: «انظر إليها المعتر في أمر هؤلاء ملوك الأتراك كيف يقتلون رجالهم وخصوصا خيارهم والعجب كيف يقتل رجل مثل هذا لأجل خاطر زوجته على ما قيل والله أعلم»⁽¹⁾، كما قتل جل البايات التسع عشر الذين خلفوه.⁽²⁾

عرفت الجزائر أواخر العهد العثماني تدهورا كبيرا من الناحية السياسية، حيث بدأت الأوضاع تسوء إثر وفاة الداوي محمد عثمان باشا سنة 1791م، فقد تولى الداوي بابا حسان 1791-1798م مقاليد الحكم بعده، ثم الداوي مصطفى باشا 1798-1805م، وبذلك توالى اغتالات الدايات حتى تعاقب على الحكم خلال تسع سنوات ما بين 1805-1814م خمس دايات فضلا عن الداوي مصطفى باشا المذكور وهم: الداوي أحمد باشا 1805-1808م، الداوي علي باشا المعروف بالغسال 1808-1809م، الداوي الحاج علي باشا 1809م، الداوي محمد باشا 1814م، الداوي عمر باشا 1814-1817م، هؤلاء كلهم قتلوا على أيدي العساكر.⁽³⁾

إن معظم الحكام استولوا على السلطة بالجور والقوة وجمع المال والتظاهر بالدين، فقد أسقطوا بنفس الطريقة، ليصبح الاغتيال الوسيلة الوحيدة لتصفية الحسابات والوصول إلى

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 64-65.

(2) - رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص: 22.

(3) - محمد شاطو: "السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية (1791-1830م)"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج: 3، ع: 1، جامعة مصطفى إستانبولي، معسكر، الجزائر، 2008، ص:

الحكم⁽¹⁾، وكمثال على ذلك تقلد الداوي أحمد باشا للحكم بطريقة دموية بعدما كان المحضر لاغتيال سلفه والجلوس مكانه، وقد اعتبره الزهار سفاحا لدماء المسلمين من غير شرع، شكاكا مرتابا فيمن حوله، ما جعل أكثر من تسعة مائة تركي يقتلون نتيجة عدم ثقته.⁽²⁾

يشير الزهار إلى أن الحاج علي باشا اختل نظامه في أواخر أيامه وصار يقتل الناس، ففي سنة 1236هـ-1820م، قام رجال بقتل عسكري فقبض عليهم علي باشا وطلب منهم الاعتراف بهوية القاتل، ولما أبوا قام بصلبهم جميعا سنة 1237هـ-1821م، كما قام بقتل عدد من كبار اليهود وأحرق بعضهم لأنهم أكلوا أموال الناس بالباطل، كما قتل وليد جخطوم وابن صيام وابن اللمداني، بسبب صداقتهم لمحمد باي وهران (الثائر ضده والذي قتل بدوره)، ولنفس السبب قتل رجلا غريبا من القدس ظلما وعدوانا، ولم ينج من القتل أيضا صهر أحمد باشا وترجمانه، يقال أن ما جعل الحاج علي باشا يكثر من عمليات القتل هو أن عمر آغا سحره، وقيل بسبب أنه رأى نفسه يقتل كونه منجما.⁽³⁾

اتفق الأغا مع وكيل الحرج عبد الله، على قتل الحاج علي باشا، هذا الأخير الذي أتى إليه وكيل الحرج أثناء دخوله الحمام، حيث أغلق عليه وأشعل النيران، فصار علي باشا يصرخ فلم يسمعه أحد، ولما دخل عليه وكيل الحرج قام بذبحه.⁽⁴⁾

تشير الكتابات الغربية إلى أن الاغتيالات أدت إلى تدهور الوضع السياسي للإيالة الجزائرية، فقد تحدثت مصادر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين عن الصراعات على الحكم وما كان ينجر عنها من انقلابات واغتيالات، كان لها الأثر السلبي على الوضع العام للإيالة، كما تذكر هذه المصادر بأن تدخل الجنود الإنكشارية في الشؤون السياسية وإهمالهم لواجبهم العسكري، كان السبب المباشر في حدوث هذه الاضطرابات، فبمجرد تراجع

(1) - رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص: 22.

(2) - ميلودية جبور: ظاهر الاغتيال في نظام الحكم العثماني بالجزائر 1519-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث الدولة والمجتمع، إشراف: رنيمة أحمد، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2014-2015م، ص: 147.

(3) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 111.

(4) - المصدر نفسه، ص: 111.

أعطيتهم أو تأخر في دفع أجورهم أو رفضهم الخروج في حملة عسكرية أو انهزامهم في أخرى يثورون على الباشا فيضعونه أمام خيارين، إما التنازل عن كرسي الحكم أو القتل. لقد ثار الجنود على الداوي شعبان 1688-1695م، بسبب إنهاكهم بكثرة الحملات العسكرية ضد تونس والمغرب، وهكذا أصبح انتقال السلطة من باشا لآخر يتم في جو من الصراع والافتتال بين أفراد الإنكشارية، فكانت كل فرقة منهم تسعى جاهدة لتتصيب أحد أفرادها على كرسي الحكم.⁽¹⁾

نتيجة لكثرة الاغتيالات أصبح الباشا سجين قصره لا يغادر إلا بعد تشديد الحراسة من حوله، وقد وصف الأب فو "Fau" الذي قدم إلى الجزائر سنة 1729م حياة الداوي البائسة بقوله: «إن الداوي في معظم الأحيان لا يخرج من قصره، فقد يحدث أنه إذا خرج منه أن تستقبله طلقة من بندقية تعفيه من لقب الداوي ومن حياته معا»، وبسبب هذه الظروف أهمل الداوي شؤون البلاد والعباد، وركز اهتمامه على إرضاء الجنود الذين أوصلوه إلى هذا المنصب بشتى الطرق كالزيادة في أجورهم وترقيتهم في المناصب، وبالتالي أصبح أسيرا لأطماعهم، لذلك وصفه كونداميني "Condamine" بأنه: «مستبد وليست له حرية أرستوقراطي، لكنه محروم من أرباح القرصنة»، أما الكاتب الإسباني خوان كانوا "Khouane Cano" فيصفه بأنه: «رجل غني ولكنه ليس سيد خزينته، أب بدون أطفال، زوج بدون امرأة، طاغية بدون حرية، ملك العبيد وعبد لأتباعه». ⁽²⁾

إن أخطر ظاهرة نتجت عن هذا الأسلوب في تعيين الدايات وعزلهم هي أن يتولى هذا المنصب أشخاص لا دراية لهم بشؤون الحكم، بعد أن أصبح الإنكشارية هم من يقومون بتعيين من يحقق أهدافهم المادية ويخدم مصالحهم دون مراعاة للكفاءة والخبرة⁽³⁾، حيث كان

(1) - محمد بوشنافي: "ظاهرة الصراع السياسي والاضغاليات بالجزائر أثناء العهد العثماني (1520-1830م) من خلال المصادر الأجنبية"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:1، ع:1، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2009، ص: 25.

(2) - محمد بوشنافي: ظاهرة الصراع...، المرجع السابق، ص: 26.

(3) - المرجع نفسه، ص: 26.

أغلبهم بعيدا كل البعد عن العلم والثقافة فقد تسلموا مقاليد الحكم بعدما كانوا يمارسون وظائف بسيطة كإسكافي، حمال، حارس...، فمثلا الداوي أحمد باشا كان إنسانا مسنا ومريضا اشتغل بترقيع الأحذية، لذا اقتصرته مهمته على التوقيع فقط، أما الحكم فكان بيد الإنكشارية، في حين كان الداوي علي باشا الغسال هو الآخر رجلا طاعنا في السن وكانت وظيفته هي تغسيل الموتى لذا لقب بالغسال.(1)

يتحدث بن سحنون الراشدي عن ارتكاب الأتراك للعديد من جرائم القتل على يد البايات الذين سفكوا دماء الأبرياء، منهم باي وهران حسن، الذي قام بقتل وتعذيب وسجن علماء الدين وأنشأ محاكم التفتيش والتي راح ضحيتها العديد من كبار العلماء، منهم السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر، حيث ألقى عليه القبض رفقة ابنه عبد القادر وأخذ إلى وهران، وقد أجبر على الإقامة الإجبارية فيها، وأثناء سجنه كتب تلميذه السيد السنوسي بن عبد القادر الدحاوي قصيدة وضح فيها ظروف القبض عليه، حيث اخترنا أبياتا منها:

عول على الصبر لا تفزعك أشجان ولا ترعك بما فاجتلك وهـران
لم يتفقوك أمحيي الدين عن زلة رأوا ولكن أشقى القوم شيطان
صبرا فلا غرو أن تتحل عقدة من من أجله قد عدى عليك سلطان.(2)

كان لهذا الباوي عدد كبير من الضحايا، حتى أن التهم التي وجهت إليهم كانت متشابهة، فقد وضع أحد التلاميذ منظومة من النوع المعروف بالاستغاثة أو بالغوثة لشيخه الذي كان من ضحايا هذا الباوي والتي ذكر فيها ظروف إعدامه، كان المقرئ الشهير الشيخ ابن القندوز التوجيني صاحب معهد "بسدان مينة" قرب مدينة البطحاء الشهيرة، وقد خصصه للطلبة الذين بلغ عددهم أربعمئة طالب لتعلم القرآن، فأتى الباوي حسن وألقى عليه القبض،

(1) - رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص: 23.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 51-52.

ولما اقترب من مازونة قام بقتله، مما أدى بطلبة المعهد إلى الافتراق، وكان من بينهم من رثاه بهذه الغوثية.(1)

إن من بين تلاميذ ابن القندوز الشيخ الشارف بن تكوك، الذي يعد أول من نشر الطريقة السنوسية بالجزائر، حيث أسس معهدا لهذا الغرض وأصبحت هذه الغوثية تنتشر، وقد اخترنا أبياتا منها:

ارحم شيخي بالقندوز مريد الشيخ المعزوز
عبد القادر به نفوز عند رجال اللزيميا

إلى أن يقول:

يارب عذب حسن يارب عذب حسن
والطلبة قعدت تنهان والطلبة قعدت تنهان
ثم كانوا مجموعين ثم كانوا مجموعين
يكفل من لا عنده وين يكفل من لا عنده وين
أحداث ذلك الأمر أحداث ذلك الأمر
في شهر الله صفر في شهر الله صفر
بالتلاتة بعد الفجر بالتلاتة بعد الفجر
عام الخمسة والأربعين عام الخمسة والأربعين
فرحوا له الطايغون فرحوا له الطايغون
رجعوا يخدموا في الروم رجعوا يخدموا في الروم
مارفقوشي من رؤوس مارفقوشي من رؤوس
قتلوا شيخي الرياني قتلوا شيخي الرياني

بركت بيت الله تعيان
وافترقوا في بكريا
عمارة للمساكين
يكسي اللي يجوه اعرايا
في القرن الثالث عشر
دارت به العساكر
ولا في إيدين العديه
توفي ليلة الإثنين
الغابطون في الدنيا
في كل شهر الجزيا
من ساداتي الصوفية
ماهوشي من أهل الفاني.(2)

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 53.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 54-55.

يشير أحمد توفيق المدني إلى أن العثمانيين لم يكونوا كلهم صالحين، خاصة بعد أن سادت الاضطرابات مركز السلطنة العثمانية، بسبب قيام السلاطين بحل جيش الإنكشارية وتغيير النظام العسكري، جراء الاضطرابات التي أدت إلى مقتل السلاطين أو خلعهم عن كرسي السلطنة والخلافة، حيث يؤكد ما يلي:

1- أن ظاهرة قتل الدايات التي سادت أواخر العهد العثماني، لم يكن لها أثر على العامة لأنها لم تكن تعلم إلا بعد حدوث تلك الحوادث التي تقع بين بعض الفئات من رجال الجيش التركي.

2- أن الولاة الأتراك كانوا أفضل من الولاة الأوروبيين، الذين تداولوا على الحكم في البلاد الأجنبية، حيث عرفوا بمظالمهم وكثرة جرائمهم في أوروبا وأمريكا عكس العثمانيين الذين لم تكن إلا فئة قليلة منهم صالحة للولاية.⁽¹⁾

2- انتشار الظلم:

أشارت العديد من الكتابات التاريخية إلى ارتكاب بعض الحكام العثمانيين للمظالم في الجزائر، فقد حدثنا الورتلاني عن انتشارها بمدينة الزاب، وفي ذلك يقول: «و"الزاب" والحمد لله - عامر بالخير والفضل وذلك في العامة والخاصة وإن كثر الفساد والعصيان والظلم وعم وانتشر، غير أن بعض الأوطان ينعدم فيه الخير رأسا وبعضهم فيه الشر الكثير مع وجود الخير من بعض الأفراد».⁽²⁾

كما أشار العياشي في رحلته إلى الظلم الذي مارسه العثمانيون في مدينة بسكرة، حيث يقول: «ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصل ولا أجمع لأسباب المعاش، إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر العرب، فيستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التي يأتي الماء منها إلى بسكرة، فملكوا البلد وأضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج، ولم يقدرُوا على

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 08.

(2) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنتظار...، ج1، المصدر السابق، ص: 202.

الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله، اجتمعت عليها غارات العرب من خارج وظلم الأتراك من داخل، وقد أشرفت على الخراب وقاربت أن تكون قفراء يبابا لولا ما تأثّل (تجمع) من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكنائها»⁽¹⁾.

هنا دلالة على أن بسكرة كانت تعاني من ظلم العثمانيين من الداخل وغارات العرب عليها من الخارج، وزاد عليهم ظلم العثمانيين لهم عندما قاموا ببناء حصن على رأس العين التي يأتي منها الماء إلى بسكرة، بالإضافة إلى إجحافهم بالخراج مما أدى إلى قربهم من الخراب.

في نفس هذا السياق يشير أحمد بن ناصر إلى الظلم الذي كانت تعاني منه مدينة بسكرة من قبل العثمانيين، إضافة إلى ظلم الأعراب لها، فقد وصل بهم الحال إلى سيطرة العثمانيين على المدارس والأحباس وصاروا ينتفعون منها ظلما وعدوانا، مما أدى إلى تراجع العلم، وفي ذلك يقول: «اجتمع عليها أمران: ظلم الأتراك وظلم الأعراب، فكانت بينهما كالكرة في أيدي الصبيان مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء حتى صارت في قلة؛ بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار، بل عن أوصاف المدن الصغار فهي الآن لا حمام فيها ولا سوق يعتبر منها غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما، وما كان من المدارس والأحباس التي لم توجد في الأمصار هي في أيديهم يأكلون منها وينتفعون بها أتم انتفاع كالأملك الحقيقة المباحة؛ بل هي ليست لهم ولا أنهم من أهلها بل لما تمردوا وطمعوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا وهذا -والعياذ بالله- بسبب اندراس العلم وأهله من كل وطن يوجد فيه ذلك»⁽²⁾.

(1) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار...، ج1، المصدر السابق، ص: 203.

(2) - المصدر نفسه، ص: 241.

يذكر لنا الورتلاني الظلم الذي لاحظته بمدينة قسنطينة، حيث يقول: «وفيها قسبة عظيمة وعسكر من الترك بقدر حالها وباي سطوته عظيمة وحاله كبير وعساكره كثيرة تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرب ومددها قوي وظلمها كثير...»⁽¹⁾

إن من بين الحكام العثمانيين الذين وصفتهم الكتابات التاريخية، نجد عمر باشا الذي وصفه الزهار بالظالم، ومن أنه كان السبب في تراجع البلاد، حيث يقول في ذلك: «ومن ولاية هذا الظالم تقهقرت بلادنا ورجعت إلى الوراء، ولو شاء الله لكان الإنجليز أخذ البلد هذه المرة، لكن لا زال أجلها لأنه عندما دخل المرسى وأفسد أبراجها، لم يبق له إلا إنزال عسكره...»⁽²⁾، كما يذكر بأن الإنجليز أرادت عقد الصلح مع الجزائر فرفض عمر باشا ذلك ووقع القتال بينهم.⁽²⁾

يصف أحمد برناز في كتابه "الشهب المحرقة" الباشا شعبان بأنه كان ظلوما للناس رغم إكثاره من قراءة القرآن، حتى أن المصحف لا يكاد يفارق يده، وأثناء فترة حكمه قام بحفر قبره، كان كثير الصدقات على الفقراء، ولكنه مع ذلك كان جماعا للمال ينشده حيث وجده، ومن كثرة حبه له كان يفتش ملابس الفقراء بعد أن يكسوهم ثيابا جديدة، وقد أهان بعض علماء قسنطينة وأخذ المال منهم⁽³⁾، وهذا ما قاله عنه «...إنه رجل ظلوم في أخذ أموال الناس بالباطل غاية وقتل الرقاب، وقبل توجهه إلى تونس أول مرة كان قد حفر قبره في تربة الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله... ثم بعدها توجه لقتال أحمد باي تونس وعاث فيها بأخذ الأموال وقتل الرقاب...»⁽⁴⁾.

يصدق عليه قول الشاعر:

ما رأينا كأمير ظلم الناس وسبّح

(1) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "الرحلة الورتلانية"، ج3، تل: العلامة بن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها: محفوظ بوكراع، ضيف مصطفى، [د.ن.]، [د.ب.]، [د.ت.]، ص: 353.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 125.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث...، ج2، المرجع السابق، ص: 326.

(4) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 187.

فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح.⁽¹⁾

كما يشير إلى حادثة خلعه من الحكم ومقتله: «وكان بعد رجوعه من تونس من ظلمه تحزّب عليه بعض خواصه من الأتراك... وتحزب معهم عدة أتراك كان نفاهم شعبان المذكور من الجزائر فالتفوا إليهم وكان الكل عقبة واحدة... وخلعوه...».⁽²⁾

كان مصيره القتل بعد مكوثه في السجن ومطالبته بإعادة الأموال، حيث تحايل عليهم بأن يطلقوا سراحه ويأخذهم إلى المكان الذي خبأ فيه المال، غير أن الباشا الذي تولى بعده سمع بالأمر فقام بخنقه في السجن، وبذلك ضاع المال ولم يعرف أحد موقعه، وقد تعرضت جثته للتكيل بالبصق عليها ومنتف لحيته وطعنها بالسكين، ثم حملت ودفنت في القبر الذي أعده لنفسه في ضريح الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري.⁽³⁾

يذكر أبو القاسم سعد الله أن الصورة السوداء التي أراد أحمد برناز إيصالها عن شعبان باشا باي الجزائر إلى القراء صورة سوداء، غير أن هذا ليس بجديد عن حكام الجزائر في العهد العثماني، ذلك أن معظم الباشوات ساروا في نفس الطريق من خلال الاستيلاء على السلطة بالعنف وظلم الناس وجمع المال والتظاهر بالتدين، ثم السقوط بنفس الطريقة وهي العنف والنهاية الدموية.⁽⁴⁾

يصف العنتري ظلم العثمانيين بقوله: «الأتراك في بدء أمرهم حتى لم يتمكنوا من الوطن كل التمكين، عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق... ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد»، حيث يشير أن الحاج أحمد باي كان يظلم الناس ويسفك دماءهم إضافة إلى أخذه أموالهم بالباطل، وفي ذلك يقول: «...في ولاية الحاج أحمد باي بن محمد الشريف الذي أخذت قسنطينة زمن ولايته، فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 187.

(2) - المرجع نفسه، ص: 188.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث...، ج1، المرجع السابق، ص: 327.

(4) - المرجع نفسه، ص: 327.

بالباطل...»، أما صالح باي فيذكر عنه أنه في نهاية فترة حكمه صار يظلم الناس «...ولما قرب أجله وحانت وفاته تبدلت سيرته وانعكست حقيقته وصار يظلم ناس الزاوية، حتى أفضى به ذلك إلى الهلاك والهاوية...»⁽¹⁾، يضيف العنتري «ومن هذا الوقت صاروا [صار] الترك يأخذون الجور ونبذوا الحقوق المشروطة وبدا [بدا] منهم الفجور، وبالجملة أنه من حين موت الباشا الذي اسمه بابا محمد [الداي محمد عثمان باشا] 1766-1791م، ومات صالح باي تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يواقر [لا يوقر] كبيرهم وبد [وبدا] النقص في ملكهم»، أما عن محمد باي الميلي فيقول عنه العنتري: «قليل العقل يظلم الناس يأخذ أرزاقهم...صدر فيه الظلم والجور عن الناس فرفعوا شكاياتهم [شكاويهم] إلى الباشا [باشا] الجزائر فحينئذ عزلوا بهذا السبب»⁽²⁾.
أما الباي حسن الذي يعد آخر بايات وهران⁽³⁾، فقد وصفه المزارى بالظلم والجور، وفي ذلك يقول: «...واجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية، فبان منه الجور والظلم والتعدي، وكثر منه الضلال وهتك المحارم والتردي، وطغى وتجبر وتكبر وكثر منه الفساد والسفك بغير موجب لدماء العباد، ولم يراقب في ذلك خالقه ولم ينظر ليوم المعاد»⁽⁴⁾.

يورد الزباني صاحب "دليل الحيران" في إشارة منه إلى استبداد العثمانيين ما يلي: «واعلم أن الأتراك لما تمهد لهم الملك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم، بحيث لا يليق أن يذكر مكان فيه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على الألسنة بغاية التواتر...»، منها قول الشاعر مسلم بن عبد القادر في رجزه:

أدبهم ربهما لما طغوا عرفهم بقدرهم لما بغوا
فاشتغلوا بالظلم ليس من عدل فأخذوا أخذاً وبيلا بالمهل

(1) - صالح العنتري: فريدة منيصة...، المصدر السابق، ص: 14، 62.

(2) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 160، 164.

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 29.

(4) - الآغا بن عودة المزارى: المصدر السابق، ص: 350.

لما نسوا ما ذكروا به ختم على قلوبهم الله وانتقم
ويقول أيضا:

صناديد لولا الفساد في الورى	لقلن قل مثلهم فوق الثرى
عاتوا عتوا على الخلق وجاروا	فكانوا أكثر العباد وباروا
فرغ الكل الأكف ودعوا	بما به أجاب الله ورجوا
أمهلهم له بلغ الوقت الأجل	أبدلهم بغيرهم ثم العمل
كانهم ما كانوا في عز وما	تملكوا دهرا طويلا منتما. (1)

لقد كان اهتمام البايات في البياليك الثلاثة بجمع الأموال والاهتمام بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بجوهره، لذلك عاش المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني تحت ثقل ظلمهم واستبدادهم، حتى أن هناك من يرى أن هذه السياسة كانت من متطلبات استمرارية السلطة في مختلف الولايات العثمانية من بينها الجزائر، وهذا ما أشار إليه المؤرخ المصري "عبد الرحمن الجبرتي" الذي يرى أنه: «لولا قهر الحكام وسطوتهم لتسلط القوي على الضعيف والدنيء على الشريف». (2)

لكن أبو القاسم سعد الله يدافع عن محدد مهم للتعامل مع هذه الفترة التاريخية في الجزائر، باعتبار أن التجاوزات والأخطاء التي وقعت خلالها لا تمثل عملا ممنهجا من الدولة العثمانية نفسها، وإنما هي تصرفات سلطوية قد تكون في بعض الأحيان عن نوازع فردية لبعض الحكام، ولا تعكس صورة السلطة المركزية في الباب العالي، وفي هذا الشأن يقول: «...فقضية الأخطاء والمظالم حينئذ يجب تناولها على أساس أنها ظاهرة سلطة وليست ظاهرة قومية». (3)

(1) - محمد بن يوسف الزباني: المصدر السابق، ص: 327.

(2) - محمد يعيش، جهيدة بوعزيز: "إشكالية البحث في طبيعة كتابات الوجود العثماني في الجزائر"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 6، ع: 10، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2016م، ص: 100.

(3) - أحمد بن يغرر: "فترة الحكم العثماني بالجزائر في كتابات الأستاذ أبو القاسم سعد الله"، مجلة البحوث التاريخية، مج: 2، ع: 1، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2018م، ص:

تميزت الأوضاع السياسية في كل من دار السلطان، بايلك التيطري وبايلك الشرق بالاستقرار عكس بايلك الغرب الجزائري، بسبب التواجد الإسباني في مدينة وهران، أما فيما يخص الوضع في مدينة تلمسان فقد تميز بالتردي بسبب سوء سيرة بعض حكامها وجمعهم للأموال بطرق شتى⁽¹⁾، وقد وصف المكناسي مدينة تلمسان وخرابها وجور حكامها، وفي ذلك يقول: «ومدينة تلمسان هذه مدينة كبيرة مشهورة كثيرة المياه والبساتين والأجنة والزيتون والمستغلات، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها، فلم يبق إلا رسومها وزادها عمال الجور والظلم، فقد استولوا على ما بأيدي المسلمين، فقد أخبرني بعض أصحابنا كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين وغيرهم بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذاية العامة، أن كل من يمر به من حجاج بيت الله يقبض منهم شيئاً معيناً على أمتعتهم وحوادثهم، من غير مبالاة جبر الله حال المسلمين».⁽²⁾

كانت السياسة التركية بتلمسان تقوم على الشدة والعنف، وقد شاهد المنداسي المذبحة التي ارتكبتها الأتراك في حق بعض الأعيان، بعد أن قتلوهم وهدموا ديارهم وسبوا نساءهم وأبناءهم، بعد أن وافقهم على ذلك مفتي المدينة الفقيه ابن زاغو، الذي ينتمي إلى أبرز العائلات التلمسانية العريقة، وقد تأثر المنداسي بهذه المذبحة، حتى أنه غادر تلمسان إلى المغرب على عهد عثمان باشا.⁽³⁾

ألف المنداسي قصيدته النونية في تلمسان، والتي تظهر حالة الاضطراب التي كانت تعيشها المدينة التي غادر منها الشاعر، في فترة حاكم الجزائر عثمان باشا حيث كانت تابعة له تعاني من ظلم ولاتها الأتراك واعتدائهم على الحرمات وأخذهم للأموال وإزهاقهم للأرواح،

(1) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص ص: 24-25.

(2) - محمد بن عبد الوهاب المكناسي: رحلة المكناسي "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبل الحبيب 1785م، تح: محمد بوكبوط، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2003م، ص: 331.

(3) - سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي: ديوان، تح وتق: رايح بونار، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص ص: 5-6.

وقد عبر المنداسي عن تلك المذابح التي أدت إلى مقتل خيار الناس وما قام به هؤلاء الأخيار من تحريض ضد الترك، فقال:

على نهب أموال اليتامى تظاهروا
وكانت لهم أعلى المدينة آذانا
وعن سفكهم للدماء قال:

فما الله عن سفك الدماء بغافل
ولا يترك الرحمن-حاشاه-لعباناً
رأى شبيبة التوحيد كيف تخضبت
بأسمر كالبلسام ظلماً وعـدواناً
ورأساً بأيدي الجند كم بات ساجداً
وكم ظل في "الكبرى" يركب برهانا
وعبد العزيز في القيود كأنه
إلى النحر يرفع الطوف حيراناً.⁽¹⁾

كما هجا الشاعر الفقيه ابن زاغو، الذي كان داعماً للحكام الأتراك بتلمسان على ارتكاب الجرائم الدموية، ودعا الشاعر الناس إلى الثورة ضدهم ومحاربتهم، فقال:

أيا آل دين الله مالي أراكم
نياما وكان الطرف من قبل يقظانا
فداركم الزهراء بالنار أحرقت
وبان جميل الصبر للزيغ إذ بانا
أما تذكرون الأهل والزمن الذي
عهدتم فذاك الوصل قد صار هجرانا
وهلا سألتكم عن يتامى تفرقت
أيادي سبا في الغرب أنثى وذكرانا.⁽²⁾

يقول الإمام أحمد بن مصطفى برناز التونسي: «أفتى ابن زاغو الفقيه لأمير تلمسان حسن في الشدة على أهلها، فقتل كثيرا منهم وهدم مبانيهم وسبى نساءهم وذريتهم، وأذن للجند فعاثوا فيها فسادا، وتأثر للواقعة شيخ مشايخنا "سعيد بن عبد الله المنداسي"، وأنشأ قصيدة طويلة في الموضوع سماها "الإعلام فيما وقع للإسلام"، وعرض فيها بالمفتي المذكور وهجا الترك وسلط الله على ابن زاغو مرض الجذام فمرض به ثلاثة أعوام حتى مات»⁽³⁾، وقد اخترنا بعضاً من أبياتها:

وأكبر شيء أفسدته أكفهم
تلمسان عين الغرب علما وإيماناً

(1) - سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي، المصدر السابق، ص: 8-10.

(2) - المصدر نفسه، ص: 10.

(3) - المصدر نفسه، ص: 87.

وكانت لهم لما أرادوا فسـادا
فمنهم قرين السوء مفتي بلادهم
لئن فعلت بالهان مثلك سوقة
لقد كنت حبرا بالمدينة صالحا
فجرد مفتي الجور ثم حسامه
وقال اقتلوا فالقتل يردع غيرهم
إذا كان مفتي السوء يقضي برأيه
فهب أنهم للجور ظلت عقولهم
فقل لابن زاغو رأس كل خطيئة
ولكنك الدجال للناس فتنة
فإن أضحكت الجند بالناس ساعة
هناك الكثير من الشعراء الذين عرفوا بمناهضتهم للأتراك منهم بن مسايب⁽²⁾ الذي كان شاهدا على الأوضاع التي آلت إليها مدينة تلمسان، وكذلك الحالة السيئة التي تردت إليها أحوال السكان تحت سيطرة وطغيان الأتراك، لذلك هاجم بشعره حكومتهم ساخطا على الأوضاع المتردية⁽³⁾، إذ يقول:

وبن أولياء الله من هان
دون كل بلد تلمسان

(1) - سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي، المصدر السابق، ص ص: 87-88، 90-91.

(2) - ابن مسايب: يعد من الشعراء الشعبيين الذين اشتهروا في القرن 18م، ينتمي إلى عائلة أندلسية هاجرت إلى مدينة فاس (المغرب)، وقد أظهر منذ نعومة أظافره همته العالية في معالجة كل المواضيع في أشعاره، حيث ألف 3034 قصيدة في مشواره الأدبي، تمحورت مواضيعها حول الحياة البدوية والدينية، كما كان يتمتع بقدرة غير طبيعية في مجال مهنة النسيج التي كان يمتنها في مدينة تلمسان، أما فيما يخص تاريخ مولده ووفاته فإننا نجهلها بالكامل، إلا أن ضريحه معروف بتواجده في مقبرة سيدي امحمد السنوسي بالقرب من مدينة تلمسان. للمزيد ينظر:

(M. Ben CHENEZ: «Itinéraire de Tlemcen à la Mekke par Ben Messaib », 18 siècle, In R.A, Vol : 44, Alger, 1900, pp: 261-263).

(3) - أبو عبد الله محمد بن أحمد: ديوان ابن المسايب، تق: الحفناوي أمقران السحنوني، أسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص: 11.

انباعت رخيص بلا ثمن ذا العجم وطنها خربوه
ويقول أيضا في قصيدته "ربي قضى عليها" اخترنا بعضا من أبياتها:
ربي قضى عليها والوقت دعاها في السابق المقدر كان اللي كان
عدمت مشت فسدت والظلم اخلاها مدينة الجدار بلد تلمسان
حاكم الحكام عــــاد لها باشغال من إتقان الصنعة
خلف الخنــــادق نزلها ما بين البعل والقلعة
بعد الهناء وبعد الزهو تلمسان

كبارها بوادي واحضــــر متفقين في الدنيا هـ
هما سبب كل فساد وعفنها تهوى ولا قرا حد فيها أمان
طلقوا البلاد فسدت حتى شفناها أضحت لا حكم فيها لا ديوان
هما كل سبب كل مشقة والخلق صابر لبلاها
طلقوا البلاد هذه الطلقة انسابت وهمها يركبهم
راه انكسرت واش بقا غرقوا أولادها ونساهم
ذا القوم ما معاهم الشفقه ما يرفقوا بمن والاهم
الأيام ساعدتهم والوقت خلالها ويتناصروا على الإثم والعدوان
خربوا البلاد والمخزن زاد عماها الأسواق خالية والباطل رنان

بعد الهناء بعد الزهو تلمسان.(1)

3- الرشوة ونهب الأموال:

نوهت العديد من الكتابات التاريخية إلى انتشار الرشوة في الجزائر أثناء العهد العثماني، فقد امتازت الإدارة العثمانية بالتعفن الإداري والاجتماعي كالرشوة، التوريط، التوكل والغش⁽²⁾، يشير أبو القاسم سعد الله أنه لا يكاد يخلو مصدر عن العهد العثماني دون أن

(1) - أبو عبد الله محمد بن أحمد: المصدر السابق، ص ص: 41-43، 93.

(2) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات... المرجع السابق، ص: 55.

يصدمه شيوع الرشوة والفساد والانحراف والاستغلال الذي كان يمارسه العثمانيون في الجزائر، فأساس العلاقات بينهم وبين السكان، كانت قائمة على الرشوة وجمع الأموال، فلا يكاد يعين أحد في منصب أو يرقى إلى وظيفة إلا إذا رشا الباشا وحرّمه ووزراءه وكبار الموظفين.(1)

يورد ابن هطال في رحلته أنه في أوائل سنة 1189هـ/1775م توفي إبراهيم باي، فطلبت الرعية من الداوي محمد عثمان باشا تعيين محمد الكبير مكانه بايا على الإيالة الغربية، فرحب برغبتهم، إلا أن أحد الأغنياء المسمى الحاج خليل⁽²⁾ قام بشراء هذا المنصب من الداوي بثمان باهض ووضع في خزانة مال الدولة.(3)

لقد أصبحت المناصب تباع وتشترى علنا وتسلم لمن يدفع أكثر لتصبح الوظائف المتعلقة بالرسوم وجباية الضرائب مؤجرة لأشخاص بأسعار محددة، ويكون الدفع دفعة أو بالتقسيط، فشيخ البلد لم يكن يوظف إلا بعد دفعه نصيبا من المال يتراوح ما بين 1000 إلى 1500 صائمة للخرينة و2200 صائمة للديوان، و630 صائمة للجيش، أما الموظفون بعناية فكانون يدفعون سنويا للخرينة 200 ريال، لذلك فإن أغلب الدايات لم يهتموا بخدمة المصلحة العامة، وإنما كان اهتمامهم منصبا على التنظيمات الإدارية والعسكرية والمالية التي تضمن لهم مداخيل مالية.(4)

يخبرنا الزهار أن أحمد باي وعد يحي آغا بأن يعطيه مائة ألف محبوب ذهباً إذا سعى له في توليته بايا، لكن وبعد توليته بايا على قسنطينة لم يمده بما وعده به واعتذر له،

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 153.

(2) - الحاج خليل باي: تولى الحكم سنة 1185هـ/1771م، عرف ببغضه للعلماء وأولياء الله الصالحين وغيرهم من أهل النفع، توفي بتلمسان سنة 1193هـ/1778م ودفن بقبة سيدي محمد بن يوسف السنوسي، ينظر: (مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 22).

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 17.

(4) - رشيد شكري معمر: المرجع السابق، ص ص: 23-24.

وأخبره بأنه سيرسل له إذا تيسر حاله⁽¹⁾، هذا دلالة على محاولة أحمد باي للحصول على المنصب مقابل دفعه للرشي.

يشير الزياني صاحب "دليل الحيران" إلى شراء المناصب، حيث يحدثنا أن للباي وزيران من العرب «ويقال لكل منهما آغة يشتريان هذا المنصب من الباي بمبلغ وافر من المال...»⁽²⁾.

يشير أبو القاسم سعد الله أن عملية الدنوش، التي كانت تتم كل ثلاث سنوات عن طريق توجه البايات للعاصمة، والزيارة التي يقوم بها خلفاؤهم كل نصف سنة تعد من مظاهر الرشوة والمهاداة والفساد، فالباشا كان إما أن يبقى في الحكم أو يتعرض للخنق أو العزل، وما يحدد ذلك هو ما يوفره من مال للجنود والضباط والأعوان، فقد كان مقتل الباشا محمد بكداش سنة 1122هـ/1710م، بسبب عجزه عن دفع المال للجنود بعد فرار باي قسنطينة إلى تونس بالأموال التي كان سيقدمها إلى الباشا، وبالتالي فالحروب الداخلية كانت أحيانا تقوم من أجل جمع المال، فقد كان الجزائريون يستغلون من قبل الجنود، كما أن الباشا كان يستغل منصبه لأخذ الهدايا من القناصل الأجانب، ودور اليهود التجارية، فقد أورد لنا الزياني في أوائل القرن 13هـ/19م أن: «الحكام الترك والقضاة الشرعيين وسائر أهل النفوذ منهم أخذ الرشا والجور في الحكم وإضاعة الحقوق»⁽³⁾.

ذكر القنصل الأمريكي شالر على أن الحكام العثمانيين كانوا يتعاطون الرشا، وذلك في قوله: «...كل زيارة يقوم بها باي وهران وياي قسنطينة للحكومة المركزية تكلفه ما لا يقل عن 300.000 دولار، وبهذه المناسبة يتحتم تقديم رشوة لكل واحد من الضباط ولكل حسبما يتمتع به من المكانة والنفوذ، ولكن هذه المبالغ الإضافية لا يدفع منها شيء إلى الخزينة العمومية»⁽⁴⁾، كما سادت ظاهرة التبذير لأموال الخزينة، من أمثلة ذلك الداوي علي

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 162.

(2) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 250.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 153-154.

(4) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 46.

باشا، حيث يحدثنا فونتير دوبرادي "Venture de Paradis" أنه أنفق كل أموال الخزينة على رفاهية أولاده وزوجته.⁽¹⁾

لقد نشفت ظاهرة الرشوة وشاعت بين بعض المفتين والقضاة، وفي ذلك يقول الورتلاني: «إن القاضي والمفتي لا يتولى فيها إلا بارتشاء لديهم»⁽²⁾، حتى أن بعض المرابطين والدرابيش كانوا يرشون الولاة مقابل صمتهم عن ابتزازهم لأموال الناس والتعدي على الحرمات والأعراض⁽³⁾، وقد أشار الفكون إلى العديد من الأشخاص ممن تولوا مناصب شرعية ومخزنية ومن هم ليسوا أهلا لها، حصلوا عليها بالرشوة وطرق الحرام، كما تحدث عن تبادل الرشوة بين الحكام وسوء السلوك.⁽⁴⁾

أورد حمدان خوجة في "المرآة" بأن أكبر المظالم التي حدثت بالجزائر نتجت عن إسناد مناصب البايات إلى أشخاص ليسوا ذوي جدارة ولا كفاءة، منهم مصطفى الذي كان مقربا للخنزاجي، حيث تم تعيينه بايا على وهران مقابل دفعه مقدارا كبيرا من الأموال، ولم تكن لهذا الباي أي علاقة مع شيوخ القبائل، وليس له أي معرفة بهذا الإقليم، وإنما كان اهتمامه الأكبر هو سلب أموال الرعية وإرسالها إلى حامية الخنزاجي.⁽⁵⁾

كما يشير أيضا إلى أن المناصب كانت تباع وتشتري، وما يثبت ذلك قوله: «...ومن أراد في هذا العصر أن يكون بايا فما عليه إلا أن يتصل بأقرباء أحمد باشا الذين يتعهد لهم بدفع الثمن عندما يصبح بايا، وعلى هذا فإن وظائف البايات أصبحت وظائف تجارية تباع وتشتري، وهذه التجارة توافق ميل أصحاب السلطة الذين استمرت اغتصاباتهم

(1) - رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص: 23.

(2) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 174.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 471.

(4) - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986م، ص ص: 129-130.

(5) - حمدان بن عثمان خوجة الجزائري: المرآة لمحمة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر، تع، تق، تل: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م، ص ص: 133-134.

وابتزازاتهم خارجة عن القوانين»⁽¹⁾، وفي نفس السياق انتشرت ظاهرة نهب أموال الأوقاف، التي تعتبر من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، وقد تطورت خاصة في العهد العثماني نتيجة اعتبارات سياسية واقتصادية.⁽²⁾

كان الوقف يقوم على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة، فالقاضي عادة هو من يقوم بكتابته بصيغة معينة وبحضور الواقف والشهود مع تحديد قيمته وتعيين أغراضه وكيفية الاستفادة منه، وبالتالي نفهم أن للوقف وثيقة شرعية يستند عليها ويلتزم باحترامها الواقف وأهله والمستفيدون منه وكذلك السلطة، غير أن أبو القاسم سعد الله يشير بأن هذه الوثيقة لم يتم الالتزام بما جاء فيها دائما، ذلك أن الوكيل قد يسيء التصرف في الوقف، كما أن السلطة كانت تحول فوائده إليها، لذلك اشتكى المسلمون من إهمال الأوقاف خاصة رجال الدين، ومن أمثلة ذلك شكوى أحمد بن ساسي البوني أوائل القرن 12هـ/18م إلى الداوي محمد بكداش، حيث اشتكى له عن أحباس عنابة وقيام ناظر الوقف بالتبذير، وفي ذلك يقول:

حسبها قد أسرفا ناظره فأشرفا
والشرع فيها باطل والظلم فيها هاطل.⁽³⁾

كان العثمانيون يستولون على الأوقاف المخصصة للتعليم من قبل أهل الخير، ويستعملونها في أغراض أخرى، كما كانوا يتغاضون عن الوكلاء والعلماء الذين يأكلون أموال الأحباس ظلما، إن القارئ لكتاب منشور الهداية للفكون ورحلة الورتلاني وعجائب الأسفار لأبي راس وبعض آثار أحمد بن ساسي البوني يرى عدم التزام العثمانيين بقواعد الدين نحو الأوقاف.⁽⁴⁾

تحدث الورتلاني عن استيلائهم على الأوقاف بقوله: «إن الأتراك قد استولوا على الأحباس (الأوقاف) والمدارس الكثيرة، التي كانت ببسكرة وأصبحوا يأكلون منها وينتفعون

(1) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 17.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 227.

(3) - المرجع نفسه، ص: 227-228.

(4) - المرجع نفسه، ص: 316.

بها كالأمالك الحقيقية، وهي ليست لهم وليسوا من أهلها، ولكنهم تمردوا وطفوا وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما»، وهو نفس الحكم الذي أصدره الورتلاني ضدهم في مدينة قسنطينة أيضا في القرن 12هـ/18م⁽¹⁾، وهو ما ذهب إليه الزهار في مذكراته بأن الأتراك جاروا من خلال استيلائهم على جميع ديار أوقاف الحرمين التي بيد فقراء البلد وأخرجوهم منها.⁽²⁾

يشير إيمرت "Aumerat" أن بعض عائدات الأوقاف التي كانت موجهة إلى الحرمين الشريفين مثلا، كانت تصرف على فقراء الإيالة من طرف الوكلاء، ولم تكن تلك العائدات وقفا فقط عليهم، فكانوا يتقدمون بشكاوي كثيرة بسبب حرمانهم منها اعتقادا منهم أن مال الوقف عائد إليهم بالدرجة الأولى، مما يظهر لنا نظرية الحيادية. يذكر أبو القاسم سعد الله أن السلطة تدخلت في مواقف عديدة للحد من التجاوزات التي استاءت منها نخبة المجتمع⁽³⁾، فقد كان إذا أشيع عن الوكلاء الفساد والانحراف واستغلال الوقف في غير ما خصص له، يتدخل الباشا أو الباي لتحتيتهم، من أمثلة ذلك قيام صالح باي في قسنطينة عند سماعه أخبارا بأن أوقاف المساجد قد تعرضت للنهب والإهمال من قبل الوكلاء، فعطلت عن وظائفها، مما جعله يضع سجلات يشرف عليها القضاء والمفتون، كما قرر محاسبة الوكلاء كل ستة أشهر، كما جاء في إحدى الوثائق أن الباي محمد الكبير تتبع أوقاف مدرستي تلمسان «التي استولت عليها الأيدي ونسي الناس أنها أوقاف»، وأعاد للمدرستين الأراضي التابعة لهما.⁽⁴⁾

يذكر أبو القاسم سعد الله أنه: «لا يكاد يوجد باشا ظل في الحكم مدة طويلة نسبيا إلا وقد بنى جامعا (أو مسجدا) أو كتابا أو زاوية أو وقف الأوقاف على ما بناه»، وهو ما يخالف القائلين من أن الحكام العثمانيين في الجزائر لم يكونوا مهتمين بشؤون الدين، ذلك أن

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 180.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 102.

(3) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 161.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص ص: 229-230.

آثارهم تثبت على أنهم كانوا يشعرون ببعض الواجب الديني والاجتماعي نحو المجتمع الذي كانوا يحكمونه.(1)

تشير العديد من الكتابات التاريخية إلى التجاوزات التي قام الحكام العثمانيون في الجزائر، والمتمثلة في الاستيلاء على الأموال ونهبها، حيث يذكر ابن المفتي أنه تم نزع حق دفع الرواتب من الباشوات، بسبب أنهم أثناء توليتهم لهذه المهمة كانوا ينتفعون بذلك عن طريق اختلاس الأموال التي يجلبونها من القصر، وقد كان سكان مدينة الجزائر ضحية لذلك، فقد وصل بهم الحال إلى فرض غرامات على العلماء وعدول المحكمة، وهو ما جعل الجنود ينزعون منهم حق دفع الرواتب وجباية الضرائب وتنظيم النفقات.(2)

يخبرنا الزهار أنه كان من يتولى بايا يقوم بجمع المال ويخفيه لأبنائه، وإذا حان وقت الدنوش يأخذ أموال الناس ظلما بالمصادرة، النهب، الغزو والسطو على أموال العرب، وفي ذلك يقول: «وتوالت تسمية البايات وعزلهم والوطن لا يزداد إلا نقصا وضعفا...».(3)

يذكر ابن المفتي أن محمد النيار استمر في الفتوى خمس سنين وخمسة أشهر، لكن قام حسين خوجة شريف الدولاتلي بعزله، بعد أن تلقى هجوما من قبل العامة، ذلك أنه أثناء توليته الفتوى طلب هدايا من أصحاب الشكوى، وبعد عزله طالبوه باسترجاع هذه الهدايا، حتى وصل به الحال إلى أن صار يطلب الصدقة ويقوم بعملية الاحتيال على حساب التجار، كما عرف أيضا بخداعه وقد وصفه بن المفتي بالفجور والسرقة وانعدام الشرف، ويظهر من حديثه أنه درس البلاغة غير أنه لم يدرس لا هذا العلم ولا أي علم آخر، يقول ابن المفتي: «وإذا استفتيته في مسألة علمية فإنه دائما على رأيك ويوافقك بأن يقول لك: "نعم حسنا أو بارك الله فيك"، وتلك هي كلماته وفي مدة توليه الخطة، هيا عددا من

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 233-234.

(2) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 64.

(3) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 160.

الأجوبة الشرعية، معتمدا على من عاصره من مؤلفين لم يقرأ لهم أبدا، ولم يكن لعلماء عصره أي اعتبار عنده». (1)

4-البغاء وشرب الخمر:

لم يكن مجتمع مدينة الجزائر يقبل بإقامة علاقة جنسية بين الرجل والمرأة إلا عن طريق الزواج أو التسري بما ملكت الأيمان من الجوارى والإماء حفاظا منه على الأسرة والنسب والأخلاق، لذلك اعتبر أية علاقة عدا ما ذكرناه بغيا مرفوضا، وعليه فالسؤال الذي يطرح في هذا الصدد: لماذا انتشرت هذه الظاهرة للأخلاقية في مجتمع محافظ؟ ومن هي الفئات الاجتماعية التي مارسها؟ وهل اتخذت السلطة العثمانية إجراءات رسمية للحد منها. (2)

لقد تم العثور في دفاتر بيت المال على ثلاث حالات لنساء مومسات، حيث سجلت حالة لامرأة مومسة توفيت سنة 1825م، اقترن اسمها بعبارة مومسة وصفا لحالتها، هذه الأخيرة لم يكن لها لا زوج ولا أولاد، خلفت ثروة قدرت بـ 553 ريال، كما ذكرت أيضا مومسة أخرى توفيت في السنة نفسها، كما تم التطرق إلى حالة فاطمة المومسة المتوفاة سنة 1827م، ما يلاحظ في وثائق التركات أنه لم يتم ذكر لنسبهن ولا إلى أي من الفئات الاجتماعية كن ينتمين. (3)

يشير "سبنسر" إلى ظاهرة انحراف المرأة بقوله: «إن مومسات الجزائر كن مستخدمات لدى الدولة فكن يدفعن ضريبة على مداخيلهن للمزوار ويقمن بخدمة ذات صلاحية في مجتمع متشدد ولكنه مطبق للقانون». (4)

(1) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 89-90.

(2) - ليلي خيراني: المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1818-1830م) دراسة أرشيفية، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2017م، ص: 101.

(3) - ليلي خيراني: المرجع السابق، ص: 102.

(4) - المرجع نفسه، ص: 103.

ما يدعو للحيرة أن هذه الظاهرة كانت مرخصة من طرف الدولة، حيث كان يتكفل قائد الشرطة بتنظيم الصفقة بين المرأة الباغية من جهة والرجال الذين يرغبون في ممارسة الزنا من جهة أخرى، فقد أشارت كل الكتابات الغربية تقريبا على أن المزوار "Mezouar" هو المنظم لظاهرة الانحراف في مدينة الجزائر، وتحدث بارادي عن استفادة المزوار من المال الذي تتحصل عليه الباغية.(1)

تذكر المصادر الغربية أن حكومة الداوي كانت تستفيد من مبلغ سنوي جراء هذه الصفقات التي قدرت بـ 2000 ريال مرة كل سنة، حيث كان المزوار يجمع هذه الضرائب ويأخذ منها من أربعة إلى خمسة آلاف ريال، وفي حالة تخلفت إحداهن عن إحضار هديتها الشهرية إليه كان يأمر بضربها "بالفلكة" أي على كفي رجليها حيث تتلقى من خمسمائة إلى ستمائة ضربة وأحيانا تلفظ أنفاسها الأخيرة.(2)

لعل ما دفع المرأة في مجتمع مدينة الجزائر إلى ممارسة البغاء، الظروف الاقتصادية والاجتماعية القاهرة التي كانت تعاني منها، ما جعلها تخرج للعمل ولو بطريقة غير شرعية فارتكابها لهذه الكبائر يظهر لنا الجانب السلبي للسلطة العثمانية الحاكمة، خاصة بعد سكوتها وتواطؤها في التستر والاستفادة من تلك الصفقات، مع سكوت السلطة القضائية التي كانت مهمتها الأولى السهر على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والسهر على الحفاظ على أخلاق المجتمع، فكيف غفل المشرعون والحكام عن هذا؟ وفي نفس الصدد لا بد من الإشادة بالعقود الجريئة التي وردت علانية أمام القضاء الشرعي ومعها من الشهود ما يثبت أهليتها في تحرير عقود صك التوبة بدون ضغط أو تشهير، ذلك أن الوازع الديني هو من دفعها لذلك، وهي تعد خطوة إيجابية وجرأة قلما نجد لها مثيلا، خاصة في مجتمع محافظ.(3)

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية خاصة مع نهاية القرن 18م، وتراجع نشاط البحرية، هي الدافع الحقيقي وراء تفشي هذه الظاهرة واستفحالها دون القضاء

(1) - ليلي خيراني: المرجع السابق، ص: 103.

(2) - المرجع نفسه، ص: 105.

(3) - المرجع نفسه، ص: 107.

عليها، خاصة مع تأييد الحكومة لذلك، وهو ما أدى إلى نتائج سلبية على الفرد والمجتمع في آن واحد، وبالرغم من قوة القضاء الشرعي، إلا أنه عجز عن حل هذه المشكلة وسكت عنها وأثناء جرد وثائق القضاء الشرعية لم يوجد بها حل لقضايا تناولت ظاهرة البغاء، يضاف إلى ذلك أن القاضي لم يطلق حكما شرعيا على مرتكبي الفاحشة، ولم يتم الإشارة في الوثائق إلى معاقبة المزوار، الذي كان يشجع هذه الممارسات.⁽¹⁾

يذكر حمدان خوجة أن القانون في الجزائر يرفض امتهان البغاء والدعارة من أجل حماية المجتمع وحتى لا ينتشر الفسق⁽²⁾، غير أن العديد من المصادر أشارت إلى وجود هذه الظاهرة، فقد وجدت في الجزائر الملاهي والحانات، كما أن البغاء كان يمارس بشكل منظم عن طريق الدولة، ولعل ذلك كان معمولا به لسد حاجات الجند العزاب وغيرهم من الأجانب والجزائريين.⁽³⁾

تحدثت العديد من المصادر عن بعض الحكام العثمانيين الذين عرفوا بانحلالهم الأخلاقي وممارستهم للزنا، من أمثلة ذلك الداوي إبراهيم باشا البوشناقى الذي تولى الحكم سنة 1710م، حيث ارتبطت سيرته بمساوئ كثيرة لإرضاء نزواته وشهوته، فقد كان يهتم بتحري أخبار النساء حتى وصل به الأمر إلى اغتصاب زوجة أحد الرياس المدعو "محمد"، أثناء غيابه، حيث استغل ذلك وتسلل خفية إلى منزلها بعدما رشا أسراها الذين سمحوا له بالدخول، وقد كان هذا الفعل سببا في مقتله، يحدثنا ابن المفتي أنه قتل أعلى قصره بعد دفاع عن نفسه مستميت ودفن بسيدي الكتاني، حيث يقول ابن المفتي: «محا الله ذكراه كما أظل مسعاه مدة حياته».⁽⁴⁾

(1) - ليلي خيراني: المرجع السابق، ص: 111.

(2) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 95-96.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 172.

(4) - ميلودية جبور: المرجع السابق، ص: 129-130.

يشير الزهار أنه من بين الأعمال الخسيسة التي قام بها حسين باشا بناؤه قنطرة للزنا التي أباحها للأتراك بعدما كانت مهدمة سابقاً⁽¹⁾، كما أعاد فتح الحانات وسمح للمومسات بالرجوع إلى مدينة الجزائر بعدما تم طردهن إلى شرشال وبنى لهن حيا خاصا لممارسة مهنتهن⁽²⁾، كما قام علي باشا باغتصاب نصرانية، فطلب الإنجليز منه صداقها فدفع لأبيها.⁽³⁾

يحدثنا أحمد بوضرية في مذكراته عن الحاج أحمد باي بقوله: «...كما أنه اختطف عنوة عددا من بنات الأصول لإشباع مجونه، وكان الناس يشكون منه إلى الجزائر في كل يوم تقريبا، وبما أنه كان يدفع الضرائب كاملة في حينها ومعها هدايا ثمينة لم يقدمها من كان قبله من البايات، فإن الداوي كان يغمض عينيه عن الشكايات».⁽⁴⁾

نوهت العديد من المصادر التاريخية بسيرة الباي عثمان بن محمد، منهم المزاري الذي يذكر أنه أقبل على اللهو والطرب ولم يعد يهتم بشؤون الرعية⁽⁵⁾، يشير الزياني أنه: «جاءه بعض قواده للمحاسبة على ما بيده فطرده وقال له إن المحاسب هو الله»⁽⁶⁾، وقد أرسل هذا الباي مالا إلى بعض تجار تونس طالبا منهم شراء بعض الجوارى المغنيات فلبوا طلبه وأتوه بجاريتين مغنيتين ذاتي جمال فائق فتسلى بهما أياما وليالي⁽⁷⁾، وفي ذلك يقول المزاري: «وهكذا بدأت سياسته في التدهور والتراجع وبدأ ما شيده أبوه يتعرض

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 144.

(2) - محمد بوشنافي: "الداوي حسين وسقوط الإيالة الجزائرية 1818-1830م"، مجلة عصور، مج: 4، ع: 1، مخبر البحث التاريخي، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2005م، ص: 99.

(3) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 144.

(4) - محمد العربي الزبيري: مذكرات...، المصدر السابق، ص: 119.

(5) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 298.

(6) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 270.

(7) - الأغا من عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 299.

للخراب»⁽¹⁾، ولما وصل خبره للباشا بالجزائر غضب منه فاستولى على ماله وأغلق بيته وقام بتقييده ونقله إلى البليدة.⁽²⁾

هناك من أشار إلى أنه كان يقوم بنكاح الإماء "كان يجامع ستة أو سبعة من الإماء"، يورد صاحب "أخبار بلد قسنطينة وحكامها" لمؤلفه المجهول إلى أن الباي مصطفى الأنجليز الذي تولى سنة 1798-1803م، كان له ابن يدعى "علي"، هذا الأخير الذي يصفه بالقبح والزندقة، وفي ذلك يقول: «...قبیحا زنديقا من أكابر مجرميها كثير الفسق والزنا وشرب الخمر، وكان يغضب نساء الناس في ديارهم من غير غرض منهم، وقتل كم من امرأة في الليل خفية، فلما أن تمادى على ذلك وشاع خبره، اشتكوا به أهل البلد إلى الجزائر مرة بعد مدة فعزلوا أباه...».⁽³⁾

أما باي قسنطينة مصطفى قارة الذي تولى الحكم سنة 1818م، فقد انشغل باتباع الشهوات وبحياة اللهو والفجور وشرب الخمر واحتكاكه بالمنحليين من المغنين، كما عرف بتقربه من فئة اليهود، الذين أغدق عليهم العديد من الهبات المالية ومارس مع يهوديات الزنا والرذيلة، وهو ما جعله يهمل شؤون الرعية، الأمر الذي أدى بالباشا إلى إصدار قرار بعزله، وقد كانت نهاية حكمه بالقتل بعد أن دامت ولايته شهرا.⁽⁴⁾

أشارت الكتابات الأجنبية إلى وجود بيوت للدعارة في الجزائر أثناء الحكم العثماني منهم وليام شالر، وفي ذلك يقول: «...مدير الشرطة الذي تشمل إرادته مراقبة الحمامات ومنازل الدعارة...»⁽⁵⁾، يذكر أن الأتراك كانوا يحترمون تعاليم الدين، غير أن هذا لم

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 26.

(2) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 299.

(3) - رياض بولحبال: أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات العليا في علم المخطوط العربي، إشراف: إسماعيل سامعي، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية: 2009-2010م، ص: 62-64.

(4) - E. Vayssettes: «Histoire de derniers Beys de Constantine, Depuis 1793 Jusqu' à la chute D'Hadj-Ahmed Kara Moustafa 1818», In R.A., Vol: 06, Alger, 1862, pp: 206, 208.

(5) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 77.

يمنعهم من الانحلال والميل إلى المجون خاصة بعد أن سمحت السلطة التركية بفتح بيوت الدعارة والفساد بغرض تسلية الشباب الأتراك مع السماح لهم بشرب الخمر، وفي ذلك يقول: «وإذا كان الأتراك يراعون حسن السلوك ويحترمون تعاليم الدين التزاماً بمبدأ سياسي حسن، فإن التجربة أثبتت أن هذا لا يمنعهم من التحلل أحياناً، والميل إلى المجون الذي يميز الجنود في كل مكان، وتبعاً لذلك فإن الحكومة تسمح بفتح المواخر التي يديرها اليهود لتسلية الشباب الأتراك، وهناك يسمح لهم بتناول الخمر والكحول بدون قيد، بشرط ألا تقع فضائح مشينة أمام الجماهير، وكل تجاوز عن هذا الشرط يعرض صاحبه لأقصى العقوبات». (1)

كانت النساء المومسات تتم مراقبتهن من قبل المزوار، حيث يسجلن عنده في سجل خاص، أما فرقة الشرطة الليلية فمهمتها مراقبة الدعارة ليلاً والقبض على النساء المشبوهات (2). إن ما تنقله لنا المصادر الغربية يثبت لنا أن الدعارة والفسق كانت تمارس في الجزائر بعلم السلطة الحاكمة، مع تساهلها وسماعها بهذا الانحلال الأخلاقي.

يروى لنا النقيب روزي "Rozet" أن النساء اللواتي يمارسن الدعارة كان عددهن عشية الاحتلال يقدر بحوالي ثلاثة آلاف امرأة، وبما أن المزوار الذي كان يقوم بمهام شرطة الأخلاق والمخالفات الاجتماعية، كان له الحق في حجز كل امرأة منحرفة تمارس البغاء بدون رخصة حيث تعتبر رهينة عنده. (3)

إن من بين الكتابات الأوروبية نجد كتاب "The Barbary Slaveship" الذي تحدث فيه آلان ألديس "Aldan Adiss" عن الممارسات الجنسية التي يقوم بها الأتراك المسلمون تجاه الأسرى من الأطفال والنساء، فنجده يقول: «القفس رقم ستة وسبعة كلاهما جاهز للعرض "فخامتك" كلا القفصين مضاعف الحجم، حيث كان يتم جمع النساء مع بعض في

(1) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 55.

(2) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 92.

(3) - المرجع نفسه، ص: 88.

حبل مشترك... واحد من هذه الحبال كانت تحتوي أمهات جميلات، ونفس العدد من البنات المراهقات وعشرات الأخوات، وعدد قليل من التوائم»، أما فولتير فيذكر لنا أن الأسيرات كن قد اغتصبن من كل الرجال بلا استثناء، وتعد رواية ماريا مارتين "Maria Martin" إحدى أهم المؤلفات الغربية عن حالة الأسرى في الجزائر، حيث تشير إلى الممارسات الجنسية التي كان يقوم بها الأتراك ضد المسيحيات، فيقول: «لم يكن نادرا على المُعَذِّبِينَ إجبارنا على تجريد أنفسنا والبقاء عراة (عاريات)، ثم الوقوف لدقائق على أرجلنا في نار متأججة وفي أحيان أخرى يدخلون الجمر والفحم في صدورهن... وفي مرات كن ينثرن الرز المغلي على أجسادهن العارية».(1)

بالرغم مما نقلته لنا هذه المصادر، إلا أن المتأمل فيها يلاحظ فقدانها للموضوعية خاصة أن هذه الروايات لم يدونها مؤرخون ولا باحثون، وإنما في الغالب كتبها أسرى يعانون من الفقر، كان هدفهم الریح المادي من خلال نشر أعمالهم.(2)

إن السلطة الحاكمة سمحت بفتح بيوت لممارسة الدعارة والزنا في الجزائر، وهو ما أثبتته الكتابات التاريخية المحلية والتي أشرنا إليها سابقا، وبالتالي قد تكون هذه المصادر الغربية قد بالغت نوعا ما في نقل مشاهداتها لنا من أجل تشويه صورة الجزائر، لكن لا يمكن تنفيذ ما ذكرته في كتاباتها بشكل مطلق، وذلك من باب الموضوعية وعدم التحيز.

كانت السلطة العثمانية تسمح بإقامة الخمارات العامة خارج سور المدينة، والتي كانت تخصص لأسرى القرصنة الأوروبيين فقط، شرط أن تكون لهم الإمكانيات لشراء المقر، وأن يدفعوا لبيت المال أداءات سنوية تتناسب مع كميات الخمر التي يبيعونها، وقد كانت هذه الحانات تبيع الدخان والنبيد وأنواعا مختلفة من المأكولات المتداولة في البلاد، يشير "المازري

(1) - بلقاسم قرياش: "الكتابات الغربية ودورها في تشويه الجزائر العثمانية"، مجلة كان التاريخية، س:7، ع:23، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر، الكويت، 2014م، ص ص: 121-122.

(2) - بلقاسم قرياش: المرجع السابق، ص: 122.

بديرة" أن رواد هذه الخمرات غالبا ما يكونون من العسكر، الصعاليك، السوقة والعبيد أسرى القرصنة، حيث كانوا يقضون وقتهم في شرب الخمر والتدخين وتجاذب أطراف الحديث.⁽¹⁾ إن حانات الخمر كان يرتادها النصارى بينما كانت ممنوعة على الأهالي المسلمين⁽²⁾، وقد كان يديرها اليهود، يحدثنا أبو القاسم سعد الله أن الجزائر في العهد العثماني شاع فيها شرب القهوة بكثرة ومضغ الدخان وتدخينه في السبسي أو الغليون واستعمال النشوق، غير أن شرب الخمر لم يكن شائعا عند الطبقات العليا ولا ذوي العلم لأنه محرم شرعا ولا يليق بمقامهم، إلا أن الشباب والجنود الأتراك كانوا يشربونه حتى يفقدون السيطرة على أنفسهم لدرجة قد يصل بهم الوضع إلى القتل والاعتداء على النساء والصبيان خاصة عند توجههم للحملات السنوية، وتجنبنا لوقوع هذه التجاوزات يخرج البراح بناي طالبا ابتعاد النساء والصبيان عن طريقهم.⁽³⁾

تشير الكتابات التاريخية إلى انحلال بعض الحكام العثمانيين منهم الباي حسن بن موسى، حيث يقول عنه الزياني: «أنه كان في أول أمره يبيع الدخان ويتعاطى بيعه في السر والإعلان»⁽⁴⁾، كما يذكر صاحب "الترجمانة الكبرى" أنه لما قدم إلى قسنطينة أكرمه الباي وعزمه قائلا: «إنما وجهت لك في هذا الوقت لتتأنس بالسماع وتزيل الوحشة لأن هؤلاء الأساتيد قدموا علي من الجزائر فأردت أن تشرفنا بحضورك...»، ولما لبي دعوته وجلس معه الزياني استنشق منه رائحة الخمر وفي ذلك يقول: «...ولما جلس بعد رجوعه استنشقت منه رائحة الخمر، فعاد للحديث معي ساعة ثم قام ودخل من محله الأول

(1) - المازري بديرة: "حياة اللهو وخدمات الخمرات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1988م، ص ص: 98-99.

(2) - نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص: 144.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص ص: 162، 172.

(4) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 309.

والمملوك معه، ثم عاد وجلس فشاعت رائحة الخمر أكثر مما كانت وعلا كلامه فارتفع الشك وزال الوهم...»⁽¹⁾.

أدى انغماس بعض الدايات في الملذات ومخالطة النساء والموالي إلى تناسي شؤون الحكم، من أمثلتهم الداوي كُرد علي، الذي عرف بتعاطيه للأفيون والمخدرات إلى أن سقطت مدينة وهران للمرة الثانية في يد الإسبان، وبعد وفاته تولى الحكم بعده صهره بابا إبراهيم الذي انغمس هو الآخر في الفساد، فقد طلب من القنصل الفرنسي بينوه لومير سنة 1733م أن يأتيه بالعذارى وبثلاثين بنتا من الفرنسيات الجميلات، وقد أدى هذا الانحلال وكثرة الفواحش التي قام بها إلى قيام إحدى جواريه بحرق حصن "الطاقارة" سنة 1155هـ/1742م، إلا أن هذا لم يمنعه من الإقلاع عن شهواته.⁽²⁾

إن السؤال المطروح: كيف يمكن أن توجد حانات للخمر ويستهلك فيها كميات كبيرة في بلد يحرم فيه شربه على الأهالي؟ يجيب على ذلك "رفتيلوس" بأن الأسرى الأوروبيين يستهلكون الكمية الكبرى من الخمر المباعة في الجزائر، إذا ما استطاعوا بيع خدماتهم للأهالي، ولكن ما يلاحظ أن الأتراك وخاصة العصاة منهم يشربون نسبيا كميات أكبر من الأوروبيين بالرغم من أنهم يعرضون أنفسهم للعقاب إذا ثبتت التهمة عليهم.⁽³⁾

يورد المازري في مقاله "حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر" أن من الأمور الغريبة التي تشاهد في الجزائر هي أن ترى تركيا يعاقب تركيا آخر على انتهاك القانون بشرب الخمر، وفي المقابل من ذلك ترى الحاكم أو القاضي مع أصدقائه يشربون الخمر طوال الليل حتى طلوع الفجر، ثم يبدأ في تحضير نفسه للذهاب للمسجد فيتوضأ لأداء صلاة الصبح، إن هذه الفئة من الأتراك يحاولون تفسير الشريعة بما يخدمهم، حيث يرون أن شرب الخمر حرام في حالة ما إذا أدى إلى الاعتداء

(1) - أبو القاسم الزباني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة، الرباط، 1991م، ص: 156.

(2) - علي عبد القادر حليمي: المرجع السابق، ص: 180.

(3) - المازري بديرة: المرجع السابق، ص: 99.

على الناس، لذلك عندما يسكرون يتجنبون انتهاك حرية الآخرين، وبهذا يعطون مبررا لانتهاكهم للشريعة، كما يشير إلى تسامح الداى مع السكارى المسلمين بقوله: «...هؤلاء السكارى المدمنين لا يرحبون بجولة الداى التفقدية للمدينة رغم أن الداى نظرا لتغير الأزمان والطباع والأمزجة أصبح متسامحا كثيرا»، كما كانت السلطة الحاكمة تمنع أصحاب الخمرات من رفع أسعار الخمر. (1)

يذكر أن حانات الخمر في الجزائر كانت نادرة نسبيا، والسبب يعود حسب رأيه: "لأن الناس في كل مكان يشربون الماء عادة ولا يعرفون شيئا عن عصير الشعير أو عصير العنب، بالرغم من أنهم يسمحون لأنفسهم بالتمتع بكأس من الجعة الخفيفة...أما بالنسبة للمسيحيين الأحرار المقيمين في الجزائر والمعتادين على خزن زاد من الخمر في بيوتهم فإنهم يتولون بأنفسهم أو بواسطة العبيد تحضير الكحول في أماكن معزولة عن الشمس في ديارهم" (2)، كذلك من بين الظواهر الاجتماعية التي أثارت استياء العلماء، إدخال العثمانيين لمادة التبغ، والتي نتج عنها أثر سلبي على الحياة الاجتماعية في الجزائر، وقد أثبتت بعض النوازل الفقهية أن استهلاك هذه المادة قد بدأ قبل عهد الدايات، لكنه شاع بكثرة في هذه الفترة، ذلك أن السلطة شجعت على إدخال النرجيلة. (3)

هناك من يرى أنه رغم انتشار الفساد في عهد الدايات إلا أن هذه الظاهرة كانت خاصة ببعضهم فقط، لأنه كان هناك من تهمة مصلحة البلاد (4)، فقد نوهت العديد من المصادر المحلية على حرص السلطة العثمانية في الجزائر على محاربة الفساد وتأديب المنحرفين من البايات الذين شاع فسادهم بين الناس، حيث كان موقف الدايات منهم إما القتل أو العزل، وقد أشار إلى ذلك صاحب "تاريخ بايات قسنطينة" الذي يقول عن أحمد طوبال 1223هـ-1808م: «بعد توليه السلطة مدة ثلاث سنوات وسبب مقتله أنه كان

(1) - المازرى بديرة: المرجع السابق، ص: 99-100.

(2) - المرجع نفسه، ص: 100.

(3) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 174.

(4) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 24.

منشغلا بالزهو والطرب وترك الحكم لصهره فعزل»، وعن نعمان باي 1226هـ-1811م يقول: «كان مفرطا في الأحكام، وقد مس الكثير من الناس بأحكام الباطل وأخذ الخطايا في غير موجب، مما جعل الناس يشكون منه إلى الداوي في الجزائر فأمر الداوي بقتله وعزله وولى مكانه أحد الصبايحية وهو محمد شاكر».(1)

طالب العلماء من السلطة التدخل للحد من ظاهرة اختلاط النساء بالرجال بصفة ترفضها الأحكام القيمية التقليدية المجتمعية، حيث تطرق إليها الورتلاني في رحلته، وفي ذلك يقول: «يجب على من ولاه الله أمور المسلمين أن يرفع ذلك بالسيف عن أوطاننا، لا سيما وطن بني عامر وبني دراج ووطننا أي بني ورتيلان، وكذا ما يصير في بجاية آخر رمضان بمسجد البلوط في بني يعلى، وكذا محل الأولياء في كل مكان كقبر سيدي علي بن شداد وسيدي العبدلي وسيدي عبد الرحمن الثعالبي في الجزائر وسيدي سعيد السفوي في قسنطينة، وجبل المثقوب في بني ورتيلان وغيرهم...»، فهو يخاطب العلماء وكل النخب المثقفة لاستنهاض الهمم من أجل إنهاء هذا الفساد والانحلال الخلقي الذي غضت عنه السلطة أنظارها، حيث يطالبها بالتغيير قائلا: «وأما السلطة فيجب عليها التغيير باليد»، محاولا القضاء على الفتن التي انتشرت في المجتمع من خلال ما أورده في رحلته.(2)

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 65، 101.

(2) - فاطمة الزهراء طويال: المرجع السابق، ص: 174-175.

ثالثا: الواقع الثقافي للجزائر في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م

1- حالة الركود والتخلف الثقافي:

اتسمت الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر أثناء العهد العثماني بالتدهور، فقد أبدت المصادر التاريخية رأيها في هذا الشأن بشكل صريح، منهم أبا راس الناصري، الذي انتقد تدهور الحياة الثقافية وانداس العلم وانعكاس أحوال العلماء والأدباء والأفاضل، كما أشار بن سحنون الراشدي إلى تقهقر اللسان العربي الفصيح وبلاغته، إذ كتب: «أن الألسنة غلبت عليها العجمة وارتفع منها سر الحكمة»، كما أشار تيدنا⁽¹⁾ في مذكراته سنة 1785م إلى انتشار الأمية في عاصمة البايك الغربي -معسكر- فلا تكاد تعثر في المدينة إلا على مائة شخص يعرف القراءة، ولا تتعدى اهتماماتهم سوى الحديث عن الخيول.⁽²⁾

لقد أشار أبو القاسم الزياني إلى هذا التدهور الثقافي بحديثه عن تلمسان إثر نزوله بها سنة 1792م، حيث ذكر ما يلي: «وهؤلاء الطلبة الذين بتلمسان فيهم من لا يحسن منطقا ولا لغة ولا عربية ولا صلاح اللسان ولا يتعاطون الفروع الفقهية والأحاديث النبوية». ⁽³⁾

يشير أبو القاسم سعد الله إلى أن الحكام العثمانيين في الجزائر كانوا غريباء عن الثقافة العربية، وعن تاريخ الحضارة الإسلامية، وهو ما جعلهم كولاة وسلطين يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة واقتصاد وإدارة، تاركين القضايا الأخرى لفئة أخرى، فالثقافة في العهد العثماني لم تحظ في الجزائر بالأهمية الكبيرة من طرف العثمانيين بمثل ما حظيت به

(1) - تيدنا: ولد سنة 1758م في أوزيس (uzes) من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال، حبه للأسفار قاده نحو ليفورن وقديسا (Cadix)، مارس مهنة تجارة البحر، وخلال رحلة بحرية كان ينقل خلالها براميل الخمر من مالقا إلى مرسليليا على متن سفينة إسبانية، وقع أسيرا في قبضة البحارة العثمانيين، من ثمة اشتراه باي الغرب محمد الكبير وعينه خزندارا (وزيرا)، وقد رافق تيدنا سيده في كل تنقلاته، وكتب مذكراته التي تعد ذات قيمة تاريخية عالية، ينظر: (احميدة عميراوي: "مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج: 19، ع: 1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2004م، ص ص: 204-205.

(2) - بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه...، المرجع السابق، ص ص: 65-66.

(3) - نفسه، ص: 66.

القطاعات الأخرى وفي مقدمتها القطاع العسكري، وهذا يعود إلى عاملين أولهما الظروف الخاصة بنشأة الدولة العثمانية التي كانت في عهد يتطلب الاعتماد على القوة الحربية، إضافة إلى انتشار الطرق الصوفية في البلاد العربية الإسلامية، التي تولت بنفسها نشر الثقافة، يضاف إلى ذلك شعور العثمانيين بأنهم غرباء عن هذه البلاد.⁽¹⁾

إن الضعف الثقافي الذي عاشته الجزائر كان هو نفسه في العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، وهو ما أكده أحمد توفيق المدني في قوله: «إن الجزائر لم تكن أيام العهد العثماني آخذة بأسباب التقدم العلمي، ولم تكن سائرة بخطى حثيثة في مضمار العمران، وإنما كان شأنها في ذلك شأن بقية العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغربها».⁽²⁾

يصف الورتلاني مدينة قسنطينة بقوله: «...لا تخلو عن العلم، غير أن تدريسه فيها إنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأول الربيع، وأما سائر الأوقات فليس فيها العلم الغزير، ولا انعدامه رأسا فليس يفقد الجملة ولا يستمر كلية، فولاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس ولا بكثرة الأوقاف والأحباس، وملكها ليس كملك تونس»⁽³⁾، كما اشتكى من الوضع الذي لقيه بمدينة بسكرة، وفي ذلك يقول: «ولما دخلت مسجدها لم أجد قارئاً ولا مدرساً سوى رجلا واحدا متى يقرأ لوحه وهو ملقى أمامه، يقرأه على غير أدب ولا استقامة، وأخبرني بعض أصحابنا أنه وجد رجلا واحدا يسرد البخاري وحده... ووجد آخر كذلك»⁽⁴⁾، يذكر أيضا أنه أثناء تواجده ببسكرة دخل المسجد الجامع فلم يجد فيها طالبا يقرأ القرآن أو يتعلم مسألة من العلم، حيث وصفه كالعدم لاندراس العلم وأهله.⁽⁵⁾

كان الرحالة الإسحاقى شديد الحرص على لقاء العلماء والفقهاء في مختلف القرى والمدن التي يمر منها الركب، غير أنه كان يصطدم بحقيقة مفادها: «وبالجملة فالعلم

(1) - بلقاسم عياشي: "واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني من خلال كتابات الباحثين الجزائريين"، حولييات التاريخ والجغرافيا، مج:4، ع:7، مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية بالمدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2013م، ص: 38.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 27.

(3) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار...، ج3، المصدر السابق، ص: 354.

(4) - الحسين بن محمد الورتلاني: نزهة الأنظار...، ج1، المصدر السابق، ص: 211.

(5) - المصدر نفسه، ص: 239.

بالبلاد الشرقية غيرها قد وقف على ثنية الوداع وهم مزنة بالإقلاع»، فقد لقي بعين ماضي فقيه تلك القرية فاكتشف أنه «قبر من قبور الجهل لا يفرق بين المستقبل والماضي، يزعم أنه يعرف فقه خليل، وهو لا شك يحفظ متنه أو كثيرا منه مع تصحيف فيه فادح، ثم سأل عن مسائل نوه فيها وهي في المتن، وحين قرأ النص قال: "وخصت نية الحالف وقيدت فصاح به الطلبة!"، وخصت للبناء للمفعول للفاعل»، وبزاوية سيدي ناجي التقى ببعض الطلبة الذين دخل معهم في نقاشات فقهية وعلمية، فوجد أن أسئلتهم تدل على ضعف كبير في التكوين.⁽¹⁾

هناك من يرى بأن الثقافة على عهد الأتراك، كانت رهن فراش الاحتضار تلفظ نفسها الأخير في أوكار الزيانيين، ويعود سبب ذلك إلى ضعف الحضارة والعمران، واهتمام الجزائريين وانشغالهم بتوفير قوت يومهم وعدم استقرارهم بسبب الحروب الخارجية والثورات الداخلية، وأن الأتراك لم يكونوا يوما دعاة ثقافة، وإنما كانوا رجال حرب أتوا للجزائر كمحاربين للإفرنج والمسيحيين كافة ومدافعين عن حياض الدين ببلاد المسلمين، ذلك أنهم ليسوا بمتقنين ثقافة عربية النزعة تدفع بهم إلى أن يبتوها في مجتمع طالما أحب العربية، فمن غير الممكن أن نحكم على شعب بأنه مثقف ثقافة متينة الرصيد ذات مكانة وحكامه خلو منها.⁽²⁾

إن من المبررات التي تطرح، أن الأدب نافلة تنتفل بها الشعوب التي انتهت من أداء واجبها، فمن أين تفاجئ فكرة الأدب شعبا، مثل شعب الجزائر الذي كان مشتغلا بقوت يومه وكسب أبنائه، فكيف يسمح له ضميره أن يركن إلى الأدب؟ بينما هو يقاسي من تتابع الثورات الداخلية وتوالي الهجمات الخارجية، فقد تكبلت مواهبه وأصبح رهن القلق الذي تولد عنه القنوط واليأس⁽³⁾، غير أن هناك من يخالف هذا الرأي ويزعم أن الجزائر كانت لا تقل

(1) - أبي محمد سيدي الشرفي بن محمد الإسحاق: رحلة الوزير الإسحاق الحجازية، ج1، تح: محمد الأندلسي،

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2017م، ص: 148.

(2) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 45-46.

(3) - المصدر نفسه، ص: 57.

ثقافة عن الأقطار الإسلامية الأخرى من حيث الشكل أو المضمون، فجنده يذكر ثلاثة أدلة قاطعة والمتمثلة في مظاهر الثقافة التي أشار إليها ابن ميمون في كتابه "التحفة المرضية"، والتي تفند هذا الزعم بعيدا عن العاطفة المتحيزة، حيث يرى أصحابه أن «الطبيعة أبت أن تجعل الأزهر الشريف وجامع القرويين وجامع الزيتونة وجامع الأمويين والمسجد الأقصى والمسجد النبوي في حوزة القطر الجزائري حتى ينبغ فينا رجال علم وأدب، فيكون لهم نتاج يستوجب من علماء الأقطار هز الرؤوس، ومن أدباء الأعصار رقص النفوس».(1)

يرى د. شو "Dr.Shaw" أن إهمال العلوم والفنون يعود إلى استبداد العثمانيين الذين لم يسمحوا للجزائريين بالاهتمام بمختلف العلوم كالطب والفنون التي لم تتطور ولم تصل إلى درجة الإتقان، ليس لعدم وجود أشخاص يدرسون الطب أو يلعبون دور الأداة لتسهيل هذا الأمر، والذي يحتاج لبعض المعارف العلمية الدقيقة، لكن كل ما يفعلونه هو فقط مجرد تقليد أو عادة يمارسونها بشكل روتيني، لذا لا يمكننا القول بأن العثمانيين والجزائريين ليست لهم القدرة على تحقيق هذا التطور، فهم يمتلكون القدرات العقلية والفكرية لتحقيق ذلك.(2)

يرى أبو القاسم سعد الله أن سلبية الوجود العثماني في الجزائر تظهر في الميدان الثقافي، رغم أنهم قد دافعوا عن الدين الإسلامي، وشجعوا تيار التصوف في البلاد وأوقفوا بعض الأوقاف على المؤسسات الدينية، وساهموا في بناء الزوايا، المساجد والكتاتيب، إلا أن نظرتهم إلى الدين في داخل البلاد كانت نظرة تعبدية محضة، حيث يشير إلى أن هذه النظرة لم تستفد منها الثقافة، فهم لم يساهموا في تأسيس جامعة كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة تبت العلم وتخرج العلماء، إضافة إلى ذلك فإنهم لم يكونوا يتكلمون لغة البلاد ولا يتذوقون

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 80.

(2) - Thomas Shaw: *Voyage dans la régence D'Alger ou description géographique, physique philologique, etc de cet étale*, Trd de L'anglais par: Mac carthy Chez Marlin éditeur, Paris, 1830, pp: 77, 80-81.

أدبها ولا يتصلون بعلمائها اتصالا عاطفيا وعقليا كما فعل سلاطين المغرب أو بايات تونس، يضاف إلى ذلك أنهم لم يعقدوا المجالس العلمية والمناظرات.⁽¹⁾

يشير الرحالة الفرنسي بايصونال "Peyssonnel" إلى التدهور الفكري وقلة الإنتاج الثقافي، وفي ذلك يقول: «ما تبقى لنا لنقوله عن الهيمنة التركية يقتصر على القليل جدا، هذه الفترة بحق تعتبر عهد البربرية الفكرية، حيث تميزت بندرة الأعمال الأدبية لأن الأحداث والحقائق المهمة التي يجب أن تدون في تاريخ البلاد لم تدون وتسجل ومحيت من جيل إلى آخر بدون أن يبقى أثر للأجيال القادمة»⁽²⁾، ثم نجده يتساءل بالقول: هل يصح أن نطلق على هذا العهد "عهد الانحطاط الثقافي"؟ ويجب عن ذلك بأن عهود الانحطاط السياسي والثقافي بدأت قبل القرن العاشر بفترة طويلة، وهو جمود ليس خاصا بالجزائر فقط، ولو كانت الثقافة في بقية العالم الإسلامي نشيطة لاستفاد منها الجزائريون، فالحكام في غير الجزائر كان لهم اتصال وثيق بالثقافة العربية والعلوم الإسلامية، عكس حكام الجزائر الذين كانوا أبعد الناس عن هذا الميدان، وهنا يكمن الفرق بين وضع الثقافة في الجزائر وغيرها من البلدان العربية الإسلامية الأخرى خلال هذا العهد.⁽³⁾

لقد قيل الكثير عن موقف الأتراك من الثقافة، سواء في بلادهم أناضوليا أو في البلاد التي دخلت تحت طاعتهم كالجزائر، فقد اتهموا بحب المال، البربرية، الجهل وبالأمر العسكرية دون المدنية، هذه الاتهامات التي تجردهم من الحضارة والثقافة، لذا فإن أبو القاسم سعد الله يرى بأن تدهور الثقافة الإسلامية بدأ قبل استيلاء العثمانيين على السلطة بقرون، كما أن ظهور الطرق الصوفية، والذي كان ظاهرة متصلة بتدهور الثقافة، جاء قبل توليهم السلطة أيضا، وبالتالي فإنه لا يحمل الأتراك مسؤولية تدهور الثقافة الإسلامية ولا على

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 18.

(2) - L. Charles Féraud: *Histoire des Villes de la province de Constantine*, Libraire éditeur, Constantine, 1869, pp: 194-195.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 19.

ظهور التصوف، لكن سياستهم في الحكم أعانت بعد ذلك على نشر التصوف الخرافي والانحطاط الثقافي.(1)

إن الثقافة في الجزائر أثناء العهد العثماني، كانت جهوية إقليمية أكثر منها قطرية عمومية، حيث كانت محصورة في أشخاص معينين وأماكن محدودة، وبالتالي فهي عاجزة عن التأثير الذي يعد شرطاً أساسياً لثقافة الشعوب.(2)

يورد أبو القاسم سعد الله، أنه كان بإمكان الجزائر أن تستفيد من علوم الأوروبيين في الثلاثين السنة الأخيرة من الحكم العثماني، نظراً لموقعها الجغرافي ودورها العسكري والسياسي، ووجود القناصل بها ومعاصرتها للحملة الفرنسية على مصر والشام، وما خلفته من آثار علمية تبناها محمد علي باشا(3)، الذي قام بإرسال بعثات طلابية إلى أوروبا، واستقدام علماء أوروبيين إلى مصر، ليؤسسوا لهم مدارس للطب والهندسة، ومع ذلك لم ينهض حكام الجزائر من سباتهم، وقد دعا ابن العنابي في كتابه "السعي المحمود" إلى تغيير نمط الحياة الفكرية(4)، فقد تحدث عن جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة، حيث جاء بأحاديث عن جواز تعلم اللغات من غير المسلمين، مثل حديث تعلم السريانية لزيد بن ثابت، لأن كتباً كانت تأتي للرسول بهذه اللغة، فتعلمها الصحابي في سبعة عشر يوماً(5)، فعن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله ﷺ «إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أو ينقصوا فتعلم

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 185.

(2) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 55-56.

(3) - محمد علي باشا: عمل على إنشاء نظام تعليمي جديد على نمط الأنظمة التعليمية في الغرب وإرسال البعثات إلى أوروبا التي حملت بعد عودتها بذور التخريب والعلمنة، ينظر: (فاطمة بن عيسى، دحو فغورور: "إصلاحات محمد علي باشا في مصر من وجهات نظر مختلفة-دراسة تقييمية"-، مجلة عصور الجديدة، مج: 10، ع: 3، مختبر التاريخ جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2020، ص: 281).

(4) - أبو القاسم سعد الله: "لوحة عن نظام التعليم بالجزائر في العهد العثماني"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال (1830-1962م) المنعقد بعناية أيام 14-15 جوان 2009، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، طبع العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2011م، ص ص: 25-26.

(5) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص ص: 74-75.

السريانية»⁽¹⁾، كما تعلم العبرية في نصف شهر، وقد استنتج ابن العنابي من ذلك جواز تعلم الكتابة أيضا من غير المسلمين، ودلّ ذلك الجواز غير المشروط في نظره على «جواز تعلم العلوم الآلية التي لها منفعة في أمر الدين من الكفار»⁽²⁾.

لقد أدى جواز تعلم ما اختص به الكفرة من معارفهم إذا توقف عليها أمر ديني، لأنه إذا جاز تعلم اللغة السريانية واللغة العبرية والكتابة بهما «فغير ذلك من معارفهم الصناعية التي لها موقع من أمر الدين كالذي نحن فيه بالأولى»⁽³⁾، ومن هذه المعارف أيضا الطب والحساب اللذان يعتبران من علوم فلاسفة غير المسلمين حسبه⁽⁴⁾، كما يشير أبو القاسم سعد الله كذلك بأن حكام الجزائر قد جاءهم النذير على لسان العالم بن العنابي، غير أنهم تجاهلوا مقترحاته⁽⁵⁾.

إن الخط البياني للثقافة في الجزائر، كان يسير في حالة إطراد وصعود، فبعد النزاع السياسي الكبير الذي عانت منه هذه الثقافة في القرن 16م، والذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الحادي عشر، باستقرار الأوضاع وازدهار الحياة الاقتصادية، وتردد العلماء المسلمين على الجزائر، كما شهد القرنان الثاني عشر هجري (18م) وأوائل الثالث عشر هجري (19م) حركة قوية في صفوف العلماء، من عناية بالتعليم وكثرة التأليف⁽⁶⁾.

لقد تزامن ذلك مع بروز عدة حواضر جزائرية، عرفت نشاطا فكريا وحركة ثقافية تعليمية وصل تأثيرها إلى الريف الجزائري، وقد حظيت كل من تلمسان وقسنطينة ثاني المدن الجزائرية بعد الجزائر العاصمة بمكانة ثقافية وبنشاط العلماء، فاشتهرت قسنطينة بمساجدها

(1) - محمد بن العنابي الجزائري: السعي المحمود في نظام الجنود، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2018م، ص: 224.

(2) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 75.

(3) - محمد بن العنابي الجزائري: المصدر السابق، ص: 225.

(4) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 75.

(5) - أبو القاسم سعد الله: لوحة عن نظام التعليم بالجزائر...، المرجع السابق، ص: 26.

(6) - بلقاسم عياشي: المرجع السابق، ص: 44.

وزواياها وبيوتها الكبيرة التي تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشاركة والأندلسيين، بالإضافة إلى التأليف المحلية⁽¹⁾، يصفها محمد الناصري الدرعي بقوله: «فهذه البلاد ذات أمهات كتب إلى ما جمع الله لأهلها من المحبة في الغريب والبرور في البعيد والقريب». ⁽²⁾ يشير صاحب الترجمان الكبري "أبو القاسم الزياني" إلى لقائه بالعديد من العلماء بقسنطينة، من بينهم سيدي مبارك، الفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن علي ابن مسعود الونيسي، المفتي الفقيه العلامة سيدي أبو القاسم المحتالي، المفتي العلامة أحمد بن المبارك، والذي ذكر أنه آنسه بمحاضرتة وحسن أدبه.⁽³⁾

يصف الرحالة "ابن زاكور" علماء مدينة الجزائر أثناء نزوله بها مادحا إياهم، بما يلي: «... غرر أعلام ينجلي بهم الإظلام، وشموس أئمة، تنفرج بهم كل غمة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار... ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت ونسيت ببشرهم وتأنيسهم، وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم ما عانيتها من رهج القفار وقاسيته من لجج البحار».

ولو لم يزد إحسانهم وجميلهم على البر من أهلي حسبتهم أهلي يذكر أنه عندما عزم على الرحيل طلب من العالم "أبي حفص عمر بن محمد المانجلاتي الجزائري" أن يجيزه، فقدم له إجازة برواية ما لديه.⁽⁴⁾

إن أداء فريضة الحج إلى بيت الله سنويا، وتعيين أمراء الركب من العلماء واتصال قوافل الجزائر بقوافل المغرب والسودان، أدى إلى تبادل الإجازات العلمية، التأليف والمناظرات مع بعضهم بعضا، وهو ما تذكره كل الرحلات، كما أدت هجرة الطلاب

(1) - بلقاسم عياشي: المرجع السابق، ص: 44.

(2) - محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي: الرحلة الناصرية الصغرى، تح: محسن أخريف، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2019م، ص: 257.

(3) - أبو القاسم الزياني: المصدر السابق، ص: 154.

(4) - ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر، الجزائر، 2011م، ص ص: 40-41.

الجزائريين إلى تونس والمغرب الأقصى وبلاد المشرق والتحاق الكثير منهم بالزيتونة، القرويين والأزهر، إلى وحدة الثقافة بين المغرب والمشرق، حيث تثبت بعض الإجازات العلمية أن المواد التي كانت تدرس بمعاهد الجزائر لا تختلف عن نظيراتها بالقرويين الزيتونة والأزهر. (1)

كانت مراكز الثقافة في الجزائر موزعة على سبعة مراكز كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه، حسبما تتطلبه ظروف العصر، وتقضيه قوانين إقليم القطر وعوائد سكانه، تمثلت في كتابات القرآن التي خصصت لاستظهار كتاب الله، الزوايا، المساجد والمدارس، تضاف إلى ذلك الدكاكين التجارية التي كانت تخصص في الليل للمسامرات الأدبية، أما الأندية المنزلية فقد كانت تقام في منازل وجهاء البلاد، في حين خصصت منازل العلماء لإلقاء الدروس الدينية، إضافة إلى المكتبات العامة والخاصة، التي كان يرتادها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي بغرض المطالعة. (2)

2- وضع التعليم:

يعد التعليم الأساس الحقيقي لكل ثقافة ولأي تقدم في المجتمع الإنساني، فقد تحدثت العديد من المصادر عن انتشاره في الجزائر خلال العهد العثماني (3)، وفي ذلك يقول "شمبر": «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا» (4)، وهذا ما سجله عدد من الفرنسيين في الجزائر في بدايات فترة الاحتلال، بأن الأمية فيها كانت منعدمة تقريبا، وأن «سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة

(1) - المهدي البوعبدلي: جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني من القرن (10-13هـ)، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، دار المعرفة، الجزائر، 2013م، ص: 21-22.

(2) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 58-61.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 313.

(4) - أبو العبد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص: 13.

والكتابة»، كما ذكر "روزي"، وقد أكد هذه الفكرة "والسان أيسر هازي"، الذي يرى أن نسبة الأمية في الجزائر كانت عام 1830م أقل منها في فرنسا.⁽¹⁾

أما عن سياسة الدولة نحو التعليم في العهد العثماني، فلم يكن لها أي دخل في هذا الميدان، فقد كانت همومها منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي، الدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال "الخرينة"، ولم تكن هذه المداخل وغيرها تستعمل في نشر التعليم وترقيته وتنميته الثقافية وتنشيطه، ولكن تخصص لدفع أجور الجنود والمعدات الحربية وفي توزيع الهدايا والعطايا على السلطان العثماني⁽²⁾، فالتعليم إذا كان خاصا يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية ويدخل في هذا المجال رجال الدولة ولكن كأفراد، لكن ما يحفظ للأتراك هو أنه وإن لم يشجعوه فإنهم لم يعرقلوه.⁽³⁾

كانت معظم المؤسسات الثقافية تتغذى بالدرجة الأولى من مؤسسة واحدة وهي الأوقاف، التي تستعمل في أغراض كثيرة منها: العناية بالعلم، العلماء، الطلبة الفقراء، العجزة، اليتامى وأبناء السبيل، العناية بالمساجد، المدارس، الزوايا والأضرحة⁽⁴⁾، أما التعليم الذي كانت ترعاه هذه الأوقاف، فقد كان على ثلاث مستويات: الابتدائي، الثانوي والعالي⁽⁵⁾، وقد كان أساسه هو الدين، فحفظ القرآن الكريم كان عمدة التعليم الابتدائي ومعرفة بعض علوم القرآن كان عمدة التعليم الثانوي والعالي أيضا، ولم يكن تعلم القراءة والكتابة إلا تابعا لحفظ القرآن، كما أن تعلم بعض العلوم العملية كالحساب فكان هدفه أيضا ديني بالدرجة الأولى.⁽⁶⁾

(1) - مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر...، ج3، المرجع السابق، ص: 317.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 313.

(3) - صبيحة بخوش: المرجع السابق، ص: 136.

(4) - المرجع نفسه، ص: 142.

(5) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات...، المرجع السابق، ص: 161.

(6) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 315.

3- جهود بعض الحكام العثمانيين في تشجيع الحركة الثقافية في الجزائر العثمانية:
في أواخر القرن 12هـ/18م، ذاع صيت كل من الباي محمد الكبير ببايلك الغرب 1779-1797م، وصالح باي ببايلك الشرق 1771-1792م، فقد حاول كلاهما أن يمثل "عصر التنوير" في الجزائر العثمانية من خلال تشجيعهما للحركة العلمية والثقافية.⁽¹⁾

3-1- الإسهامات الثقافية للباي محمد الكبير ببايلك الغرب:

أ- إحياء وتشبيد المدارس:

يشير بن سحنون الراشدي صاحب "الثغر الجماني"، إلى أن الباي محمد الكبير كان مهتماً بالثقافة والمتقنين، حيث أنشأ المدرسة المحمدية التي كاد أن يتفجر العلم من جوانبها كما وصفها⁽²⁾، وقد ذكر ابن زرفة في "الرحلة القمرية" أنها كانت عبارة عن حلم بين الخواص والعوام، نظراً للانحطاط الحضاري الذي كانت تعاني منه الجزائر أثناء العهد العثماني، لذلك عزم الباي على تشييدها، فأنفق عليها الكثير من المال ووفر لها المياه وأوقف لها الأوقاف وعين عليها أحسن المدرسين، من بينهم محمد بن عبد الله الجلاي الذي ولاه إدارتها ومحمد بن زرفة الدحاوي والطاهر بن حواء ألحقها الباي بالجامع الأعظم بمدينة معسكر، وسميت بالمدرسة المحمدية نسبة إليه وتبركا باسم النبي ﷺ، أو مدرسة "الحايطة" كما وردت على اللوحة التذكارية للجامع الأعظم، لعبت دوراً تعليمياً وثقافياً نشيطاً في حدود بايلك الغرب.⁽³⁾

تخصصت هذه المدرسة في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية، إضافة إلى كتب الحواشي والمختصرات، أعتبرت من المعاهد العليا التي عرفت

(1) - محمد الأمين شرويك: "جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مج:3، ع:2، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، 2018م، ص ص: 570، 575.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 71، 136.

(3) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه... المرجع السابق، ص ص: 338-339.

الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني⁽¹⁾، حيث كان لأساتذتها وطلابها دور كبير في مواجهة الاحتلال الإسباني لمدينة وهران، فقد كان طلابها من أول المستجيبين للمرابطة حول المدينة.⁽²⁾

وفر الباي للطلبة كل الوسائل للمضي في طلب العلم، وهو ما أشار إليه الأغا بن عودة المزاري في كتابه "طلوع سعد السعود" قائلا: «...وكان يحب الطلبة ولذلك بنى لهم المدرستين، الأولى بـ "معسكر" والثانية بـ "وهران"»⁽³⁾، كما عمل على تجديد المدرستين القديمتين بتلمسان، وفي ذلك يقول ابن سحنون: «وله في تلمسان ومستغانم والجزائر وغيرها مباني كثيرة وآثار في ذلك شهيرة بين مساجد ومشاهد ومدارس وحتى في الفلوات الخالية والطرق المعطشة المقفرة لا يخلو سائر من رؤية آثاره ومآثره، وقد جدد المدرستين القديمتين بـ "تلمسان" وأحيا ما أمات الزمان من آثارهما...»⁽⁴⁾، كان الباي من المشجعين لطلبة العلم، الذين كانوا يدرسون بالأزهر، حيث كان يرسل لهم المساعدات سنويا ضمن الهدية التي التزم بها لشيخ الإسلام مرتضى الزبيدي، وما يثبت ذلك تبادل له لبعض الرسائل معه، ومن أمثلة ذلك رسالة ابتدأها ببعض الأبيات:

أيها البدر لا برحت عليا شامخ المرتقى بهيا سنيا
مالكا رقبة الأنام جميعا بالغا في العلى مقاما زكيا

وقد ختم كتابه بقوله: «ولقد وصل ما أهدى به إلى محبه في باطن الصّرة من

الصّلة التي هي في كل عام تتصل وتزيد فالله يديم التأييد».⁽⁵⁾

(1) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص ص 573-574.

(2) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه... المرجع السابق، ص: 339.

(3) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 25.

(4) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 71.

(5) - المصدر نفسه، ص: 73.

كما أنشأ الباي مدرسة خنق النطاح بمدينة وهران، ويعد الزياني المصدر الوحيد الذي أشار إليها، حيث قال: «وبنى المدرسة العظيمة بخنق النطاح والتي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة»، والتي حولها الباي محمد الكبير سنة 1794م إلى مسجد.⁽¹⁾

ب- الاهتمام بالوقف الثقافي:

اعتنى الباي محمد الكبير في مشروعه الثقافي بالوقف بغية استمرار دور المؤسسات التعليمية القائمة وتفعيل نشاط الطلبة والمدرسين، فقد ذكر ابن سحنون الراشدي أنه أوقف أوقافا كثيرة على الجامع الأعظم بمعسكر بما في ذلك الحمام وحدائق ودورا وحوانيت وفرنا، كما أوقف عليه أيضا خزانة كتب بنى لها بيتا بجواره⁽²⁾، وعموما قام بنشر العلم، إنشاء المدارس، المعاهد وإدخال إصلاحات في التعليم لكافة الحواضر، وأوقف عليها العديد من الأوقاف⁽³⁾، أما فيما يخص مدينة مازونة، فقد أوقف على مدرستها نسخة من صحيح مسلم والعديد من الكتب سنة 1796-1797م⁽⁴⁾، وبذلك تعد مدرسة مازونة- من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني، على يد الشيخ العلامة "محمد بن الشارف البولداوي"، حيث اشتهرت بالدراسات الفقهية.⁽⁵⁾

يمكن القول أن ما حبسه الباي محمد بن عثمان والباي مصطفى بوشلاغم كان هاما شمل جل مدن بايلك الغرب، وخاصة مدن مازونة، مستغانم ومعسكر، بل امتدت هذه المؤسسات إلى خارج البايك، لتشمل مدنا أخرى مثل مدينة البليدة وضواحيها.⁽⁶⁾

(1) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه...، المرجع السابق، ص: 340.

(2) - المرجع نفسه، ص: 341-342.

(3) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص: 573.

(4) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه...، المرجع السابق، ص: 344.

(5) - فاطمة غالم: "مدرسة مازونة ودورها في الحركة العلمية والثقافية"، مجلة عصور الجديدة، مج:6، ع: 23، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2016م، ص: 385.

(6) - فتيحة الواليش: الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بلحميسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 1993-1994م، ص: 158.

يشيد بن سحنون بالباي محمد الكبير وبمآثره، حيث يقول: «...ومن أعظم مآثره... أنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأعباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء إلا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة، وشرهت النفوس وكثر طلبه العلم وتشوق كل أحد للتدريس، واشتد الحرص على التعليم...»⁽¹⁾.

إن من أقدم الواقفين من الباشوات، خير الدين بربروس وخادمه عبد الله صفر، هذا الأخير، هو من بنى الجامع المعروف بجامع "صفر" 1534م، وأوقف له أوقافا، كما اشتهر عدد من الباشوات بالوقف على المساجد والمدارس، منهم محمد بن بكير، الحاج محمد بن محمود ومحمد بكداش الذي بنى زاوية للأشراف وأوقف عليها، محمد باشا الذي جدد جامع السيدة، خضر باشا الذي بنى مسجدا يحمل اسمه، حسين باشا الذي بنى جامع خطبة خاصا به، بالإضافة إلى الباشوات فقد أوقف البايات والوزراء والكتاب (الخوجات) وكبار الضباط عدة أوقاف على مجموعة من المنشآت.⁽²⁾

رغم نقد الورتلاني لحكام قسنطينة على ضعف اهتمامهم بالمدارس ومساهماتهم في الأوقاف، إلا أن وثائق الفترة الأخيرة من العهد العثماني أثبتت أن بايات من أمثال حسن بوكمية، صالح بن مصطفى والحاج أحمد، تركوا آثارهم في تنشيط مؤسسات التعليم.⁽³⁾

ج- تنشيط حركة النسخ والتأليف:

يعد الباي محمد الكبير من أشهر البايات الذين شجعوا حركة النسخ والتأليف، إذ أمر باختصار الكتب المطولة ونسخ المخطوطات النادرة وبعث التأليف في شتى العلوم، مع تكريم الطلبة والعلماء القائمين بذلك⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول ابن سحنون: «...وكم من تأليف نشأ

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص ص: 71-72.

(2) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص: 570.

(3) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج5، المرجع السابق، ص: 179.

(4) - بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه...، المرجع السابق، ص ص: 346-347.

بأمره ونال مؤلفه به وافر برّه...ولمحبّة هذا الأمير للعلم والأدب، كان يشتري كتبه بالثمن البالغ، ويستكثر منها وينتسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه»⁽¹⁾.

إن تشجيعه للإنتاج الأدبي والعلمي، جعله يطلب من كاتبه الخاص محمد المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زرفة، تقييد الحوادث المتعلقة بالفتح، فألف مؤلفه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، كما خلد كاتبه الثاني بن سحنون الراشدي فتح وهران الثاني ومآثر الباي محمد الكبير، وسمى شرحه الأدبي لقصيدته "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"⁽²⁾، وفي ذلك يقول: «...ثم أمرني باختصار الأغاني فاخصرتة في نحو الثمانين كراسة فأتابني بمائة سلطاني ثم أمرني أيضا بجمع طب القاموس، فضممته وزدت عليه من كلام الأطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب، فأتابني عنه بخمسين سلطانيا...»⁽³⁾.

ألف أبو راس قصيدته في فتح وهران "نفيسة الجماني في ثغر الوهراني"، أما شرحه لها فقد سماه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، كذلك هناك مؤلفات خلدت مآثره وإنجازاته، منها مؤلفات كاتبه الذي رافقه أثناء خروجه إلى الجنوب الوهراني لإخضاع القبائل المتمردة في كل من الأغواط وعين ماضي، وهو بن هطال التلمساني ومؤلفه "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الوهراني"، ومؤلف عبد القادر بن عبد الله المشرفي الغريسي "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبنّي عامر"⁽⁴⁾، ومن الشعراء الذين أكرمهم الباي محمد الكبير الحاج أحمد القرومي، الذي أهدها ذهباً وأعطاه ألبسة حين مدحه بقصيدتين، الأولى بمناسبة تشييده للمسجد الكبير بمدينة معسكر، والثانية بمناسبة فتحه لمدينة الأغواط يذكر أن مكتبته الضخمة احتوت على العديد من المخطوطات، حيث كان يقوم بنسخها لعدة نسخ حتى يستفيد منها الجميع من علماء وطلبة المساجد.⁽⁵⁾

(1) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 72-73.

(2) - فتحة الواليش: المرجع السابق، ص: 165.

(3) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 155.

(4) - فتحة الواليش: المرجع السابق، ص: 165.

(5) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 26.

3-2-الإسهامات الثقافية للباي صالح ببايلك الشرق:

أ- إحياء وتشبيد المدارس:

يعد صالح باي من أبرز بايات شرق الجزائر، كان ذا شهرة واسعة بفضل إنجازاته لقد كثرت المدارس في قسنطينة في العهد العثماني خاصة في عهده، فقد نهض بالتعليم واعتنى بالمؤسسات العلمية، إن من بين أهم المدارس التي شيدها المدرسة الكتانية⁽¹⁾ سنة 1775م، وتسمى بالصالحية نسبة له وهي ملاصقة لمسجد سيدي الكتاني الذي دفن به، وهي مدرسة عليا تقدم دروسا في المستوى العالي أيضا، كان لها نظام داخلي دقيق يضبطها أوقات التدريس والتغيبات وشروط الإقامة، ولقد أشاد بها فايسات "E. Vayssettes"، حيث قارنها بمدارس فرنسا العليا، وقال أنها لا تقل عنها أهمية⁽²⁾، خصصت لمختلف العلوم الدينية والدينيوية⁽³⁾، وقد تم الحفاظ عليها وتجديدها وإعادة واجهتها⁽⁴⁾، كما شيد مدرسة أخرى ملحقة بالجامع الأخضر سنة 1789م.⁽⁵⁾

أما في المناطق النائية، فقام صالح باي ببناء الزوايا لتحفيظ القرآن الكريم، كان يهدف من وراء بنائها إلى نشر التعليم على نطاق واسع بين الناس ليتمكنوا من أمور دينهم، ولإعداد رجال يتولون مسائل الإفتاء، القضاء، الإمامة، التدريس وكل ما يتعلق بالشؤون الدينية.⁽⁶⁾

(1) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص ص: 575-576.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون الجزائريون...، المرجع السابق، ص: 41.

(3) - خيرة بن بلة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 2007-2008م، ص: 129.

(4) - Ernest Mercier: *Constantine avant le Conquête Française 1837 notice sur cette Ville à L'époque du dernier Bey*, Vol: 19, Typographie L. ARNOLET AD. BRARAM, Constantine, 1879, p : 36.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط 2، 2012م، ص: 255.

(6) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص: 578.

ب-الاهتمام بالوقف الثقافي:

كان صالح باي من المبادرين الأوائل في وقف بعض ممتلكاته، منها ما وقفها على المدرسة والمسجد اللذان بناهما، مما دفع بأعيان المدينة إلى الاقتداء به، كما بذل مجهودات كبيرة لتنظيم الأوقاف وحمايتها، بتعيينه لعمال يسجلون أملاك المساجد والمؤسسات الخيرية، بحيث تكون تحت إشرافه ومراقبته، والتي أمر بتدوينها في سجل كبير. (1)

كانت مؤسسة الأوقاف قبل توليه شؤون قسنطينة تعاني الاضطراب والفوضى والإهمال، وهو ما أدى إلى ضياع عوائدها وإتلاف أملاكها(2)، لذلك أمر أن تضبط الأمور في الحال، فوضع لذلك سجلات يشرف عليها القضاة والمفتون، وحثهم على أن يبحثوا عن الأوقاف سواء التي أتلفت أو التي مازالت في حالة سيئة. (3)

تواصلت عملية الوقف طوال عشرة سنوات، تزيد في ثروة المدرسة والجامع اللذان بناهما من جهة، وتوسيع أحباسه من جهة أخرى، كما قام بشراء شارع الذميين وحبسه على جامع في أواخر سنة 1775م(4)، كما بنى زاوية عظيمة داخله، وجعل عليها أوقافا، وأقام بربحتها سبالة لشرب الماء وجعلها وقفا، وشيد مكتبا ملاصقا لها يقرأ به الصبيان القرآن مجانا، كما حبس كتبها وضعها داخلها. (5)

4-الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية:

نوهت الكتابات التاريخية بالالتزام العثمانيين بأحكام الشريعة الإسلامية، فقد نقل لنا محمد بن يوسف الزباني صاحب "دليل الحيران"، الحديث الذي دار بين ابن الشريف وشيخه الذي يثبت شدة إيمان الأتراك والتزامهم بالعبادة، حيث يذكر الزباني أنه لما قدم شيخه تزاحمت الناس للقاءه، وفرحوا بذلك حتى يتم الاستيلاء على مدينة وهران، ولما نزل قال لهم:

(1) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص: 579.

(2) - ناصر الدين سعيديوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص: 256.

(3) - محمد الأمين شرويك: المرجع السابق، ص: 579.

(4) - المرجع نفسه، ص: 579-580.

(5) - ناصر الدين سعيديوني: الشرق الجزائري...، المرجع السابق، ص: 52.

«عليكم بالفيسان وغيرها لتخريب وهران غدا، ولما بات سمع الأذان واعتكاف الناس على العبادة في المدينة، ورأى جيوش ابن الشريف فيها فساد كثير، قال له سيدي عبد القادر بن الشريف: إنك قلت لي: إن الترك ومن تبعهم نصارى لا يصومون ولا يصلون وليس لهم من الدعائم الشرعية شيئا وسألت مني الإذن في جهادهم فأذنت لك وإني لما رأيتهم وجدتهم أشد إيمانا وعبادة مني ومنك وأتباعك، وإن أتباعك هم المفسدون في الأرض فلا شك أن الجهاد فيك وفي قومك جائز لا في أهل وهران، ولا شك أن الدائرة عليك لا لك وإني أرى القتال في هذا اليوم وهو الفراق بيني وبينك وإني بريء مما أنت مرتكبه».(1)

اتسمت الجزائر أثناء العهد العثماني بالطابع الإسلامي، فقد سادت روح التسامح الذي دعا إليه الإسلام، حيث منحت الحرية لفئة اليهود في إقامة مدارسهم الخاصة التي يتعلمون فيها العبرية وتعاليم التوراة، كما كانت حرة في التقاضي لدى قضاتها الخاصين حسب قوانينها، ورغم قلة المسيحيين إلا أنهم كانوا يحوزون كنائس يمارسون بها عباداتهم.(2)

أشادت الكتابات الأوروبية بالتسامح الديني وحرية المسيحيين في ممارسة شعائرهم التعبدية في الجزائر أثناء هذا العهد، منهم ديبغو دو هايدو، حيث يقول في ذلك: «...وكذلك تجدر الإشارة أنه في إقامات الباشا حيث يجمع العبيد المسيحيون... يوجد بوسط الساحة خزان ماء وبأحد جوانبها الكنيسة التي تردد التراتيل طوال السنة، وبالأخص أثناء الأعياد التي لا يتغيب عنها رجال الدين الأسرى، وهم عادة أكثر من 40 من مختلف الجنسيات، ومن بينهم يوجد الأطباء والمعلمون الدينيون».(3)

أشار "لوجي دو تاسي" إلى التسامح الديني الذي لاحظته، وذلك بقوله: «توجد حرية الديانة لكل الأجانب، توجد كنائس وأباء (رجال دين) بل كل الديانات تحظى بالحماية»،

(1) - محمد بن يوسف الزباني: المصدر السابق، ص: 278.

(2) - مبارك بن محمد الهلالي الميلي: المرجع السابق، ص: 318.

(3) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 158.

معبرا عن مدى الاحترام الذي يلقاه المتدين بقوله: «وبقدر ما يشتهر عندهم الإنسان بالمتدين إلا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمنونه».(1)

يشيد بن رقية التلمساني في كتابه "الزهرة النائرة" بخير الدين ولجؤه إلى العلماء والفقهاء، ليطلب منهم فتاوى شرعية تخص شؤوننا عديدة، كفداء الأسرى... وغيرها من الفتاوى التي عمل على تطبيقها، مما يدل على التزامه بأحكام الشريعة الإسلامية. كما يشير إلى تدينه، وذلك بقوله: «...صلى الصبح وفرغ من قراءته وأوراده...».(2)

تناولت العديد من الكتابات التاريخية سيرة الداوي محمد عثمان «كان محمد عثمان من ذوي العدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما لأحكام الشريعة»(3)، كما عرف عن الباي محمد الكبير تشبعه بتعاليم الإسلام وأحكامه، وهو ما أشار إليه ابن زرفة في قوله: «فأنت ترى وقوف هذا السيد الأمير... مع السنة في كل أفعاله وجريانه على منهج الصحابة الكرام في أقواله...»، وما يدل على ذلك هو التزامه بالشورى، حيث كان يشاور العلماء إذا استعصى عليه أمر، وفي ذلك يقول: «وهذه سنة سيدنا الأمير ما نزلت معضلة إلا جمع عليها العلماء من أهل بلده والصلحاء فحصلت له بركة الديوان المذكور ويسر الله تعالى له جميع الأمور»، كذلك احترامه لأهل الذمة (اليهود والنصارى) في إيالته، حيث كانوا يعيشون فلا يمسه بمكروه أو سوء، بل يعاقب كل من يتعرض لهم ما داموا يدفعون الجزية، وبذلك تميز بعفوه وصفحه عن المذنبين التائبين، كعفوه عن الطلبة المرابطين حول وهران إذا صدر منهم إثم، كما كان من المدافعين عن الدين الإسلامي، حيث يعاقب كلا من أساء إليه قولاً أو فعلاً، فقد حدثنا ابن زرفة عن أحد الأشخاص المسمى بـ"الطبال" الذي اتهم الرسول ﷺ بالقمار، فقام الباي محمد الكبير بحبسه وتقييده.(4)

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 159.

(2) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 104-105.

(3) - نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص: 116.

(4) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه...، المرجع السابق، ص: 106-109.

هناك من أشار إلى أن الحاج أحمد باي قسنطينة، كان في عهده يحكم طبقا لما أقرته أحكام العقيدة الإسلامية وفق القرآن والسنة⁽¹⁾، حتى أن سيرته عرفت استحسانا بين أفراد أسرته. لقد كان يربى أزواجه عند مرضهن إلى جانب أمه، فكان يجمعهن كل أسبوع في جلسة لينظر في حوائجهن، وذلك تطبيقا للمسؤولية التي نص عليها القرآن والسنة النبوية تجاه الزوجات، وهي العدل بينهن واحترامهن والوقوف عند الحدود التي أمر بها الله تعالى.⁽²⁾ يورد ابن المفتي في تقييداته أن حسين خوجة أثناء توجهه إلى القبائل التي تقطن قرب زاوية وبعد أن سمعت بمقدمه أرسلت له مجموعة من رجالها، فقاموا بحمله على الأكتاف إلى زاوية، ما يعبر عن احترامهم له، وفي ذلك يقول ابن المفتي: «وإن محبتهم له راجعة إلى أنه لا يجب القتل ويوقر الشرع».⁽³⁾

يشير أحمد الشريف الزهار في مذكراته أن علي باشا أمر بإبطال الزنا والخمور، ومن وجد زانيا أو مخمورا، فيرسل به إلى القاضي لتطبيق الحد الشرعي عليه، كما دعا الناس إلى الصلاة مع الجماعة ونادى مناديه، بأن من يبقى بديكانه بعد الأذان فلا يلومنّ إلا نفسه.⁽⁴⁾

5- العدل وحفظ الأمن:

نوهت العديد من الكتابات التاريخية المحلية في الجزائر العثمانية، إلى التزام الحكام العثمانيين بالعدل، الذي يعد في نظر الفقهاء شرطا من شروط السياسة الشرعية، ولا يقصد به العدالة الاجتماعية، إنما يعني التوسط والاقتصاد في التصوف، وإظهار التوازن بين مصالح الخاصة والعامة، ذلك أن العدل يضمن تماسك الجماعة ووحدة الأمة، وهو ما يؤكد بن سحنون حين يربط بين محبة الناس ومحبة الله قائلا: «إن العدل هو الحكم بمقتضى

(1) - بوضرساية بوعزة: الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم (1826-1848م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: جمال قنان، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 1990-1991م، ص: 63.

(2) - بوضرساية بوعزة: الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري رجل دولة ومقاوم (1830-1848م)، دار الحكمة، الجزائر، ط2، 2012م، ص: 73.

(3) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 105.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 136.

الشريعة لا لهوى نفسي، ومن العدل تنشأ محبة الناس، ومحبة الناس دالة على محبة الله تعالى». (1)

يتخذ العدل مفهوما أخلاقيا، ذاك أن الإمام العادل في نظر العلماء هو الإمام الذي يتحلى بمكارم الأخلاق، بإظهار الرحمة والشفقة في شؤون العامة والخاصة، وهذه الخصال رآها المؤرخون في شخص الباي محمد الكبير، والتي نوه بها كل من بن زرفة وأبو راس، لأنهما يريان فيه نموذج الأمير العادل(2)، وفي ذلك يقول أبو راس: «وكنت مرة قصدت وهران وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال عن لسان المقال...الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان...المتكفل بحفظ النفوس والأموال...الحافل العادل الفاضل الكافل، الكامل الأصيل...الرفيع المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر، القاسط، المؤيد المظفر المقدس المعطر المطهر رحمه الله». (3)

يخبرنا حمدان بن عثمان خوجة أنه بفضل النظام الذي اتبعه الأتراك، تمكنوا من توطيد نفوذهم، حيث أدركوا أن البرابرة لا يمكن لهم أن يخضعوهم بالسيف بل باللين والرأفة والإدارة المستقيمة التي مكنتهم من استمرار حكومتهم لأزيد من ثلاثة قرون، كما يؤكد كذلك أن الحكومة التركية وطدت سلطتها بفضل عدلها وإنصافها(4)، وفي ذلك يقول: «كان قادة الحاميات الشيوخ يقولون لجنودهم: إننا لم نخضع هذا الشعب لحد السيف ولا نمتلك البلاد بالقوة، وإنما أصبحنا سادة بالعدل والإحسان، وفي بلداننا قادة، وإنما حصلنا على مناصبنا

(1) - محمد غانم: التاريخ والمؤرخون خلال القرن الثامن عشر، وحدة البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية

U.R.A.S.C، جامعة وهران، الجزائر، 1988م، ص: 18.

(2) - المرجع نفسه، ص: 18-19.

(3) - أبو راس الناصر: فتح الإله... المصدر السابق، ص: 100.

(4) - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص: 98-100.

في هذا القطر، ولذلك فهو وطننا وواجبنا أن نجتهد للمساهمة في إسعاد السكان، كما لو كنا نعمل من أجل أنفسنا».(1)

إن في هذا القول إشارة إلى التوجيهات التي يقدمها القادة لجنودهم ومدى شعورهم بالمسؤولية التي يحاولون غرسها في نفوس جنودهم، حيث ينبهونهم إلى ضرورة العدل والإحسان في تعاملهم مع السكان، الذي هو أساس وجودهم بأرض الجزائر، وتجنب كل ما يثير حفيظتهم.(2)

كان يرى بأن الوسيلة التي استعان بها الأتراك لجذب العرب والقبائل إلى صفهم، هي العدالة وعدم المحاباة اللتان تعدان رصيذا لجميع الحكومات حتى تحصل على قوة معنوية دائمة، فبهذه الطريقة استطاعوا أن يقهروا هذا البرّ الشاسع من "وجدة" غربا إلى "الكاف" شرقا، كما يشير أنه لإثبات وجود الأعمال الحسنة المتمخضة عن العدل، الإنصاف، الشفقة والرحمة، فإن الأتراك غزو تونس إحدى عشرة مرة طوال وجودهم بالجزائر، في جميعها لم يتتروا أبدا للأسس الحربية، ولم يغتصبوا حقوق العباد، كما أنهم لم ينتهكوا أعراضهم بمعنى أن هذه الحروب لم تكن سوى حرب سلطة ضد سلطة أخرى، مستثيا من هذه الغزوات الغزوة الأخيرة على تونس سنة 1754م، التي تتكر فيها الجزائريون للأسس الحربية وأسأؤوا استعمالها.(3)

لقد كان الطرف المنتصر (الأتراك) يدخل تونس منتشيا بالانتصار ويقوم بخلع الباي وخليفته، ثم يوقع معه عقودا مفيدة بالنسبة للجزائر ومهينة بالنسبة للمغلوبين، غير أن هذا الأمر لم يجعلهم يفكرون في الاستيلاء على تونس أو يجردوا سكانها من ممتلكاتهم وأرزاقهم، ولم يتسببوا في فوضى النظام الاجتماعي هناك، وبعد توقيع العقود بين الطرفين يغادر

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادرة الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 62.

(2) - المرجع نفسه، ص: 62-63.

(3) - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص: 86-87، 129.

الأتراك البلاد، لذا يرى حمدان بن عثمان خوجة أن هذا العمل هو المتخذ بين جميع الشعوب المتمدنة.(1)

يخاطب أحمد بوضربة في مذكراته إلى اللجنة الإفريقية الفرنسيين ويدعوهم إلى العدل الصبر، الوفاء مع سكان الجزائر وأنهم إذا لم يلتزموا بهذه الصفات فلن ينجحوا في الاستيلاء على البلاد، حيث يقول: «وإذا أردتم دفع الحضارة إلى الداخل فليدكم وسيلة واحدة هي: الصبر، الوفاء، الالتزام بالعهود، العدل، الإنصاف والاعتدال، وبالتالي جميع الصفات التي يتحلى بها الإنسان النزيه، وإذا أردتم أن تفعلوا غير ذلك...ولن يكون النجاح حليفكم». (2)

يورد الرحالة الألماني "هابنسترايت" أن قصر الداوي كان يستخدم كقصر للعدالة، حيث يتم عرض القضايا عليه، يصف ذلك بالقول: «وقبل ذلك يتخلى عن سلاحه وكلمة شرع الله أو عدالة الله لها في هذا المقام وزن كبير، بحيث أن كل فرد مهما علا شأنه يحصل على تطبيق حكم العدالة بمجرد النطق بها، والأجانب يتوجب عليهم إظهار الاحترام لقصر الداوي بنزع قبعاتهم عند مرورهم أمامه»(3)، "فالأمير العادل يحقق تلاحم السلطة والشريعة ويجسد تحالف السيف (الرجل العسكري) والقلم (رجل العلم)، فالقوة وحدها لا تكفي في سياسة الجماعة، فهي بحاجة إلى العلم -الشريعة- لتحقيق استقرار السلطة والجماعة معا".(4)

يؤكد ابن ميمون معنى هذا التحالف حين توجه إلى الداوي محمد بكداش قائلاً:

يأيها الملك الذي نرجو به عدلا ينوط بذوي الغنا والفقير
اني نصحتك والنصيحة ديننا فأقبل ولم ينصحك دون خبير.(5)

(1) - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص ص: 87-88.

(2) - محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص ص: 200-201.

(3) - ج.أو. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، تر، تق، تل: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، [د.ت]، ص: 39.

(4) - محمد غانم: المرجع السابق، ص: 19.

(5) - المرجع نفسه، ص: 19.

أشارت الكتابات التاريخية الجزائرية إلى توفر الأمن في الجزائر أثناء العهد العثماني فالمحافظة عليه كانت من الاهتمامات الرئيسة للسلطة العثمانية، باعتباره الهدف الأساس للعديد من الموظفين، المؤسسات والطوائف، ففي مدينة الجزائر كان الحاكم يتولى أحيانا مهام الشرطة، من أمثلة ذلك حادثة الداوي إبراهيم، الذي كان يتجول في الميناء سنة 1710م، حيث شاهد صدفه شخصا متخفيا يحمل فوق ظهره كيسا، وأثناء سيره لاحظ بأنه أخرج منه شيئا وأكله، فطلب من الحراس تفتيش الرجل المشبوه، فوجدوا عنده كيسا من فاكهة البرقوق والخوخ، فسأله الداوي من أين لك هذا؟ فكان جوابه بأنه اشتراه من أحد المراكب الراسية بميناء الجزائر، وبعد التحريات تم اكتشاف سرقة أحد المراكب الشراعية القادمة من مقاطعة لابرونانس الفرنسية، فأمر الداوي بعد ذلك بمعاقبة المجرم وإعدامه جراء فعله، مما يدل على أن الحاكم أو الداوي كان يسهر على الحفاظ على أمن المدينة.⁽¹⁾

أشاد القنصل الأمريكي شالر سنة 1824م، بفعالية نظام الشرطة الذي جعل المدينة تعيش في أمن واطمئنان، حيث تحدث عن أن مدير أو رئيس الشرطة تمتد صلاحياته إلى مراقبة الحمامات وأماكن الدعارة⁽²⁾، وفي ذلك يقول: «لا توجد مدينة أخرى في العالم لم يبد فيها البوليس نشاطا أكبر مما تبديه الشرطة الجزائرية التي لا تكاد تفلت عنها رقابة جريمة، كما أنه لا يوجد بلد يتمتع فيه المواطن وممتلكاته بأمن أكبر»⁽³⁾، أما القنصل الفرنسي فاليير "Vallière" الذي زار مدينة الجزائر سنة 1781م، فقد لاحظ أن المواطن يعيش فيها هدوءا وراحة واطمئنانا، وأنها لم تشهد اضطرابات أو قلاقل «...ولا وجود للصوص إلا نادرا، والجرائم والاعتقالات تكاد تكون منعدمة، ولا يمكن أن تفلت أية جريمة وتثير المدينة مصابيح خافتة قليلة وتغلق الشوارع تقريبا بباب، وهو الشيء الذي وفر الأمن والراحة للمواطن في منزله»⁽⁴⁾.

(1) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 91-92.

(2) - المرجع نفسه، ص: 24.

(3) - وليام شالر: المصدر السابق، ص: 77-78.

(4) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 85.

كان المزوار يقوم بمهام شرطة الأخلاق والمخالفات الاجتماعية بمساعدة أعوانه من الحرس، وعلى رأسهم السركاجي وقائد الفحص، إضافة إلى تكليفه بمراقبة أهل الدعارة وتطبيقه للعقوبات الجسدية على المخالفين والعصاة وتنفيذ عقوبة الإعدام إذا تلقى الأمر من الداي، كما يسهر على أمن شوارع المدينة وحراسة السجون.(1)

هناك من يشير إلى أن الدولة العثمانية في الجزائر، ساهمت في تحقيق الأمن ولو نسبيًا، من خلال تحريرها من الاحتلال الإسباني، كما قضت على تمرد القبائل وأخمدت الحروب الداخلية(2)، وفي هذا الصدد ينقل لنا بن رقية التلمساني حديث خير الدين مع علماء الجزائر وأعيانها، في إشارة منه إلى تحقيق الأمن في البلاد، حيث يقول: «...أمنت بلادكم من العدو بما تركت فيكم من المجاهدين ومن وصل إليكم من أهل الأندلس، وما تركت عندكم من العدة لأنني تركت في بلادكم أكثر من أربعمئة مدفع ولم يكن في بلادكم ولو مدفع واحد».(3)

يحدثنا حمدان خوجة بأن الحكومة التركية في الجزائر اهتمت بتوفير الأمن في الطرقات، حيث كان البايات يولون أهمية كبيرة لأمن السبل، ليتمكن الضعيف من التنقل من مكان إلى آخر دون الحاجة إلى قوة مسلحة، وبتوطيد هذا النظام لدى سكان القسم الداخلي تمكنوا من أن يكتسبوا نفوذًا كبيرًا، وينتصروا على تونس عدة مرات(4) عندما تم تعيين محمد الكبير على الإيالة الغربية، وبمجرد وصوله قام بعدة إصلاحات منها: إصلاح شؤون الرعية تنظيم البلاد، السهر على مصالح العباد، نشر الأمن، إخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي كقبيلة "فليتة"، "عمور"، "الحشم"، "حميان"(5) و"أولاد علي بن طلحة"، وجميع قبائل

(1) - حنفي هلايلي: أوراق... المرجع السابق، ص: 88.

(2) - فاطمة زهرة آيت بلقاسم: "الحكم العثماني في الجزائر وتونس دراسة مقارنة"، مجلة كان التاريخية، س: 10، ع:

37، مؤسسة كان التاريخية، القاهرة، مصر، 2017م، ص: 13.

(3) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 47.

(4) - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص: 128.

(5) - حميان: هم قبيلة عظيمة نسبة لجدهم حميان بن عقبة بن يزيد بن عيسى بن زغبة الهلالي، عرفوا بتعاونهم مع جند الإشبانيين النصارى، عددهم يزيد على الثلاثين دوارًا، ينظر: (عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص ص: 27-28).

"بني راشد" كما أخضع القبائل التي كانت تقوم بأعمال اللصوصية وقطع الطرق على المسافرين، حتى امتلأت خزينته بما دفعوا له من ضرائب وأصبحوا له مطيعين.⁽¹⁾
كتب أحمد القرومي عن الباي محمد بن عثمان أبياتا من الشعر، بعد أن أخضع الأغواط اخترنا بعضها منها:

لقد أنجز الآمال وعد من النصر	كما أبرز الإقبال ما كان في الصدر
وأهدت وفود الفتح عذراء بلدة	مثقلة الأرداف في الحلل الخضـر
أمير له في الناس عدل وسطوة	فاعمله في تلك يرفع بالجر
لقد دوخ الأرض البسيطة طوله	لصاحب مرمى الحق أو صاحب الجور
كأن قرى الأغواط جمع مؤنث	فيعمل فيها الفتح جيشه بالكشر
لذلك ترى الأغواط إن ذكر اسمه	تفقد رأسا هل أبين من النحر. ⁽²⁾

كما يورد أبو راس في نفس الصدد، بعضا من الأبيات:

أم بني الأغواط يبغي منازلهم	من بعدما دوخ الأرباع والعمر
فحاربوا هنيئا ثم انهزموا	والجيش إثرهم كماء منهمر
مهد أرض الصحراء بعساكره	فسوى ذا السيف منهم بمن يختمر. ⁽³⁾

(1) - أحمد بن هطال: المصدر السابق، ص: 17.

(2) - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 159.

(3) - محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار...، ج 2، المصدر السابق، ص: 73.

الفصل الثالث

جدلية علاقة السلطة العثمانية في الجزائر

بالمجتمع

أولاً: تأرجح العلاقة بين الاتفاق والاختلاف.

1-علاقتها بالعلماء والنخب المثقفة.

2-علاقتها بالطرق الصوفية.

3-علاقتها بالقبائل.

ثانياً: علاقة التوتر والقطيعة مع السلطة.

1-التهميش السياسي.

2-الضرائب.

3-الثورات ضد السلطة العثمانية.

ثالثاً: موقف الكتابات التاريخية الجزائرية من سقوط نظام الحكم العثماني في الجزائر سنة

1830م.

1-موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي.

2-أسباب زوال نظام الحكم العثماني في الجزائر من منظور مؤرخي القرن 19م.

3-الحكم العثماني في الجزائر والحكم الفرنسي من منظور الكتابات التاريخية

الجزائرية.

أولاً: تأرجح العلاقة بين الاتفاق والاختلاف

1-1- علاقتها بالعلماء والنخب المثقفة:

1-1-1- أسباب التقارب والتحالف بين الحكام والعلماء:

يشير أبو القاسم سعد الله بأن العلماء في الجزائر خلال العهد العثماني كانوا يمثلون الرأي العام، فرغم ترفعهم الطبقي، إلا أنهم كانوا على علاقة بالناس، سواء في الدروس ومجالس الفتوى أو خطب الجمعة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الناس يتقون في العلماء أكثر مما كانوا يتقون في رجال السياسة والحرب، لذلك كان العثمانيون يقدرونهم ويخشونهم ويتقربون إليهم، ويمنحونهم الهدايا ويلجؤون إليهم في موقف التأييد وغير ذلك، كما أن العلماء بدورهم كانوا في حاجة إلى الباشوات والبايات طمعا في المال⁽¹⁾ أو سعيا للحصول على المناصب للابتعاد عن الفاقة والحاجة⁽²⁾، إضافة إلى أن العلماء أعلنوا ارتباطهم بالسلطة العثمانية، لأنها أعلنت الجهاد وسهرت على حماية البلاد من الاعتداءات الأجنبية، وقامت الفتن، وبالجهاد عاد الأمن إلى البلاد، فهو في نظر بن سحنون: «أصل كل خير وأساس كل نعمة إسلامية، ويتخذ الجهاد أبعاده الأخرى حين تكون "دار الإسلام" في خطر فيتوجب على الدولة حماية الثغور واسترجاع ما استولى عليه الأجنبي»، لذلك انتصر العلماء للأتراك الذين حموا البلاد ودافعوا عن ثغورها.⁽³⁾

لعب التواجد الإسباني على سواحل الجزائر دورا بارزا في تدعيم فكرة التحالف بين العثمانيين والعلماء خاصة، ذلك أن العلاقة بينهما كان يدعمها إلى غاية 1792م الجهاد ضد التواجد الإسباني، حيث أنه وإلى غاية هذا التاريخ لازالت وهران تحت طائلة الاحتلال

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 409.

(2) - محمد بوشنافي: "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني"، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق عبيد بوداود، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد، جامعة معسكر، الجزائر، 2014م، ص: 14.

(3) - محمد غانم: المرجع السابق، ص: 16.

الإسباني، فكان تحريرها بمثابة الورقة الراححة للحكام العثمانيين لكسب الرعية وتأييد العلماء الذين تحالف بعضهم معهم، وقدموا لهم مساعدات وجندوا وراءهم الشعب.⁽¹⁾

لقد كان الحاكم العثماني يرى أنه رجل محارب وسياسي، يسعى للدفاع عن الدين والجهاد في سبيله، فهو لا يريد من العلماء التدخل في حروبه وسياسته، وفي المقابل لا يتدخل في شؤونهم الدينية والقلمية، وبالتالي فالعلاقة بين الطرفين، كانت قائمة على الاحترام المتبادل وباعتراف كل طرف بسيادة الآخر في مجاله. وتأييدا لما كان يقوم به العثمانيون ضد الإسبان، حرض بعض العلماء على قتالهم في وهران، ومن أمثلة ذلك دعوة الشاعر محمد بن أقوجيل للباشا حسين خوجة الشريف إلى قتالهم بوهران.⁽²⁾

يشير محمد بن ميمون أن الباشا محمد بكداش، كان يتقرب من العلماء ويمنحهم الهدايا والعطايا من بينهم "أحمد بن ساسي البوني"⁽³⁾، كما ألهم الفتح الأول لمدينة وهران الكثير من العلماء والمؤرخين، من خلال الكتابات الشعرية والنثرية⁽⁴⁾، من أمثلة ذلك تهنئة شيخ الإسلام مصطفى بن عبد الله البوني الخطيب لمحمد بكداش على الفتح، قائلا:

يا سيدي محمد بكداش نجل الأمد
لقد فتحت وهرانا بالعسكر المؤيد
بالنصر والرعب معا وكل سيف ماجد.⁽⁵⁾

تشير المصادر بأن الكثير من علماء معسكر كانوا مقربين من البايات، حيث عرفوا بمساندتهم ودعمهم للعثمانيين، ما يثبت ذلك توليهم للوظائف الرسمية وخاصة الشرعية منها، إضافة إلى ذلك ما خلفوه من كتابات تمجد الأتراك العثمانيين وتعدد انتصاراتهم وإنجازاتهم، ومن بين العائلات التي كانت لها مكانة لدى بايات المنطقة عائلة المشارف التي تولى

(1) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 90.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج 1، المرجع السابق، ص ص: 409-410.

(3) - المرجع نفسه، ص: 413.

(4) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 31.

(5) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 235، 237.

بعض أفرادها المناصب الشرعية منهم العالم "عبد القادر المشرفي" الذي كان من المقربين لدى السلطة الحاكمة رغم رفضه وزهده في تولي المناصب التي عرضت عليه⁽¹⁾، وفي ذلك يقول أبو راس: «...قليل التردد إلى الأمراء فضلا عن دونهم من القواد والوزراء ... يخضعون له القضاة وسائر الولاة ويهابونه ويرجعون إليه ودأبهم تعويلهم عليه في مهمات الدين وفي مصالح عباد الله المهتدين، وعرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه ولا عرّج عليه وانتفع به خلق كثير...»⁽²⁾.

إن من أبرز الذين أعلنوا ولاءهم للعثمانيين وأصبغوا على وجودهم في الجزائر صبغة شرعية، نجد الحافظ أبو راس الناصر المعسكري⁽³⁾، حيث يرى أن الباي محمد الكبير يعد بطلا من أبطال الجهاد في الإسلام، حتى شبهه بسيف الدولة «لقد كان سيف الدولة محبا للجهاد كثير الغزوات والفتوحات، لقد طالت مواقفه مع الكفرة...»، كما سعى إلى إنهاء الوجود الإسباني بوهران والمرسى الكبير «فكان إذ ذاك أكثر همته مصروفه لحربها والتضييق عليها، وشن الغارات على من يوجد بساحتها نحو اثني عشرة سنة إلى أن حاصرها محاصرة الفتح»⁽⁴⁾. كان ابن سحنون الراشدي أيضا من المقربين من الباي محمد الكبير، وقد أشاد بالعثمانيين الذين ساهموا في تحرير الجزائر من الاحتلال الإسباني⁽⁵⁾، وفي ذلك يمدح الباي محمد بن عثمان قائلا:

ومنجز الوعد بلا مطال
ومدوخ الأقيال والأبطال
وكل صعب مبهم عسير.⁽⁶⁾
فكأك كل معدم أسير

(1) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 16.

(2) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص: 53.

(3) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 17.

(4) - محمد أبي راس: عجائب الأسفار...، ج2، المصدر السابق، ص: 35.

(5) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 17.

(6) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 124.

إن مالا يدع مجالاً للشك، أن هؤلاء العلماء الذين عرفوا بدعمهم للسلطة العثمانية نالوا الحظوة والمكانة المرموقتين لدى الحكام، فقد تولوا الوظائف الشرعية، وأصبحوا محل احترام من قبلهم، من بين هؤلاء أبو راس، الذي تولى وظيفة الإفتاء ثم القضاء والخطابة، كما كان من المقربين من الباي مصطفى، حيث بنى له الباي مكتبة بمعسكر سميت بـ "بيت المذاهب الأربعة"⁽¹⁾.

مثل العلماء المؤيدين للعثمانيين، القوة الأساسية التي اعتمد عليها الباي محمد الكبير 1779-1796م في فتح وهران، حيث منحهم مناصب قيادية جيش الطلبة داخل الرباط⁽²⁾، منهم محمد بن عبد الله الجلاي الذي يعد من أكبر علماء البلاد، والذي اختاره لإدارة مدرسته المحمدية⁽³⁾، وعينه رئيساً للرباط وجعل له مساعدين هما القاضي الطاهر بن حواء وكتابه الخاص محمد مصطفى بن زرفة الدحاوي، وفي ذلك يقول بن سحنون:

ورتب المرابطين في الجبل من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكل مقدم همام وبطل منذ باد الضلال وبطل
مؤمرا لشيخنا الجلاي محمد الأحق بالإجلال⁽⁴⁾.

لعبت فئة العلماء دوراً أساسياً في تاريخ الجزائر العثمانية، حيث اعتبرت ملاذاً هاماً للدايات والبايات من أجل فرض الشرعية على حكمهم، ومن بين الدايات الذين اشتهروا بحبهم للعلماء وتشجيعهم لهم الباي إبراهيم الملياني، فقد شهدت مرحلة حكمه نوعاً من الازدهار الفكري، إضافة إلى الباي محمد الكبير الذي عمل على تشجيع العلماء والفقهاء على التأليف، فقد كان يشتري الكتب ويأمر بنسخها؛ إن نجاحه في استرجاع وهران سنة 1792م، أدى إلى إشادة العديد من القوائد الشعرية المشيدة به وبفتحه⁽⁵⁾، منها ما ألفه أبو

(1) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 18.

(2) - المرجع نفسه، ص: 19.

(3) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 64.

(4) - المصدر نفسه، ص: 65.

(5) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 34.

راس "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران"، وقصيدة "الثغر الجماني" التي قيدها ابن سحنون الراشدي، فقد قام كل منهما بشرح قصيدته بأمر من الباي محمد الكبير، هذا الأخير مدحه ابن زرفة في قصيدته التي سماها "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، كما طلب الباي محمد الكبير من ابن هطال تدوين رحلته رفقة نحو الجنوب الجزائري والتي سماها "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري".⁽¹⁾

مما سبق نستشف مدى العلاقة الحسنة التي جمعت بين فئة العلماء والحكام في الجزائر أثناء العهد العثماني.

حاول العثمانيون تقريب العائلات العلمية المنتفذة في المدن، والتي تولت الوظائف الهامة أيضا، كالإفتاء، القضاء ومشيخة الإسلام، من بينها أسماء العائلات الأندلسية: كعائلة ابن نيكرو، عائلة الكبابطي، عائلة بن ميمون، عائلة بن الأمين، عائلة بن جعدون، أما أسماء العائلات المحلية: فكانت عائلة بن عبد المؤمن، عائلة بن باديس، عائلة المقري، عائلة البوني وعائلة الفكون.⁽²⁾

1-2- أسباب التوتر والقطيعة بين الحكام والعلماء:

إن التحالف بين فئة العلماء والحكام العثمانيين لم يتواصل إلى نهاية الوجود العثماني بالجزائر، إذ طرأت عليه تغيرات جذرية، ذلك أن استعادة مدينة وهران من الإسبان سنة 1792م نزع من العثمانيين ذلك المجد والنفوذ، فكان استرجاعها نقطة تحول بارزة في العلاقات بين السلطة والعلماء⁽³⁾، فكان تحرير وهران الحلقة الأخيرة التي حافظت على تماسك هذه العلاقة واستمرارها إلى غاية نهاية القرن 18م، لأنها كانت العامل الرئيس في تحالف الطرفين. لقد اشتدت معارضة العلماء للسلطة، خاصة في أواخر عهد الدايات بعد استرجاع وهران وتقلص موارد الخزينة البحرية، وتحول أنظار الحكام نحو الموارد الداخلية،

(1) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 34.

(2) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج5، المرجع السابق، ص: 182-183.

(3) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 149، 163.

كل هذه الظروف أدت إلى القطيعة بينهما، حيث تحولت السلطة من أسلوب اللين إلى أسلوب الترهيب.⁽¹⁾

إن من بين الأسباب التي دفعت بالعلماء إلى الانتقال من صف المدافعين والمساندين للحكام إلى صف المحرضين للسكان ضدهم، هي السياسة الضريبية التي انتهجها العثمانيون ابتداء من القرن 18م، بسبب الانخفاض في العائدات البحرية، وهو ما أدى إلى ثورات السكان ضد السلطة جراء هذه السياسة التي أنهكت الأهالي، خاصة بعد تضاول دور العلماء في التوفيق بين متطلبات الحكام المالية وبين السكان المتأثرين بنفوذهم الروحي.⁽²⁾

لقد تعرض العلماء إلى الإهانة، الاغتيال والعزل من مناصبهم، فأصبح العالم في نظر بعض البايات الذين تداولوا على السلطة في نهاية الحكم العثماني بالجزائر، مجرد بهيمة لا مكان له في البناء الاجتماعي، حيث يشير "Boyes" بواقعة مرابط تسالة الذي وضعه الباي محمد الكبير على ظهر حمار وطاف به في أرجاء المنطقة، بهدف التقليل من شأنه أمام الرعية، كما رصدت لنا المصادر التاريخية صورة عن واقع العلاقات التي ربطت السلطة بالنخب، ذلك أن بعض البايات كانوا ينفرون من العلماء، وفي كثير من الأحيان وصل بهم الأمر إلى القيام بالتنكيل بهم ظلما وعدوانا، فقد قام الباي محمد بكداش أثناء توليه السلطة باغتيال بعضا من نخب عائلة قدورة منهم الأخوين بن علال قدورة وأحمد قدورة سنة 1118هـ/1707م، والذي تولى منصب الإفتاء على المذهب المالكي.⁽³⁾

اشتهر العديد من بايات الغرب بالتنكيل بالعلماء ورجال الدين، من أشهرهم الباي حسن آخر بايات وهران الذي نكل بأتباع الدرقاوي وبكل من يشك في ولائه له⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول محمد بن يوسف الزياني صاحب "دليل الحيران" عنه الباي حسن: «...كثر ظلمه

(1) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 141، 163.

(2) - المرجع نفسه، ص: 149-150، 155.

(3) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 162.

(4) - فوزية لزغم: البيوتات والأسر...، المرجع السابق، ص: 452.

وغيظه وغضبه وعبثه بالرعية»⁽¹⁾ فهو من قتل الفقيه محمد بن أحمد الصدمي، ونكل بابن عبد الله بن حواء التيجيني الدرقاوي، وهو من أسر الشرفاء سنة 1239هـ/1823م، واستحدث محاكم التفتيش لمحاربة العلماء بهدف الحد من تدخلهم في الشؤون السياسية⁽²⁾، كما ألقى القبض أيضا على الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر وقام بسجنه بوهران إلى أن تدخل أحد أعيان المخزن ليتم تخفيف عقوبته إلى الإقامة الجبرية بها.⁽³⁾

إن من بين علماء معسكر الذين عرفوا بمعارضتهم للسلطة العثمانية أواخر العهد العثماني أبا حامد المشرفي⁽⁴⁾ الذي اعتبر أن الثورة الدرقاوية مخصصة للسكان من ظلم العثمانيين، وقد عرف بدعمه لهذه الثورة.⁽⁵⁾

يورد العنتري بأن أسرة آل المقراني تمكنت من كسب النفوذ المحلي بمنطقة القبائل، مما جعلها تشكل إمارة مستقلة عن سلطة العثمانيين، وهو ما أدى إلى ملاحقتها والتضييق عليها سنة 1814م، بعد أن اتهمتها بتحريض القبائل ضدها خاصة قبائل الحضنة، حتى أن شاكرباي قام بعد توليه الحكم بقسنطينة باغتيال كل من له صلة بهذه العائلة.⁽⁶⁾

إن صالح باي، وبالرغم من إنجازاته التي قدمها للثقافة والدين وللعلماء، إلا أنه في أواخر عهده تغيرت سيرته وشاع عنه الظلم والعنف، حيث قام بقتل المرابط سيدي محمد الزاوي شنقا، وحسبما تذكره المصادر أن سبب ذلك هو نقمته على العثمانيين وتحريض الناس ضده. إن هذا الإجراء الذي اتبعه الحكام ضد العلماء ازداد، خاصة بعد حدوث

(1) - الأغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 349.

(2) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 163.

(3) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 20.

(4) - أبي حامد العربي المشرفي: هو العربي بن عبد القادر بن علي بن مسعود، لا نعرف تاريخ مولده بالضبط، إلا أنه حسب التقديرات كانت بداية العقد الأول من القرن 19م، ولد بقرية الكرط بضواحي معسكر، ينتمي إلى أسرة مشهورة في غرب الجزائر بنسبها وحسبها، ينظر: (الزهيد علوي: "بعض مواقف علماء الجزائر من أوضاع مغرب القرن 19م - أبو حامد العربي المشرفي نموذجا"، مجلة عصور الجديدة، مج: 09، ع: 1، مختبر تاريخ، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019، ص: 201).

(5) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 21.

(6) - فاطمة الزهراء طوبال: المرجع السابق، ص: 163.

الثورات الدينية التي زعزعت نظام الحكم معبرة بوضوح عن سوء العلاقة بين السلطة والعلماء.⁽¹⁾

لقد انتهجت السلطة العثمانية أساليب أخرى في مواجهتها للعلماء منها العزل من الوظائف، فقد كان الداوي يعزل العلماء من منصبهم تبعاً لرأي أو شكاوي الأهالي، وقد تصدرت الوشاية أسباب العزل، ومن أمثلة ذلك عزل الباوي محمد المقلش للعالم أبو راس الناصري، الذي وشى به خصومه متهمين إياه بالضلوع في حرب درقاوة التي لم يسلم من عواقبها حتى العلماء الموالين للسلطة⁽²⁾، ضف إلى ذلك عملية المصادرة، المضايقة والبطش بهم خاصة وأخر العهد العثماني، حيث يذكر أبو القاسم سعد الله نقلاً عما جاء في الشهب المحرقة للشيخ برناز قوله: أن "الداوي شعبان" كان محباً للمال مهيناً للعلماء، حيث أهان علماء قسنطينة وصادر أملاكهم⁽³⁾، كما حكم الديوان على المفتي الحنفي بالموت ومصادرة أملاكه سنة 1138هـ/1725م.⁽⁴⁾

يورد أبو القاسم سعد الله أن الباشوات كانوا يتبعون مع العلماء أحياناً طريقة التخويف، ومن الذين خضعوا لهذا الترهيب الشيخ المهدي بن صالح، ذلك أن الباشا (وهو تلميذه)، قد حكم عليه بالنفي إلى بلاد غير عربية، وقد بلغت إهانته له أن طلب من كل من قدم له هدية أن يحضر ويطلبها منه، وحسبما ذكره بن المفتي فإنه تعرض للهجوم من قبل الكثير من الناس في السفينة التي كانت ستأخذه إلى منفاه، وأجبر على إعادة معظم ما أخذه من الهدايا، رغم أنه كان عالماً بعلم الحديث بارعاً في تدريسه في الجامع الكبير، حيث كان يحضر حلقاته خلق كثير، الأمر الذي أدى بالباشا إلى الخوف من تجمع الناس حوله.⁽⁵⁾

(1) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 166.

(2) - المرجع نفسه، ص: 169.

(3) - المرجع نفسه، ص: 171.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 418.

(5) - المرجع نفسه، ص: 418.

إن من العلماء الذين تعرضوا للنفى أيضا، بن المفتي الحنفي مسلم بن علي، الذي يعد أول خطيب بالجامع الجديد، حيث نفته السلطات إلى إسطنبول بسبب شعبيته لدى العامة، كما تعرض العديد من العلماء ممن عارضوا السلطة العثمانية إلى السجن⁽¹⁾، وهكذا هاجر عدد من علماء الجزائر إلى المغرب وآخرون إلى بلاد المشرق سخطا على العثمانيين لدوافع متعددة، أهمها عدم الانسجام معهم وعدم فهم رسالتهم في الجزائر في بداية عهدهم مع لجوؤهم إلى عسكرة النظام في الجزائر وإبعاد أهل العلم والدين عن مراكز النفوذ، فقد هاجر عدد من علماء قسنطينة إلى تونس ثم إلى المشرق، بحثا عن الاستقرار في بلاد بعيدة عن سيطرة العثمانيين، وطلبا للهدوء بعد أن كثرت المصادمات في الجزائر وتونس بين العثمانيين والإسبان ومن هؤلاء العلماء: يحيى الشاوي، عيسى الثعالبي، أحمد البوني وعبد الرزاق ابن حمادوش.⁽²⁾

يشير بن سحنون أن الكثير من العلماء هاجروا إلى المغرب الأقصى، منهم العالم الأديب أبو عثمان سعيد بن عبد الله التلمساني، حيث عاش في بلاط الملوك العلويين، والذي نظم قصيدة ذم فيها أترك (تلمسان) متهما إياهم مع العلماء الموالين لهم بتهم شنيعة⁽³⁾، لذلك استقبل الحكام العثمانيون العديد من العلماء -كتعويض عن هجرة علماء الجزائر- من إسطنبول، المغرب، تونس، ليبيا والمشرق، منحوا وظائف التدريس، القضاء، إدارة الأوقاف وشؤون المساجد، منهم سعيد قدورة الذي أتى من تونس، حيث تمكن بعلمه من أن يجد له مكانة كبيرة في العاصمة، ومن علماء المغرب الذين حظوا بالتقدير علي بن عبد الواحد الأنصاري، الذي تخرج على يديه العديد من العلماء بالعاصمة، أما من ليبيا فنجد محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الذي تولى مهنة التدريس بالعاصمة⁽⁴⁾، في حين وقف

(1) - رشيدة شدرى معمر: المرجع السابق، ص: 173-174.

(2) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج5، المرجع السابق، ص: 183.

(3) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 58-59.

(4) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ج5، المرجع السابق، ص: 184.

صنف آخر منهم من السلطة موقف الحياد، كابن حمادوش الذي كان يسترزق من ممارسة التجارة، والعالم المقاييسي، الذي امتهن حرفة صناعة الأساور.⁽¹⁾

2-علاقتها بالطرق الصوفية:

تميزت في مرحلتها الأولى بالتعاون والانسجام طيلة الفترة التي سبقت التحرير الكامل للمواقع التي كانت محتلة، خاصة من طرف الإسبان، أما في المرحلة الثانية فقد تميزت باتساع الهوة بين الحكام والمتصوفة، بعد استكمال الجزائر لوحدها الترابية، بتخلصها من الاحتلال الإسباني نهائياً، مع توقف حركة الجهاد والرباط وتقلص النشاط البحري، تزامن كل ذلك مع سنوات القحط التي أضرت بالزراعة، مما أدى إلى انعكاس ذلك على تلك العلاقة التي أصبحت متوترة.⁽²⁾

امتازت علاقة الطرق الصوفية بالسلطة العثمانية بعدم الاستقرار، وبالتالي يمكن رصد ثلاثة مواقف لدى رجالها تجاه العثمانيين، فالموقف الأول أيد الوجود العثماني وخدمه منذ بداية عهده⁽³⁾، حيث استفاد العثمانيون منه في توسيع علاقاتهم في المنطقة، متخذين رجال الدين والمتصوفة حلفاء لهم⁽⁴⁾، فقد كانوا يطمنون إليهم، وكانت الثقة متبادلة بين الطرفين، فعلى سبيل المثال يذكر أحد رياس البحر ويدعى "بيري ريس" العثماني أنه نزل في بجاية رفقة عمه، ومن ثمة لجأ إلى زاوية الولي الصالح محمد التواتي، وطلب منه المساعدة، فوافق الشيخ على مساعدته للبقاء فيها، كما تشير الروايات بأن عروج تحالف مع أحمد بن يوسف الملياني⁽⁵⁾، أحد أقطاب الطريقة الشاذلية المقربة من الزيانيين من أجل بسط

(1) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر... المرجع السابق، ص: 15.

(2) - محمد شاطو: السلطة العثمانية... المرجع السابق ص: 159.

(3) - أحمد مريوش: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في

الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الأبيار، الجزائر، 2007م، ص: 121.

(4) - Charles Féraud: *Op.cit*, p: 198.

(5) - أحمد بن يوسف الملياني: هو من قلعة بني راشد قرب تلمسان ومن خريجي مدرسة تلمسان الفكرية أواخر القرن التاسع، كان له زاوية يستقبل في أتباعه، وقد توفي سنة 931هـ/1524م ودفن بمليانة حيث ضريحه، انتشرت طريقة=

نفوذه في القطاع الغربي، كما تذكر المصادر أن خير الدين باشا تعاون كثيرا مع الطريقة الشاذلية.⁽¹⁾

إن ما يظهر روح العطاء، ما قام به المرابط سيدي بلاحة الذي دعم الجيش العثماني بـ 300 جندي في صراعه مع الإسبان في وهران، وقد كلفه هذا الموقف القتل على أيديهم سنة 1696م⁽²⁾، لقد أدرك الإخوة بربروس أن المرابطين هم القادرون على التأثير على العامة لما تميزوا به من ثقافة، تقوى وبركات ونسل شريف، فقد التف حولهم الناس من كل جهات الجزائر، مستغلين هذا الأمر لصالحهم وبدأوا يتقربون منهم ويعتمدون عليهم في مد نفوذهم، ومواجهة كل من يقف في وجههم، خاصة بعدما أعطوا لسياستهم بالجزائر صبغة دينية لم تتجاهل دور هذه القوى المحلية، بعد أن عملوا على الرفع من مكانة وشأن المرابطين باحترامهم واستشارتهم والأخذ بأرائهم.⁽³⁾

لقد عرف أصحاب الموقف الثاني بمعارضتهم للعثمانيين، من أمثلة ذلك ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني، الذي عارض القائد عروج عند دخوله مدينة تلمسان، حيث نظر لسياسته بأنها عدوان على التلمسانيين لابد من التصدي لها ومحاربتها.⁽⁴⁾

كانت السلطة العثمانية تلجأ إلى استعمال القوة بسبب شح الموارد، مما أدى إلى ثورة زعماء الطرق الصوفية، نظرا لانشغالها بأزماتها الداخلية والخارجية بعد تقريبها المعهود إليهم عن طريق الهدايا، الزيارات، طلب صالح الدعوات وإعفائهم من الضرائب من جهة، وعلى التكاليف الضريبية التي أرهقت كاهل الأهالي بما فيهم المريدين والأتباع والمحبين لهم من

=الملياني الشاذلية في الجزائر والمغرب الأقصى، ينظر: (أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 496).

(1) - أحمد مريوش: المرجع السابق، ص: 121.

(2) - مصطفى بن واز، عبد الحفيظ حيمي: "علاقة الطرق الصوفية في الجزائر بالسلطة العثمانية بين المساندة والمعارضة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج: 15، ع: 1، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019م، ص: 80.

(3) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 22-24.

(4) - أحمد مريوش: المرجع السابق، ص: 121.

جهة ثانية⁽¹⁾، لا سيما بعد أن تضاعف دور رجال الدين في التوفيق بين متطلبات الجهاز التركي الحاكم وبين مجموعة السكان المتأثرين بنفوذهم الروحي.⁽²⁾

إن تردي العلاقة بين السلطة التركية الحاكمة وبين المتصوفة، ساهمت بشكل كبير في التشنج واتساع الهوة مع باقي شرائح المجتمع الجزائري الأخرى، لما للمتصوفة من أتباع مريدين ومتعاطفين معهم داخل المجتمع، حتى صار الجميع يسأل الله أن يزيل عنهم ظلم الأتراك.⁽³⁾

لقد نظم لكحل بن خلوف الذي يعد من المنتسبين للصوفية قصيدة من الشعر الملحون، أشار فيها إلى المعاناة الشديدة من الحكم التركي:

ربي تحير طه عفوه يا جواد انزع على الإسلام همومها تبراً
اذهب عليهم الترك جارت المعتاد بالخير بالتخييل صدرا.⁽⁴⁾

أما أصحاب الموقف الثالث فقد عرفوا بموقفهم المعتدل الذي يسدي النصائح والتوجيهات للسلطة العثمانية من دون الوصول إلى الاصطدام معها، مثال ذلك علاقة الشيخ العبدلي بإقليم تلمسان مع القائد العثماني محمد بن سوري في مقره حيث كان يقدم له النصائح ويعظه لخدمة أهل البلاد والعباد، كما أنشأ باي قسنطينة حسن بوحنك زاوية للمرابط الشيخ الشليحي في منطقة أولاد عبد النور وأعفاه من دفع الضرائب.⁽⁵⁾

يشير أبو القاسم سعد الله، أن الاعتقاد في رجال الطرق الصوفية خصوصاً المرابطين كان قويا لدى العثمانيين، ذلك أن البحارة منهم كانوا يذهبون قبل خروجهم للغزو إلى الأولياء والصالحين لنيل بركاتهم، كما كانوا يطلقون من البحر عند ذهابهم وإيابهم طلقات مدفعية

(1) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 165.

(2) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 26.

(3) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 169.

(4) - المرجع نفسه، ص: 165.

(5) - أحمد مريوش: المرجع السابق، ص: 130.

احتراما لهم، بل وصل بهم الحال إلى أنه إذا هرب من أيديهم أحد الجناة إلى قبة أو ضريح ولي فإن اللاحقين به يتوقفون عند ذلك ولا يتابعونه.⁽¹⁾

كان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى الوسائل، كبناء المشاهد والزوايا والوقف عليها⁽²⁾، وهذا ما ذكره بن سحنون الراشدي بأن الباي محمد الكبير قام ببناء مشهدين الأول للولي الصالح "محمد بن عودة"⁽³⁾، وفي ذلك يقول: «وبنى مشهد الولي الصالح الذي اشتهرت ولايته في البلاد، حتى أتته الزوار من كل واد ذي الكرامات المتصلة... السيد محمد بن عودة... بناء عجيبا زيد به الضريح بهاء وقادر له الزوار قهرا»، أما الثاني فلأحمد بن يوسف الملياني، كما جدد مسجد وضريح أبي مدين بالعباد بتلمسان.⁽⁴⁾

إن من بين مظاهر توسل الباي محمد الكبير بأولياء الله الصالحين في جهاده ضد الإسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير، ما ورد في الثغر الجماني أنه أقام صدقة على شيخ وهران محمد الهواري، ثم أمر بجمع رايات أولياء الله الصالحين المشهورين بتقواهم وجهادهم، مثل السيد عبد الرحمن الثعالبي، السيد أبي مدين والسيد عبد القادر الجيلاني ليحضر بها للقتال وتكون محفزا للمجاهدين⁽⁵⁾، لأنه أدرك مدى هيمنة التصوف على المجتمع عامة، ومدى تأثير الطريقتين الصوفيتين القادرية والشاذلية على مستوى بايليك الغرب، واللذين تعدان حليفة للحكم العثماني، حيث نجح في احتواء قاعدتهما الشعبية من

(1) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص ص: 468-469.

(2) - المرجع نفسه، ص: 469.

(3) - محمد بن عودة: ولد محمد بن عودة في سنة 972هـ/1564م، توفي عام 1034هـ/1624م، يذكر السيد ابن علي أن السيد محمد بن عودة بن يحيى بن راشد بن فرقان بن الحسين أمه اسمها بدرية ولا نعرف نسبها، أما نسبه إلى عودة بنت محمد بن علي مجاجة -وهي امرأة عالمة متصوفة-، درس وأخذ عن السيد عبد الرحيم بمعسكر، ثم واصل دراسته عند السيد محمد بن علي بن العطاف بالشلف، ولما توفي هذا الشيخ حلت محله ابنته عودة، فتولى التدريس السيد محمد الذي تخرج على يدها، كان هذا الولي الصالح عابدا متضرعا لله، له مخابأ تحت الأرض جعله مكانا يختبئ فيه عن الناس لعبادة الله، امتاز ببسالته فكان مجاهدا ضد الغزو الإسباني الذي هزمهم بالمرسى الكبير، ينظر: (بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير...، المرجع السابق، ص ص: 395-396).

(4) - المرجع نفسه، ص ص: 395-396، 398.

(5) - المرجع نفسه، ص: 400.

خلال اهتمامه بشيوخهما⁽¹⁾، وقد سار على دربه بايات قسنطينة، حيث كانوا يعفون عددا من الزوايا والأضرحة من دفع الضرائب، منها زاوية عبد الرحمن الأخضرى في بنطوس بضواحي بسكرة، كما عرف عن العثمانيين أنهم كانوا يتقربون من المرابطين بإعطائهم الهدايا والعطايا.⁽²⁾

3-علاقتها بالقبائل:

3-1-مع قبائل المخزن:

يصنف السكان في علاقاتهم بالحكام إلى أصناف، صنف خاضع مستغل من طرف الدولة وحلفائها (البايلك)، وصنف آخر ظل مستقلا أو ممتنعا ومنعزلا في أراضي الجنوب والمناطق الجبلية، أما الأخير فمتعاون ومتحالف مع الأتراك، علما أن قبائل المخزن تنتمي إلى هذا الصنف الأخير من السكان.⁽³⁾

يعرف ناصر الدين سعيدوني قبائل المخزن على أنها: «عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متميزة في أصولها، مختلفة في أعراقها، فمنها من أقرها الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم، ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية»⁽⁴⁾، أما من حيث التركيبة السكانية للجزائر، فهي لا تتواجد بالمدن أي أنها لا تصنف اجتماعيا ضمن فئة سكان الحضر، بل تمثل جزءا من سكان الأرياف الذين يمثلون الغالبية العظمى لسكان الجزائر العثمانية، حيث تفوق نسبتهم 95% من مجموع السكان.⁽⁵⁾

(1) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير... المرجع السابق، ص: 401.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 470.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص: 217.

(4) - المرجع نفسه، ص ص: 213-214.

(5) - محمد السعيد عقيب، عمر المقدم: "قبائل المخزن ودورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان (إيالة الجزائر)"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 9، ع: 2، جامعة الوادي، الجزائر، 2018م، ص: 106.

إن أهم منطقة تركزت فيها قبائل المخزن هي السهول الوهرانية، التي كانت مهددة من طرف الإسبان والمتعاونين معهم من بني عامر، ضف إلى ذلك أنها كانت عرضة للأخطار من جراء انتفاضة درقاوة وتدخلات المغاربة، أما باقي الأراضي فكان تواجد قبائل المخزن بها يقتصر في الغالب على الأغراض الاقتصادية، العسكرية والاستراتيجية، فنجد مثلا مخزن بوحطوان عند مضيق وادي جر، مخزن أولاد الصحاري عند قنطرة الشلف غرب مليانة ومخزن عمراوة بجوار برج ساباو... (1).

يذكر المزارى صاحب "طلوع سعد السعود"، أن مخزن وهران كان ينقسم إلى قسمين هما: المخزن الشرقي والمخزن الغربي، فالشرقي هو نجع المكاحلية وأولاد سيدي عربي وصبيح وأولاد العباس وغيرهم من أهل النواحي الشرقية من واد مينا إلى واد الشلف، أما الغربي فهو نجع الدواير، الزمالة، الغرابة والبرجية⁽²⁾، كما أن تواجدها لم يقتصر على منطقة دون أخرى في الجزائر، بل كان تواجدها في مناطق البيلاكات الثلاث وضواحي العاصمة، مما مكن الأتراك من السيطرة على أغلب أرجاء الإيالة⁽³⁾، فقد كان انتشار هذه القبائل في البلاد وفق مسارين متوازيين من الشرق إلى الغرب، الأول يمتد مع سفوح الجبال النلية، أما الثاني فيمتد مع حدود الصحراء، وهو ما يجعل دواخل البلاد بين الحدين يخضع للرقابة المباشرة من طرف القبائل المخزنية⁽⁴⁾.

لعبت هذه القبائل دورا فعالا في إدارة الإيالة، ذلك أنها أصبحت من أهم الوسائل التي تعتمد عليها السلطة في عملية جباية الضرائب، فرجال المخزن أصبحوا يشكلون جزءا هاما في المحلة، التي كانت توجه سنويا لجباية الضرائب، فقد عدت بمثابة شرطة محلية تقف في وجه الحركات المعادية، حيث تعمل على احترام الرعية لها، تراقب الأماكن الاستراتيجية تدعم الحاميات العسكرية بالجنود خاصة ببايلك الغرب والذي مثل قاعدة عسكرية قوية في

(1) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 247-248.

(2) - الأغا بن عودة المزارى: المصدر السابق، ص: 30.

(3) - محمد السعيد عقيب، عمر لمقدم: المرجع السابق، ص: 106.

(4) - المرجع نفسه، ص: 107.

مواجهة الإسبان، وبذلك يمكن القول أنها ساهمت في ترسيخ أسس الحكم العثماني في إيالة الجزائر عامة وبايلك الغرب خاصة، إذ أنها مثلت حلقة الوصل بين الحكام والأهالي، كما كانت رابطة متينة شددت المحكوم إلى الحاكم، نظرا لمهامها الإدارية والعسكرية المنوطة بها. (1)

إن من المهام العسكرية التي تكفلت بها، هي المشاركة في المحلات الفصلية لاستخلاص الضرائب، إيقاع العقاب بالمتنعين والمعادين لسلطة البايك، حراسة الأبراج، الحصون، الممرات الصعبة، أماكن العبور، المسالك الرئيسية الواصلة بين مراكز الباييكات، تجنيدها لإبعاد الخطر عن مطامر البايك، والمحافظة على سلامة نقاط التقاء المحلات الفصلية عند توجهها لجمع الضرائب. (2)

في مقابل هذه الخدمات، كانت قبائل المخزن تحظى ببعض الامتيازات، حيث تستفيد من بعض الحقوق دون بقية سكان الأرياف، منها التمتع بالأمان والحماية من سلطات البايك، الإعفاء من المطالب المخزنية والضرائب الإضافية كاللزمة، الغرامة، الحكور والمعونة، مع اكتفائها بتقديم بعض المساهمات العينية الخفيفة مقابل تلقيها المنح والتجهيزات من الدولة مجانا كالسلاح، المؤونة، وسائل النقل وغير ذلك. (3)

لقد أحدثت علاقة السلطة العثمانية بسكان الريف تأثيرا واضحا عليه، حيث مر بثلاث مراحل متميزة:

المرحلة الأولى: كانت مع إحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1517م، والتي استمرت طيلة القرن السادس عشر، وفي هذه المرحلة اعتمد الحكام الأتراك على فرق الأوجاق ومن انضم إليها من المتطوعين، غير أنهم لم ينتفعوا بخدمات القبائل الحليفة، ذلك

(1) - كاميلية دغموش: قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: محمد دادة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2013-2014، ص: 104.

(2) - ناصر الدين سعيديوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 247.

(3) - المرجع نفسه، ص: 248.

أن موظفي الجهاز الحاكم في الجزائر (البايلك) لم يحاولوا استغلال هذه القوة المحلية، وهو ما أدى طيلة القرن السادس عشر إلى اقتصار نفوذهم على تعيين قواد أتراك على الأراضي الخاضعة لهم، وبالتالي لم يعد لقبائل المخزن دور في الجوانب الإدارية والعسكرية للبلاد.⁽¹⁾

المرحلة الثانية: تميزت بتأثير الأتراك في الأرياف، بحيث شملت القرن السابع عشر بأكمله، اتبع فيه حكام الجزائر من الباشوات 1587-1709م سياسة فرض الضرائب على الريف، مما تسبب في استنزاف موارده الاقتصادية، بسبب رغبتهم في الحصول على الأموال للتمتع بحياة الرفاهية بعد تنحيتهم من مهامهم، بعد أن حددت مدة حكم كل واحد منهم بثلاث سنوات، وقد اتخذت الحملات العسكرية الموجهة ضد البوادي لفرض الضرائب الباهضة شكل حملات فصلية تنطلق مع كل فصل ربيع وخريف من مراكز البايلك، تتقدمها فرق الإنكشارية التي يلحق بها فرسان المخزن، وقد اعتبرت قبائل المخزن في هذه الفترة بمثابة العمود الفقري لهذه الحملات، وكننتيجة لكفاءتها ازداد الاعتماد عليها أكثر.⁽²⁾

المرحلة الثالثة: امتدت من بداية القرن 18م إلى غاية نهاية الوجود العثماني سنة 1830م، حيث زاد الاعتماد عليها، بسبب فعاليتها في إحكام سيطرة الإدارة العثمانية على الأرياف، حتى أصبح نفوذ وقوة الإدارة في الأرياف يقاس بمدى ارتباطها بقبائل المخزن. إن زيادة الاعتماد على هذه القبائل في هذه المرحلة الأخيرة مرده تدهور الأوضاع في الجزائر بسبب الاعتداءات الخارجية، ونقص موارد الجهاد البحري، لذلك ركزت السلطة العثمانية على المداخل في المناطق الريفية الداخلية، صاحب كل ذلك حل الإنكشارية، في مقابل ارتفاع نسبة الكراغلة ورجال المخزن فيها، خاصة مخزن منطقة الزاوة.⁽³⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص ص: 214-215.

(2) - المرجع نفسه، ص ص: 215-216.

(3) - محمد السعيد عقيب، عمر لمقدم: المرجع السابق، ص: 110.

تمكنت السلطة العثمانية من إحكام قبضتها على قبائل المخزن، بعد أن جعلت منها أداة فاعلة في إخضاع جزء كبير من سكان الأرياف الذين كانوا يشكلون ما يعرف بقبائل الرعية.⁽¹⁾

3-2- مع قبائل الرعية:

تمثل غالبية سكان الريف الذين يقومون بممارسة الزراعة، حيث يقومون إما بخدمة أراضي الدولة كأجراء أو خماسين، أو باستغلال الأراضي الخاصة بهم، ونظرا لخضوع قبائل الرعية للسلطة العثمانية، أصبحت مطالبة بتقديم أنواع عديدة من الجبايات مع تقديم خدمات إلزامية (التويضة) للسلطة وأعيانها⁽²⁾، إضافة إلى خضوعها لأوامر موظفي الأوجاق وأعوانه من أهل المخزن⁽³⁾، كانت تقيم بالدواوير، المداشر والقرى المنتشرة في الجهات التي تراقبها قبائل المخزن، والتي كانت تعبرها فرق الحامية التركية في طريقها لجمع الضرائب أو الالتحاق بمراكز الحاميات.⁽⁴⁾

عانت هذه القبائل من ظروف معيشية صعبة، ميزتها حالة الفقر والبؤس، وفي ظل هذه الظروف كانت ملزمة بأداء مهامها الاجتماعية منها: دفع الضريبة العقارية على الأراضي التي تستعملها أو تستغلها، والتي تشكل المكون الرئيس للمداخيل التي توفرها الأوطان عينا أو نقدا (العشور، الزكاة، اللزمة والمعونة)، تموين مدن الجزائر وموظفي الأوجاق بالمنتجات الزراعية والمواد الغذائية، والمشاركة في الفرق المسلحة.⁽⁵⁾

تعرضت قبائل الرعية للاضطهاد والاستغلال المستمر من طرف رجال البايك وفرسان المخزن، حيث استخلصت منها الضرائب الفاحشة، وأرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة ومنع عنها الاتصال بالقبائل الممتنعة والمعادية للباييك، كما حظر

(1) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 170.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص: 62-63.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية...، المرجع السابق، ص: 420.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 249.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية...، المرجع السابق، ص: 420-421.

عنها شراء البنادق، وحتى لا تقلت من قبضة رجال البايك، وضعت على رأس القبائل الكبيرة منها قيادة من الأتراك، الكراغلة وشيوخ من العائلات المتعاملة مع البايات⁽¹⁾، رغم الأساليب التي لجأ إليها الحكام لضمان ولائها لهم، إلى أن بعضها ثار ضدهم، خاصة مع ازدياد حركة التمرد في أواخر عهدهم في الجزائر، وكان هذا نتيجة اشتداد وطأة الحكام عليها.⁽²⁾

يمكن القول بأن قبائل الرعية تعد أضعف حلقة في المجتمع الريفي، فهي بمثابة الممون والممول الرئيس للسلطة العثمانية وأعانها.⁽³⁾

3-3- مع القبائل المستقلة:

تتألف في أغلبها من القبائل التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة، أو التي كانت تجوب جهات الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي وتخوم الصحراء⁽⁴⁾، أطلق عليها المؤرخون تسمية القبائل الممتعة، بمعنى التي عصت الحكم العثماني، ورفضت دفع اللزمة السنوية⁽⁵⁾، وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي وتضاريسها المعقدة، وبعدها عن مركز الإدارة، ورفضها هذا راجع إلى طبيعة نشاطها الاقتصادي، إذ تعتبر أراضيها من أفقر الأراضي بسبب ضعف مردودها الزراعي، لذا كان نشاطها مقصورا على قليل من الزراعة، تربية المواشي والتجارة، وبالتالي فإن اقتصادها لا يلبي في غالب الأحيان احتياجاتها اليومية⁽⁶⁾، ونظرا لهذه الاعتبارات، اتبعت السلطة العثمانية سياسة خاصة إزاءها عاملة على تحويل عدد منها إلى قبائل مخزنية أو إجبارها على الأقل على دفع ضريبة

(1) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 249.

(2) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 189.

(3) - المرجع نفسه، ص: 189.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 252.

(5) - بلبروات بن عتو: المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني، ج:2، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2016م، ص: 558.

(6) - كاميلية دغموش: المرجع السابق، ص: 118.

رمزية، تعبيراً عن ولائها وتبعيتها لها⁽¹⁾، لذا كان السكان المنعزلون لا تجلبهم سوى احتياجاتهم الأساسية إلى المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني التام.⁽²⁾ إن ابتعاد هذه المجموعات السكانية عن نفوذ الحكام، وعدم اعترافها بسلطتهم، دفعت حكومة الداى إلى محاولة الحد من استقلالهم وإرغامهم على مهادنة السلطة الحاكمة باتباع عدة طرق نذكر منها:

تنصيب الحاميات واستقرار عشائر المخزن في الأماكن التي تتحكم في أقاليم تواجد هذه المجموعات السكانية المستقلة⁽³⁾، ونتيجة لأهمية هذه القبائل بالنسبة للبايلك، عمد إلى إخضاعها عن طريق منع التعامل الاقتصادي معها خارج الأسواق الرسمية الموسمية والأسبوعية التي أنشأت بالقرب من مواطنها، بهدف إجبارها على قبول قرارات السلطة، والتي كان يشرف عليها قياد أتراك يستعينون بحاميات عسكرية يدعمها فرسان المخزن، وحين تقصد القبائل الجبلية أو الصحراوية الأسواق المذكورة تدفع رسماً يساوي عشر ثمن البضاعة المحمولة إلى السوق وإلا منعت من البيع، وحتى من اقتناء ما كانت بحاجة إليه⁽⁴⁾، كما لجأت إلى استعمال القوة لتدمير المداشر الحصينة، وإتلاف الأمتعة والأقوات، حتى تضطر القبيلة المتمردة إلى الخضوع بسبب وطأة الظروف الاقتصادية.⁽⁵⁾

لقد وصلت حالة التوتر في العلاقات بين القبائل الممتعة والسلطة العثمانية ذروتها في أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م، وذلك بسبب قلة الموارد البحرية⁽⁶⁾، كما اعتبر الوجود الإسباني في المنطقة من بين العوامل الأساسية التي صعبت من مهمة السلطة

(1) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 190.

(2) - *Baron Henri Aucapitaine: Les Confins Militaires de la grand Kabylie sous la domination Turque (Province D'Alger), Libraire Imprimeur, Paris, 1857, P: 35.*

(3) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 253-252.

(4) - كاميلية دغموش: المرجع السابق، ص: 119.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 254.

(6) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 191.

العثمانية في بايلك الغرب، وبالتالي عدم تمكنها من إخضاع بعض القبائل لطاعتها، حيث كان هذا التواجد بمثابة دعم حقيقي لتلك القبائل من أجل الاحتفاظ باستقلالها⁽¹⁾، لذا سارع الإسبان إلى كسب النفوذ في البلاد وبسط هيمنتهم في الداخل، وسرعان ما أدركت القبائل العربية سلطة هؤلاء السادة الجدد، حيث تعاونت معهم وزودتهم بوحدة قتالية في مختلف الحملات الموجهة ضد مدينة وهران⁽²⁾.

يشير المشرفي صاحب "بهجة الناظر" إلى هذه الفرق الضالة كما سماها وهي: كرشتل، شافع⁽³⁾، حميان، غمرة⁽⁴⁾، قيزة، أولاد عبد الله، أولاد علي⁽⁵⁾ والونازرة⁽⁶⁾، الذين دخلوا في حزب الإسبان الكفرة، وصاروا من رعيتهم وأدوا لهم الجباية، وكانوا ينقلون لهم أخبار المسلمين، بل وصل بهم الحال إلى انتهاك حرمة الإسلام واقتحام دور المسلمين وانتهاك حريمهم⁽⁷⁾.

لقد أطلق المشرفي على القبائل التي انحازت للإسبان وتعاونت معهم اسم "العرب المتمررة" والمتعلقة بالنصارى، من بينها كرشتل وهم المغاطسين أو المغطسون، وفي ذلك يقول: «وكان الإسبانيون لا ينقطعون عنهم في البحر لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم

(1) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 204.

(2) - A. Gorguos: «Notice sur le bey D'Oran...», *Op.cit*, p: 28.

(3) - شافع: من جند الإسبانيين الذين بوهران من الأعراب وهم بطن من بطون بني عامر التي بالمغرب، ينظر: (عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 14).

(4) - غمرة: هم من البربر نسبة لجدهم غمرة البربري، أصل مسكنهم برقة ثم انتقلوا للمغرب فجالوا فيه إلى أن سكنوا بالحفرة وراء وهران مع حميان، وقد نصرروا الإسبانيين على المسلمين حتى كانوا لهم عضدا في كل شيء، ينظر: (نفسه، ص: 28).

(5) - أولاد علي القبيل: هم فرقة من بني عامر نسبة لجدهم علي بن عامر يناهزون السبعين دوارا، ولهم إذعان عظيم للإسبانيين ومحبة لليهود، ينظر: (نفسه، ص: 30-31).

(6) - الونازرة: هم بطن من أولاد عبد الله يقال لهم الونازرة نسبة لجدهم "ونزار" بن عبد الله بن سقير بن عامر الزغبي، وهم فرقة ذات بأس شديد وحقد فيها نحو السنة داوير عظام، وأصل مسكنهم بوادي سنان بنواحي تيموشنت، ينظر: (نفسه، ص: 33).

(7) - عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 35-36.

وكان من الكرشتليين بعض الأعين للنواحي الشرقية والقبلية...»⁽¹⁾، فقد كانوا يقومون بعملية التغطيس عن طريق أخذ دوابهم للمداشر في هيئة حضر متجولين يبيعون العطرية إذا ما سمعوا خيرا نقلوه للنصارى، وإذا أتحت لهم الفرصة يأخذوا أي شخص سواء كان كبيرا أو صغيرا ويضعوا عليه الجلود لكي لا يستطيع الحديث، ثم يحملونه على دوابهم ليلا باتجاه وهران ويقومون ببيعه للإسبان حتى ينتفعوا بثمنه.⁽²⁾

لقد اشتد عودهم بعد تحالف بعضهم مع الإسبان، فحين أرادوا إقامة قلعة مرجاجو صعب عليهم نقل الماء «فكان أول من أتاهم بقرب الماء لأجل إقامتها شيخ حميان وقبيلته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، وهو ما أدى ببعض الناس إلى هجائه بالقول:

لا تكب الماء من قرية

لمن يقول أنا حمياني

ادفع الكلب مع ربيبة

وقول قلبه مازال نصراني.⁽³⁾

إن من جملة رعايا الإسبان بوهران من الأعراب، والذين يذكرهم المشرفي "أولاد عبد الله التالي"⁽⁴⁾، وهم فرقة من بني عامر، كانوا من أشد المتعاونين معهم، فقد عرفوا بحبهم وفرحهم باليهود، وفي ذلك يحدثنا بأن شخصا من الثقات ينتمي إلى قبيلة كرشتل بأن العامري رآه يقبل يد اليهودي وحتى النصراني تشريفا لهما، بل ووصل بهم الحال إلى مصاهرة اليهود والإسبان، وقد اتصفوا "أولاد عبد الله" بنفاقهم، ولا توجد لهم أية غيرة على الإسلام، كما عرفوا بعبادة الأوثان والأصنام⁽⁵⁾، ومن أشد المتعاونين مع الإسبان أيضا "أولاد

(1) - عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص ص: 13-14.

(2) - المصدر نفسه، ص: 14.

(3) - كمال بن صحراوي: "أثر الاحتلال الإسباني على ريف بايلك الغرب الجزائري"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج: 2، ع: 2، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م، ص: 121.

(4) أولاد عبد الله التالي: هم فرقة من بني عامر نسبة لجددهم عبد الله بن سقير بن عامر، كان مسكنهم بوادي الثلاثاء من ملاتة ولهم عدد كبير يبلغون الستين دوارا، كانوا من أشد المتعاونين مع الإسبانين، ينظر: (عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص ص: 29-30).

(5) - عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 30.

علي"، وفي ذلك يقول المشرفي: «أولاد علي أخزاهم الله ولعنهم وأخلى منهم الأرض وصيرهم حطباً لجهنم وبئس المصير...»، فقد كانوا يخدمونهم طمعا في المال.⁽¹⁾

لقد تصدى المجتمع والسلطة العثمانية لهذه القبائل جراء موقفها المتخاذل هذا، حيث انبرى لهم العلماء بفضحهم وإظهار موقف الشرع منهم، من أهمهم عبد القادر المشرفي في تأليفه "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبنو عامر.⁽²⁾

تعد فترة حكم الباي محمد بن عثمان 1779-1796م من أهم الفترات التي فرضت فيها السلطة العثمانية وجودها في بايلك الغرب، إذ قام هذا الأخير بإخضاع قبائل فليطة، الأحرار، حميان، سويد، عمور وجبل راشد مرغما إياها على دفع الضرائب المقررة عليها⁽³⁾، وفي ذلك يقول ابن سحنون الراشدي: «وقد كان الحشم المعروفون لا يؤتى من عندهم بالجاني ولا ينالهم من المخزن أكبر ضر حتى كثر فسادهم وقطعهم الطريق وتراهم على الطاعة... وتقاعد الأمراء عن غزوهم... حتى ولي هذا البازي (الصقر) الذي لا تفوته قبيصة ولا تصعب عليه عويصة فذلوا واستكانوا وصاروا من أحقر الرعية».⁽⁴⁾

اشتهر أمر الباي في إخضاع القبائل المتمردة، لذلك أصبح الباشا يكلفه برده المتمردين حتى من هم في غير ولايته⁽⁵⁾، لكن هناك من يرى بأن الإدارة العثمانية لم تتمكن من إخضاع قبائل بايلك الغرب بصفة نهائية، فحتى بعد تحويلها إلى قبائل مخزنية عن طريق القوة، إلا أنها سرعان ما تعود إلى وضعها الأصلي بمجرد شعورها بضعف الإدارة، الأمر الذي يدفع بالبلايك إلى استعمال القوة ضدها لإجبارها على دفع الضرائب، وقد استمرت هذه الظاهرة طوال العهد العثماني.⁽⁶⁾

(1) - عبد القادر المشرفي: المصدر السابق، ص: 35.

(2) - كمال بن صحراوي: المرجع السابق، ص: 121-122.

(3) - كاميلية دغموش: المرجع السابق، ص: 120.

(4) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 74.

(5) - المصدر نفسه، ص: 75.

(6) - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص: 205.

ثانيا: علاقة التوتر والقطيعة مع السلطة

1- التهميش السياسي:

لعل أهم سمة ميزت الوجود العثماني بالجزائر، هي هيمنة الأتراك شبه المطلقة على أمور الإدارة، الجيش والاقتصاد، أما غالبية السكان فكان حظهم التهميش من الممارسة السياسية وتولي المناصب العليا عكس بعض الأقليات، ما عدا من ارتدوا عن المسيحية أو اليهود، الذين حظيت بعض العناصر منهم بامتيازات وتأثير بالغين في بعض الأنشطة الاقتصادية أو الارتقاء في أعلى المناصب والرتب في هرم السلطة، وحتى داخل المؤسسة العسكرية، وقد يفسر هذا برغبة الأتراك في إبقاء هيمنتهم وسيطرتهم على المناصب الحكومية.(1)

يشير أبو القاسم سعد الله بأن الجزائريين دخلوا في الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية والولاء للسلطان، وبأن يطبق الحكام العثمانيون تعاليم الإسلام في الحكم وأن يؤاخوا بينهم وبين السكان وأن يشاوروهم في الأمر، وأن يختلطوا بهم ولكنهم في الواقع أساؤوا التصرف، فمعظم الحكام حكموا كفاءة متميزة محتكرين الحكم طيلة فترة وجودهم بالجزائر مستبدين بالسلطة مستذلين السكان مستعلين عليهم، بحيث عاملوهم معاملة المنتصر للمهزوم، كما نصبوا أنفسهم أوصياء على شعب يفوقهم عددا وحضارة وشجاعة، لذلك رأى سعد الله أنه إذا كانت للوجود العثماني مبررات دولية في القرن العاشر الهجري، فإن هذا الوجود لم تبق له مبررات في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، ولا سيما بعد تراجع المدى الإسباني والبرتغالي.(2)

يرجع تهميش الأتراك للعنصر الجزائري عن تولي شؤون الحكم ودوائر القرار، إما لعدم الثقة فيه أو لنزعة إقصائية استعلائية متأصلة في العنصر التركي: "تكاد القيادات السياسية بين الجزائريين أن تكون منعدمة في العهد العثماني، وإذا كان هناك نوع من

(1) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص ص: 9-10.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج 1، المرجع السابق، ص ص: 15، 140-141.

القيادة للرأي العام فإنها كانت منحصرة في المجال الديني: العلماء والمرابطون، وفي المجال الاقتصادي: الأغنياء أو كبار التجار وملوك الأرض، وكان هذا الوضع هو الموجود ساعة احتلال الجزائر⁽¹⁾، وبالتالي عاش النظام في الجزائر منعزلاً ومتقوقعا على نفسه بعيداً كل البعد عن هموم الناس ومشاكلهم⁽²⁾، فرغم طول المدة التي لبثها الأتراك في الجزائر، إلا أنهم لم يندمجوا مع الطبقة الشعبية، معتبرين أنفسهم دائماً أنهم هم الأسياد بل إن كل المناصب العليا كانت مقصورة عليهم، أما بقية أفراد الشعب فهم الأذلاء، مما أدى إلى خلق طبقتين مختلفتين تماماً: طبقة الحاكمين الأتراك وطبقة المحكومين الجزائريين.⁽³⁾

لقد ولدت عملية تهميش العنصر المحلي قطيعة بينه وبين الحكام الأتراك العثمانيين تجلت في العديد من الثورات ذات الطابع السياسي⁽⁴⁾، كما تخوفوا من تكاثر الكراغلة الذين أصبحوا مع نهاية القرن السادس عشر يقدرون بنصف عددهم، خاصة عندما بدأوا يتطلعون إلى نيل الامتيازات والمشاركة في الحكم، وهذا ما أدى إلى احتراز الأتراك منهم وبالتالي الحيلولة دون توليهم الوظائف السامية في الجيش والإدارة⁽⁵⁾، بذلك ظلوا في مرتبة أقل من آبائهم الأتراك، غير أنه ومع بداية القرن الثامن عشر تغير موقفهم اتجاههم، فقد أصبح الاعتماد عليهم ضروري لتولي المناصب الهامة، وفي مقدمتها منصب الباي وكذا المشاركة في المليشيات، إن ما يدل أيضاً على تجذر فكرة التهميش لدى الإدارة الحاكمة هو أن الكراغلة الذين يتم اللجوء إلى خدماتهم العسكرية ضمن فرق الإنكشارية، لا يتم تقييد أسمائهم في نفس السجلات المخصصة للأتراك، ومع هذا فقد تزايد دورهم في أواخر العهد العثماني بشكل ملحوظ، بمشاركتهم في كثير من الأحداث.⁽⁶⁾

(1) - أحمد بن يغرر: المرجع السابق، ص: 85.

(2) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 10.

(3) - علي عبد القادر حليمي: المرجع السابق، ص: 180.

(4) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 10.

(5) ناصر الدين سعديوني: تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص: 228-229.

(6) - حنيفي هلايلي: أوراق...، المرجع السابق، ص: 13-14.

2-الضرائب:

كان لنقلص مداخيل البحرية أثره السلبي على خزينة الدولة بعد توحد الأوروبيين في مواقفهم، لأجل وضع حد لنشاط البحرية الجزائرية التي كانت تزعجهم في الحوض الغربي للمتوسط، وبناء عليه ازدادت المواقف تقاربا بين الأوروبيين، خاصة بعد انعقاد مؤتمر إكس لاشابيل سنة 1818م، ففي 05 سبتمبر 1819م أشعرت الدول الأوروبية الداوي حسين بقرارات هذا المؤتمر الذي أكد على تماسكها وتوحيد قواها لوضع حد لنشاطات الأسطول الجزائري في المنطقة، وأهم ما جاء في الإشعار: "أيها الأمير إن الدول الأوروبية التي اجتمعت في السنة الماضية في إكس لاشابيل قد أوكلت لفرنسا وبريطانيا العظمى أمر تقديم تحذيرات جادة وخطيرة باسمها جميعا للإيالات البربرية حول ضرورة وضع حد للنهب والاعتداءات التي تقوم بها السفن المسلحة التابعة لهاته الإيالات...فهاته الدول مصممة وعازمة بصفة نهائية على وضع حد لنظام القرصنة...ويجب أن تتمعن جيدا في ذلك قبل فوات الأوان...". (1)

لقد تزامنت هذه التكتلات الأوروبية والقرارات ضد نشاط البحرية الجزائرية مع سنوات القحط والجفاف التي كانت تمر بها البلاد، مما زاد في تأزم الوضع الاقتصادي والاجتماعي معا، بعد أن شحت المداخيل بشكل كبير، الأمر الذي أدى إلى عجز في الخزينة، ولم تجد السلطة الحاكمة مخرجا من هذا سوى اللجوء إلى زيادة الضرائب على السكان والاجتهاد في جبايتها بكل الوسائل⁽²⁾، حيث كان بايات كل من وهران، قسنطينة والمدية يدينشون كل ثلاث سنوات، أما خلفاءهم فيدينشون مرتين كل سنة⁽³⁾، فقد أشار الزهار إلى أن محلة الغرب تخرج

(1) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 161-162.

(2) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 125.

(3) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 110.

في أفريل وتقيم أربعة شهور، ومحلة التيطري تخرج في الصيف وتقيم ثلاثة شهور، ومحلة الشرق تخرج في اليوم الأول من الصيف وتقيم ستة شهور، أما قائد سباو فلا محلة له.⁽¹⁾

يذكر ناصر الدين سعيدوني أن نظام الضرائب بإيالة الجزائر تميز بتعدد مصادره وتأثيره على النشاطات الاقتصادية المنتجة، فلم يفلت من هذا النظام الجبائي أي فرع من فروع الإنتاج فلاحيا كان أم صناعيا أم تجاريا، وقد نتج عن هذا التوسع في جلب الضرائب أن جعل الدولة أداة استهلاك تعيش على موارد البلاد دون أن تسعى لتتميتها أو تطويرها، فكل ما ينتج يذهب إلى دفع رواتب الموظفين والجند أو يوضع في خزائن الدولة من أجل التفكير في تطوير وسائل الإنتاج التي عرفت آنذاك نموا ملحوظا بالبلاد الأوروبية.⁽²⁾

يصف سعيدوني نظام ضرائب الإيالة بالنظرة الواقعية، كونه يأخذ بعين الاعتبار واقع البلاد ونفسية الأهالي، فقد ساهمت هذه النظرة في نمو المصالح المتبادلة بين البايليك والفلاحين، حيث أصبح حق العمل في المزارع واستغلال الأرض له صفة الملكية الخاصة بقوة القانون، كما يشير إلى أن أهم مظاهر النظرة الواقعية لنظام الضرائب تمثلت في تقرب الحكام من المرابطين من أجل استخدام نفوذهم الروحي في الأوساط الشعبية عند استخلاص الضرائب، يضاف إلى ذلك أن كل منطقة كانت تخصص لها ضريبة تتلاءم وطبيعة تضاريسها الجغرافية وأحوالها المناخية، وتبعاً لذلك فهو يرى أن الضرائب بالجزائر أخف وطأة من الضرائب التي يفرضها البايات الحسينيون وحكامهم على الإيالة التونسية، لأنها تتماشى مع ظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية.⁽³⁾

إن الحكام العثمانيين الذين تولوا السلطة أواخر العهد العثماني، بدوا مخالفين لمن سبقهم من الحكام، ذلك أن الدايات كانوا يطلبون من الداخل وبقوة ما كان الأوائل من

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 35-36.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص: 110.

(3) - المرجع نفسه، ص ص: 110-111.

البيلبريات، الباشوات، الآغوات والدايات الأوائل يحصلون عليه من الخارج بواسطة نشاط البحرية أساسا بأسطولها القوي في الحوض الغربي للمتوسط.⁽¹⁾

يشير الزهار في ذات السياق إلى أن عملية استخلاص الضرائب في الجزائر كانت تتم وفق المنهج الشرعي، خاصة مع الحكام الأوائل عكس الأواخر، الذين كانوا يخرجون المحلات لاستخلاص الغرامات ونهب أموال المسلمين، وهو ما أدى إلى تحول الناس إلى فجار والحكام إلى ظالمين.⁽²⁾

لقد كان الجباة يقومون بجمع الضرائب مقابل مبالغ مالية تدفع لهم مسبقا، وهو ما انعكس سلبا على النظام المالي، لأن هؤلاء كانوا يسعون لتعويض الأموال التي اشتروا بها مناصبهم، مع حرصهم للحصول على الأموال للاحتفاظ بوظائفهم وتأمين مستقبلهم إذا ما تعرضوا للعزل أو التبريم من قبل السلطة الحاكمة، وهو ما أدى إلى إنهاك موارد السكان البسيطة، حيث أثقلت هذه الضرائب كاهل الفلاح وثبتت همته في العمل والإنتاج بسبب هذه الإجراءات المالية الجائرة، مما جعله يتخلى عن ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة بدون استغلال.⁽³⁾

أدى تعسف بعض الحكام العثمانيين في جمع الضرائب من الأهالي بواسطة عمالهم ومنهم الباي حسن إلى عتاب أصدقائه جراء إرهاب الرعية بما لا تطيق، وهو ما جعله يجيب بقوله: «إن أهل الجزائر قد أكلوني بالكلية ولذلك تراني أكلت الرعية»، يذكر صاحب "دليل الحيران": «ثم صار مهما مات أحد وهو ذو مال ونفوس إلا صير نفسه واحدا من ورثته فيأخذ حصة معهم على عدد الرؤوس».⁽⁴⁾

ذكر "سيمون بفايفر" أن الباي كان يمارس كل أنواع التعسف في إقليمه عندما يحين موعد الدنوش، حيث يرغم رعاياه على دفع الضرائب، وقد يصل به الحال إلى قتلهم ونهب

(1) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 162.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 35.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص: 113-114.

(4) - محمد بن يوسف الزباني: المصدر السابق، ص: 20.

أموالهم حتى تزيد ثروته، كما كان يرغم القبائل عند عودته من تقديم الدنوش على تقديم الهدايا عن طريق قيامه بحملات ضدها، مما يؤدي إلى جمعه لثروة كبيرة، ففي بايلك الشرق كان البايات يقومون باستلاف أموال من الناس في وقت الدنوش مقابل تذاكر تثبت ذلك لكنهم غالبا لا يقومون بردها.⁽¹⁾

لقد أصبحت عملية تحصيل الضرائب من قبل السلطة الحاكمة تتم تحت الضغط والترهيب، مما أدى إلى انتفاضة الجزائريين أكثر من مرة، الأمر الذي دفع بالحكام إلى تجهيز الحملات العسكرية لتأديبهم وإرغامهم على الدفع في حالة إبدائهم لأية مقاومة، وقد كان الهدف من إرسال الحملات العسكرية إلى مختلف مناطق الإيالة هو تأمين أكبر نسبة من الضرائب.⁽²⁾

تمكنت سلطة الدايات من السيطرة السياسية والاقتصادية على البايكات بعد إنهاك السكان بضرائب إضافية، ما نتج عنه تراجع للنشاطات الزراعية، الحرفية والتجارية، وفي حال التمرد على السلطة والمجاهرة بالعداء لها، كانت تمارس سياسة الترهيب التي انتهجت مع القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب، وذلك بإخضاعهم بالقوة، من أمثلة ذلك إخضاع الباي خليل كل العلماء المعادين للسلطة، أما صالح باي فقد نجح في إخضاع الزواوة سنة 1772م، حارب أولاد نايل سنة 1774م والدواودة الذين أحدثوا اضطرابات ببسكرة، كما أخضع محمد مقلش باي وهران القبائل التي ساندت ثورة درقاوة.⁽³⁾

(1) - توفيق دحمانى: الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/1792-1865م) دراسة مقارنة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، السنة الجامعية، 2007-2008م، ص: 480.

(2) - حمدون بن عتو: الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م) من خلال كتب الرحالة والجواسيس ورجال الدين الكتابات الفرنسية والإسبانية نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: حنفي هلايلي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 2016-2017م، ص: 95.

(3) - فاطمة الزهراء طويال: المرجع السابق، ص: 152-154.

إن من بين نتائج هذه الحملات، الخسائر التي تعرضت لها المناطق التي توجهت إليها الحملات، إضافة إلى الركود الاقتصادي الذي خلفته والضغط المالي والنفسي الذي أرهق كاهل السكان، وهو ما أدى إلى زيادة نفور سكان الريف من الحكام واعتبار السلطة الحاكمة جماعة من الغزاة فرضت نظاما جبائيا ثقيلًا بقوة السلاح، حتى يتيسر لها تحصيل أكبر فائدة ممكنة.⁽¹⁾

تشير العديد من الكتابات التاريخية إلى أن السياسة الجبائية التي اتبعتها بعض الحكام أمثال صالح باي ومحمد الكبير، والتي تذكر أنهما لم يكونا متشددين في جباية الضرائب المستحقة من السكان والقبائل الخاضعة التي تريد تسديد ما عليها، وإنما كان يتشددان مع المناطق المتمردة أو العاصية لدفع ما عليها من ضرائب، حيث يورد حمدان خوجة نماذج عديدة تثبت عدم تشدد العثمانيين في جباية الضرائب، فالسكان لم يكونوا يدفعون الضرائب إلا في مقابل قيام السلطة بحفظ الأمن وحمايتهم وإنفاق تلك الضرائب في سد حاجات الفقراء والمساكين وغيرهم.⁽²⁾

كما يشير إلى أنه لم يكن هناك نفي أو سلب أو تقتيل من قبل الأتراك رغم تعسفهم في فرض الضرائب، إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة استبداد الفرنسيين، وفي ذلك يقول: «ولزوم أداء الضرائب هو عمل الظلم الوحيد الذي يمكن لنا أن نعاقب عليه الإدارة التركية، ومع ذلك فلم يكن وقتئذ نفي ولا سلب ولا تقتيل، ومهما استبد الأتراك وعتوا فإنهم لم يبلغوا عتو الحكومة الفرنسية واستبدادها»⁽³⁾، كما يذكر بأن السلطة العثمانية كانت تقوم بتعيين السكان على المشاريع التي يتخذونها وسيلة لإنماء ثروتهم، وتحميهم في طريقهم نحو الغنى، لأنها ترى أنها ستصبح غنية بسبب غناهم.⁽⁴⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص ص: 116، 229.

(2) - توفيق دحماني: المرجع السابق، ص: 478.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص ص: 200-201.

(4) - المصدر نفسه، ص: 91.

يشير "بن هطال" إلى خروج الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري قصد إخضاع سكانه للسلطة التركية، بعد امتناعهم عن دفع الضرائب، وذلك يوم الخميس التاسع من ربيع الأول سنة 1785م رفقة جيشه من مدينة معسكر، حيث مر بالعديد من المناطق مع ذكره للغنائم المتحصل عليها.⁽¹⁾

يظهر لنا من رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب تساهله وعدم تشدده مع المناطق الملزمة بدفع الضرائب، ما يثبت ذلك أنه أثناء سير المحلة واتجاهها إلى "سبعة أدوار" المعروفة بالقعدة، أمر أفراد المحلة بأن لا يتعرضوا للنساء صونا لحرمتهن، كما أمرهم بإطلاق سراح الشيوخ والصبيان وترك الكهول، الشبان والأعيان، حيث أوصلهم إلى المحلة وأقاموا بها تلك الليلة، وفي الصباح أطلق سراحهم طمعا في الثواب من عند الله، وعندما رأى شيخا كبير السن لا يستطيع المشيء أمر خدامه بأن يحملوه، بعد أن منحه مالا وكساه وقدم له فرسا وأرجعه لأهله مكرما.⁽²⁾

في أثناء تواجده بمدينة الدبداب جاء إليه وفد تاجموت وعين ماضي ليجدوه هناك رفقة العلماء والشرفاء من سكانها، حيث طلبوا منه معاملتهم معاملة حسنة واعتبارهم رعية، ووافقوا على دفع ضرائب سنوية ودائمة بشكل عادل ومنتاسب مع موارد هاتين المدينتين، وعندما استقر الأمر على فرض مساهمة خاصة لذلك العام، تم قبول ذلك الشرط من طرف الباي بالكامل، وتم اتخاذ الإجراءات اللازمة من قبلهم على الفور لدفع هذه المساهمة بالمال أو المجوهرات أو الملابس، ثم غادر الباي مدينة الدبداب قاصدا معسكر الحواجب مقابل تاجموت، وفي الحواجب وفد إليه سكان تاجموت لجلب مقدار المساهمة التي التزموا بها، في

(1) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص ص: 36-37، 41.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 47-48.

حين أن أهل عين ماضي انخرطوا في العمل بنفس القدر⁽¹⁾، ولإبداء حسن النوايا أهدى نسائهم سوار فضة لكل واحدة منهن.⁽²⁾

يصف لنا بن هطال فرحتهم بعد إكرامهم من قبل الباي وتخفيف الضرائب عنهم ونشر الأمان بينهم⁽³⁾ بالقول: «**شرح في إعطاء الدراهم والدنانير لوجوه قومه وقواد عسكريه ومقدمي قبائله، فلم يبق منهم أحد إلا أعطاه ولا صاحب خدمة إلا واساه ولا ذو نجدة إلا حاباه، ولما فرغ من العطاء الذي لا يرجع إليه ولا منفعة له سوى الثناء عليه، أخذ يعطي للقبائل على وجه الغرض المرجو ثوابه إن شاء الله يوم الجزاء والعرض، فأعطى لكل قبيلة بقدر حاجتها ولكل طائفة على حساب أهلها، فأوصلهم معروفه جملة وتفصيلا وعمهم فضله حقيرا وجليلا، فأوجب تخليد ذكره بذلك ثناءً جميلاً**».⁽⁴⁾

لقد حلّ شيوخ وعلماء مدينة الأغواط على الباي في مقر إقامته حاملين بين أيديهم صحيح البخاري طالبين منه الأمان لأنفسهم ولسكان مدينتهم، وقد قاموا بعمل الطاعة والخضوع ملتسبين منه قبولهم كرعية، فاشتراط عليهم شروطا مقابل منحهم الأمان، وفي طريق عودتهم أرسل معهم عددا قليلا من جنود المخزن لضمان تحصيل هذه الضرائب، كما هو جار على الرعية فعله، فلما عادوا إلى الأغواط، أدرك الباي أنه قد نسي أن يوقع معهم وثيقة رسمية تثبت التعهد على ما اتفق عليه، لذلك كتب إليهم رسالة مع مبعوثيه، سلمت إلى أحد شيوخهم، وهناك وجد بأن تصرفاتهم قد تغيرت تجاهه، وعندما فتح الأهالي الرسالة وجدوا أنها لا تتوافق مع توقعاتهم، لذلك اتخذوا ذلك ذريعة لخرق الاتفاق الذي تم التوصل إليه ورفضوا تلك الشروط، وهو ما أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين، ولما رأى بني الأغواط أن خسارتهم مؤكدة، بدأوا بالفرار يمينا ويسارا تاركين جميع مواقعهم، وفي نهاية

(1) - A. Gorguos: « *Expédition de Mohammed El KEBIR Bey Mascara dans les contrées du sud* », in *R.A.*, Vol: 03, Alger, 1858, p: 187.

(2) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 73.

(3) - المصدر نفسه، ص ص: 73-74.

(4) - المصدر نفسه، ص ص: 75-76.

المطاف كان النصر حليف الباي وجماعته⁽¹⁾، حيث خضعت له جميع القبائل بضواحي الأغواط بما فيها مزاب معترفة بسلطة الأتراك، ملتزمة بدفع الضرائب السنوية.⁽²⁾ حاول بن هطال امتداح الباي، حيث أجرى مقارنة بينه وبين الحكام الذين سبقوه، فقد رأى أنه رغم قوة سلطانهم، إلا أنهم لم يحققوا ما حققه هذا الباي، وفي ذلك يقول: «لو استبقوا معه في ميدان المجد لما سبقوه بل لو جعلوا كلهم شق عدل ما وزنوه ولا لحقوه».⁽³⁾

بالرغم من تشدد بعض الحكام العثمانيين وتعسفهم في فرض الضرائب على رعاياهم إلا أن هذا لم يمنع تساهل بعض البايات مع الرعية وإحسانهم ومعاملتهم الحسنة لهم، وهو ما جعل مناطق الجنوب التي لم تخضع للسلطة العثمانية في البداية تلتين وتقبل الخضوع لهم فيما بعد، وخير مثال على ذلك الباي محمد الكبير الذي رفق برعيته وذلك لمعاملته اللينة لهم وكثرة عطاياه وكرمه معهم، مما جعلهم يخضون للسلطة الحاكمة.

3- الثورات ضد السلطة العثمانية:

عرفت الجزائر مع نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع عشر عدة ثورات قادها زعماء الطرق الصوفية، كانت وراءها سياسة الحكام العثمانيين وتغير الظروف الدولية نتيجة انقلاب موازين القوى العالمية⁽⁴⁾، ومن بين هذه الثورات ثورة ابن الأحرش في الشمال القسنطيني سنة 1804م، ثورة درقاوة في الغرب الجزائري ما بين سنتي 1805-1816م والثورة التيجانية بعين ماضي سنة 1816م.⁽⁵⁾

(1) - A. Gorguos: *Op.cit*, pp:187- 188, 191-192.

(2) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 18.

(3) - المصدر نفسه، ص: 76.

(4) - إبراهيم عبو: "الثورات المحلية ضد الحكم العثماني في الجزائر ثورة ابن الأحرش أنموذجاً"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، مج:1، ع:1، مختبر الجزائر والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2015م، ص: 296.

(5) - حنيفي هلايلي: أوراق... المرجع السابق، ص: 22.

3-1-1-ثورة بن الأحرش 1804م:

كانت من أخطر الثورات التي عرفها القطر الجزائري طيلة الوجود العثماني لأنها شملت رقعة جغرافية واسعة من بايلك الشرق، دامت ثلاث سنوات متتالية.⁽¹⁾

3-1-1-التعريف بالثائر بن الأحرش:

تنسب هذه الثورة إلى محمد بن عبد الله الشريف الملقب بالبودالي الذي تزعمها في الشمال القسنطيني في عهد الداوي مصطفى باشا 1798-1805م⁽²⁾، يشير صاحب طلوع سعد السعود فيقول عنه: «...رجل من درقاوة يقال له السيد أحمد بن الأحرش، فتى مغربي مالكي مذهبا درقاوي طريقة درعي نسبا...»⁽³⁾، يذكر صاحب تحفة الزائر أن بن الأحرش من عرب المغرب الأقصى⁽⁴⁾، أما سعيديوني فيرى أن نسبته إلى المغرب الأقصى، لا تعني قطعا أنه من تلك البلاد، فقد كان كل غريب يدعي النسب الشريف يدعو إلى طريقة سلفية أو يتزعم حركة ثورية غالبا ما ينسب نفسه إلى الساقية الحمراء أو ناحية السوس، حتى يكسب لنفسه مكانة في أعين العامة ويبعد عن نفسه الانتماء الجهوي.⁽⁵⁾

يحدثنا العنتري أن بن الأحرش كان يدعي بأن دعاءه مستجاب، والنصر دائما حليفه حتى يلتف حوله أنصار لدعوته وفي ذلك يقول: «...وزعم أنه صاحب الوقت وأن دعوته مستجابة، والنصر يتبعه حيثما يتوجه، وبارود عدوه لا يضره ولا يصيب أتباعه، بل يرجع

(1) - محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، المرجع السابق، ص: 166.

(2) - حنفي هلايلي: "الثورات الشعبية في الجزائر أوائل العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج: 21، ع: 1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2006م، ص: 200.

(3) - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص: 299.

(4) - محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، عني به: داود بخاري، رايح قادري، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2015م، ص: 139.

(5) - ناصر الدين سعيديوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ص: 170.

إليهم ماء إلى غير ذلك من الآغوات الكاذبة... فقبائل تلك الناحية كأولاد عيدون وبني مسلم وبني خطاب وغيرهم، كلهم صدقوه ولدعوته أجاپوه...»⁽¹⁾.

3-1-2- أسباب اندلاع الثورة:

- توفر عنصر الزعامة المتمثل في شخصية بن الأحرش، التي تتصف بالمغامرة الطموح والدهاء، فقد أشارت إحدى الروايات أنه طلب من أحد أتباعه مخاطبة القبائل لإقناعهم بضرورة الثورة ضد سلطة البايليك، وأنه هو المنقذ لهم وسينجحون في التخلص من ظلم الحكام، مما جعل بعض الكتابات تصفه بأنه: «صاحب شعوذة وحيل وخبر» يعد ابن الأحرش حسب ناصر الدين سعيدوني: «داعية ثورة بحق ومحرضاً على التمرد ومستنهضاً للقبائل الجبلية شمال قسنطينة على الخروج من حالة الخمول والجمود التي كانت عليها والقضاء على مركب النقص وعقدة التخلف أمام سكان المدن، وتحطيم نفسية الاستسلام للحكم العسكري، الذي اعتاد البايليك استغلالها لإخضاع سكان الأرياف»⁽²⁾.
- نجاحه في الوصول إلى غايته، بعد أن وجد عقلية سكان الأرياف البسيطة تتلاءم مع أساليبه، إضافة إلى نشره لفكرة ثورية تمثلت في الطريقة الدرقاوية المناهضة للعثمانيين، تمكن بواسطتها من استقطاب جموع الفقراء والمحرومين، لذا أعلن سنة 1220هـ/1805م بأن ما يقوم به هو رد فعل «لما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وانتهائهم في ذلك إلى القتل أو الطرد من الوطن»⁽³⁾.

- الظلم الذي كان يمارسه بعض الحكام ومحاولة البايليك مد نفوذه إلى المناطق التي ظلت ممتعة عن سلطته، وانتهاج البايات سياسة مالية مجحفة، بهدف

(1) - صالح العنتري: مجاعات...، المصدر السابق، ص: 29.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص: 185-186.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات...، المرجع السابق، ص: 286.

استخلاص الضرائب ولو بإرسال الحملات (المحلات) ومعاقبة الممتنعين عن أدائها، ومما زاد في نفور سكان الشمال القسنطيني من سلطة البايليك وساعد ابن الأحرش على ثورته معاداة شيوخ الزوايا ومريدي الطرق للحكام بعد محاولاتهم التضيق عليهم وإخضاعهم، وفي بعض الأحيان حرمانهم من الامتيازات وإجبار بعضهم على تلبية المطالب المخزنية.⁽¹⁾

- توفر الظروف الدولية المساعدة على الثورة بسبب التنافس بين الدول الأوروبية وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا في الحصول على مناطق النفوذ في الإيالات العثمانية ومنها الجزائر.⁽²⁾

3-1-3- مجرياتها:

بعد عودته من الحجاز عن طريق القاهرة، صادف أثناء مروره بمصر نزول الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت بالإسكندرية سنة 1798م واستيلائه على القاهرة، حيث شارك في مقاومته، ما جعله يكتسب شهرة كبيرة، وبعد الانسحاب الفرنسي سنة 1801م، عاد بن الأحرش راجعا إلى بلاد المغرب مع جماعة من الحجاج، فنزل بتونس وتعرف على حاكمها حمودة باشا الذي استقبله وأكرمه محاولا استغلال طموحه، حاثا إياه على الثورة ضد الحكم التركي.⁽³⁾

يشير الزهار إلى أن حمود باشا كانت له في خاطره دسياسة على حكام الجزائر، وخوفا منهم لم يرد ليظهر لهم العداة التزاما بوصية أبيه علي باي، فبعد أن استدعاه أبلغه بما يلي: «إن رجلا مثلك شجاع... يجب أن يذهب إلى ملك الترك بالجزائر وينزعه من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك...»، وكانت غايته من ذلك إشغالهم عنه.⁽⁴⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات...، المرجع السابق، ص ص: 286-288.

(2) - المرجع نفسه، ص: 288.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص: 171.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 85.

وجد بن الأحرش الدعم اللازم للشروع في الإعداد للثورة، في الوقت الذي كانت فيه أهداف حاكم تونس ذات علاقة بالأطماع التي كانت تبديها بلاده في الشرق الجزائري آنذاك، إضافة إلى انشغال الحكام في الجزائر وكذا بن الأحرش عن التفكير في القيام بأي عمل عسكري تجاه تونس. دخل بن الأحرش عن طريق عنابة ومنها إلى جيجل، حيث بدأ يخطط لثورته⁽¹⁾، ومما ساعده في كسب تأييد مختلف القبائل لدعوته⁽²⁾، هو استقراره بزواوية سيدي الزيتوني بناحية جيجل، حيث أسس معهدا ببني فرقان لتلقين الصبية القرآن، ثم بدأ يلقي دروسا دينية على زائريه الذين أعجبوا به وبفصاحته، مما زاد عدد الملتفين من حوله.⁽³⁾

إن ادعاءه الشرف أكسبه الهيبة والمكانة، لأنه بهذه الوسيلة أبعد عن نفسه فكرة الانتماء القبلي⁽⁴⁾، وبذلك جمع جيشا من القبائل ينيف على العشرة آلاف رجل وتوجه به إلى قسنطينة حسبما أورده العنتري، معلنا الجهاد ضد سلطة البايلك سنة 1219هـ/1804م، أمرا أتباعه بمهاجمة الحاميات التركية والاستيلاء على مراكزها⁽⁵⁾، حيث هاجم قسنطينة في غياب حاكمها الباي عثمان، الذي كان في محلة بنواحي سطيف⁽⁶⁾ فتصدت له قوات الحاج أحمد بن الأبيض الذي تولى شؤون المدينة في غياب الباي وتمكنت من الدفاع عنها وإبعاد خطر المهاجمين، وبعد عودة الباي عثمان من محلته السنوية قام بالاستعداد لملاحقة بن الأحرش بعد التهديد الذي وصله من داي الجزائر لإعلانه: "رأسك أو رأس بن الأحرش".⁽⁷⁾

(1) - بكار العايش: "الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي"، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، مج:1، ع: 2، مخبر التاريخ والجغرافيا التطبيقية، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، الجزائر، 2008م، ص: 156.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص: 172.

(3) - إبراهيم عبو: المرجع السابق، ص: 301.

(4) - المرجع نفسه، ص: 301.

(5) - كمال لحر: صورة المجتمع الجزائري في (La Revue Africaine) 1856-1962م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، إشراف: ميلود سفاري، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2010-2011م، ص: 503.

(6) - بكار العايش: المرجع السابق، ص: 156.

(7) - إبراهيم عبو: المرجع السابق، ص: 302.

خرج الباي عثمان متوجها إلى ناحية وادي الزهور بنواحي القل سنة 1804م لمواجهة بن الأحرش، حيث يصف لنا الزهار القتال الذي دار بين الجمعان بقوله: «خرج إلى وادي الزهور لقتال ابن الأحرش، فعندما وصل قريبا منه نزل في أرض هنالك بين الجبال وخيمت المحلة وابتدأ القتال مع ابن الأحرش ومن معه من القبائل، فأطلق هؤلاء الماء على تلك الأرض التي بها المحلة، فصارت مثل السبخة حتى ابتلعت أرجل الخيل إلى البوادر، والرجال إلى الركبة ثم حملوا على المحلة وقاتلوا الباي ومن معه، فلم ينج منهم إلا القليل وأخذوا تلك المحلة». (1)

إن هزيمة عثمان باي جاءت بعد أن حوصر في "وادي الزهور" بعد أن أوصلت ساحته، عندما حول بن الأحرش مياه الأمطار نحوه (2) وفيها توفي عثمان باي سنة 1219هـ/1804م، وتم الاستيلاء على أمواله (3)، ولما سمع مصطفى باشا بوفاته، عين عبد الله إسماعيل بايا على قسنطينة (4) 1804-1806م، وكلفه بملاحقة بن الأحرش، حيث تمكن من تبيد جموعه بنواحي ميله، وبعد عشرة أشهر من الجهود الحربية والتنقل الدائم للجيش التركي عبر بايليك الشرق نجح الحاج علي آغا والباي عبد الله في وضع حد نهائي لثورته بعدها التحق بجموع درقاوة بالغرب الجزائري (5)، وفي ذلك يذكر صاحب تحفة الزائر أن بن الأحرش "بقي في معيته إلى أن دس له من قتله من أصحابه". (6)

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 86.

(2) - بكار العايش: المرجع السابق، ص: 156.

(3) - صالح العنتري: مجاعات... المصدر السابق، ص: 33.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 66.

(5) - ناصر الدين سعيديوني: دراسات وأبحاث... المرجع السابق، ص: 180.

(6) - محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص: 140.

بالرغم من الخسائر التي منيت بها السلطة العثمانية جراء هذه الثورة، إلا أنها نجحت في التصدي لها وإجهاضها لأن ذلك كان يهدد أمن الجزائر الداخلي من جهة، والوجود العثماني من جهة أخرى، وهو ما جعل العديد من الكتابات التاريخية المحلية تشيد بها، في حين نظرت إلى زعيمها بنظرة التذمر والانتقاد.⁽¹⁾

3-1-4- أسباب فشلها:

- عدم إيجاد أنصار للطريقة الدرقاوية بالشرق الجزائري، بسبب أن أغلب القبائل كانت تدين بالولاء لشييوخها الذين كانوا يستمدون نفوذهم من رجال البايليك، وأن أغلب سكان الأرياف ببايليك الشرق كانوا ينتمون للطريقة الرحمانية المهادنة للحكام الأتراك والمتعاملة مع سلطات البايليك.
- عدم اغتنام بن الأحرش الفرصة المواتية للقضاء على نفوذ البايليك، سواء عند مهاجمته في بداية الأمر لقسنطينة أو إثر القضاء على المحلة التركية وقتل الباي، وهو ما أتاح الفرصة للحكام الأتراك لجلب الإمدادات من الجزائر.
- انتهاج البايليك سياسة الترغيب والترهيب، والتي ساهمت في إبعاد أغلب القبائل المناصرة له بمنحه للمكافئات والهدايا لأعيان المدن وشيوخ القبائل والزوايا الذين أبدوا معارضتهم له.⁽²⁾

3-1-5- نتائجها:

- ضعف نفوذ البايليك بالأرياف وزيادة انعزال المدن، لما نتج عنها من خسائر مادية وبشرية.

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص: 108-109.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص: 189-191.

- أقنعت سكان الأرياف بإمكانية الثورة على سلطة البايليك ورفض دفع الضرائب وتنفيذ الأحكام الجائرة⁽¹⁾، فهناك من رأى بأنه خلص المجتمع الريفي القسنطيني من عقدة الخوف من الأتراك والتي حاصرته قرابة الثلاثة قرون.⁽²⁾
- تسببت في انتشار حركة تمرد واسعة النطاق في أوساط القبائل الجبلية، شملت الجهات الشرقية والوسطى من البلاد الجزائرية، وتجاوبت معها قبائل أولاد نائل والجنوب التي سارعت إلى الامتناع عن دفع الضرائب ورفع السلاح في وجه الحكام الأتراك، ومن أبرز مظاهر حركة العصيان محاصرة رجال القبائل الثائرة مدينة المدية عاصمة بايليك التيطري والاستيلاء على حصن سور الغزلان مركز الحامية التركية.
- ازدياد شدة التنافس الإنجليزي الفرنسي في الحصول على امتيازات بالإيالة الجزائرية، وبالتالي مناطق النفوذ.⁽³⁾
- حدوث أزمة اقتصادية، بعد أن تسببت ثورة بن الأحرش في ظهور المجاعة، وهو ما أشار إليه العنتري بقوله: «وهاته الواقعة...أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت وتشتيت أهل محلته، فإن أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضا بالتهب والفساد، من أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضا في جهات كثيرة، وانفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول وعز إخراجها...، فحصلت للناس شدة ومجاعة...».⁽⁴⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات...، المرجع السابق، ص: 294.

(2) - جهيدة بوعزيز: الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بابلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني (1791-1837م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: جميلة معاشي، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة-2، الجزائر، السنة الجامعية: 2011-2012م، ص: 90.

(3) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص: 195-196.

(4) - صالح العنتري: مجاعات...، المرجع السابق، ص: 33.

3-2- الثورة الدرقاوية⁽¹⁾ 1805م:

ترجمها الشيخ عبد القادر بن الشريف الكساني من قرية "أولاد بالليل" نواحي فرندة، تعلم بمسقط رأسه ثم التحق بمعهد محي الدين والد الأمير عبد القادر بالقيطنة، بعدها اتجه إلى المغرب، وهناك التحق بمعهد الشيخ العربي بن أحمد البوبر يحيى الدرقاوي بـ: "بني زروال"، ولما تحصل على إجازة من هناك رجع إلى مسقط رأسه فأسس معهدا انتصب فيه للتدريس وتلقين أورد الدرقاوية، حيث عينه أستاذه مقدا لها، وبذلك ازداد عدد أتباعه.⁽²⁾

أعلن سنة 1220هـ/1805م الثورة ضد الأتراك، حيث واجههم بين وادي مينة ووادي العبد الذي يدعى بـ "فرطاسة"، وهناك دار القتال⁽³⁾ بينه وبين الباي مصطفى، نتج عنه انهزام جيش الباي، فقام بن الشريف بالاستيلاء على محلته بما فيها من غنيمة، ورجع الباي مصطفى إلى مدينة معسكر. لقد أشار الزياتي إلى أن سبب هذه الثورة هو أن بن الشريف بعد أن اتجه إلى المغرب عند السيد محمد العربي الدرقاوي، ليأخذ عنه الذكر أخبره قائلا: «يا سيدي إن بوطننا قوم يقال لهم: الترك لا شيء لهم من دعائم الإسلام ويظلمون الناس، ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي لتستريح

(1) - أصول طائفة درقاوة ليست معروفة على وجه التحديد بعضهم يعزو لعلي بن أبي طالب أو مولاي العربي بن أحمد تأسيس هذه الطريقة الدينية وآخرون لمولاي إدريس أو العربي جمال، ويرجع إسترهازي "Esterhazy" أصل تسمية درقاوة إلى ثلاثة احتمالات:

- مدينة مغربية تدعى "درقة" والتي تعود إلى أصول العربي جمال.

- رقعة والتي تعني "الشفون".

- الفعل "درق" ويعني يختفي، إلا أن الاحتمال الأول هو الأقرب للصحة، للمزيد ينظر:

(Adrian Delpech: « *Résumé Historique sur le Soulèvement des DERK'AOUA de La Province D'Oron, D'après La Chronique D'El-Mossellem Ben Mohammed Bach deftar du Bey Hassan de 1800 à 1813 (HÉG 1215à 1228)* », in *R. A*, Vol : 18, Alger, 1874, pp : 38-39).

(2) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 42.

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 50.

منهم العباد وتطهر منهم البلاد، فقال له: عليك بجهادهم وقتالهم وإن الله ينصرك عليهم بكمالهم، فظن أن تلك القولة هي عين النصر وأنه لا محال فخره...»⁽¹⁾

ذكر صاحب در الأعيان بالقول: «ثم إن الدرقاوي لما استولى على المحلة وعزّ جانبه كتب للرعية بالبشائر يقول لهم: قد نزعنا عنكم ظلم الأتراك والذل والمسكنة والمغارم والمكوس، فالواجب عليكم مبايعتنا، فوافقه جمع غفير... فاجتمع عنده ضحى يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول تلك السنة ما لا يحصى عده»، وبذلك كثر أتباعه فاتجه إلى معسكر وجعلها مقرا لسكانه، كما نجح في هزيمة خليفة الباي مصطفى وهو حسن بيلاد أمجاهر.⁽²⁾

إن نشوة الانتصار دفعت به إلى التفكير في مهاجمة الأتراك العثمانيين بوهران، بعد أن دعا قبائل الغرب إلى مساندته فلبوا دعوته، ولعل سبب ذلك يعود إلى دافع التخلص من الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم من قبل الأتراك، بالإضافة إلى تأكيد هذه القبائل من ضعف قوة العثمانيين بعد انهزامهم في معركة فرطاسة، كذلك تخوف البعض منها من إتلاف الدرقاوي لمحاصيلهم الزراعية، لذلك انضموا إليه وساندوا ثورته.⁽³⁾

اتخذ الدرقاوي من مدينة معسكر مقرا له ولأسرته، ثم اتجه رفقة جيوشه نحو وهران قاصد دخولها، فكان كلما مر بأرض إلا وأتلف زرعها ودمر عمرانها عقابا لمن رفض الانضمام إليه⁽⁴⁾، يصف لنا الزياني ذلك بقوله: «ثم خرج ابن الشريف منها بجيوش كالجرذان تملأ الخراب والعمران، قاصدا بها فتح وهران، ولما حل بسيق بأرض الغرابية ذهب بعضهم لجبالها وبعضهم دخل بغيط الجيزة التي هي طريقة، فأوقع بهم إيقاعا عظيما قتلا

(1) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص ص: 272-273.

(2) - المصدر نفسه، ص: 273.

(3) - مختار بونقاب: "انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ،

مج: 3، ع: 1، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر، الجزائر، 2008، ص: 138.

(4) - المرجع نفسه، ص: 138.

وسبباً وأسراً حتى عرف الموضع الذي حلّ به ذلك لأنّ بـ"شعبة النواح"، لكثرة نواح الناس بالبكاء على أنفسهم وأهلهم...»⁽¹⁾.

أثناء محاصرة الجيش الدرقاوي لوهـران، استعد أهلها لقتاله والدفاع عنها رغم قلة عددهم، وفي هذه الأثناء عزل الباي مصطفى وعين مكانه الباي محمد ابن عثمان الملقب بـ"المقلش"، ولما وصل هذا الأخير إلى وهران أراد محاربة الدرقاوي خاصة بعدما شعر أن حركة هذا الأخير لم تكن دينية محضة كما يدل على ذلك ظاهرها، بل كان لها طابع سياسي، ما يثبت ذلك وصول مولاي العربي الدرقاوي شيخ الطريقة الدرقاوية من المغرب الأقصى إلى ابن الشريف بعد طلب وجهته السلطة العثمانية إلى المولى سليمان سلطان المغرب الأقصى بهدف التدخل لإيقاف الثورة.⁽²⁾

يذكر مسلم بن عبد القادر أنه لما وصل الشيخ مولاي العربي الدرقاوي إلى ابن الشريف، شكى إليه هذا الأخير ظلم الأتراك، وفي ذلك يقول: «...فوصل الشيخ إلى ابن الشريف...فشكى إليه عبد القادر بن الشريف ما نزل بالفقراء المنتسبين إليه وبسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وانتهاهم في ذلك إلى القتل والطرده عن الوطن، فتوقف الشيخ وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه، كما يقول صاحب الاستقصاء فازدادت العرب بذلك تظاهراً على الترك وتكالبا عليهم فاتهم الباي السلطان بأنه هو الذي يغريه بمواصلة الحرب، في حين أنه كان يرجو منه الخرق»⁽³⁾ لكن بن سحنون أشار إلى عكس ذلك، حيث أخبرنا بأن ملك المغرب مولاي سليمان أرسل شيخ الطريقة الدرقاوية رفقة أقاربه إلى تلمسان والتقى بتلميذه، غير أنهم لم ينجحوا في إقناع الثائرين.⁽⁴⁾

(1) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص ص: 274-275.

(2) - مختار بونقاب: المرجع السابق، ص ص: 138-139.

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 51.

(4) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 47.

يذكر مسلم بن عبد القادر أن بن الشريف واصل حروبه ضد الأتراك، فقد تعددت المعارك بين الطرفين، منها موقعة "وادي المالح" ومعركة قرية "سيد محمد بن عودة"، وفي كليهما انهزم الدرقاويون، كما تواصلت في أماكن مختلفة بتافنة، والتي شارك فيها بن الأحرش، الذي انضم إلى الدرقاويين لمحاربة الأتراك بالمقاطعة الوهرانية، وبعد عزل الباي "مقلش" عاد الباي مصطفى من جديد، فثار عليه الدرقاويون بفليته فهزمهم، ولما عاد إلى الجزائر خلفه الباي محمد بن عثمان أبو كابوس سنة 1808م.⁽¹⁾

كرس هذا الأخير جهده للقضاء على درقاوة وأتباعها، بل وحتى أولئك المشكوك فيهم ولو عن طريق الوشاة، حتى تشتت أتباع الدرقاوي وانفصلوا عنه، فكلما اتجه إلى مكان إلا وفروا منه، فقصد اليعقوبية ثم بلاد الأحرار فطاردوه، كما أبعد أهل عين ماضي والأغواط عنهم، ولم يبق له سوى "بني يزناسن" التي سار إليها، وهنا اختلفت الروايات حول نهاية بن الشريف وبن الأحرش، هل قُتلا بعد هذه المعارك أم بقيا على قيد الحياة؟⁽²⁾، وهكذا تم القضاء نهائيا على ثورة بن الشريف في أواخر عهد الباي "بوكابوس" سنة 1809م.⁽³⁾

اجتمعت العديد من الأسباب التي أدت إلى فشل الثورة الدرقاوية نذكر منها:

- أنها كانت ثورة إقليمية، مما سهل على الأتراك العثمانيين وأعاونهم المخازنية محاصرتها والقضاء عليها بداية من المنطقة الشرقية وانتهاء بالمنطقة الغربية.
- سياسة القمع والعنف التي اتبعتها الحكام الأتراك ضد الثوار والقبائل المتعاونة معها مع قلة العتاد.
- كثرة الأعمال التخريبية التي رافقت الثورة، مما أدى إلى وقوف العديد من القبائل ضدها.
- نقص التنظيم العسكري وانعدام القيادة السياسية المتبصرة.

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 53-54.

(2) - مختار بونقاب: المرجع السابق، ص: 140.

(3) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 55.

- سياسة المهادنة التي لجأ إليها بعض الحكام الأتراك، والمتمثلة في مصاهرة بعض العائلات الإقطاعية التي بإمكانها تهدئة الأوضاع كمصاهرة الباي مصطفى بوشلاغم لعدد من عائلات الإقليم الغربي.⁽¹⁾

يشير بن سحنون الراشدي بأن الأتراك وبسبب ثورة درقاوة، أصبحوا يتهمون جميع زعماء الدين، بسبب الصبغة الدينية لهذه الثورة وحتى الموالين للأتراك لم يسلموا من هذه التهم كالعالم أبو راس الناصري الذي عزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء، حيث أشار في رحلته إلى هذه الثورة بقوله: «ثم عمّتنا فتنة درقاوة وإنما لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج: وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة... فاتصلت علينا أوامر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع...»، كان من الناقلين عليها ومن المؤيدين للأتراك، حتى أن الباي مصطفى الذي ثار ضده بن الشريف وهزمه كان صديقا لأبي راس ومقربا منه.⁽²⁾

لقد اعتبر أبو راس أن الدراويين فئة ظالمة أفسدت في الأرض ولم تراع حرمة، وقد خصص لها تأليفا بعنوان "درأ الشقاوة في حروب درقاوة"، وعلى أنها ساهمت في حركة الجمود الفكري والركود الثقافي، كما شاطره في رأيه كل من "الزياني محمد بن يوسف"، "مسلم بن عبد القادر"، "محمد الصالح العنتري" و"ابن الفكون" الذي وقف مع السلطة العثمانية ضد ثورة بن الأحرش، لكن هناك من بين العلماء من أيدوها نذكر منهم "العربي المشرفي"، الذي اعتبرها ثورة في وجه الظلم والسياسة التي مارسها العثمانيون ضد العلماء والسكان⁽³⁾، حيث أشار في "الحسام المشرفي" إلى ذلك بقوله: «فسلط الله عليهم بسبب الظلم... شخصا من هذه الطائفة الدراواوية من الزاوية الغريسية الشرفاوية، قام عليهم في

(1) - مختار بونقاب: المرجع السابق، ص ص: 141-142.

(2) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 50.

(3) - مختار مخفي، بلبراوات بن عتو: "دور علماء الجزائر اجتماعيا سياسيا خلال العهد العثماني (1518-1830م)"، مجلة متون، مج: 8، ع: 4، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر، 2017م، ص ص: 382-383.

شردمة من أهل وسيلته قليلة ولمتانة دينها ووثوق عهدا فئة جليلة بها شمل المحال». (1)

يتعارض موقف أبي حامد مع موقف أبي راس تجاه الثورة الدرقاوية، فإذا كان هذا الأخير يرى في الدرقاوي رجل فتنة وشقاق، فإن أبا حامد يرى فيه رجلا ممسكا بالشرع يغلب عليه التقشف والتواضع، حتى أن شيخه العربي لما قدم عليه ليطلب منه إيقاف ثورته استجابة لأمر السلطان سليمان وجده "قائما بالعدل، تابعا للسنة، تاركا للبدعة، حافظا للطاعة، مجانباً للمعصية، لا يمنع رفده ولا يترك ورده، ملازماً للبس الخرقه" إن اختلاف موقف العالمين من الثورة الدرقاوية مرده إلى الانتماء المذهبي لكل واحد منهما، فأبو راس كان سلفياً متمسكا بالكتاب والسنة معارضا للطرقية وأصحابها، في حين كان أبو حامد درقاوياً، يظهر ذلك من كتاباته، فهو يمجّد هذه الطريقة ويرى وجوب اتباعها. (2)

يرى العلماء أن السلطة العثمانية كانت تعاني من الضعف، مما أدى إلى حدوث الفوضى، وأن الشريعة لا تتحقق سيادتها إلا في ظل سلطة قوية قادرة على إقرار الأمن والقضاء على الفتن، وقد اعتبر مسلم بن عبد القادر حركة درقاوة فساداً "إن النصر معنا لا علينا نريد الإصلاح وهم (درقاوة) يريدون الفساد"، كما وصف ابن سحنون ثورات القبائل بأنها تمرد على الشريعة والسلطة معا. (3)

يذكر مسلم بن عبد القادر أن ثورة بن الشريف لما فشلت ساءت العلاقة بين الشيخ العربي الدرقاوي وبين سلطان المغرب الأقصى الذي قام بسجنه، كما أدت هذه الثورة التي دامت نحو عشر سنوات إلى تخريب شامل للحياة الاقتصادية والاجتماعية في بايلك الغرب، كما تسببت في قتل العديد من أبناء الوطن الواحد، إضافة إلى استنفاد الطاقات الحربية التي كانت ستصد الاحتلال الإسباني لوهران، وخير قوة كان يمكن أن تجهز لمحاربة الاحتلال

(1) - محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، المرجع السابق، ص: 25.

(2) - المرجع نفسه، ص: 26.

(3) - محمد غانم: المرجع السابق، ص ص: 17-18.

الفرنسي فيما بعد، كما يرى بأن "الأتراك لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر عهدهم"، خاصة بعد نهاية عهد محمد عثمان باشا داي الجزائر ومحمد الكبير باي وهران، وصالح باي بقسنطينة، الذين تولى بعدهم في أوائل القرن التاسع عشر الدايات والبايات المتأخرون، الذين حكموا البلاد مدة ثلاثين سنة، غير أن سياساتهم لم تكن رشيدة ولم يكن حكمهم عادلا، فكان من الطبيعي أن يكثر الثائرون عليهم.⁽¹⁾

قام الباي محمد بن عثمان الملقب بـ "أبي كابوس" بتعذيب المتهمين في حروب درقاوة⁽²⁾، يذكر ذلك صاحب "دليل الحيران" بقوله: «...ولما تولى اشتغل في أيامه بطلب الدرقاوي وقصم محالمة وقطع آثاره ومعالمه وبغاته ومظالمه، حتى إن من حسد أحدا وشى به عنده وادعى عليه محبة الدرقاوي بادر للانتقام منه...وابتدع قتلا لم يبتدعه أحد من الملوك قبله...ومنهم من يأمر بإقلاع عينيه ويتركه أعمى...ومنهم من يأمر بذبحه». ⁽³⁾

تعد ثورة درقاوة من الثورات التي كان لها تأثير كبير على الحكم التركي في الجزائر، وسببا في انهيار حكم الأتراك، ذلك أن العثمانيين فقدوا ثقة القبائل الموالين لهم، مما جعلهم يضعفون عن مقاومة الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.⁽⁴⁾

3-3- الثورة التيجانية 1826م:

تنسب إلى محمد الكبير التيجاني⁽⁵⁾، حيث يذكر صاحب "تحفة الزائر" أن والده يدعى أحمد، عرف بزهد وكثرة مريديه، اتجه إلى فاس رفقة أهله وأبنائه في عهد السلطان "مولاي سليمان العلوي" وبقي بها إلى أن توفي هناك⁽⁶⁾، وبعد وفاته عاد ابنه محمد التيجاني إلى

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 55.

(2) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 48.

(3) - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص: 18-19.

(4) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 42.

(5) - حنيفي هلايلي: الثورات الشعبية...، المرجع السابق، ص: 202.

(6) - محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص: 145.

الجزائر مما أثار حفيظة العثمانيين، الذين تخوفوا من ثورته عليهم، لأن والده صاحب طريقة صوفية، وقد عرف عن الحكام العثمانيين التضيق على أصحاب الطرق الصوفية لغرض الحد من نفوذهم بعد الثورة التي قام بها الدرقاويون، لذلك طلب حسن باشا من حاكم قسنطينة أن يلقي عليه القبض، إلا أن محمد التيجاني نجا، وتمكن من العودة إلى عين ماضي، حيث توالى عليه حملات الأتراك، وكرد فعل على ذلك قام بتحريض قبائل الجنوب الوهراني ضد بايلك الغرب، بعد أن انضمت إليه قبائل الحشم، ولما تجهز خرج معهم نحو معسكر، أين واجهه حاكم وهران حسن باي في معركة قرب غريس⁽¹⁾.

يذكر الزياني بأن الباي أكثر من عطاياه لأعيان الحشم وكافة العرب "فتفرقوا عنه وتصدى الباي لجيش التيجاني القليل واشتد القتال بين الطرفين فقتل التيجاني"⁽²⁾، وقد أشار الأغواطي إلى هذه الثورة في رحلته، كما يصف لنا عين ماضي حيث يقول: «إن هذه البلدة تقع غربي تجمعات... ولحاكمها الذي يسمى ولد التجيني حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنقود، ومنذ سنتين فقط أي سنة 1243هـ، جمع أخوه جيشا بهدف الزحف على وهران والاستيلاء على خزنتها، وقد انضم جميع عرب الناحية المحيطة إلى لوائه وزحفوا بالطبول والمزامير، وأعطيت لهم الخيول والخيام، وقد سقطت مدينة معسكر في أيديهم وتقدموا نحو وهران، غير أن باي وهران وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجيش، وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون تأييدهم لولد التجيني الذي قتل بعد هجوم قام به الباي ضد جيشه»⁽³⁾.

أورد الزهار أنه وبعد فرار الكثير من جيوش محمد التيجاني وانفضاضهم عنه بقي معه البعض من أعراب زكور، الذين قاتلوا معه قتالا شديدا، حتى قتلوا جميعا وقطعت رؤوسهم، وأرسل الباي برأس محمد التيجاني إلى الجزائر، وهذا ما ذكره بقوله: «...وكان

(1) - بكار العايش: المرجع السابق، ص: 158.

(2) - المرجع نفسه، ص: 158.

(3) - الحاج بن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في الشمال الإفريقي والسودان والدرعية، تر، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية، الجزائر، 2011م، ص ص: 88-89.

الباي قد بعث البشائر للأمير قبل قدوم الرؤوس فعندما وصلت جعلوا رأس ولد التيجني في عمود وصلبوه قبالة الباب الجديد... ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود يبشرونه بقتله... استولى الباي على أثقال التيجني وأمواله ورجع إلى وهران»⁽¹⁾.

زادت الثورة التيجانية من اتساع الهوة بين السلطة العثمانية والطرق والصوفية، خاصة بعد قيام الباي حسن بالقتل والتنكيل بالجنث، ولم يسلم حتى بعض العلماء من ذلك أمثال الشيخ بلقندوز التيجاني والحاج محمد البوشيخي، كما انعكست هذه الثورات سلبا على العثمانيين، بعد أن فقدوا سمعتهم لدى الأوساط الشعبية التي تراجع دعمها وولاءها لهم، وهو ما أفقدهم قوة التصدي للخطر الأجنبي، تجلى ذلك في الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر سنة 1827م، وقد مثل هذا الوضع عاملا أساسيا في تسهيل مهمة الفرنسيين في احتلال الجزائر سنة 1830م.⁽²⁾

ساهمت ممارسات الحكام العثمانيين بحق الأهالي في قيام الثورات التي كانوا يواجهونها بالقمع بدل محاولة الفهم وتغيير السياسات وأنماط الحكم.⁽³⁾

يظهر لنا من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية أن النخبة المثقفة في المجتمع وقفت إلى جانب السلطة العثمانية في مواجهة هذه الثورات حفاظا على استمرار بقاء الدولة في وجه المخاطر الخارجية، وهو ما صعب من مهمة الثائرين في تحقيق أهدافهم، ورغم آثارها السلبية في جميع المجالات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، إلا أنها لم تنجح في الإطاحة بالحكم المركزي بمدينة الجزائر، ولعل مرد ذلك يعود إلى التنافس بين زعماء هذه الطرق الصوفية وعدم تمكن أي منها من بسط نفوذها على كامل البلاد، مما أعطى للسلطة

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص: 159-160.

(2) - عبد الحفيظ حيمي: "الطريقة التجانية في الجزائر وموقف السلطة العثمانية منها من خلال المصادر المحلية (1196-1242هـ/1782-1829م)"، مجلة آفاق فكرية، مج:7، ع:1، عدد خاص، مختبر دراسات الفكر الإسلامي بالجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلاي ليايس، سيدي بلعباس، أعمال الملتقى الدولي "تاريخ الجزائر الديني في العهد العثماني من خلال الكتابات المحلية والأجنبية يومي 6-7 مارس، الجزائر، 2018م، ص: 51.

(3) - بكار العايش: المرجع السابق، ص: 159.

العثمانية فرصة لتجديد كامل قواها للقضاء عليها. إن ما زاد في إضعافها هو معارضة العلماء وفئة المثقفين لها بما يمثلونه من وزن في المجتمع، كما تعد هذه الثورات بمثابة رد فعل على انشغال السلطة العثمانية بأزماتها الداخلية والخارجية بعد تقريبها المعهود من المتصوفة عن طريق تقديم الهدايا هذا من جهة، وعلى التكاليف الضريبية التي أرهقت كاهل الأهالي من جهة ثانية.⁽¹⁾

(1) - محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية...، المرجع السابق، ص ص: 115-116.

ثالثاً: موقف الكتابات التاريخية الجزائرية من سقوط نظام الحكم العثماني في الجزائر سنة 1830م

1-موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي:

يشير حمدان خوجة في كتابه "المرآة" بأن سبب احتلال فرنسا للجزائر، هو مطالبة اليهودي بكري الحكومة الفرنسية بأن تدفع له ما عليها من دين، ذلك أن فرنسا قامت بشراء الحبوب منه مقابل سبعة ملايين من الفرنكات، غير أنها لم تسدد هذا المبلغ، وقد تمت عملية البيع باسم بكري وشريكه ميخائيل وبوشناق، يضاف إلى ذلك أن بكري قام بشراء الصوف من الحكومة العثمانية بالجزائر، غير أنه لم يدفع لها مستحقاتها وبقي مدينا لخزانة الحكومة بمبلغ كبير من المال، حيث كان ينوي تسديد هذا الدين عند حصوله من فرنسا على ثمن الحبوب التي لم تدفعها له، وهو ما دفع الداوي إلى التدخل في هذه القضية بسبب أن بكري كان مدينا لخزانة الإيالة ولرغبة الداوي في استرداد ما في ذمة اليهودي من المال إلى خزينة الدولة، وقد وعد السيد "دوفال" الداوي بدفع المبلغ، غير أنه لم يف بوعده رغم أن الداوي سلمه رسالة ليوصلها إلى حكومته فيما يخص هذه القضية، وقد سبق أن أرسل قبلها عدة رسائل ولم ترد عليه بأي جواب.⁽¹⁾

يذكر الزهار أن السلطة الفرنسية طالبت من قنصلها أن يخبر الباشا إذا ما أراد أمراً أن لا يكتبها وإنما يخطر القنصل بانشغاله ليرفعه إلى حكومة بلاده، غير أن دوفال لم يوصل هذا الطلب إلى الداوي، مخبراً إياه بأن حكومة فرنسا لم ترد على ذلك⁽²⁾، وهو ما استثار غضب الداوي، وفي أمسية يوم العيد توجه دوفال لزيارة الداوي أمام حاشيته، فسأله الباشا عن سبب عدم رد السلطة الفرنسية على رسائله فيما يتعلق بمطالبات بكري، لكن جوابه كان مهيناً ووقحاً كما أشار إلى ذلك حمدان خوجة، حيث رد عليه بالقول: «إن حكومتي لا تتنازل أن تجيب رجلاً مثلكم»، وفي ذلك يعطي حمدان مبرراً لدوفال بقوله:

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 142-143.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 164.

«...ويمكن أن يقال إكراما للسيد دوفال بأن جهله للسان التركي هو الذي دفع به أن يتفوه بمثل هذه العبارة لأن الفرنسي المهذب لا تسمح له نفسه أن يتفوه بمثل هذه العبارة النابية إلى رجل حقير... يمكن للداي أن يسمح للسيد دوفال في غير هذه المناسبة، أما كونه يشتم بمحضر جميع حاشيته فلا، فقد مست تلك العبارة النابية كرامته وزرعت فيه غضبا، وحركت يده ليلطم ذلك القنصل بمروحته المصنوعة من سعف النخل»⁽¹⁾.

قام الداي حسين باشا بلطمه وطرده من مجلسه في 30 أفريل 1827م، لذا اتخذت فرنسا هذه الحادثة ذريعة وسببا لاحتلال الجزائر، فقد اعترف المؤرخون الفرنسيون بأن إساءة القنصل للداي لم تكن صدفة، بل تعد إثارة الداي⁽²⁾، ولما وصل خبر حادثة المروحة إلى فرنسا طلبت منه تقديم اعتذاره فرفض، فأعلنت حصار مدينة الجزائر يوم 15 جوان 1827م.⁽³⁾

من الأسباب التي أشار إليها حمدان خوجة والتي كانت سببا في الاحتلال، هي طلاقات المدافع على سفينة "لابروفانس" الفرنسية، هذه الحادثة عجلت بعملية الاحتلال، وفي ذلك يقول: «...وفي إيمكاني أن أشهد بأن حسين باشا لم يأمر بهذه الطلاقات وليس له بها علم ولكن نحن نقول باللسان العربي: «السيد مسؤول عن جرائم عبده»»، حيث رأى بأن الداي لو أسند منصب وزير البحرية إلى رجل كفاء وجدير بهذه الوظيفة لما نشبت الحرب، وقد قام بعزل هذا الوزير وعاقب رؤساء "الطوبجية" الذين أمروا بإطلاق تلك الطلاقات، غير أن هذا الإجراء لم يأت بنتيجة، لذلك اتجه حمدان إلى الأغا وطلب منه أن يطلع الباشا عن رأيه الذي اعتبر فيه أن ارتكاب هذا الفعل يعد خيانة⁽⁴⁾، وأن يرسل مبعوثا إلى فرنسا يشرح لحكومتها ما حدث، كي يعترف علنا بخطئنا ويعلمها بعزل وزير الحرب وعقاب رؤساء

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 143.

(2) - أحمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر وصف شاهد عيان، تق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962م، ص ص: 5-6.

(3) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 243.

(4) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 146.

"الطوبجية"، ويجب على المبعوث أن يختم كلامه بقوله: «إن الداى لمتأكد بأن الحكومة الفرنسية سترضى بهذا الصلح الذي كلفت بإجرائه، وأنه يأمل أن يتمكن من التفاهم معها في شأن القضية الهامة، التي سعى السيد "دوفال" في تعقيدها وعرض حكومته للخطر بأعماله الفاسدة، منها منعه رسائل الداى أن تصل إلى الحكومة الفرنسية»، حيث يذكر حمدان خوجة أنه لو مرت الأمور بهذه الطريقة لكان من المحتمل أن تستمر العلاقة الحسنة مع فرنسا ونتجنب أضراراً كثيرة.⁽¹⁾

ذكر الزهار في مذكراته، أن السلطة الفرنسية أرسلت مبعوثاً إلى الباشا من أجل التفاوض والتفاهم حول مسألة الصلح، ولما تم الاتفاق بين الجانبين على ذلك، لم يبق إلا إطلاق مدافع الصلح، لكن المبعوث الفرنسي طلب من الباشا أن يعطيه رجلاً يأخذه معه لفرنسا رفعا لقدرهم، إلا أن ذلك أثار غضب الداى، حيث رد عليه: "لا نجعل الصلح بيني وبينكم فضلا عن أن أعطيكم رجلا من عندي"، كما طلب منه أن يسافر لبلده حالا وإلا سيقوم بضرب سفينته، ولما عجز عن السفر بسبب الرياح القوية أمر وكيل الحرج وباش طبجي بضرب السفينة ومهاجمتها، ولما وصل المبعوث الفرنسي إلى بلاده كتب الفرنسيون إلى السلطان محمود وأخبروه بما فعل معهم، فقال لهم: "هؤلاء الناس طغاة فاذهبوا إليهم واحملوا جميع من بها من الأتراك وائتوني بهم وخذوا مصارفكم من خزنتهم، وأتوني بشيء منها واتركوا بها نصيبا لمصروف البلد، واجعلوا عليها من يقوم بأمرها من أهلها"، فلما قرأ الفرنسيون كتاب السلطان شرعوا في تجهيز السفن والآلات الحربية للقدوم إلى الجزائر.⁽²⁾

لقد أرسلت الدولة العثمانية الحاج خليل أفندي في مهمة لإقناعه بضرورة الصلح مع الفرنسيين، طالبا منه السماح له بالسفر نحو فرنسا لعقد الصلح، لكن الداى رفض ذلك، كما أرسلت أيضا محمد علي والي مصر للتوسط في الأمر، لكنه بقي مصرا على رفض الصلح،

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 147.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 166-167.

وقد انتقد الزهار موقفه بقوله: «... فلم ينصت لكلامه، وهو لا يزيد عدو الله إلا عنادا وتجبرا...»⁽¹⁾.

يشير الزهار بأن سبب تجبره هو ثقته الكبيرة في أهل زاوة الذين طلب منهم المساعدة فلبوا له طلبه، فمنهم من وعده بأن يأتيه بأربعين ألف رجل، والبعض الآخر بثلاثين ألف رجل، حتى بدا له بأن الملايين يظهرون له الرغبة في الجهاد، إلا أن الزهار وصفهم بقوله: «... وهم قوم مثل البهائم، ظهر لهم أن ذلك القتال إنما هو كقتال بعضهم لبعض قتال حمية الجاهلية، وقد ذكروا له الألوف لأنهم لا يعرفون مقدار الألف، فظنوا أن المائة هي الألف، والباشا نفسه ظن أن هذا القتال مثل قتال الرعية، وإلا فكيف يقابل جنسا قويا كجنس الفرنسيين من غير عدة ولا عدد»⁽²⁾.

بعد فشل مهمة خليل أفندي، لم تتوقف مساعي الدولة العثمانية في البحث عن حل للخلاف بين الجزائر وفرنسا، حيث أرسلت طاهر باشا إلى الجزائر لتسوية الخلاف مع قائد الحصار الفرنسي، ولكي يقنع العلماء وأعيان الأوجاق بالجزائر بالأخطار التي ستنتج عن الحرب بين البلدين، إلا أنه منع من دخول الجزائر بحرا، ورغم ذلك حاول الالتحاق بها برا عن طريق تونس، إلا أن بايها حسين 1824-1835م منعه من الدخول تحت ضغوطات سفير فرنسا هناك، وبعد فشل طاهر باشا في إيجاد حل لهذا الخلاف لعدم تمكنه من الدخول إلى الجزائر اتجه إلى طولون وحاول الاتصال بملك فرنسا شارل العاشر 1824-1830م، غير أنه رفض الاعتراف به كمبعوث، وبهذا تعطلت مساعيه إلى أن وقع الاحتلال⁽³⁾، الذي كان مخططا له بعناية ومهارة، حيث تم اختيار مرفأ "فرج" مركزا للإرساء وذلك بغرض إنشاء قاعدة صلبة لانطلاق العمليات والهجوم⁽⁴⁾.

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 167.

(2) - المصدر نفسه، ص: 168.

(3) - فتيحة صحراوي: الجزائر في عهد الداوي حسين (1818-1830م)، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2016م، ص: 146-147.

(4) - Ernest mercier : *L'Algérie en 1880, éditeur Librairie Algérienne et Coloniale, Paris, 1880, p: 11.*

كان الداوي حسين على دراية بالحملة الفرنسية على الجزائر منذ ستة أشهر، مع علمه بأن الإنزال سوف يكون في سيدي فرج⁽¹⁾، وفي ذلك يورد الزهار بأنه سمع رجلا من أتباع الأغا يقول: «أتى قنصل النابوليطان يوما إلى الأغا وقال له: إن عمارة الفرنسيين قادمة وستنزل بسيدي فرج، فلو جعلتم متارز في كل ربوة وعمرتموها بالمدافع ومهاريس البومبة ووضعتم ألف عسكري على كل متارز، فإذا نزل الفرنسيون في البر، فإنهم لا يستطيعون أن يزيدوا عن موضعهم، فضحك الأغا وهو صهر الباشا، وأجابه إذا جاءت عمارة الفرنسيين ونزل جندها، فاقدم لكي ترى كيف يقص العرب والقبائل رؤوس الفرنسيين»⁽²⁾.

رغم علم الداوي بعملية الإنزال، إلا أنه لم يكن يتصور هجوما برياً على مدينة الجزائر، وهو ما منعه من تحصين سيدي فرج واستعمال كل إمكانياته⁽³⁾، لذلك كتب إلى العرب والبربر، يعلمهم بمقاصد الفرنسيين ضدهم، حيث أمرهم بالاستعداد. إن الأغا إبراهيم صهر الباشا لم يكن يفقه في فنون الحرب وحيلها، كما كان يفتقد للكفاءة حسبما ذكر حمدان خوجة، بينما يحي آغا كان قد تولى منصب قائد عام مدة اثني عشرة سنة تحت ولاية حسين باشا، حيث عرف بإتقانه لعمله وتقله، غير أن الخزناجي دبر له مؤامرة ما جعل الباشا يقوم بعزله ثم نفيه نحو مدينة البليدة، ثم استخلفه بصهره إبراهيم، كما دبر له خصومه مؤامرة جديدة، حيث أخبروا الداوي بأن للأغا علاقة مع مختلف رؤساء العرب والبربر، وأنهم يزورونه ليلاً، وقد تأمر معهم على الهجوم على مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، حتى يجعل من نفسه رئيساً، وبذلك صدق الباشا خيانة الأغا يحي وأمر بقتله، وبعد تعيين صهره إبراهيم آغا سلمت له الخريطة التي رسمها الفرنسيون لغزو الجزائر، ورغم هذا التحذير إلا أن الأغا لم يعط أوامر تتعلق باستعداده للحرب⁽⁴⁾.

(1) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 251.

(2) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 168.

(3) - صالح عباد: المرجع السابق، ص: 251.

(4) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 149-150.

يذكر حمدان بن عثمان خوجة أن الجيش المحيط بهذا الأغا، كان مكونا من سكان متيجة الذين لا يعرفون شيئا سوى بيع الحليب، كما أن القليل فقط من القبائل من لبي نداءه ولم يعطهم سلاحا ولا مؤونة، مما جعلهم ينسحبون عن قتال الفرنسيين، وبأنه لم يحصن سيدي فرج بالمدافع⁽¹⁾، كما رفض الأخذ بنصائح الحاج أحمد باي قسنطينة الذي طلب منه وضع خطة حربية لمواجهة العدو، والتي تعتمد على توزيع الجيش غرب سيدي فرج لصدّه، مطالبا بضرورة حفر الخنادق حول معسكر اسطاوالي، إلا أن الأغا لم يأخذ بنصائحه وكان رده: «إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي، إنه يتعارض كل المعارضة مع التكتيك العربي»، وقد أظهرت مواقفه الجمع بالتكتيكيين معا.⁽²⁾

يورد حمدان خوجة بأنه نبه الأغا على ضرورة حفر خنادق لحماية جيشه فأجابه: «إننا نحن الخنادق الحقيقيون وسنكون تعساء إذا عجزنا عن حماية جيشنا»، لقد دعا جيشه ليوزع عليه السلاح، غير أنه وزع على أفراده فؤوسا بدل السلاح وأمرهم بحفر الخنادق، ورغم أن حسين باشا منحه مبالغ كبيرة ليوزعها على الجنود تشجيعا لهم على القتال، بيد أنه لم يدفع شيئا إلى هؤلاء، ولما استولى الفرنسيون على اسطاوالي اتجه رفقة جيشه إلى سيدي فرج تاركين المعسكر شاغرا مبقين على أربعين شخصا على الأكثر هناك يحرصون الأمتعة بدون سلاح، وفي ذلك يقول حمدان: «...اقتنعت وتأكدت بأن تسيير الجيش قد أسند إلى رجل ليس له أية معرفة بالنظام العسكري، وعندئذ عدت إلى مدينة الجزائر حزينا متيقنا بأن الإيالة قد ضاعت من أيدي أهلها».⁽³⁾

يعقد حمدان خوجة مقارنة بين إبراهيم آغا ويحي آغا، حيث يرى أن جيش هذا الأخير كان مجهزا ومنظما أحسن من جيش إبراهيم آغا المهيا لقتال الفرنسيين، كما كانت مراكز الحراسة لجيشه دائمة اليقظة، وفي ذلك يقول: «...وعندما خسرت الإيالة يحي آغا

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 151.

(2) - أرزقي شويتام: دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2، 2016م، ص ص: 119-120.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص ص: 153-154.

تنبأ جميع العقلاء بضياع الجزائر، ولم يرض أي واحد بكارثة قتله، بل لنفرض أنه مجرم فكان من الواجب أن لا يستبدل أبداً بمثل إبراهيم آغا، إنها لغظة كبيرة لا تغتفر، ولعلها الواحدة التي ارتكبتها حسين باشا طيلة ثلاث عشرة سنة من حكمه، وما زاد في صدمة هذه الغلظة، ارتكابها في الوقت الذي نحن في حرب مع فرنسا على يد أمير قد أعطى جميع البراهين على تحليته بالحلم والعفو والعدل والإنصاف، وقد كان من المستبعد أن يصدر منه فعل مثل هذا»⁽¹⁾.

بعد هزيمة اسطوالي في 19 جوان 1830م، فر إبراهيم آغا من ميدان المعركة مخلفاً وراءه جيشه⁽²⁾، حتى أن حمدان خوجة وصفه بالجبان، حيث يرى أن الباشا كان يعتقد فيه أكثر مما يستحقه، لكنه عاد للمعسكر من جديد وجمع جيشه، الذي تشتت بعد تحرك جيش "بورمون" باسطوالي، وفي هذه الأثناء دعا الباشا المفتي شيخ الإسلام وأمه بسيف وطلب منه الدفاع عن الوطن بعد فوات الأوان وهذا بعد أن اقترب الجيش الفرنسي من "برج مولاي حسن"، رغم أن شيخ الإسلام ليس برجل حرب، ولا يستطيع أن يقود جيشاً في وقت حرج، وقد استدعى شيخ الإسلام حمدان خوجة فكان جواب هذا الأخير له: «لم يبق أمل في هذه القضية وخسارتنا لا مفر منها، وأنا لا أريد أن أكون شاهد عيان لكارثة مفرعة»⁽³⁾.

بعد تكليف بن العنابي بقيادة الجيش، يورد الباحث عمر بن قينة: «...لكن ابن العنابي كان صالحاً للإفتاء لا لقيادة جيش، خذلته في اللحظات الحاسمة قيادته الانتهازية الجاهلة الجبانة الخائنة لأمانة الوطن والناس، مما كان ثمنه باهظاً دفعه الجميع: النظام وعلى رأسه الداي والأمة بعد ذلك والوطن لمدة فاقت قرناً وربع قرن تحت الاستعمار الفرنسي كأخسأ استعمار على وجه الأرض قديماً وحديثاً»⁽⁴⁾.

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 155-156.

(2) - أبو القاسم سعد الله: محاضرات... المرجع السابق، ص: 43.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق ص: 157.

(4) - عمر بن قينة: الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وبن العنابي والكواكبي، دار أسامة، عمان، ط1، 2000م، ص: 51.

بعد تأكد الباشا بأن الأغا إبراهيم لم يكن سوى رجلا لا قيمة له، عزله وعين مكانه باي التيطري، لكن وبعد تأزم الأوضاع لم يعد لهذا التغيير أي فائدة، حيث هاجم الفرنسيون برج مولاي حسن وتمكنوا من الدخول بقيادة "دي بورمون"، وكرد فعل على ذلك قام حسين باشا بجمع كل أمناء البلاد ووجهائها، حيث شرح لهم أوضاع مدينة الجزائر الخطيرة، طالبا منهم إيجاد وسيلة لمعالجة هذه الأوضاع سائلا إياهم عن إمكانية مقاومة الفرنسيين مدة طويلة أو تسليم المدينة بعد إبرام معاهدة التسليم معهم، فكان جوابهم: «إننا نقاتل حتى آخر شخص منا، بيد أنه إذا كان سموكم يفضل وسيلة أخرى فلكم الكلمة العليا والأمر المطاع فيما ترونه ملائما، ونحن تحت أمركم وعند إرادتكم».(1)

موازاة مع ذلك اجتمع عدد من أعيان الجزائر بـ "برج باب البحرية"، حيث رأوا أن خسارة مدينة الجزائر أمر محتم وأن عليهم الأخذ باقتراحات الداوي السلمية التي تهدف إلى إبرام معاهدة تسليم البلاد بشروط يتم عقدها مع قائد الجيش الفرنسي، فقد كانوا يعتقدون بأن فرنسا هي دولة ذات سيادة تتمتع بالعدالة والحرية تحت جناحها، لذلك انتهى قرارهم بعدم مقاومتهم للجيش الفرنسي(2). يذكر حمدان خوجة بأن الاعتبارات التي جعلتهم يقبلون بإبرام معاهدة الاستسلام، كونهم يفضلون الخضوع لحكومة العثمانيين التي يجمعهم معها دين واحد، غير أن الظروف أجبرتهم على استبدالها بالحكومة الفرنسية، التي وعدتهم باحترام الدين، العوائد والأرزاق وإلا ستصبح حياتهم في خطر.(3)

لقد أرسل الداوي حسين المتكابي رفقة القنصل الإنجليزي أحمد بوضربة وولدي الحاج حسن إلى القائد العام للحملة كمبعوثين، كي يدخل معهم في مفاوضات لعقد معاهدة الاستسلام مع الداوي، وقد اتفق الطرفان على شروط المعاهدة حيث تم تحريرها ودخل الجيش الفرنسي إلى مدينة الجزائر واحتلها(4) في الخامس من جويلية 1830م، وهكذا انتهى الحكم

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 158-159.

(2) - المصدر نفسه، ص: 160-161.

(3) - المصدر نفسه، ص: 161.

(4) - المصدر نفسه، ص: 161-163.

العثماني بعد أن استمر ما يزيد على ثلاثة قرون⁽¹⁾ يصف لنا إيرنست ميرسي " Ernest mercier" هذا الحدث بقوله: «في 05 جويلية وبعد الساعة العاشرة صباحا استسلمت الجزائر العاصمة وكان علمنا يرفرف فوق أسوارها».⁽²⁾

إن من بين ما نصت عليه المعاهدة حرية العمل بالدين الإسلامي، ضمان حرية جميع الطبقات والأديان والحفاظ على الممتلكات، غير أنه ورغم التعهد الفرنسي لسكان الجزائر باحترام شعائرهم الدينية وممتلكاتهم، إلا أن ذلك لم ينفذ بعد أن نكث الفرنسيون بالعهود، فقد استولوا على خزينة الدولة، نهبوا أموال العامة والخاصة، حولوا المساجد إلى كنائس ودنسوا المقابر، الأمر الذي أثبت على أن الاحتلال جاء مستبدا لا محررا.⁽³⁾

يمدح حمدان خوجة حسين باشا الذي خدم الإيالة أكثر من ثلاثين سنة، وفي ذلك يقول: «ولما كنت أعرف الناس بأصله وبأخلاقه، يمكن لي أن أقول بأنه من أطيب أرومة الأتراك القدامى، أي أنه شهم عالي الهمة ومحسن، فلا أظن أحدا يستطيع أن يتهمه بالشراسة أو الجشع، فوفائوه بعهوده وإخلاصه لوعوده شيء معروف جدا بأوروبا... وبناء على هذا الاعتبار، فأنا مقتنع ومتيقن بأنه سيعترف له بحقه الذي يستحقه...»، كما يرى بأن احتلال فرنسا للجزائر دفع به إلى التخلي عن السلطة، وأن سبب سوء تقديره يرجع إلى أعضاء حاشيته وجنوده، وأن عددا من الذين كانوا يشكلون ديوانه كانوا لا يمتلكون الأخلاق والخبرة والشجاعة، فعند استلامه للحكم وجد أن أجهزة الحكم غارقة في الفوضى، فأراد أن يعيد لها النظام، ولن يتحقق ذلك إلا إذا دامت فترة حكمه أكثر مما قدر لها أن تدوم، غير أن ما يلام عليه حسين في تسيير حكومته هو عدم إرجاعه للديوان القديم من أجل التشاور

(1) - نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص: 128.

(2)- Ernest mercier: *L'Algérie en 1880...*, Op.cit, p: 12.

(3) - أحمد عصماني: "النخبة الجزائرية وموقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر 1830م"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مج: 10، ع: 1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة-2، الجزائر، 2017، ص: 03.

في الشؤون الهامة والاستفادة من خبرات السابقين، وأنه لم يستعمل كل الطرق والوسائل لمنع الاحتلال الفرنسي للجزائر.⁽¹⁾

بعد التوقيع على معاهدة الاستسلام، غادر الداوي حسين ميناء مدينة الجزائر⁽²⁾ رفقة حاشيته يوم 1830/07/10م في حدود الساعة الرابعة بعد الزوال⁽³⁾ على متن سفينة فرنسية تدعى "جان دارك" جهزها له قائد الأسطول الفرنسي "دي بييري Duperré"⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول إيرنست ميرسي: «انتقدنا الجنرال دي بورمون "De Bourmont" قائد الحملة من السماح للداوي حسين ومن غير شروط الخروج مع حاشيته وممتلكاته من الجزائر بطريقة مشرفة ولم يفرض عليه الاستسلام أو أي شروط من المفروض أن تكون...».⁽⁵⁾

عند وصوله إلى نابولي يوم 31 جويلية، بدأ في السعي من أجل استرجاع حكمه، فقد انتقل إلى باريس طالبا من الحكومة الفرنسية الوفاء بما تعهدت به، غير أن الملك الفرنسي رفض مقابله، بعدها قرر أن يستقر في ليفورن (إيطاليا)، ومع أوائل شهر أوت من سنة 1831م، وصل إلى باريس مرة ثانية وقدم مطالبه إلى الحكومة الفرنسية، حيث شرح لها أسباب الخلاف آملا في إنصافه وإعادة ملكه، غير أنها رفضتها مجددا، كما أعاد المحاولة مرة أخرى في 24 من نفس الشهر والسنة، غير أن مطالبه بقيت بدون رد، وقبل عودته إلى ليفورن اتجه إلى جنوة، حيث استأجر سفينة وحملها بالذخائر الحربية التي أرسلها له أصدقائه اليهود في ليفورن، كما قام بمحاولات أخرى وبالتعاون مع صهره مصطفى وبعض اليهود لاستعادة ملكه، وهذا بعد أن راسل بعض شيوخ مدينة بجاية حتى تكون مركز انطلاق الثورة،

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 137-138.

(2) - محمد بوشنافي: الداوي حسين وسقوط الإيالة...، المرجع السابق، ص: 106.

(3) - محمد السعيد قاصري: "موقف السلطان المغربي من الداوي حسين عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م"، مجلة منتدى الأستاذ، مج: 3، ع: 1، المدرسة العليا للأساتذة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، 2007م، ص: 148.

(4) - محمد بوشنافي: الداوي حسين وسقوط الإيالة...، المرجع السابق، ص: 106.

(5) - Ernest mercier: L'Algérie en 1880..., Op.cit, p: 12.

إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل، يذكر بأن فرنسا كانت على علم بكل مراسلاته⁽¹⁾، بعدها اتجه إلى الإسكندرية بمصر بعد أن وافق محمد علي على إقامته بها⁽²⁾ إلى أن توفي سنة 1254هـ-1838م.⁽³⁾

أما عن محاولات الدولة العثمانية استعادة الجزائر بعد احتلالها، فإنه وبعد تأكيد سفير فرنسا لدى الباب العالي "قييو مينو" من خبر احتلال بلاده للجزائر، أخبر الدولة العثمانية بذلك، ورغم الظروف الحرجة التي كانت تمر بها هذه الأخيرة، إلا أن السلطان حاول التوصل إلى حلول مع السفير الفرنسي قصد استرجاع الجزائر.⁽⁴⁾

نستنتج ذلك من خلال مساعيها، حيث أرسلت رشيد باشا إلى باريس كسفير للاتصال بالحكومة الفرنسية، كما أوفدت نامق باشا إلى لندن لطرح القضية الجزائرية لدى الحكومة البريطانية، إلا أن كل هذه المساعي التي قام بها المبعوثان باءت بالفشل.⁽⁵⁾

رغم احتلال فرنسا مدينة الجزائر، إلا أن أحمد باي بقي يقاوم قواتها في بايليك قسنطينة، طالب من السلطان العثماني المساعدة، فاستجاب لطلبه وذلك بإرساله لأربع سفن على متنها جنود محملة بـ 12 مدفعا ومائة وخمسين من رماة المدافع، غير أنها لم تصل إلى الجزائر، لأن باي تونس استولى على عتادها ولم يسمح للجنود بالنزول في تونس خوفا من رد فعل فرنسا⁽⁶⁾، إلا أن أحمد باي بقي يقاوم الاحتلال إلى أن تمكن الجنرال فالي "Vallée" من احتلال المدينة سنة 1837م بعد قتال عنيف، أعقبه انسحاب أحمد باي نحو الصحراء بعد أن حارب فرنسا مدة 11 سنة، إلى أن أسر وتوفي سجيناً بالجزائر.⁽⁷⁾

(1) - فتيحة صحراوي: المرجع السابق، ص: 199-200.

(2) - فطيمة شيخ: "الداي حسين باشا آخر شخصية عثمانية تحكم الجزائر"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 6، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2015، ص: 469.

(3) - محمد السعيد قاصري: المرجع السابق، ص: 148.

(4) - فتيحة صحراوي: المرجع السابق، ص: 147-148.

(5) - أرزقي شويتام: دراسات...، المرجع السابق، ص: 151-152.

(6) - فتيحة صحراوي: المرجع السابق، ص: 148.

(7) - أحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص: 83.

انتهت كل المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية لاسترجاع الجزائر، خاصة بعد سقوط مدينة قسنطينة، حيث تأكد عجزها، والواقع أن فشل مساعيها كان متوقعا منذ البداية، نظرا للضعف الذي كانت تعاني منه، فقد كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية والخارجية، والمتمثلة في تفشي الفوضى الداخلية، واتساع مجال حركات التمرد في الولايات التابعة لها، ومما زاد الأمر تعقيدا أكثر نشوب ثورة اليونان التي تحالفت فيها الدول الأوروبية في معركة "نافرين" البحرية سنة 1827م، والتي تسببت في خسائر كبيرة لأسطولها، ضف إلى ذلك حروبها ضد روسيا القيصرية، وإبرامها لمعاهدة أدرنة سنة 1829م والتي زادت من ضعفها، كما تلقت ضربة قوية من قبل محمد علي حاكم مصر، الذي فتح باب المشرق على مصراعيه أمام الدول الأوروبية، التي أصبحت تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بصفة مباشرة، صاحب كل ذلك تخلفها عن مسايرة الركب الحضاري الأوروبي بسبب احتفاظها بنظمها العسكرية، الاقتصادية والاجتماعية التقليدية.(1)

يرى العديد من المؤرخين بأن الظروف الداخلية والخارجية حالت دون تمكن الدولة العثمانية من استرجاع الجزائر.(2)

2-أسباب زوال نظام الحكم العثماني في الجزائر من منظور مؤرخي القرن 19م:

ساهمت العديد من العوامل الداخلية والخارجية في تدهور الأوضاع العامة بالجزائر في العقود الثلاثة الأخيرة من العهد العثماني، حيث كان انهيار الحكم العثماني على مراحل، فالضعف العام الذي أصاب الجزائر في أواخر هذا العهد أدى إلى التعجيل بنهايته.(3)

من بين مؤرخي القرن 19م الذين تناولوا عوامل انهياره، حمدان خوجة الذي تطرق إلى هذا الوضع بنوع من التفصيل، حيث يشير إلى أن نظام الحكم العثماني لما بسط سيطرته على الجزائر وتمكن من إخضاع الرعية، بدأت تظهر عليه عوامل الإنهيار عندما تم

(1) - أرزقي شويتام: دراسات...، المرجع السابق، ص: 153-154.

(2) - المرجع نفسه، ص: 154.

(3) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص: 209.

إرسال مبعوثين من أصحاب الدراية إلى مدينة أزمير لجلب جنود من هناك، إلا أن هؤلاء المبعوثين لم يلتزموا بالطريقة المتبعة في نظام التجنيد الذي يشترط فيه قبول الرجال الأمناء، فقد قاموا بتقييد جميع المجندين بدون انتقاء، وقد شمل ذلك المجرمين والمحكوم عليهم بأحكام عقابية.⁽¹⁾

مارس هؤلاء الجنود الظلم والجور تجاه البدو والقبائل، ولجأوا إلى الاغتيالات لتغيير الحكام خدمة لمصالحهم، فقد قام الجيش الإنكشاري بقتل الداوي مصطفى باشا، بعدها استولى أحمد خوجة على الحكم، وارتكب العديد من الجرائم، كما رفع أجور الجند مكافأة لهم، ولكي يستولي على الثروات عزل البايات من مناصبهم وقام بقتلهم، يذكر حمدان خوجة بأن الأشخاص الذين كانوا يشكلون جزءا من حكومته ليسوا من سكان الجزائر، وأنهم يفتقدون للكفاءة وأن لا دراية لهم بعوائد العرب، حتى أن وظائف البايات أصبحت تباع وتشتري⁽²⁾ كما توالى ظاهرة الاغتيالات ضد الحكام العثمانيين، من بينهم أحمد باشا، علي باشا والحاج علي باشا، كما أورد بأن عمر آغا عرف بسفكه للدماء، وكذلك علي خنجة الذي ارتكب عدة جرائم، ونفى العديد من الرعية، وقام بنقل خزائن أموال بيت المال إلى القصبية، وأثناء عملية النقل تم تبيد ونهب الكثير منها من طرف وزراء الباي وحاشيته، حتى اضطرت شؤون الدولة في عهده، ولما توفي علي باشا تولى الحكم بعده حسين آخر باشاوات الجزائر.⁽³⁾

يرى حمدان خوجة بأن العثمانيين ارتكبوا خطأ فادحا، عندما جعلوا السلطة المطلقة في أيدي الباشاوات، وبالتالي فقد الديوان نفوذه، رغم أنه كلف بمراقبة أعمال الباشاوات ومساعدة الحكومة، كما أن تولي المناصب الحساسة في الدولة كان حكرا على العثمانيين وحدهم، رغم أن الكراغلة كانوا من أبنائهم، إلا أنهم أبعادوا عن السلطة وتم إبعادهم من الوظائف الحكومية.⁽⁴⁾

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 117.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 117-118.

(3) - المصدر نفسه، ص ص: 118-121.

(4) - المصدر نفسه، ص: 121.

إن الصراع بين الكراغلة والإنكشاريين طوال الفترة العثمانية، تسبب فيه بعض الحكام بعد أن وضعوا حواجز بين الفئتين، وقد اعتبر هذا الصراع من العوامل التي ساهمت في إضعاف الحكم في الجزائر، خاصة عندما استغله اليهود لصالحهم، فقد وضع الأتراك ثقتهم فيهم لأنهم لا يخشون استيلاءهم على الحكم، معتقدين بأن الاستعانة بهم أقل خطورة من الكراغلة، إلا أن دور اليهود في البلاد كان أخطر من كل العناصر الأخرى.⁽¹⁾

عرف نشاط اليهود التجاري ازدهارا كبيرا ابتداء من القرن 18م، فقد عرف نفتالي بوشناق بدعائه، حيث استغل ظروف البلاد المضطربة ليكسب ثقة الحكام والموظفين الكبار منهم مصطفى الوزنابي باي التيطري 1775-1794م، هذا الأخير كلف بوشناق بإدارة أعماله، بعد توليته بايا على قسنطينة⁽²⁾، لذا كانت علاقته باليهود سببا في إثارة غضب السكان والتجار الجزائريين عامة ومعهم والإنكشارية، خاصة بعد منحه لليهود امتيازات تجارية مثيرة.⁽³⁾

لقد سيطر بوشناق وبكري على الأسواق التجارية داخليا وخارجيا، ونجحا في التقرب من الحكام وكسب ثقتهم، أمثال الداوي حسن، الذي اقترح عليه بوشناق تعيين مصطفى خزناجيا. إن نفوذهم امتد إلى الأمور المالية بعد أن أصبح بوشناق وبكري يتصرفان في أموال البلاد حسب إرادتهما، وبذلك ساهما إلى حد كبير في تدهور أوضاع الجزائر السياسية والاقتصادية، وكانا سببا في توريطها في قضايا دولية، كتوتر علاقاتها مع فرنسا بعد تدخلها في محاولة الفصل في قضية الديون، فتطورت القضية من قضية فردية بين اليهود وفرنسا إلى أن أصبحت قضية حكومية بين الدولتين.⁽⁴⁾

(1) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص: 117.

(2) - المرجع نفسه، ص: 120-121.

(3) - نجوى طوبال: طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700-1830م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2004-2005م، ص: 190.

(4) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص: 121، 128.

إن من بين الأسباب التي عجلت بنهاية الحكم العثماني في الجزائر، نشوب الثورات الريفية، ودعم السكان لها، الأمر الذي أدى إلى تدهور العلاقات بين الحاكمين والمحكومين لا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة من الحكم العثماني، بسبب سياسة جمع الضرائب، يضاف إلى ذلك تنافس الدول الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر للحصول على امتيازات تجارية في سواحل الجزائر والاستيلاء على ثرواتها، بعد محاولتها كسب ود الجزائر والتقرب إلى حكامها عندما عجزت عن تحقيق أطماعها، قامت بشن حملات عسكرية ضدها⁽¹⁾، لذلك انصبت جهود الحكام العثمانيين في مواجهة أطماعهم الاستعمارية بتوفير كل الإمكانيات المادية والبشرية، وكان كل ذلك على حساب التنمية الداخلية، كما تعد الهزيمة التي تعرضت لها الجزائر من قبل الحملة الإنجليزية الهولندية سنة 1816م، حيث فقدت فيها معظم قطع أسطولها الذي كان يمثل الدرع الواقي لأمنها في العهود السابقة وكانت البداية الحقيقية لنهاية الحكم العثماني في الجزائر.⁽²⁾

عاصر بن العنابي مرحلة ضعف الحكم العثماني بالجزائر، الذي كانت نذر الانهيار بادية عليه انطلاقاً من واقع الفساد العسكري والسياسي وانتشار الآفات الاجتماعية التي كانت جميعها محصلة سياسية خاطئة تحكم فيها العسكر المشغول بنزواته دون الاهتمام بما يتربص به وبأوطان الإسلام عامة، لذلك اقترح ابن العنابي حلولا لتجنيب المسلمين خطأ الوقوع تحت سيطرة الاستعمار، حيث عالج أهم الجوانب الدالة على سمات المرحلة في الثلث الأول وقبله من القرن التاسع عشر⁽³⁾، كما دعا مبكراً إلى الاستعداد للمواجهة "بإعداد جيش قوي ذي كفاءة معنوية وقاتالية، ولحم الصلة بين حاكم ينبغي أن يكون جادا طاهرا، وبين محكوم ينبغي الحرص على ضمان ثقته وحببه الذي لا يكون إلا بتكريس قيم العدل والانضباط وإشاعة روح التكافل وإنصاف المظلوم"، داعياً إلى تطهير الجيش وإعداده

(1) - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص: 129، 133.

(2) - المرجع نفسه، ص: 146، 167.

(3) - عمر بن قينة: المرجع السابق، ص: 49-50.

لمهامه الجوهرية من أجل حماية الأوطان والحيلولة بينه وبين فعله في تلوين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.⁽¹⁾

إن هذا الضعف الذي عانت منه الجزائر، لم ينجح آخر داياتها حسين باشا في الحد منه على الأقل بالأخذ بأفكار بن العنابي وأمثاله الذين نبهوا إلى انتشار الفساد في سدة الحكم، مما حفز فرنسا على التخطيط لاحتلال الجزائر التي لم تنهياً لمواجهة ماديا ولا معنويا (الشعب)، فقد وجد الاحتلال أمامه جيشا غارقا في ضعفه وفساده وشعبا ضاعت ثقته في حكامه الفاسدين المفسدين.⁽²⁾

3- الحكم العثماني في الجزائر والحكم الفرنسي من منظور الكتابات التاريخية الجزائرية:

عقد بعض مؤرخي القرن 19م مقارنة بين الإدارة العثمانية والحكومة الفرنسية، من بين هؤلاء حمدان بن عثمان خوجة، والذي يذكر العديد من الأحداث التي جرت في كلا العهدين، حيث يشير إلى أن معاهدة تسليم الجزائر احتوت على بند نص على أن العثمانيين يعدون بمثابة سكان البلاد، غير أنه وبعد فترة قصيرة قام "دي بورمون" بنفيهم، بل وفرق بينهم وبين نسائهم وأبنائهم دون ارتكابهم لجرم يستحق ذلك، مدعيا أنه اكتشف مؤامرة دبروها ضد الفرنسيين، رغم أنه لم يتأكد من صحتها، وفي ذلك يشير حمدان أن هذه المؤامرة لا يمكن أن تحدث من قبل العثمانيين، نظرا لقلّة عددهم وضعف قوتهم، وعدم امتلاكهم للعتاد الحربي.⁽³⁾

يحدثنا عن هذه المؤامرة المزعومة بأن مجموعة من المسلمين اشتكت من إهانة وشتائم اليهود لهم، فاختراروا اثنين منهم وأرسلوهما إلى القائد "دي بورمون" لينفلا له انشغالهم باسم الجميع، غير أن هذين الأخيرين أخبراه بعكس ما ذهباً لأجله، وبأن اجتماعهم كان

(1) - عمر بن قينة: المرجع السابق، ص: 53.

(2) - المرجع نفسه، ص: 49، 52.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 179-180.

بسبب الشكوى من العثمانيين فصدقهما، وهو ما جعله يصدر قرار نفيهم بناء على خبر مشكوك فيه دون أن يتأكد من صحته، لذلك يقول حمدان خوجة: «...ولم نكن ننتظر من الحكومة الفرنسية أن تتصرف- هكذا بطريقة جائرة، مع أمة كانت تعيش قبل احتلال الجيش الفرنسي لبلادها- تحت سلطتي الضغط والجور حسبما يقال»، كما يشير في نفس السياق إلى أن الفرنسيين استولوا على أسلحة سكان الإيالة المحلاة بالجواهر الثمينة، رغم قيامهم بتسليمها لهم لصيانتها، إلا أنهم قاموا بنهبها.⁽¹⁾

أما الحادثة الأخرى التي استشهد بها حمدان خوجة، وكان شاهدا عليها في عهد حسين باشا، هذا الأخير تلقى شكوى، تضمنت أن أحد القضاة حكم بحكم غير عادل ومخالف للشرع، لذلك قام الداوي باستدعائه بطريقة محترمة ولم يعاقبه، وعقد له مجلسا ضم جميع رجال القانون والشريعة، وطلب منه أن يوضح الأسباب التي جعلته يصدر هذا الحكم، ثم أمر المفتي والعلماء بأن يناقشوه ويطالبوه بالدليل الشرعي حول حكمه، غير أن القاضي تردد في جوابه وبذلك تأكد للداوي صحة الشكوى ضده فقام بعزله ونفاه إلى وهران⁽²⁾، وهكذا فإن ذكر هاتين الحادثتين يظهر لنا مدى تعسف وظلم الفرنسيين وعدل وإنصاف العثمانيين وحسن تعاملهم مع الرعية عكس الفرنسيين، كما يثبت لنا الفارق بين العهدين.

لقد ادعى دي بورمون أنه أتى إلى بلادنا ليزيل حكم الظلم والاستبداد ويحل محله قوانين مبنية على أسس العدل والإنصاف، ما دفع حمدان خوجة إلى أن يتساءل قائلاً: «إن فآين هؤلاء الفرنسيون المفتخر بهم، هؤلاء تلامذة نابليون العظيم، هؤلاء الوطنيون هؤلاء القضاة ثم أين هم هؤلاء المنصفون؟! وماذا فعلوا بعلومهم وكفاءتهم وذكائهم».⁽³⁾

أما صالح العنتري صاحب "تاريخ قسنطينة"، فقد عقد مفاضلة بين الحكم التركي والفرنسي، في محاولة منه إبراز مساوئ العثمانيين ومحاسن الفرنسيين، حيث يرى أن

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص ص: 180-182.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 181-182.

(3) - المصدر نفسه، ص: 182.

العثمانيين في بداية عهدهم كانوا يعدلون بين الناس ولا يمارسون الظلم على أحد، ولكن عندما بلغت قوتهم أوجها أواخر عهدهم صاروا يظلمون الناس ويستولون على أموالهم، بل وصل بهم الحال إلى سفك دماءهم وازداد ظلمهم خاصة في ولاية الحاج أحمد باي، هذا الأخير عرف بظلمه واستيلاءه على أموال الناس وكثرة اغتيالاته، وفي ذلك يقول: «إنك إذا تأملت ذلك حق التأمل وجدت بين الدولتين في الأحكام والسياسة فرقا كبيرا، وذلك لأن الأتراك في بدء أمرهم... عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولا يوفون ويؤمنون ويغدرون... ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد في ولاية الحاج أحمد باي... فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية، وأما غدره وعدم الوفاء بوعدته فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد...» (1).

إن ما يثبت عدم وفاء الحاج أحمد باي وغدره، أنه لما استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر عاد إلى مدينة قسنطينة ولخوفه من ثورة الناس عليه جمع العلماء وكبار البلد قائلا لهم: «ما تقولون في أمري؟ فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونبايعك على أن تقبل شروطنا وهي: أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ولا تأخذ منهم الزكاة والعشور، لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر، وهي الآن أخذت فأجابهم إلى ذلك وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتمهم... الحاج أحمد نفسه ومصطفى بن باش تارزي قاضي الحنفية...» (2).

يذكر العنتري أنه بقي ملتزما بوعدته معهم لمدة قليلة، إلا أنه نقض هذا الاتفاق وأبطله، الأمر الذي دفع ببعض العلماء إلى نهيه عن فعله، مما جعله يلجأ إلى القتل "وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس حتى تمنوا الناس ولاية الفرنسيين وكان الأمر كذلك"، وبهذا يريد العنتري إثبات محاسن الفرنسيين معطيا للعثمانيين صورة سيئة، وفي ذلك يقول:

(1) - محمد الصالح بن العنتري: فريدة منيسة...، المصدر السابق، ص: 14.

(2) - المصدر نفسه، ص ص: 14-15.

«وهذا فرق كبير بين الدولتين فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية وفي غيرها مما تحت أيديهم، كما يعلم ذلك من سافر إليهم وشاهد أحكامهم بخلاف الفرنسيين فإن أرضهم الأصلية في غاية العافية بسبب العدل بينهم وعدم الظلم فسار هذا في محل تحت أيديهم ومن لم يعلم ذلك يسأل العارفين»⁽¹⁾.

قارن العنتري بين العهدين العثماني والفرنسي فيما يخص الجانب الاقتصادي، ذكرا بأن الاهتمام بالزراعة في العهد العثماني كان ضعيفا جدا، الأمر الذي جعل كمية الحبوب غير كافية لمواجهة أي أحداث طارئة، أما فيما يخص ارتفاع الأسعار ومدى القوة الشرائية للنقود في العهدين فذكر: «أن الإنسان الذي لم يدرك العصر التركي ولم يشاهد نشاطه الاقتصادي وما يتصل به من أمور المعاش والكسوة والكسب ورخاء الأسعار وسمع ما يروى عنها في ذلك يتسرب إليه الشك...مع أن ذلك حقيقة واقعة...»، وقد استدل بذلك على الراتب العسكري في العهدين، حيث يورد أن الرجل العسكري في العهد العثماني كان يحصل على راتب سنوي من باشا الجزائر يصل إلى مائة ريال جزائري يكفيه لشراء كل احتياجاته من مأكّل وملبس وكراء مسكن، ولعله يدخر شيئا من ذلك، وبذلك يتمكن من شراء احتياجاته الكثيرة بعدد قليل من النقود، أما في العهد الفرنسي فالأسعار كانت مرتفعة، حيث أصبحت القوة الشرائية لمائة ريال تركية لا تعادلها مائة فرنك فرنسية، وإنما يعادلها ألف فرنك، وفي ذلك يقول: «وفي هذا دليل على ارتفاع الأسعار وغلائها في زماننا هذا»⁽²⁾ يعني سنة 1870م «بصورة مفرطة في سائر الأشياء»⁽²⁾.

كما يحدثنا أيضا عن مدينة قسنطينة التي رأى أنها كانت خالية من الإنتاج الزراعي في العهد العثماني، ولكن منذ استيلاء فرنسا على الجزائر تضاعف إنتاجها خاصة في ولاية الجنرال "قالبوه" الذي تولى حكمها سنة 1838م، وفي ذلك يقول: «...فإن الوطن قد غصّ بعمارة الفلاحين وقتئذ، وانتشرت العافية فيه انتشارا عظيما، وحصل لأهله إذ ذاك سرور

(1) - محمد الصالح بن العنتري: فريدة منيسة...، المصدر السابق، ص: 15.

(2) - صالح العنتري: مجاعات...، المصدر السابق، ص: 14.

عظيم، وعند ذلك انتزعت قلوب الناس بتلك الطمأنينة والراحة والملاذة، التي وجدوها في ذلك الزمان من إحسان أولئك السادات ومن تأييد خلفواتهم أيضا...»⁽¹⁾، يذكر كل هذا في محاولة منه لإظهار محاسن الفرنسيين وإبراز مساوئ العثمانيين.

أما فيما يخص طبيعة نظام الحكم العثماني فقد تعددت وجهات النظر حوله، نلمس ذلك في ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الأول يرى أن الجزائر كانت تتمتع باستقلالها، فهي دولة ذات سيادة وأن علاقتها بالباب العالي كانت لدوافع مصلحة، أما الاتجاه الثاني فيرى أن الجزائر كانت تابعة للدولة العثمانية وأن علاقتها بمركز السلطة تتميز بالخضوع والتبعية، فالأقلية التركية تتحكم في مقاليد الحكم، مما جعلها في وضع المستعمرة التركية، في حين أن الثالث لا يدلي برأيه صراحة، فهو في موقف المتردد الذي لم يصل إلى قناعة تثبت الاستقلال أو التبعية.⁽²⁾

يرى الاتجاه الأول أن الجزائر كانت تتمتع بالاستقلال، الذي يقوم على العامل الديني والمتمثل في حماية البلاد وسكانها، فدفاع الدولة العثمانية عن الإسلام أكسبها القبول لدى العامة والخاصة، وجعل نشاطها يتخذ طابع الجهاد الديني، وهذا ما دفع بالمؤرخ ناصر الدين سعيدوني إلى القول بأن العامل الديني ينفي كل صفة عنصرية أو طابع استعماري عن الوجود العثماني.⁽³⁾

إن عالم البحر المتوسط بهذا الاعتبار الديني يقوم على ثنائية قطبية (دار الإسلام) تحت راية الدولة العثمانية، ومجال أوروبي (دار الكفر) تمثله الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين، وهذا ما جعل إحقاق الجزائر بالدولة العثمانية واستقلالها لا يمكن تقييمه إلا في إطار هذه الجدلية الثنائية التي نفت عنه طابع التبعية والاستعمار، وفي ذلك يقول واتبليد "E.watbled" «أن العثمانيين لم يستولوا على الجزائر بقوة السلاح، وإنما الجزائريون هم

(1) - صالح العنتري: مجاعات... المصدر السابق، ص: 70.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات وآفاق مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000، ص: 164.

(3) - المرجع نفسه، ص: 180-181.

الذين ساعدوا عروج وخير الدين باعتبارهم حكاما مسلمين، للوقوف في وجه الإسبان، ولم يكن عمل هؤلاء (عروج وخير الدين) صادرا عن طموحات شخصية وإنما كان نابعا عن قرار وإقرار الجزائريين»⁽¹⁾.

أما الاتجاه الثاني، فيرى أن الحكم العثماني استبدادي ذو طبيعة استعمارية، فهو يستبعد كل اعتبار لرباط العاطفة الدينية، بل ينطلق في تحديد موقفه من الاعتبار القومي والتصور الأوروبي لطبيعة السلطة ومفهوم الدولة، حيث ينفي هذا الرأي استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية، معتمدا في ذلك على المصادر الغربية أمثال الأب دان "P.Dan" بايصونال "Peyssonnel"، بانانتي "Pananti" وفانتور دوبارادي "Ventur de paradis"، أما غرامون "H.D.De Grammont" فيرى: «أن الأتراك كانوا يحتلون إيالة الجزائر ولم يكونوا قط يحكمونها»، في حين يذهب مارسيل إميري "M.Emerit" إلى القول: «بأن ما نطلق عليه الآن اسم الجزائر كان في الواقع مستعمرة تركية»، أما الأب دان يعتبر أن سياسة الحكام العثمانيين كانت قائمة على السلاح والحرب فقط.⁽²⁾

ينظر بعض الباحثين الجزائريين إلى هذه الآراء أمثال نور الدين عبد القادر الذي يقول فيها: «أن الحكم العثماني للجزائر يتصف بالتعسف فهو إقطاعي مستبد لم يكن فيه للأهالي نصيب»⁽³⁾، أما مولود قايد فيرى: «أن الأتراك أجانب وقد ظلوا أجانب طيلة القرون الثلاثة وذلك لعدم تمكنهم من الاتصال بالسكان المحليين»⁽⁴⁾، وهذا ما جعل ناصر الدين سعيدوني يشير بالقول: «أن النظرة التاريخية الواقعية لقضية السيادة الجزائرية في العهد العثماني تفرض علينا أن لا نرى في استقلال الدولة الجزائرية فخرا واعتزازا، ولا في تبعيتها للدولة العثمانية خطأ واستنقاصا، لأن وضع الجزائر يتجاوز الأحكام الآنية، ويندرج في إطار أوسع، ويستجيب لمتطلبات استراتيجية فرضتها التحولات الداخلية والظروف الخارجية»⁽⁵⁾.

(1) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات...، المرجع السابق، ص ص: 181-182.

(2) - المرجع نفسه، ص ص: 183-185.

(3) - المرجع نفسه، ص ص: 185-186.

(4) - ناصر الدين سعيدوني: ورفات...، المرجع السابق، ص: 38.

(5) - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات...، المرجع السابق، ص: 189.

لقد أدلى أبو القاسم سعد الله برأيه حول طبيعة الحكم العثماني في الجزائر في حوار مع الأستاذ "مراد وزناجي" الذي سجله في كتاب بعنوان "حوار صريح مع الدكتور "أبو القاسم سعد الله"، حيث نقل نظرتَه بموضوعية بعيدا عن التحيز والانغلاق، فبعدما انتقد العثمانيين في موسوعته الثقافية بسبب التخلف السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي الذي كانت تعيشه الجزائر في عهدهم، إلا أنه وبعد عقود من موقفه هذا أضاف إليه رؤية جديدة من دون أن يغيره، فقد عدد إنجازاتهم السياسية، العسكرية والاقتصادية بقوله: «لو تشبع الجزائريون من دراسة العهد العثماني، وعلموا أن الجزائر قد أخذت شكلها الجغرافي والسياسي منذ هذا العهد، لامتلئوا فخرا واعتزازا، فوجود العاصمة والراية والحدود السياسية والشكل الجغرافي عدا الجنوب والمعاهدات الدولية وتأسيس الأسطول والوحدة الترابية وصك العملة، كل هذا يرجع إلى هذا العهد».(1)

كما رأى أن العثمانيين، وإن لم يتدخلوا في الشؤون الثقافية، إلا أن اللوم لا يقع على أصحاب السلطة فقط وإنما حتى على الرعية، فإذا لم تقم بواجبها فلماذا يلام الحكام وحدهم وما الحاكم إلا واحد منهم، كما يعتقد أن من سلبيات النظام العثماني أنه قادنا إلى الاحتلال "فلو أقدم النظام العثماني وأشرك معه الشعب وسائر النهضة الأوروبية في أمور لما وقعنا فريسة الاستعمار"، وحول طبيعة حكمهم في الجزائر يقول: «هو فتح في عصر الحروب الدينية، وتدخل أو دخول في عصر العدوان على الشعوب الإسلامية وقت ضعفها وتنازعها واحتلال في عصر القوميات»، وبهذا يكون قد أدلى بموقفه بذكره للإيجابيات والسلبيات معا بطريقة موضوعية بعيدا عن الذاتية.(2)

يذكر أحمد توفيق المدني، أن العثمانيين لم يكونوا مستعمرين، والدليل على ذلك أنهم لم يستولوا على الأرض ولم يبعثوا مزارعا عن مزرعته، كما أن عددهم لم يكن كاف حتى لاحتلال جزء من البلاد، مستدلا بذكره لعددهم في بعض المناطق، ففي بسكرة والزيبان بلغوا

(1) - محمد يعيش، جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص ص: 105-106.

(2) - المرجع نفسه، ص: 106.

63 تركيا، بجاية 44 وبمعسكر 42، الأمر الذي جعله يطرح تساؤلاً مفاده: فهل يمثل هذا العدد يكون الاحتلال؟ ذلك أن وجودهم كان يعتمد على رجال القبائل الجزائرية من جهة، ومن جهة أخرى على فكرة الجامعة الإسلامية التي تمثلها الخلافة العثمانية، كما كانت السلطة كلها تحت إدارة الباشوات والبايات وبيد شيوخ البلاد الجزائريين شرقاً وغرباً.⁽¹⁾

يذهب أحمد توفيق المدني إلى القول بأن العهد العثماني طالته العديد من الاتهامات جوراً وبهتاناً من قبل الكتابات الأجنبية، التي ذكرت بأن الجزائر ملجأً للسفاحين من لصوص البر والبحر ومرتعاً للمظالم وانتهاك الحرمات، وفي ذلك يقول: «على أننا حين نقول أن عصر الحكم العثماني بهذه البلاد قد ظلم وامتهن، لا نريد بذلك أن نقول أنه كان خير حكم بها، ولا نريد أن نقول أنه كان عصر مدنية ورفاهية وعدل يفوق في ذلك أو يضاهي عصوراً أخرى كلاً! فهيئات لعصر الحكم التركي أن يقارب من حيث ازدهار المدنية، وإيناع أسواق العلم والأدب شأؤ العصر الرستمي أو العصر الحمادي أو العصر الزياني مثلاً»⁽²⁾، كما يشير أيضاً إلى أن العهد العثماني تميز عن العهود السابقة بمميزات، منها أن الجزائر استكملت وحدة إدارتها وخضعت لسلطة مركزية واحدة وعملت على حماية الجزائر من الاحتلال الإسباني، فلولاها لأصبحت المدن الساحلية كلها مدن إسبانية بحتة كمليلة وسبتة بالمغرب الأقصى.⁽³⁾

يذكر سعد الله أن الجانب المضيء من هذا العهد هو «...أن العثمانيين قد أنقذوا بتدخلهم في بداية القرن العاشر المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد، وقد كانوا في ذلك غزاة مجاهدين تحالفوا مع الجزائريين لصد العدوان الصليبي وحماية الثغور وإقامة حكم إسلامي ثابت وقوي طيلة ثلاثة قرون شوكة في حلق العدو...»⁽⁴⁾، فتدخلهم لم يكن بالقوة والحروب، وإنما جاء بناء على رغبة الجزائريين الذين استجدوا بالأخوين عروج وخير

(1) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 08.

(2) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 7-8.

(3) - المرجع نفسه، ص: 08.

(4) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، المرجع السابق، ص: 15.

الدين لتحريرهم من الاحتلال الإسباني، كما أنهم أحرروا الاحتلال الفرنسي لمدة ثلاثة قرون وحافظوا على هوية الجزائر وإسلامها طيلة هذه الفترة إلى غاية احتلالها سنة 1830م.⁽¹⁾

كما أنها بعد أن توحدت وشكلت قوتها العسكرية في البر والبحر أصبحت دولة مستقلة رغم ارتباطها الاسمي بالباب العالي، حيث صارت تقبل الممثلين السياسيين وتمضي المعاهدات وتعلن الحروب وتتفاوض بصفة رسمية مع كل الدول، وبالتالي فاستقلال الجزائر في العهد العثماني كان أوسع كثيرا من استقلال بلاد الدومنيون الإنجليزي الحالية أمثال كندا أستراليا واتحاد جنوب إفريقيا، كما ذاع صيتها كذلك بين دول العالم وشاركت في العديد من الحروب ضد دول قوية وخرجت منها منتصرة.⁽²⁾

يذكر المدني أن الاتهامات التي وجهت للدولة العثمانية إذا ما قمنا بتمحيصها بطريقة تاريخية علمية نجدها باطلة، وفي ذلك يقول: «فإذا هم صوروا لك ظلم ولاية أو ديات الأتراك بالجزائر لم يصوروا لك إلى جانب ذلك مظالم الملوك والأمراء والنبلاء في أوروبا عامة شرقها وغربها ووسطها وشمالها وجنوبها، ولو أنهم صوروا لك ذلك وصوروا حياة النذل والمسكنة والفاقة التي كانت عليها الشعوب الأوروبية قبل الثورة الفرنسية الكبرى، ولو أنهم صوروا ما وقع خلال تلك الثورة وبعدها من حكم إرهابي فظيع، ولو أنهم صوروا لك مثلا أعمال الإسبان الشنيعة مع اليهود والعرب، إذا لرأيت الحكم التركي بهذه البلاد خلال تلك القرون الثلاثة جنة وارفة الظلال ولرأيت أن أرض الجزائر كانت تعتبر تجاه تلك المظالم والآثام ملجأ الحرية وموطن العدل والإنسانية».⁽³⁾

تشير الكتابات الغربية إلى أن الاغتيالات في العهد العثماني، كانت تحدث لمجرد الشبهات أو الظنون، وهذا ما دفع بأحمد توفيق المدني إلى التساؤل عما إذا كانت الأنفس البشرية طيلة تلك العصور لها حرمة في كامل البلاد الأوروبية أم لا؟، حيث يرى أنه إذا

(1) - فاطمة زهرة آيت بلقاسم: المرجع السابق، ص: 12، 14.

(2) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 8-9.

(3) - المرجع نفسه، ص: 9.

تمت المقارنة بين عدد الأشخاص الذين أزهقت أرواحهم من قبل الحكام العثمانيين طيلة ثلاثة قرون وبين عدد الذين قتلوا في أي بلد من بلاد أوروبا وفي قرن واحد فقط لا في ثلاثة قرون سنجد أن عدد الضحايا في أي بلد أوروبي في قرن واحد يفوق ضحايا العثمانيين في الجزائر خلال الثلاثة قرون⁽¹⁾، ويوضح ذلك بالقول: «أما القتل السياسي فإن ثبت أنه كان يقع في القطر الجزائري أيام الحكم التركي وفي القرن الثامن عشر فما فوق، فإنه ما كان يقع إلا على الأفراد لا على الجماعات وذلك بخلاف القتل السياسي والديني الذي كان يقع في أوروبا سواء أكان قبل الثورة الفرنسية الكبرى أو أثناءها، حيث كانت مقصلة الإعدام تشتغل أشهرا على التوالي وتكاد تواصل الليل بالنهار في قطع رؤوس ضحايا الثورة الأبرياء وخاصة رؤوس الذين كونوا نفس تلك الثورة من رجال الجيرونندان الأحرار»⁽²⁾.

يذكر بعض المؤرخين أن الجزائريين عانوا من حكم العثمانيين، فقد وصل بهم الحال أن لا أحد يستطيع قول كلمة حق فإن تجرأ على ذلك كان جزاؤه القتل، إلا أن أحمد توفيق المدني يرى عكس ذلك، حيث يشير أن حكمهم كان يؤمن بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾، مستدلا بقيام الثورة الفرنسية الكبرى ضد الطغيان الحكومي، هذه الثورة التي وقعت قبل أربعين سنة من احتلال فرنسا للجزائر، والتي نتج عنها تدمير وتخريب وسفك دماء عشرات الآلاف مع انتهاك كل الحرمات، رغم أنها كانت بداية لانتشار مبادئ الحرية والمساواة، بعد أن عانى الشعب الفرنسي من الظلم سواء من الحكومة أو النبلاء والأشراف أو من رجال الدين أضعافا مضاعفة مما كان يعانيه الشعب الجزائري في العهد العثماني، فالجزائريون كانوا أسيادا في أرضهم، كما أن الضرائب التي كانوا يدفعونها كانت قليلة جدا مقارنة بالضرائب التي تفرض على الفلاحين في أوروبا في تلك الفترة⁽⁴⁾.

(1) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 12.

(2) - المرجع نفسه، ص: 12.

(3) - سورة الرعد، الآية 90.

(4) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 13-15.

يستدل توفيق المدني بقوله: «عندما كانت الجزائر خاضعة لحكام الأطلاق من الترك كانت الدنيا بأسرها ومن دون استثناء خاضعة لملوك الأطلاق الظالمين المستبدين، وكان الفرد يتمتع عندئذ وهو في كنف دول الإسلام الخاضعة ولو اسما لأحكام القرآن ومنها بلاد الجزائر بحرية أوسع وعدل أوفر ونعمة أصبغ مما كان يتمتع به أي فرد آخر في بلاد أخرى وكتب التاريخ بين مطولة ومختصرة حافلة بالشواهد التي تؤيد ما نقول».(1)

كانت الكتابات الأجنبية ترى أن الجزائر عانت طيلة العهد العثماني من اندلاع الثورات في مختلف المناطق، وقد كان يتم قمعها بأبشع الطرق، فنجده يعقب على ذلك بقوله: «وإن أعمال القمع التركية لا تعد شيئا مذكورا إذا قسناها بأعمال الزجر والقسوة والتي ارتكبتها الفرنسيون أنفسهم عندما دوخوا أرض الجزائر، وحطموا المقاومة الشعبية بها... إن أخلاق الأمم في ذلك العصر كانت متساوية في ميدان الحرب وقمع العصيان، ولربما كان الشرقي المسلم أفضل في هذا الميدان وأرحم من غيره».(2)

كما يشير أنه في يوم 07 جويلية سنة 1833م أرسل ملك فرنسا لجنة تحقيق لمعرفة وضع الجزائر المحتلة، وللتأكد كذلك من التهم التي وجهتها المعارضة إلى الحكومة السابقة، حيث أرسلت تقريرها إلى الملك، ومما جاء فيه ما يلي:

- «إذا فحصنا الأعمال التي قمنا بها نحو الأهالي، وجدنا أنها لم تكن غير منطقية على أسس العدل فحسب، بل إنها كانت غير منطقية على أصول العقل والمنطق أيضا، فنحن رغما عن وجود معاهدة تسليم عنية وانتهاكا لكل الحقوق المدنية البسيطة التي لكل شعب قد تجاهلنا كل حقوقهم وامتهنا عوائدهم وكيانهم».(3)

(1) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 15.

(2) - المرجع نفسه، ص: 15-16.

(3) - المرجع نفسه، ص: 16.

- «بلغ بنا الأمر إلى درجة أننا كنا نغتصب الأملاك ثم نجبر مالكيها على دفع المصاريف اللازمة لهدمها، أو كنا نجبر الناس على دفع مصاريف هدم المساجد».

- «لقد ذهبنا جماعة من الناس كانت تحمل جواز المرور منا، ولمجرد ظنون قمنا بإعدام سكان جهات واسعة، ثم ثبتت براءتهم فيما بعد، وأوقفنا أمام المحاكم رجالا من ذوي النفوذ الديني ما كان ذنبهم، إلا أنهم تجرؤوا على الوقوف أمامنا بإخلاص، يسألوننا الشفقة على أبناء ملتهم، فوجدنا حكاما يستطيعون أن يصدروا على هؤلاء الرجال حكم الموت، ووجدنا رجالا متمدين يستطيعون تنفيذ هذا الحكم، والخلاصة أن وحشيتنا كانت تفوق كثيرا وحشية الذين ذهبنا نحمل إليهم المدنية»⁽¹⁾.

إن ما أقرته اللجنة واعترفت به من أعمال وحشية في حق الجزائريين، يثبت بأن فرنسا حلت بالجزائر من أجل اغتصاب أرضها والاستيلاء على ثرواتها وإبادة شعبها، وبالتالي فهي لم تأت من أجل نشر الحضارة والمدنية كما تدعي، وإنما من أجل احتلالها. لقد اعتبرت الكتابات الفرنسية أن الوجود العثماني مثل عائقا كبيرا في تطور النظم الاقتصادية والاجتماعية، كما حال دون اكتساب الجزائر لمقومات الدولة الوطنية في محاولة منها لإثبات أن الحضور الفرنسي كان أقرب إلى العمل الحضاري منه إلى التدخل الاستعماري، فهي ترى أن الجزائر منطقة فراغ حضاري ينعدم بها وجود شعب متماسك، وبالتالي فهي جزء من الغرب اغتصب وافتك من طرف الشرق في حدثين، الأول عند الفتح الإسلامي في القرن 7م، والثاني مع ظهور الأتراك وتأسيس إيالة الجزائر مع بداية القرن 16م، فالجزائر حسب "ستيفان غزال" لا تتجاوز لفظا اخترعه الفرنسيون "L'Algérie" سنة 1838م ليطلقوه على جزء اقتطع اعتباطا من إفريقيا الشمالية.⁽²⁾

(1) - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص: 17.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: ورقات...، المرجع السابق، ص: 41-42.

أما محمد العربي الزبيري فيذكر بأن الوجود العثماني لم يكن احتلالاً وإنما عملية انقضاض تشبه ما قام بها "يوسف بن تاشفين" لحماية الأندلس، وما يثبت ذلك أن العثمانيين لم يقضوا على الشخصية الوطنية بل حافظوا على عناصرها، حيث أبقوا على اللغة العربية وتعلموها وأصبحوا يستعملونها حتى في مراسلاتهم مع الباب العالي، ولكونهم مسلمين لم يهينوا الدين بل قاموا ببناء المساجد وأوقفوا عليها الأحباس، كما سعوا إلى ضم الجزائريين إلى الديوان، غير أنهم رفضوا هروبا من المسؤولية، كما عرفوا بمعاملتهم الحسنة للقبائل حيث كانوا يرجعون لهم ما تم الاستيلاء عليه أثناء قيام الثورات، في محاولة لإشعار السكان بأنهم ليسوا غزاة أو محتلين، يشير حمدان خوجة إلى أن ما يثبت حب العثمانيين للإيالة «أن بعضهم يرفض الزواج لكي تبقى ممتلكاته لبيت المال وتزدهر البلاد».(1)

رغم كل ما ارتكبه العثمانيون من أخطاء، إلا أن هذا لا يعني أنهم لم يقصروا في واجباتهم، وفي ذلك يقول الزبيري: «...ارتكبوا خطأ فادحا عندما تخلوا عن سعيهم للاندماج اندماجا كليا في السكان، وانقادوا للتurf والملذات على حساب مصالح الشعب، فآثاروا بذلك سخط السكان وعرضوا سلطانهم للزوال».(2)

(1) - محمد العربي الزبيري: التجارة...، المرجع السابق، ص: 34-35.

(2) - المرجع نفسه، ص: 35.

الفصل الرابع

**دراسة تحليلية نقدية للكتابات التاريخية
الجزائرية في القرن 18م إلى غاية النصف
الأول من القرن 19م**

أولاً: دوافع التأليف.

ثانياً: الكتابات التاريخية بين الذاتية والموضوعية في نظرتها للسلطة العثمانية

في الجزائر.

ثالثاً: القيمة التاريخية للكتابات الجزائرية.

أولاً: دوافع التأليف

إن عنوان كتاب "التحفة المرضية في تاريخ الدولة البكداشية" يظهر من خلال مضمونه، فهو التحفة وهو طلب الرضا من محمد بكداش فكأن الكتاب يقدم هدية غالية يبتغي من ورائها الرضا والقبول منه⁽¹⁾، فكان دافع "ابن ميمون" في تأليفه هو تقربه ومحبته لهذا الداوي ولسيرته المرضية، وفي ذلك يقول: «وبعد: فإنني لما رأيت مولانا الإمام الذي أنام في ظل الأمان جميع الأنام عالم الأمراء وأمير العلماء مولانا فخر الدولة العثمانية وناشر العدل على جميع البرية أبو النصر محمد بكداش أنارت أنواره جميع البلدان والتف ملكه بالإحسان التفاف الساق بالساق، أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه المحتوي على ما نشر من السيرة المحمدية عليه وأشرف محاسنه بمثوله بين يديه... وسميته "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" محتويًا على مقامات ست عشرة... كأنها قلائد العقيان ودرره والله أسأل أن يتلقاه بالقبول»⁽²⁾، وعليه يتضح من خلال ذكره لهدف التأليف أن الداعي لذلك هو التقرب من السلطة العثمانية المتمثلة في شخصية الحاكم العثماني "محمد بكداش".

يذكر ابن المفتي أن الداعي لتأليفه هو ملاحظاته حول نقص الاهتمام بالتاريخ لمدينة الجزائر وذكر علمائها، كما أن الأحداث التي كتبت عن الجزائر ضاعت ولم تحفظ بنقلها إضافة إلى فقدانه لأولاده جعله حزينا فأراد التسلي بالتأليف، فهو يقول: «وبعد، فعلم التاريخ عبادة ومنة جزيلة ومعرفة أخبار العلماء منقبة جليلة، وإن تلك الأخبار رسمها بالجزائر مندرس وما كتبه ذوو الرحلة في شأنها وشأن رجال العلم فيها غير مقتبس، ومما حملني على هذا التقييد وإن كنت لست من فريق المؤلفين ولا من عدادهم هو التسلي عن الهموم

(1) - الجيلالي سلطاني: المرجع السابق، ص: 68.

(2) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص: 84، 113.

بعد فقد الأبناء والأولاد، فوقع لي العزم على ما نويت وأطلب من الله الإعانة، وأن يجعلني ممن ثابر على فعل الجميل فإنه خير مسؤول»⁽¹⁾.

كتب المشرفي متأثراً بعد عودة الاحتلال الإسباني لوهـران سنة 1732م بعدما شارك في تحريرها الأول سنة 1708م، فكتب لتهيئة النفوس لاسترجاعها ثانية ولتتبيه الرأي العام الجزائري لخطر قبائل بني عامر العميلة للإسبان⁽²⁾، وفي ذلك يقول المشرفي: «...وبعد فهذا التقييد سميته بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانين بوهـران من الأعراب كـبني عامر، وها أنا أشـرع في المراد ومن الله تعالى أسأل الاستمرار إنه على ما يشاء قدير»⁽³⁾.

أما الورتلاني فقد دون رحلته "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" بسبب النقص الكبير في التأليف في الجزائر بصفة عامة، وانعدام الاهتمام بالتاريخ بهذه الديار بصفة خاصة، فأراد بذلك التأليف في علم التاريخ، وعن ذلك يقول: «فإن علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء أو انشغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها»، كما صرّح في مقدمة كتابه بدوافع تأليفه الناتجة عن شغفه الكبير بما رأى وشاهد أثناء رحلته، حيث يقول: «وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار والمواطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى... والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان... من المشرق إلى المغرب، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي...»⁽⁴⁾.

أما بن رقية التلسماني فألف "الزهرة النائرة" بدافع بث روح الحماس في قلوب الجند وطلبة العلم وحثهم على طلب الجهاد لتحرير مدينة وهران من أيدي الإسبان، وفي ذلك

(1) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص: 35.

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 168.

(3) - Marcel Bodin: *Op.cit*, p: 197.

(4) - عبد القادر بكاري: منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، إشراف: دحو فغرور، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2015-2016م، ص: 207-208.

يقول: «...فهذه أوراق تحرك على الجهاد أرباب القلوب النافرة وتنمي في اجتهاد المنكبي عليه زيادة وافرة...».(1)

إن الحياة الثقافية في الجزائر منذ القرن 18م وإلى غاية النصف الأول من القرن 19م كانت ميدانا خصبا للإنتاج الثقافي، وهي من بين الأسباب التي جعلت ابن رقية يؤلف مخطوطه، كما أن أساس كتابة تأليفه تعود لحملة "أوريلي"، فقد كان محمد الباي الكبير أحد أمرائها، لذلك أسهب في الحديث عن أطوارها ومراحلها، حيث يقول ابن رقية أيضا «إنما حررت هذه الأوراق وجمعت هذه الأحرف لتكون تذكيرا لي ولمن حضر هذه الوقائع خصوصا لمن استشهد فيها بالرحمة والمغفرة وإعلاما لآخر القاطنين والمرابطين بها وليعرفوا قدر الجزائر إذ تراب نواحيها معجون بدماء العباد».(2)

رغم أن بن حمادوش في رحلته "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" لم يذكر دوافع تأليفه، إلا أن الأكيد هو أن الكتاب كان حصيلة لرحلات قام بها لعدة بلدان مشرقا ومغربا، حيث تنقل بينها كثيرا منذ العشرينيات من عمره والتي ابتدأها بأداء فريضة الحج سنتي 1713م و1718م، كما رحل إلى المغرب الأقصى في عدة مناسبات منها رحلته سنة 1732م و1743م، واللذان سجل فيهما ملاحظاته، إجازاته، أحكامه ومشاهداته.(3)

لقد ألف بن سحنون الراشدي "الثغر الجماني" بدافع تخليد مآثر الباي محمد الكبير وجهاده، وفي ذلك يقول: «هذا وإني خدمت حضرته الفخيمة وأعتابه الكريمة بقصيدة أرجوزة سهلة الألفاظ قريبة المتناول والمأخذ...ذكرت فيها محاسنه الجهادية وأيامه الجلادية وكيفية توصله إلى هذا الثغر...قصدت بذلك تخليد مآثره وتدوين بعض محامده ومفاخره ليقف عليه آخر الأمة فيعلمون قدر ما أسدى إليهم من الإحسان وأهدى إليهم من الهدايا...فيترحمون عليه...».(4)

(1) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 33.

(2) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 36، 42، 157.

(3) - عبد القادر بكاري: عبد الرزاق حمادوش والكتابة...، المرجع السابق، ص: 239-240.

(4) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 98.

يعد كتاب "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" لابن زرفة من أشهر مؤلفاته التي قيدها بطلب من الباي محمد الكبير، حيث ذكر: «فإن أولى ما أفتني من المحامد وأحرى ما سعى في تحصيله كل ساع وحافد إجابة ولي الأمر بنهل المجهود في تحصيل موجب المالك المعبود بامتثال أمره اللازم الفرض إذ طاعته كما قيل من طاعة الله...»⁽¹⁾، والتي كتب فيها عن الحوادث المتعلقة بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره، حيث قيد قليلا ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح⁽²⁾، كما قيد ابن هطال أحداث رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري بغرض إخضاع القبائل الممتعة تلبية لطلب الباي، وبالرغم من أنه ظل مستشارا وكاتبًا ببلاطه، إلا أنه لم يكتب في موضوع الفتح الأول والثاني لمدينة وهران وإنما كتب بدافع إعجابه بأعماله⁽³⁾، يورد ذلك بقوله: «وقد أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها حضرة قانع المبغضين ومدوخ المارقين من جمع الله له خصال الشرف والمجد وموجات الشكر والحمد... السيد محمد باي...»⁽⁴⁾.

يعد كتاب "عجائب الأسفار" لأبي راس شرحا لقصيدته "نفيصة الجمان"، فبعدما قرأها على مسامع الباي محمد الكبير طلب منه توضيح معانيها وألفاظها⁽⁵⁾، وقد أشار أبو راس إلى أن الهدف من تأليفه هو الإشارة لحدث فتح وهران ومدح فاتحها محمد بن عثمان، وفي ذلك يقول: «...الغرض من هذا الكتاب ذكر فتح وهران ومدح الفاتح لها وهو نادرة الزمان وقبلة الإحسان سيدي محمد بن عثمان باي حال من الملوك محل اللبة من الصدر والنور لها من هالة البدر حتى اشتهر من بينهم اشتهار النهار وشيدت به معالم الحق وانطمس رسم الباطل وكان على شفا جرفها فانهار...»⁽⁶⁾.

(1) - تقي الدين بو كعبر، دحو فغرور: المرجع السابق، ص: 102.

(2) - فاطمة درعي: المرجع السابق، ص: 155.

(3) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 170.

(4) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 35-36.

(5) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 32.

(6) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 56.

من خلال ما تم ذكره نلاحظ أن بن رقية، بن سحنون، بن زرفة، أحمد بن هطال وأبو راس الناصري كتبوا تلبية لطلب الباي محمد الكبير وخدمة له، لكنهم اختلفوا في الموضوع الذي كتبوا حوله، بينما اشترك كل من بن سحنون، بن زرفة وأبي راس في تقييد أحداث فتح وهران الثاني سنة 1792م، وتخليد مآثر الباي الجهادية، العمرانية والثقافية، وبالتالي نفهم من ذلك أنهم لم يقصدوا كتابة تاريخية بقدر ما قصدوا تقييد أحداث أملتها ظروف الفتح ونتائجه⁽¹⁾، كما أن هؤلاء المؤلفين لم يتقربوا من السلطة رغبة في الكسب والارتزاق فغالبيتهم مات فقيرا أو على الأقل ظل الفقر يهدده، لقد كان موقفهم من السلطة يرتبط بمفهومهم السياسي، فالمؤسسة السياسية في الجزائر في نظرهم تتوفر على الشروط التالية: الجهاد، الرياسة القوية والعدل.⁽²⁾

كتب مسلم بن عبد القادر كشاهد عيان على الانقلاب الذي وقع بين عهد عثماني زال -بسبب انحرافات بعض البايات الأواخر خاصة الباي حسن (آخر بايات الغرب)- وعهد فرنسي حل بالجزائر.⁽³⁾

لقد كتب جل هؤلاء حول صد الحملات الأوروبية والفتح، وفي مقابل ذلك هناك من كتب بمناسبة الاحتلال الفرنسي منذ مطلع القرن 19م⁽⁴⁾، مثال على ذلك حمدان خوجة في كتابه "المرآة" الذي قيده للتعبير عن رفضه للاحتلال وللكشف عن التجاوزات والجرائم التي ارتكبتها الجيش الفرنسي في الجزائر، ولإظهار ما كانت عليه قبل الاحتلال⁽⁵⁾، وفي ذلك يقول: «...إن كل ما مرّ بالقطر الجزائري منذ ثلاث سنوات ليفرض عليّ واجبا مقدسا من حيث التعريف بحقيقة أوضاع هذا القطر قبل الاحتلال وبعده، وذلك لكي ينجذب انتباه

(1) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 168.

(2) - محمد غانم: المرجع السابق، ص: 13.

(3) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 171.

(4) - نفسه، ص: 172.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 236.

رجال الحكم حول هذا القسم من البسيطة، ولكي أطلعهم على مدى معرفتي به، وأوضح لهم بعض النقاط الهامة، التي لا ريب في جهلهم إياها»⁽¹⁾.

أما بن العنابي فدافعه إلى التأليف، هو إجابة أحد السائلين المستزيدين من آرائه في الموضوع، ذلك أن موضوع تجديد الجيش والأخذ بأسباب الحضارة أو الاختلاف بين أنصار التقليد والتجديد كان على أشده خلال عقد العشرينيات، ففي إحدى المجالس التي حضرها بالقاهرة، وبعدما تناول الكلمة وافترق المجلس طلب منه أحدهم كتابة رسالة في الموضوع، وفي ذلك يقول: «وقد جرى بيني وبين أفاضل الإخوان في مجمع أنس جاد به الزمان كلام علق منه بباله فوجه إليّ خطابه بكتابة جواب على منواله، فلزمني أن أسعفه بما رام وأزیده بسطا يناسب المقام، فأقول في جوابه متلذذا بتجديد خطابه»⁽²⁾، كما أُلّف لإعلان رأيه في سبيل الإصلاح في الحكم بالإدارة والجيش وتوطيد الصلات بين الحاكم والمحكوم شجعتة على ذلك الظروف التي كان يعيشها العالم الإسلامي، وبالأخص الجزائر التي انتشر الفساد في أجهزتها المختلفة، فضلا عن الآفات الاقتصادية والاجتماعية، حيث شاعت الرشوة وتدخل النفوذ اليهودي ليعيث في الاقتصاد فسادا.⁽³⁾

إن أغراض بن العنابي من تأليفه "السعي المحمود في نظام الجنود" تستحق كل ثناء وتنويه، كونها بعيدة عن أي غرض دنيوي أو مادي، فدافعه يتجاوز الطموحات الشخصية والمحلية إلى طموحات خدمة الأمة الإسلامية ومستقبلها.⁽⁴⁾

كتب الزهار عن الجزائر لإبراز خصوصياتها وأهم ما حل بها من كوارث طبيعية وسياسية⁽⁵⁾، بينما أُلّف العنتري "الفريدة المؤنسة" أو "تاريخ بايات قسنطينة" بتكليف من

(1) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 21.

(2) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 61.

(3) - عمر بن قينة: المرجع السابق، ص: 52.

(4) - طاهر قاسمي: "كتابات المؤرخين المغاربة خلال العهد العثماني"، مجلة الإنسان والمجال، مج:3، ع: 5، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي نور البشير، البيض، الجزائر، 2017، ص: 47.

(5) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 235.

بواسوني⁽¹⁾، الذي تم تعيينه على رأس المكتب العربي بمصلحة الشؤون العربية في مدينة قسنطينة من طرف الجنرال "باراقي ديلي"، فاختر صالح بن العنتري ككاتب للعمل معه في مكتبه، ولكونه مهتم بالاطلاع على ماضي قسنطينة وبايلكها في عهد الأتراك، كلفه بأن يؤلف له عن ذلك بعد أن وضع له منهاجاً وخطّة.⁽²⁾

أما أحمد بن المبارك فيشير في تاريخ بلد قسنطينة إلى دافعه في التأليف بقوله: «سألني بعض المحبين رزقني الله وإياهم خير الدارين أن أقيّد له بعض أخبار قسنطينة فأجبتّه بقصور عن إدراك هذا المرام لعدم وقوفي على تاريخ لها لأحد العلماء الأعلام...» ولهذا يظهر أن غرضه لم يكن وطنياً صرفاً بقدر ما هو تلبية لأحد المستعمرين وهو "بواسوني"، وهو ما يشترك فيه مع العنتري.⁽³⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله: رسالة من العنتري...، المرجع السابق، ص: 104.

(2) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 50.

(3) - نفسه، ص: 71.

ثانياً: الكتابات التاريخية بين الذاتية والموضوعية في نظرتها للسلطة العثمانية في

الجزائر

للتعرف على المنطلقات الفكرية لهذه الكتابات، وجب علينا معرفة مدى قرب أو بعد المؤرخين من السلطة العثمانية، فهم صنفان من حيث المؤرخين الذين يعيشون داخلها وهم الأغلبية المؤيدين لها ومن هم خارجها وهم أقلية، فعلاقة بن ميمون بالسلطة ومنطلقاته تظهر من خلال توليه خطة قضاء الجزائر وخطة المواريث زمن الداوي إبراهيم باشا 1745-1748م، كما أن جد ابن المفتي رجب كان شاوش العسكر، وهي وظيفة تمكن صاحبها من معرفة أسرار التدخل في التولية، العزل والتأثير على الولاة أنفسهم، وبالتالي فإن علاقة أسرة المؤلف بالسلطة هي علاقة مباشرة، ومنها كان منطلق كتابته، أما عبد القادر المشرفي فلم يتول منصباً فيها، إلا أنه كان متعاوناً معها، فقد أصدر فتوى لتكفير القبائل العميلة مما يدل على ولائه لها. (1)

أما بن رقية التلمساني فنجدته يؤيد السلطة في فكرة الجهاد والتحرير، حيث يظهر ولاءه للداوي في قوله: "لأن أميرنا المجاهد محمد باشا وعد..."، ويعد كل من ابن زرفة وابن سحنون من مؤرخي البلاط، على اعتبار أنهما مواليان لها، حيث كتب كل منهما سيرة الباي محمد الكبير بطريقته، إلا أن موقفهما هذا لم يكن من أجل الكسب والارتزاق، بل كان من منطلق أن ارتباطهما بالسلطة العثمانية يقوم على شروط حددها الشرع الإسلامي وهي العدل، الجهاد والرياسة القوية. (2)

كان أبو راس من المؤرخين الذين حملوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن المؤسسة القائمة لا سعياً وراء التقرب منها والانتفاع من عطاءاتها، بل لموقف نابع من السياسة الشرعية التي تقوم على الجهاد والحكم العادل لا على تشجيع الفتن والقتال، لذا كان من المساندين لحكم العثمانيين، وفي قيام سلطتهم كونها عملت على حماية الجزائر من

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 238-240.

(2) - المرجع نفسه، ص: 240.

التحرشات الإسبانية والأوروبية أثناء حلولهم بها منذ بداية القرن 16م إلى غاية القرن 18م. (1)

لقد أبدى حمدان خوجة ولاءه للسلطان العثماني، ورغم انتقاده لنظام الحكم إلا أنه ظل جزءا من السلطة الحاكمة، في حين تولى بن العنابي منصبا على رأس إحدى أكبر مؤسسات الدولة وهي الإفتاء الحنفي، فكانت أفكاره تتبع من منطلق خدمته للسلطتين الجزائرية والعثمانية، من خلال وقوفه إلى جانب السلطان محمود الثاني وولائه له، فقد دافع عن مبادرته التحديثية في إصلاح الجيش وتنظيمه، وقد دون الزهار الأحداث التي جرت في الجزائر أثناء العهد العثماني من منطلق أنها دولة تعلن الجهاد على النصارى، ورغم توليه نقابة الأشراف تحت ظل الإدارة الفرنسية، إلا أنه بقي ينظر إليها كاحتلال عكس العنثري الذي استمر خادما لها. (2)

أما فيما يخص المؤرخين الذين كتبوا خارج نطاق السلطة الحاكمة، فمنهم الورتلاني الذي بقي بعيدا عنها، إلا أنه كان ينتقدها أحيانا ومعها العلماء الموظفون فيها، كما انتقد كذلك الفتن والتجاوزات، إن بن حمادوش كان بعيدا عن السياسة يؤدي مهنته كعطار، لكنه تناول بعض الأحداث التي جرت في العهد العثماني. إن هؤلاء المؤرخين سواء الذين عرفوا بقربهم أو بعدهم عن السلطة اشتركوا في كتاباتهم انطلاقا من مرجعياتهم الدينية، بسبب طبيعة تكوينهم وميل بعضهم إلى التصوف، حيث ساد الاعتقاد لدى أصحاب الزوايا والمرابطين منهم الورتلاني وأبو راس الناصر هذا الأخير الذي كان يرفض الشعوذة والطرقية، لكنه يشيد بالتصوف في نطاق السنة. (3)

لقد انطلق هؤلاء في كتاباتهم من الواقع الذي اتسم بالضعف، التخلف والاحتلال، فعدم تقبل حمدان خوجة وبن العنابي للاحتلال كان منطلقا لكتابتهما، فدعوة بن العنابي

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص ص: 9-10، 48.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص ص: 241-242.

(3) - المرجع نفسه، ص ص: 242-243.

للتجديد في الجانب العسكري جاءت نتاج تكوينه ومشاهداته لتطمح أسطول الجزائر أمام الأسطول الأمريكي سنة 1815م، وأمام الغزو الإنجليزي-الهولندي سنة 1816م، في حين فهم حمدان خوجة الفكر السياسي في أوروبا الذي انطلق منه في بناء أفكاره، وهو ما جعله يشيد بالحضارة الأوروبية، حيث اعتبر أن الحرية هي أساس كل نظام ناجح، والظلم سبب لزوال الدول، كما عرف بتشبعه بالفكر القومي والوطني، الذي كان سائدا في أوروبا خلال القرن 19م.(1)

تحكمت عدة عوامل في المنطلقات الفكرية للمؤرخين، منها البعد والقرب من السلطة التي تحكمت في صراحتهم، فعلى الرغم من أن الذين كانوا يعيشون داخل بلاطها، إلا أنهم لم يكتبوا عن بعض المواضيع التي تخص الدولة وأسرارها مثل العلاقات المختلفة للجزائر مع إسطنبول أو مع دول أوروبا، ولم يصوروا العنف الذي ساد بعض فترات العهد العثماني، لذا أبدت السلطة نوعا من الاحترام للمؤرخين حتى تفرض سيطرتها لا قناعة في ذلك. ما يلاحظ على هذه الكتابات أنها لم تأت انطلاقا من أفكار إصلاحية ما عدا حمدان خوجة وبين العنابي، مثل ما كانت عليه أوروبا لأنها لم تساير العصر، حتى الذين كتبوا عن المجتمع أمثال الشريف الزهار وحمدان خوجة لم تلق كتاباتهما صدى لدى السلطة الحاكمة التي كانت بيدها زمام الأمور والتغيير.(2)

اتفقت الكتابات التاريخية، على أن الفتح الثاني لمدينة وهران، كان على يد الباي محمد الكبير الذي دفع من ماله الكثير، كما أقرت بمشاركة الجنود العثمانيين في الدفاع عن المدينة إلى جانب الطلبة والشعب أثناء الحصار، بدليل قول بن زرفة: «ولما قبض الله تعالى أسود بني آدم (الجند العثماني) كسروا الصخرة (قلعة مرجاجو) وقتلوا الحية (الجند الإسباني)»، كما أجمعت على وصف مجريات الحصار ومراحله والعدد الكبير للجيش الجزائري المحاصر للمدينة، لكنها لم تغض النظر خاصة بن زرفة وبين سحنون عن

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 245.

(2) - المرجع نفسه، ص: 245-246.

التجاوزات التي حدثت أثناءه، فعلى سبيل المثال تناولت الخلاف الذي وقع بين الطلبة في رباط إيفري وجهود الباي في حله، وذلك بتجنيد جيش نظامي، وهو نفس الموقف الذي اتخذه كل من الناصري وبن زرفة فيما يخص القبائل المتعاونة مع الإسبان.⁽¹⁾

يعد "بهجة الناظر" لعبد القادر المشرفي تشبيحا لكل من كان يتعاون من المسلمين في بايلك الغرب مع المحتلين الإسبان، حاثا المسلمين على الاحتراز منه، داعيا الجزائريين إلى الاستعداد لفتح وهران بعد سقوطها الثاني بيد الإسبان سنة 1732م⁽²⁾، وبالتالي فإن وقوفه ضد المتعاونين مع هذا المحتل، دلالة على دعوته إلى الجهاد ضدهم، وتأييده المطلق للحكام العثمانيين، الذين سعوا لحماية الجزائر من التحرشات الإسبانية، وهذا ما يثبت صراحته وموضوعيته في الطرح.

تناول أبو راس في مؤلفه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" حدث فتح وهران، حيث مدح الباي محمد الكبير الذي وصلته أخبار فتحه وهو في تونس، رغم غيابه زمن حصاره لها بهدف تحريرها سنة 1791م، كما مدح البايات وسياساتهم وذم المعارضين لهم خصوصا درقاوة التي ألفت في حقها كتابا مازال في حكم المفقود عنونه بـ "درء الشقاوة في حرب درقاوة"، وهو موقف لم ينفرد به أبو راس فقط، بل إن بن هطال ساند البايك ضد معارضييه مشيدا بما قام به ضد خصومه، بل قدم حياته ثمنا لهذا الولاء، حيث لقي حتفه في معركة فرطاسة وهو يساند الباي المنزالي ضد ابن الشريف الدرقاوي.⁽³⁾

ما نلاحظه أن أبا راس قيّد مؤلفه "عجائب الأسفار"، رغم أنه لم يكن شاهد عيان على أحداث الفتح بسبب تواجده بتونس، وهكذا فإن ما كتبه قد يكون فيه نوع من الذاتية على اعتبار أنه لم يعايش الأحداث.

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص ص: 183-185.

(2) - قدور بوجلال، دحو فغرور: المرجع السابق، ص ص: 551-552.

(3) - كمال بن صحراوي: "أضواء حول بعض المؤلفات ببايلك الغرب الجزائري من خلال المجلة الإفريقية"، مجلة عصور الجديدة، مج:7، ع: 27، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1 أحمد بلة، وهران، الجزائر، 2018م، ص ص: 165-166.

لقد نقل إلينا أيضا دعوة الولي ابن ملوكة على عروج بالموت، مما يظهر لنا أنه تأثر بالقمع الذي مارسه على سكان تلمسان، أما نظرتة لخير الدين فكانت نظرة تعظيم عكس نظرتة لعروج، فخير الدين في نظره هو الحاكم النموذجي فهو "لا يقبل سفك الدماء من غير وجه شرعي وكان بالغاية القصوى في الزهد والورع والتقوى والإخاء، وكان كثيرا ما يرى رسول الله عليه الصلاة والسلام في منامه"⁽¹⁾، وهذا دلالة على موضوعيته لأنه لم يمدح عروج بسبب أعماله القمعية بتلمسان، بينما أكثر من مدح خير الدين نظير أعماله وصفاته الحسنة.

يعبر بن رقية في مؤلفه "الزهرة النائرة" بصدق عن موقفه من الأحداث المتمثلة في الحملات الأوروبية على الجزائر⁽²⁾، فالقارئ يلاحظ عاطفة الكره والبغض الشديدين اللذين يكنهما للنصارى، وهذا ما عكس صورة دينه وعقيدته في مجتمعه وبيئته، يظهر ذلك إعراضه عن ذكر أسمائهم وقادتهم في الحملات البحرية رغم ذكره لسنة قدوم الحملة ونوع المراكب وعدد ملاحيتها، وزمن رسوها ومكانه، وكمثال على ذلك حملة أوريلي "O'Reliy" التي أخذت حيزا كبيرا من كتابه، إلا أنه لم يذكر اسم قائدها. إن عاطفته لم تقتصر على كرهه للنصارى فقط، بل امتدت إلى كل من تعاون ووقف إلى جانبهم كأبي حمو الثالث الزياني الذي لم يذكر اسمه ووصفه بالخبيث، قائلا: «...فتوجه السلطان الخبيث إلى ناحية الجزائر لطلب خير الدين...»، كما وصف قائد الحملة الإسبانية "شاركان" بالطاغية.⁽³⁾

إن صراحتة تظهر في وصفه لرؤساء الحملات مع عدم ذكره لأسمائهم، في مقابل مدحه للحكام الذين شاركوا في صدها، مما يفسر موقفه المؤيد للعثمانيين والرافض للحملات الأوروبية التي تكالبت على الجزائر، مع إظهار غيرته على الدين الإسلامي.

(1) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج1، المصدر السابق، ص: 50.

(2) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 426.

(3) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 48-50.

اتفقت الكتابات التاريخية في الحديث عن موضوع القبائل وعلاقتها بالسلطة، والتي صنفت إلى قبائل حليفة، قبائل خاضعة، قبائل ممتعة وأخرى على علاقة بالإسبان. ما يلاحظ أن نفس المعلومات تكررت حولها تقريبا، مما يدل على مدى صحة ما جاءت به، كما اتفقت في الحديث عن عوامل ضعف الجزائر أواخر العهد العثماني⁽¹⁾، وكمثال على ذلك نجد أن بن حمادوش أشار في رحلته إلى تهربه من دفع الضرائب على سلعته وذلك باستعانتة بابن عمته الذي توسط له مع خوجة الملح، ليسرح له بضاعته بدون مكس⁽²⁾، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صراحته وعلى التجاوزات التي كانت تحدث في العهد العثماني.

التزم الورتلاني في رحلته بالصدق في كل ما أورده من أحداث، فكان يعبر عن رأيه بصراحة، لذلك وجه انتقادات لاذعة للحكام والولاة المسؤولين في نظره عن انعدام الأمن وسوء الأخلاق، وقد ساهمت رحلاته المتعددة إلى الحج في إصدار أحكام منصفة على العصر الذي عاش فيه وأهله، أما فيما يخص إشارته إلى ظلم العثمانيين الذي طال مدينة بسكرة، فإن نظرتهم تمثل نظرة خارجية لشخص أجنبي عن المدينة، وأن تقييمه للأوضاع فيها كان تقييما موضوعيا لا تحيز فيه، وعموما فإن الموضوعية التاريخية سادت أغلب المواضيع التي تناولتها الرحلة.⁽³⁾

أما فيما يخص الكتابات المحلية التي أرخت لبابليك الغرب، فقد أجمعت على انحراف سياسة البايات الأواخر، وعلى رأسهم مسلم بن عبد القادر الذي انتقد تصرفات الباي حسن بكل صراحة وصدق، حيث حملّه وحمل كل البايات الذين جاؤوا بعده مسؤولية تدهور أوضاع البابليك، مبرزاً موقفه المعادي للدقاويين.⁽⁴⁾

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص ص: 248، 251.

(2) - عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص: 114.

(3) - عبد القادر صحراوي: المرجع السابق، ص ص: 109-110.

(4) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص ص: 252-253.

ما يلاحظ على "أنيس الغريب والمسافر" لمسلم بن عبد القادر، أن الحديث عن الباي حسين كان قليلا جدا، فرغم أن المؤلف كان كاتباً في بلاطه، وكان المنتظر منه أن يتطرق إلى جوانب من حياته السياسية والاجتماعية التي دامت نحو إحدى عشرة سنة، ولعل صمت المؤلف يرجع إلى عدم رضاه عن حياته في البلاط، وهذا بعد تغير سيرة وسلوك الباي وسوء معاملته للناس عامة وللعلماء خاصة⁽¹⁾، ورغم كونه كاتباً لديه، إلا أن هذا لم يمنعه من نقد تصرفاته التي ساءت أواخر عهده، الأمر الذي يظهر لنا صراحته وعدم تحيزه.

حفلت الكتابات التاريخية بمواضيع مختلفة منها سقوط وهران في يد الإسبان للمرة الثانية سنة 1732م، حيث أشارت إلى أن سقوطها كان عنوة عكس الأول الذي حصل سنة 1509م والذي وقع بتواطؤ يهودي، ما يثبت ذلك أن الإسبان وجدوا وهران عند الاحتلال الأول عامرة بالمال والرجال، بينما في الاحتلال الثاني بالانتقال فقط لفرار سكانها، وهذا ما عبر عنه أبو راس الناصري في قوله:

من بعد عشر وعشر و ثم أربعة عاد إليها قرة أعين النعس

فملكوها بلا كبيرة ملحمة لكن في الأولى بخدعة منخيس (يهودي)

ما نستشفه من كل ذلك، هو مدى صراحة الكتابات التاريخية في حديثها عن هزائم

العثمانيين كحديثها عن انتصاراتهم، مما يجعلهم أكثر موضوعية بالنسبة لغيرهم.⁽²⁾

تظهر مصداقية المؤلفات التاريخية الجزائرية من خلال ذكر الأحداث التي ترتبط بالمناطق التي ينتمون إليها، فمثلا بن زرفة والناصرى كانا أكثر دقة في تطرقهما لأحداث الغرب الجزائري، بينما كان حمدان خوجة أكثر مصداقية من غيره في الأحداث المتعلقة بمدينة الجزائر⁽³⁾، إلا أن هذا لم يمنع مؤرخي الغرب الجزائري من إغفال بعض القضايا التي تخص فتح وهران الأول أمثال بن ميمون، الذي لم يركز على دور الباي مصطفى بوشلاغم

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص ص: 47-48.

(2) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص ص: 180-181.

(3) - المرجع نفسه، ص: 187.

في تحريرها الأول سنة 1708م، ولم يبرز جهوده في التحرير بالقدر الذي فعل مع الداوي بكداش، علما أن هذا الباوي تولى بايلك الغرب لمدة طويلة بلغت سبع وأربعين سنة، وكان له دور كبير في تحرير وهران حتى شاع عند عامة الناس أن الفاتح هو مصطفى بوشلاغم.⁽¹⁾ ما يلاحظ أيضا عند قراءة مقامات بن ميمون، أنه حاول إظهار شخصية محمد بكداش على أنها كاملة لا نقيصة فيها، فعلى امتداد المقامات جميعها لا نجد أي سلبية نسبت له أو قيلت فيه، فحتى ما قاله فيه حساده ذكره الكاتب في قوله: «فلما أبصره خاصة الأمير وصاروا ينسبون إليه الفحشاء ونبذوه... فدعوا الأمير إلى رفضه وسعوا إلى حل مبرم عهده ونقضه»، مما يوحي على أن بن ميمون أراد أن ينكر عليه هذه التهم ودحضها، وإنما نسبت له من باب الحسد، وفي مقابل ذلك أطنب في تعداد مساوئ مصطفى أهجي، وهذا دليل على انحياز الكاتب لهذه الشخصية التي من أجلها كتب هذه المقامات، محاولا إقناع القارئ بوجهة نظره حولها، مستشهدا بالقرآن والأحاديث النبوية والأشعار.⁽²⁾

من غير الخفي على الدارسين والمهتمين أن "الشاهد مهما كان نوعه يقدم الحجة وإمكانيات الإقناع والتأثير والوصول إلى عقل القارئ أو قلبه على السواء بسهولة ويسر" ومن نماذج الاستشهادات القرآنية التي وظفها بغرض التأثير على المتلقي ما جاء في المقامة السادسة ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾⁽³⁾، وهو بذلك أراد أن يبرز بأنه كان منصورا بأمر من الله تعالى الذي بيده النصر حتى لا يتجرأ أحد على التشكيك فيه⁽⁴⁾، حتى أن سعد الله وصفه بأنه شاعر بلاط غير رسمي.⁽⁵⁾

(1) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 257.

(2) - الطاهر حسيني: تجليات...، المرجع السابق، ص: 55.

(3) - سورة آل عمران، الآية 160.

(4) - الطاهر حسيني: تجليات...، المرجع السابق، ص: 55-56.

(5) - أبو القاسم سعد الله: أبحاث...، ج1، المرجع السابق، ص: 216.

دعا بن العنابي، إلى جواز تعلم كل المعارف من الغرب إذا كان ذلك في مصلحة الدين «...فغير ذلك من معارفهم الصناعية التي لها موقع من أمر الدين كالذي نحن فيه بالأولى»، وعبارة "كالذي نحن فيه" إشارة إلى واقع الأمة التي بلغ بها الهوان درجة كبيرة وأصبحت محل أطماع الغرب، وإيقاظا لأولئك الرافضين للتجديد من إنكشافية ورجال دين في محاولة منه تذكيرهم بأن ترك الاستعداد وعدم النهوض والاجتهاد فيما يعين على محاربة النصارى هو مما يخالف الأمر الشرعي.(1)

لقد تفاعل مع أحداث عصره، منفتحا على الآخر، ملتزما في نفس الوقت بمبدأ النقد تجاه القضايا والأفكار المطروحة، وعلى الرغم من مشاهدته للآثار الإيجابية للنظام الغربي إلا أنه دعا المسلمين إلى التحفظ منه وعدم الانقياد وراء ثقافته دون تبصر، لأنه كان يعمل على ضرب المرجعية الإسلامية، خاصة بعدما لاحظ تأثر بعض الحكام والنخب بها، لذلك فهو يرى بأن سبيل الإصلاح والنهوض كما ينشده ليس باستتساخ النموذج الغربي شكلا ومضمونا، لأن ذلك يعد تقليدا وليس تجديدا، والتقليد في هذه الحالة مصدره مرجعية ومنظومة لا ينتمي إليها.(2)

يرى سعد الله أن بن العنابي، كان يؤيد سياسة محمد علي باشا الذي كان لا يكتفي بتقليد الأوروبيين فيما اخترعوه، بل كان يأتي بهم ليعلموه للمسلمين، وبناء على ذلك حاول إقناع الناس بها "فكتابه إذن من كتب الدعاية إذا صح هذا التعبير، وإذا عرفنا أنه أيضا كان يشيد بالخطوات التي قطعتها الدولة العثمانية بهذا الصدد عرفنا أنه كان يبارك أيضا اتجاهها نحو التجديد"، وحتى يقنع الرافضين أو المترددين من قضية التجديد وتقليد الأجانب والتعلم منهم كان يستشهد بالقرآن والسنة.(3)

(1) - فريد حاجي: "محمد بن محمود ابن العنابي وموقفه من حضارة الغرب في القرن 19م"، مجلة الدراسات التاريخية،

مج: 14، ع: 2، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2، الجزائر، 2013م، ص ص: 373-374.

(2) - فريد حاجي: المرجع السابق، ص ص: 374-375.

(3) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص ص: 66-67.

يشير بن العنابي، أن من أسباب زوال الدولة ظلم الحكام، عدم إعطاء كل ذي حق حقه وقسوة القلب على الضعفاء، وهذا ما ينطبق على خلفاء الدولة العباسية الذين اتبعوا الشهوات وبذروا الأموال على المغنين والشعراء وأهملوا الرعية، مما نتج عنها تسلط طاغية التتار عليهم "فأباد ملكهم ومزق شملهم ومحا اسمهم من الوجود وعم الضعف والوهن سائر بلاد الإسلام"⁽¹⁾. إن هذا المثال يعد درسا قاسيا ساقه للحكام العثمانيين بطريقة غير مباشرة⁽²⁾، في محاولة منه لتتبيههم، وفي نفس الوقت إبداء النصيحة لهم مخافة أن يسيروا على نفس خطى الخلفاء العباسيين، الذين أثبتت التجربة فشلهم.

يرى بن العنابي أنه بفضل العثمانيين أنقذ الإسلام من كبوته، فقد وردت فيهم الأحاديث النبوية وتم على أيديهم النصر بفتح القسطنطينية، وهم القائمون على النهوض بهذه الدولة⁽³⁾، وفي ذلك يقول: «ولولا أن الله سبحانه جبر حال الإسلام بظهور الدولة العثمانية أعلى الله مقامها ورفع بالتأييد والنصر أعلامها فجدد القائمون بأعبائها معالم الدين وأحيوا ما اندرس من شريعة سيد المرسلين لإتسع الخرق وعم الفساد سائر الخلق... وفتح الإسلام بسيوفهم فتحا مبينا...»⁽⁴⁾، وبالتالي فقد كان صريحا في عواطفه العثمانية ولا عجب في ذلك فهو منحدر من أسرة تركمانية خدمت العثمانيين في الجزائر فترة طويلة⁽⁵⁾.

لقد استشهد بقول الرسول ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»، حيث يشرح ذلك بقوله: «ففي هذا الحديث الكريم منقبة عظيمة ومأثرة جسيمة لآل عثمان اختصوا بها من سائر ملوك الإسلام»⁽⁶⁾، ولكي يُظهر لنا صورة العثمانيين أكثر، اعتبر محاولات الأمويين والعباسيين فتح القسطنطينية مجرد مناوشات، أما

(1) - محمد بن العنابي الجزائري: المصدر السابق، ص: 211-212.

(2) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 73.

(3) - المرجع نفسه، ص: 73.

(4) - محمد بن العنابي الجزائري: المصدر السابق، ص: 212.

(5) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 73.

(6) - محمد بن العنابي الجزائري: المصدر السابق، ص: 212.

الفتح الحقيقي فكان على أيديهم، وقد أيد أبو القاسم سعد الله موقفه لأنه تحدث عن النواحي الإيجابية لهذه الدولة دون أن يغفل عن نصحهم وتحذيرهم من النواحي السلبية التي قد يكون فيها خرابها ونهايتهم، كما وقع لخلفاء الدولة العباسية.(1)

يظهر في كتاب بن العنابي الشعور الديني، بعد أن أبدى هذا التوجه كونه عالما وفقهيا مما يؤكد ذاتيته.(2)

رغم الثورات التي قامت في الجزائر ضد السلطة العثمانية، إلا أن هناك من أيد الحكم العثماني وحكم عليه أحكاما موضوعية، من بينهم حمدان خوجة الذي تطرق إلى إيجابيات وسلبيات العهد العثماني، إضافة إلى مسلم بن عبد القادر الذي سجل منظومة تحدث فيها عن الاحتلال الفرنسي وأسباب هزيمة العثمانيين مبينا محاسنهم ومساوئهم، فهو يعد شاهد عيان على تلك الفترة(3)، وفي ذلك يقول:

في فح من محرم بها ظفر
جمعهم والباشا في أكباله
بعد العصيان والطغيان فلهم
بعد قتال ذريع نال الوطر
أسلبهم الله ملكهم في حاله
أموالهم أخذها والأسلحة

ويقول أيضا:

فاشتغلوا بالظلم ليس من عدل
لما نسوا ما ذكروا به ختم
فأخذوا أخذًا وبيلًا بالمهل
على قلوبهم الله وانتقم.(4)

ولكنه من جهة أخرى شهد لهم بالشجاعة والصرامة في الحروب:

صناديد لولا الفساد في الوري
لقلنا قل مثلهم فوق الثري

وقد تأثر بعد احتلال مدينة الجزائر، فأنشد يرثيها:

دعى عليك المزاح ونوحى
على الإسلام وبالدمع فاسفحي

(1) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 74.

(2) - رقية شارف: التاريخ والمؤرخون...، المرجع السابق، ص: 264.

(3) - أحمد بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص: 56-57.

(4) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 34، 47.

واحكي زمان الوصل قد تصرما
وسودي ثوب من العز سلب
وبالأظفار فاندبي خدا باهي
وركن من أركان الدين انهدم
وملكا شامخ القواعد انتهب
على فحول بهم كنت تباهي

إلى أن يقول:

قطر الجزائر به حلّ البلا

قد جهز الأصفر جيشا فاجتمع
وحت في السير حثيث المنتجع.⁽¹⁾

اختلف المؤرخون في كتاباتهم حول شخصية الداوي حسين باشا، فمنهم من حمّله مسؤولية ما حل بالجزائر من حملة واحتلال كونه أظهر غضبه غير الدبلوماسية على القنصل الفرنسي، ولعدم اتخاذ الحيطة عسكريا وإسناده القيادة لغير الأكفاء، ومنهم من أيده على اعتبار أنه بذل قصارى جهده إلى آخر لحظة، غير أنه وجد نفسه مخذولا من الجيران والسلطان، ومعزولا من السكان (الحضر) الذين كانوا ناقلين على الحكم العثماني.⁽²⁾

كان الزهار في مذكراته صريحا في أقواله شديدا في انتقاداته، خاصة عندما يتعلق الأمر بالحكام العثمانيين في الجزائر⁽³⁾، إلا أن نظرتة للداوي حسين أظهرت تناقضا في آرائه، فتارة يمدحه وتارة أخرى يذمه، فقد قام بتقديمه في أحسن صورة "وكان حسين باشا وزيرا ثالثا... وكان رجلا عاقلا متدينا..."، إلا أنه وبعد هذا التقديم انتقد سياسته لدرجة استخدامه لألفاظ نابية عبرت عن مدى استيائه، وهذا ما جعل الدكتورة عائشة غطاس ترى أن هذا تناقضا في تناول الدايات بصفة عامة، حيث أشارت إلى أنها لم تستطع التمييز بين

(1) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص ص: 35-36، 47.

(2) - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900م، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ص: 20.

(3) - عبد القادر بكاري: "نظرة الكتابات التاريخية للصراع الإسباني الجزائري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن 18م فتح وهران أنموذجا"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج: 2، ع: 2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م، ص ص: 203-204.

موقفه كإخباري وموقفه كنقيب لأشراف الجزائر، فهو ناقد على بعض الحكام ومعجب بالبعض الآخر.⁽¹⁾

إن من بين الانتقادات التي وجهها الزهار للداي سماحه ببناء حارة خاصة بالمومسات وبإقامة علاقات خارج أطر الزواج بالنسبة للجنود الإنكشارية، كما أرجع سبب فشل المفاوضات مع المبعوث الفرنسي إلى تعنته وجهله وعدم تقديره للخطر المحدق به، حيث قال: «ومع هذا كله والباشا نائم كأنه لم يكن عنده عدو»، لكن التناقض يظهر في نظريته لهذه الشخصية عندما نجده يختم كلامه بمدحه⁽²⁾ قائلا: «وحسن باشا هذا آخر ملوك الترك بالجزائر قد كان سوي النفس، لا يتزعزع لعظائم الأمور... وأما سيرته في أهل البلد وأهل مملكته، فقد سار فيهم سيرة حسنة لم يسرها من تقدمه من لين الجانب وسهولة المجاب...».⁽³⁾

في اعتقادنا أن الزهار كان صريحا في آرائه سواء في مدحه أو انتقاده للحكام العثمانيين بصفة عامة، وهذا ما يثبت مدى موضوعيته، إلا أنه في حديثه عن الداوي حسين أظهر تناقضه ما بين مدح وإعجاب، استياء ودم، وهو ما ينم عن عدم اتخاذه لموقف ثابت اتجاهه، كما أن نقده لسياسته وتصرفاته خاصة فيما يتعلق بالحملة والاحتلال الفرنسي حسب ظننا كان على صواب، ذلك أن الداوي لم يتصرف كرجل دولة في ردود فعله، كما لم يتخذ كل الإجراءات والوسائل لصد هذه الحملة، بل ارتكب أخطاء كثيرة سهلت الاحتلال الفرنسي كتوليته المناصب لأشخاص لا يمتلكون الكفاءة.

أما نظرة صاحب "المرآة" حمدان خوجة، فاختلفت عن الزهار، ولعل أصوله العثمانية ومناصبه الإدارية كان لها دور في نظريته للداوي حسين، حيث يقول عنه: «وحسين داي هو آخر داي تركي في الجزائر، وينتمي هذا الرجل الفاضل إلى أسرة كريمة، كما يتمتع بثقافة

(1) - ياسين بودريعة: "شخصية الداوي حسين بين كتاب المرأة ومذكرات الشريف الزهار (1818-1830م)", مجلة تاريخ

العلوم، مج: 5، ع: 3، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2020م، ص: 161.

(2) - المرجع نفسه، ص: 161-162.

(3) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 176.

واسعة، وقد خدم الإيالة أكثر من ثلاثين سنة»، ورغم أن حمدان خوجة كتب كتابه بعد رحيل الداوي حسين، إلا أنه حاول تبرير المواقف أو الإجراءات التي اتخذها حين كان في سدة الحكم، ومنها تذكير الفرنسيين بأنه لم يقم بنقض أي معاهدة مع الدول الأوروبية، وفي ذلك يقول: «ووفاءه فيما يخص بالالتزامات معروف في كامل أنحاء أوروبا...»⁽¹⁾.

أما فيما يخص قضية عزل يحي آغا وتنصيب إبراهيم آغا، فيقول: «وعندما خسرت الإيالة يحي آغا تتبأ جميع العقلاء بضياع الجزائر... بل فلنفرض أنه مجرم فكان من الواجب أن لا يستبدل أبداً بمثل إبراهيم آغا، إنها لغلطة كبيرة لا تغتفر ولعلها الواحدة التي ارتكبتها حسين باشا ثلاث عشرة سنة من حكمه»⁽²⁾، وهنا يظهر إنصافه ليحي آغا، إلا أنه من غير المعقول أن تكون طوال فترة ثلاث عشرة سنة لم يرتكب فيها الداوي حسين إلا خطأ واحداً، وهو يعد نوعاً من المبالغة.

لقد أورد في حديثه عن قضية الديون مع الحكومة الإسبانية التالي: «وبما أن الداوي رئيس دولة وأب للشعب ووصي على اليتامى فإن الشرع قد منحه التفويض التام ليتحمل إصلاح هذه القضية»، كما يشير إلى أن سبب احتلال فرنسا للجزائر يعود إلى أعضاء حاشيته وجنوده، وأنه عند استلامه للحكم وجد فوضى في أجهزته، إلا أن فترة حكمه لو دامت أكثر لنجح في إعادة النظام⁽³⁾. وبهذا يظهر حمدان مدافعاً عن الداوي حسين باشا في محاولة منه أن لا يحمله مسؤولية الاحتلال، مرجعاً ذلك إلى حاشيته، لكن يبدو أنّ اللوم الأكبر يقع على عاتق الداوي، فهو من قام بتولية هؤلاء الأشخاص، أمثال صهره إبراهيم الأغا "لم يحظ أبداً بكفاءة تؤهله ليصبح قائداً عاماً، فلا يفقه الكثير من فنون الحرب وحيلها".⁽⁴⁾

(1) - ياسين بودريعة: المرجع السابق، ص: 162.

(2) - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص: 155.

(3) - المصدر نفسه، ص: 138، 145.

(4) - المصدر نفسه، ص: 149.

يرى أبو القاسم سعد الله التالي: «فإننا لا نعتقد أن حسين باشا كان يحس إحساسا وطنيا بانتمائه إلى الجزائر، كما لا نعتقد أنه كان يحس إحساس الحاكم البطل الذي يقدر دوره في التاريخ ولا الحاكم المسلم الذي يفهم بعمق معنى الجهاد وفي اعتقادنا أنه كان "مجرد حاكم" مثل كل الحكام الذين نشاهدهم هذه الأيام في الوطن العربي والإسلامي، إذ لا يثبتون أمام أية عاصفة، سواء كانت داخلية أو خارجية، ما داموا يعيشون فارغين من القيم الدينية والوطنية والبطولية»⁽¹⁾، كما رأى بأن حمدان خوجة وضع الثقة في وعود فرنسا ظنا منه أنها ستفي بالتزاماتها، ولكن فيما بعد ثبت له أن الفرنسيين، جاؤوا ليقبوا وهو ما جعله يعلن معارضته للاحتلال.⁽²⁾

يقول عبد المالك مرتاض عن الداوي حسين ما يلي: «شخصية وطنية سياسية كبيرة... وهو جزائري من أصل تركي، ولكن لا أحد يشكك في وطنيته وحبه للجزائر التي دافع عنها وعن أهاليها في كثير من المواقف والمواطن في الثلاث سنوات التي تلت الاحتلال في الجزائر وفي باريس».⁽³⁾

إن من المواضيع التي أشار إليها العنتري، استعدادات الفرنسيين للقيام بالحملة العسكرية الثانية على مدينة قسنطينة سنة 1837م، تجهيز أحمد باي لعدة كتائب لاعتراض القوات الفرنسية، إرسال الفرنسيين لليهودي ولد بوجناح ليعرض عليه شروطهم، إلا أنهم فشلوا في التوصل إلى اتفاق⁽⁴⁾، وحتى يعرف أحمد باي أخبار الحملة الصحيحة ومدى قوتها أو ضعفها أرسل محمد بن العنتري⁽⁵⁾ إلى قائدي الحملة الفرنسية الدوك "دونمور" والماريشال "دام ريمون" ليتفاوض معهما ويبلغ شروطه للصالح⁽⁶⁾، حيث أبلغهم بأن الحاج أحمد يطلب منهم سحب قواتهم من قالمة ومجاز عمار وأن يسلموا له عنابة، فلما سمعوا منه ذلك رفضوا

(1) - أبو القاسم سعد الله: الحركة...، ج1، المرجع السابق، ص: 20.

(2) - مراد بوعباش: المرجع السابق، ص: 114.

(3) - المرجع نفسه، ص: 114.

(4) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 52.

(5) - صالح العنتري: فريدة منبسة...، المصدر السابق، ص: 108.

(6) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 52.

طلبه قائلين له: «كنا نظن حاج أحمد باي أنه صاحب عقل وسياسة والآن تحقق عندنا بخلاف ذلك لأن قالمة ومجاز عمار استولينا عليهما... وكان كلامنا معه على قسنطينة فقط، والآن وقع الأمر وانقطع ما بغينا نسمعوا كلام أبدا»، ومن ثم رجع بن العنتري إليه وأخبره بردهم وبقوة الفرنسيين وعتادهم، قائلا له: «يا سيدي إن القوة التي رأيتها بعيني لا ينفع فيها إلا الصلح لو أنك تترك قالمة ومجاز عمار وتطلب الصلح على قسنطينة فقط...»⁽¹⁾، بعدها اقتنع الحاج أحمد بما جاء به من الأخبار وطلب منه أن يتجه إلى قسنطينة ليلبغ القادة هناك هذه الأخبار، حتى يشتركوا معه في اتخاذ قرار يتناسب والموقف.⁽²⁾

لقد صدق بن البجاوي قائد الدار كلام العنتري، إلا أن الباش حامبه علي بن عيسى كذب روايته متهما إياه بتلقي رشوة من الفرنسيين حتى يشيع تلك الأخبار ويثني الناس عن المقاومة وبالتالي يستسلموا دون قتال الفرنسيين، وقد أرسل لهذا الغرض رسالة إلى الحاج أحمد باي يخبره فيها بهذا الموضوع، فدخله الشك واعتقل محمد بن العنتري في الحين، بعدها وبثمانية أيام مات مسموما⁽³⁾، وفي ذلك يقول صالح العنتري: «وقد تحقق عند الناس أن الحاج أحمد باي قتله خفية بالسم، ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولادا منهم العبد الفقير إلى رب الأرباب محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب، وإني الآن كاتب بالبيرو بالدرب، وكان الذي ولاني القبطان بوسنه المتولى أمور العرب، وأنا أقول إن أبي تكلم الحق ونصح الحاج أحمد باي، كما ظهر له قبل سماع كلام الشياطين، ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبدا وأخدم الدولة بنية صالحة، لما علمت من حب أبي لها، لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد رحمه الله».⁽⁴⁾

(1) - صالح العنتري: فريدة منيصة... المصدر السابق، ص ص: 108-109.

(2) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 52.

(3) - المرجع نفسه، ص: 52.

(4) - صالح العنتري: فريدة منيصة... المصدر السابق، ص ص: 109-110.

إن صالح العنتري كتب مؤلفه بأمر من الفرنسي (بواسوني)⁽¹⁾ ، وبالتالي فإن نظرتة للعثمانيين لا عجب في أنها تفتقد للمصداقية والموضوعية في الطرح، فهو ناقد عليهم بسبب مقتل والده على يد أحمد باي حسب اعتقاده، كما يقر بخدمته للفرنسيين بشكل صريح، وهذا دلالة على ذاتيته في تناول الموضوع، بسبب قربه من السلطة الفرنسية خاصة بعد منحه منصب كاتب بالمكتب العربي، ثم ما الذي يثبت أن والده تم قتله من طرف الحاج أحمد باي فلا ضير أن تكون مجرد وشاية من قبل الفرنسيين أرادوا من خلالها أن يقنعوا بها العنتري حتى يكسبوا ولاءه وينجحوا في توجيه قلمه بما يكتب لصالحهم.

هناك من الباحثين من يرى أن العنتري تحامل على أحمد باي كثيرا، وكأنه يؤلف لتصفية الحسابات لا لكتابة التاريخ، وقد يكون سبب هذا التحامل أن الحاج أحمد باي قتل والده أو تسبب في قتله لمجرد وشاية قد تكون كاذبة من طرف الباش حامبه علي بن عيسى، وقد يكون رئيسه الضابط "بواسوني" هو من حرضه على تبني هذا الموقف، خاصة وأنه هو من اقترح عليه تأليف هذا الكتاب نفسه، بعد أن وضع له خطة ومنهجا، وأن العنتري لم يستطع أن يخالف أمره لأنه رئيسه، وهذا بهدف إبراز مساوئ أحمد باي والعثمانيين بصفة عامة، وإظهار محاسن الإدارة الفرنسية حتى يتقبلها الناس، وربما تبني صالح العنتري هذا الموقف للتقرب من القائد "بواسوني" وبنال رضاه ورضى كل الإداريين الفرنسيين كي يبقوه في وظيفته.⁽²⁾

لم يتطرق الحاج أحمد المبارك إلى الأوضاع الاقتصادية والثقافية، وإنما كان تركيزه منصبا على الأحداث السياسية التي تميزت بعديد الاضطرابات والفتن وكثرة مظالم البايات في محاولة منه لإظهار محاسن الإدارة الفرنسية التي يمثلها "بواسوني" والتي تدعي فرض النظام وإقرار العدل إلى أن أظهرت سياستها الاستعمارية المعادية للمقومات الحضارية للأمة

(1) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 50.

(2) - المرجع نفسه، ص: 53.

الجزائرية، وبذلك فهو أشبه بمعاصره صالح العنتري، وقد كتب تأليفه بطلب منه⁽¹⁾، وهذا ما يدل على تحيزه للإدارة الفرنسية كونه كتب بطلب منها، وبالتالي لا غرابة في نظرتة المعادية للعثمانيين.

(1) - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...، المرجع السابق، ص: 511.

ثالثا: القيمة التاريخية للكتابات الجزائرية

يعتبر كتاب "التحفة المرضية" وثيقة تاريخية هامة كشفت لنا عن العديد من الأحداث التي تخص الفتح الأول لمدينة وهران، كما يعد مصدرا أدبيا من مصادر الأدب الجزائري في العهد العثماني، حيث احتوى على ستة عشر مقامة أدبية وسبعمائة وخمسة وتسعون بيتا من الشعر، كلها لأدباء جزائريين عاصروا المؤلف وشاهدوا أحداث فتح وهران، فهو يجمع في كتابه بين الأدب والتاريخ⁽¹⁾، وهو بذلك رد على الادعاءات القائلة بأن الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني تكاد تكون منعدمة، فقد ضم كتابه العديد من الأشعار والقصائد بأسلوب أدبي متميز، حيث مثل كتابا سابقا لزمانه.

يعد كتاب "تقييدات" لابن المفتي من المصادر الهامة التي أرخت لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، حيث قدم معلومات سياسية هامة، فهو بمثابة شاهد عيان على أحداث عصره، كما يعد من الكتابات المحلية التي عبرت بموضوعية عن أحداث تلك الفترة عكس الكتابات الأجنبية التي لم تهتم إلا بجوانب معينة.⁽²⁾

ساهمت الكتابات التاريخية في القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م في الكشف عن المؤيدين للسلطة العثمانية والمعارضين لها مثل قبائل بني عامر⁽³⁾، التي جعلت من نفسها عميلة للمحتل الإسباني، أشعر ذلك أتباعها في الدين بالقسوة من بينهم عبد القادر المشرفي الذي كتب كتيباً عبر فيه عن سخطه تجاه هذه الإخوة المزيفة⁽⁴⁾، مصورا صفة الخيانة لديهم، فقد ساهمت رسالته في تهيئة المسلمين من الناحية النفسية لفتح وهران الثاني.⁽⁵⁾

(1) - محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص ص: 85-86.

(2) - ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص ص: 25، 32-33.

(3) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 216.

(4) - Marcel Bodin: *Op.cit*, p: 195.

(5) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 216.

أما فيما يخص رحلة الورتلاني "نزهة الأنظار" فقد اكتست أهمية كبيرة، نظرا لقيمة المعلومات التي احتوتها والتي شملت الأوضاع السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية السائدة في عصره، فضلا عن أخبار تعلقت بتاريخ المغرب العربي عامة وبعض بلدان المشرق العربي كمصر والحجاز خاصة، فهي زاخرة بالكثير من المعلومات التي تهتم المؤرخ الجغرافي، عالم الاقتصاد وعالم الاجتماع، كما تفيد في دراسة بلاد المغرب في الفترتين الوسيطة والحديثة⁽¹⁾، وبذلك تعد موسوعة حقيقية عن الجزائر وأقطار العالم الإسلامي في القرن 18م، وما ميزها التغطية التاريخية الشاملة للبلاد على عكس الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين اکتفوا بالتركيز على مدينة الجزائر فقط، لذلك يمكن الاستفادة من مادتها التاريخية الغزيرة في إعادة صياغة تاريخ الجزائر في هذه الفترة⁽²⁾ "فعندما تنتهي من قراءة رحلة الورتلاني الهامة يبقى لك انطباع هائل بأنك سافرت منذ قرن ونصف عبر الشرق البربري بصحبة دليل صغير معد لهذه الوظيفة...".⁽³⁾

تظهر أهمية كتاب "الزهرة النائرة" لابن رقية من خلال ما تناوله في مضمونه، الذي استأنس إليه العديد من المؤرخين سواء المعاصرين له أو الذين جاؤوا بعده أمثال: أبو راس الناصر وابن سحنون، وقد ازدادت قيمته أكثر بترجمته من قبل "ألفونس روسو *Alphonse Rousseau*" سنة 1840م، و"بريني *Bresnir*" الذي ترجم جزءاً منه، كما تكمن أهميته أيضا في اعتماده على العديد من المصادر النادرة، وكذا مشاركته في حملة "أوريلي"⁽⁴⁾ إن كل هذا يبين لنا مدى الأهمية الكبيرة للكتاب التي لا يمكن التغاضي عنها.

ضمت رحلة بن حمادوش معلومات هامة عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني سواء السياسي الاجتماعي أو الثقافي خلال القرن 18م⁽⁵⁾، حيث اعتبرت ردا على كل الذين وصفوا

(1) - عبد القادر بكاري: حسين الورتلاني والكتابة التاريخية...، المرجع السابق، ص: 58.

(2) - عبد القادر صحراوي: المرجع السابق، ص: 109-110.

(3) - *Mahammed Hadj Sadok: Op.cit, p: 394.*

(4) - محمد بن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص: 42-45.

(5) - نصيرة بحري: المرجع السابق، ص: 399-400.

هذا العهد بالتخلف والجمود، بما احتوته من وثائق هامة للباحثين في التاريخ الاجتماعي، الأدبي والديني.⁽¹⁾

قد لا يكفي المؤرخ أن يكون معاصرا للحدث، لتكتسب رواياته قيمة ولتعتد بوصفها مصدرا أوليا ما لم تتمتع بالثقة والمصداقية، مع اعتماده على مشاهدة الأحداث عيانا أو سماع أخبارها عن أناس اشتركوا فيها أو شاهدوها، ذلك أن قيمة الكتابات التي يدونها المؤرخ مشاهدة تكمن في أنه سينفرد بذكرها على الأغلب، ولذلك يقول المسعودي في وصفه لكتاب "الأوراق في أخبار الخلفاء للصولي": «إنه ذكر فيه غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه»، فقد شكلت الرحلة رافدا مهما من روافد بن حمادوش، حيث اكتسب دقة الملاحظة، لأنه انطلق في كثير من أحكامه وملاحظاته من مبدأ المشاهدة والمعاناة المباشرة، ومن لقاءاته بالعلماء الذين قابلهم في أثناء رحلاته وتنقلاته بين المدن والبلدان المتعددة، كذلك استفادته من الكتب المختلفة التي عاد إليها، وفي ذلك يقول "فرانز روزنتال": "إن المؤرخ الذي يشاهد الحدث تكون رواياته أرجح من معاصره الذي ينقل الأخبار مشافهة عن طريق السماع وأن أهمية أي تاريخ إسلامي كمصدر تاريخي يقررها قدمه وقربه من الحوادث التي يصفها أو استخدامه لكتب مفقودة قديمة أو قريبة من المعاصرة".⁽²⁾

إن من بين أهم الذخائر القيمة التي ألفت أواخر العهد العثماني الثغر الجماني لابن سحنون، الذي تطرق فيه إلى دور محمد الكبير في عملية الفتح، حيث أجلي الكثير من الحقائق التاريخية عن هذا العهد، وبالتالي ساهم في إمطة اللثام عن جوانب كثيرة منه⁽³⁾ كما تظهر أهمية الرحلة القمرية لابن زرفة في كونها توصف بالتقرير الحربي بكيفية

(1) - عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص ص: 23-24.

(2) - عبد القادر بكار: منهج الكتابة... المرجع السابق، ص ص: 239، 248.

(3) - حمدادو بن عمر: "الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج: 9، ع: 12، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2005م، ص: 316.

استعمال الباي للجوسسة في الحرب قبل السلاح وعن استراتيجية اختيار مناطق الهجوم، مما يدل على مدى استفادتهم من خطوات الفتح الأول وإشراك الباي للعلماء في هذه العملية، كما تكشف لنا أيضا مخازن الباي.(1)

أما رحلة ابن هطال، فهي من الرحلات الهامة التي تحتوي أخبارا جغرافية، سياسية عسكرية، اجتماعية وأدبية، وبالتالي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها، كما أن شخصية محمد الكبير التي تطرقت إليها الرحلة تعد من الشخصيات الجديرة بتسليط الضوء عليها كونه شهد العديد من التطورات التي جرت في تلك الفترة كونه كان مساهما وفاعلا فيها.(2)

تكمّن قيمة كتاب "عجائب الأسفار" لأبي راس، في أنه يبرز لنا واقع الثقافة الجزائرية في القرن 18م(3)، وقد ألف عنه الباحث "Gorguos" مقالا بعنوان: "أبو راس الناصري مؤرخ جديد بإفريقيا الشمالية"، والذي أشاد بقصيدته من حيث المعلومات التي جاء بها حول العرب والبربر والعثمانيين في إفريقيا الشمالية، مشيرا إلى أنها احتوت معلومات غفل عنها ابن خلدون أو حدثت وقائعها بعده، كما نوه بالمعلومات الجديدة التي تضمنتها القصيدة قائلا: "لقد فكرت في أن أستخلص من هذه القصيدة كل ما يتعلق بتاريخ الشعوب الإفريقية التي تعيش اليوم تحت سيطرتنا لأضعه بين يدي قراء المجلة".(4)

يعد "أنيس الغريب والمسافر" لمسلم بن عبد القادر مصدرا أساسيا لمعرفة الأحداث السياسية التي جرت بمدينة وهران أواخر العهد العثماني، على اعتبار أنه كان شاهد عيان ومطلع على ظروفها(5)، كما أنه من الكتاب المخضرمين الذين تناولوا الفترتين العثمانية والفرنسية، ويشترك معه في ذلك حمدان خوجة صاحب كتاب "المرآة"(6)، الذي يعد مصدرا

(1) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 219.

(2) - أحمد بن هطال التلمساني: المصدر السابق، ص: 16.

(3) - محمد بن أبي راس الناصر: عجائب...، ج2، المصدر السابق، ص: 06.

(4) - كمال بن صحراوي: المرجع السابق، ص: 165.

(5) - مسلم بن عبد القادر: المصدر السابق، ص: 46.

(6) - رقية شارف: الكتابات التاريخية...، المرجع السابق، ص: 216.

أساسيا لتاريخ الجزائر في أواخر العهد العثماني وبدايات الاحتلال⁽¹⁾، فهو من الوثائق التاريخية السياسية التي فضحت جرائم الاستعمار في الجزائر، وفي ذلك يصفه محمد بن عبد الكريم بأنه: "مكتظ بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة والبراهين الساطعة والوثائق الأمانة التي تبرهن على أن فرنسا قد أظهرت عجزها على أن تمنح الجزائر ثمرة مدنيته...وبه شعور إنساني وإيمان راسخ وإخلاص وطني"، إنه كتاب شامل جامع لما كانت عليه الجزائر ولما وصلت إليه بكل الحقائق.⁽²⁾

يعتبر كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" لابن العنابي من أوائل الكتب العربية التي عالجت موضوع التجديد في النظم الإسلامية عامة والنظام العسكري خاصة، حيث تطرق فيه إلى موضوع تقليد المسلمين للأوروبيين في مبتكراتهم الحديثة، على ضوء الشريعة الإسلامية من جهة، وعلى ضوء حاجة المجتمع الإسلامي إلى التطور من جهة أخرى، وهذا ما جعل أبو القاسم سعد الله يقول: «فإذا عرفنا أن ابن العنابي كان مفتي الحنفية أو شيخ الإسلام، وأن وقت تأليفه للكتاب هو سنة 1242هـ/1826م أدركنا ما للكتاب من قيمة تاريخية وحضارية وما لآراء صاحبه من أهمية».⁽³⁾

يذكر أحمد توفيق المدني أن كتاب الزهار نقيب الأشراف، يعد أول من أماط اللثام عن حقيقة الوجود العثماني في الجزائر، حيث قضى على تلك الأكاذيب التي ادعاها الاحتلال الفرنسي من أجل تشويه هذا الوجود⁽⁴⁾، أما فيما يخص كتاب "تاريخ قسنطينة" للعنترى فإنه سيبقى وسيظل وثيقة مهمة وأساسية بالنسبة لتاريخ قسنطينة وباياتها وبايليكها، وبالنسبة لبعض الأحداث العامة التي تتصل بالجزائر وعلاقتها بتونس⁽⁵⁾، كما أن "تاريخ قسنطينة" لأحمد بن المبارك رغم صغر حجمه إلا أنه احتوى على معلومات غزيرة عن

(1) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 45.

(2) - مراد بوعباش: المرجع السابق، ص: 121-122.

(3) - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد...، المرجع السابق، ص: 16.

(4) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص: 06.

(5) - صالح العنترى: فريدة منيسة...، المصدر السابق، ص: 15.

المدينة وعن الأحداث البارزة التي عرفتها⁽¹⁾، وبالتالي فالكتبان سواء للعنترى أو بن المبارك يعدان مصدرين أساسيين لتاريخها في العهد العثماني، بحيث لا يمكن لأي باحث أو قارئ الاستغناء عنهما.⁽²⁾

(1) - بلقاسم ميسوم: المرجع السابق، ص: 76.

(2) - أحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص: 90.

خاتمة

- توصلنا في ختام هذا البحث إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات من أهمها:
- على الرغم من أن أوزن حسن والباي مصطفى كان لهما الفضل الكبير في فتح مدينة وهران الأول، إلا أن العديد من المؤرخين الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن ميمون الذي أرخ لهذا الفتح، متغاضيا عن دورهما مشيدا بمحمد بكداش وهو ما عكس إعجابه به، محاولا إظهاره في كل مقاماته في صورة البطل.
 - خلف حدث فتح وهران الأول والثاني العديد من الكتابات الشعرية والنثرية، التي ألفها علماء ومؤرخون لتخليد هذا الحدث من بينها مدح الفاتح محمد بكداش والباي محمد الكبير أمثال الحلفاوي في أرجوزته، أحمد بن قاسم البوني، مصطفى بن عبد الله البوني الخطيب، أحمد بن سحنون، أبو راس الناصري، محمد بن الطيب المازري، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذه الكتابات الشعرية والنثرية، التي جمعت بين الأدب والتاريخ يمكن الاستفادة منها في دراسات أخرى جديدة.
 - الدور البارز الذي لعبه الباي محمد الكبير في تحرير مدينة وهران بعد عودة الاحتلال الإسباني إليها مجددا سنة 1144هـ/1732م، حيث وفر العدة والعتاد وأحيا الرباط وعمل على تجهيزه بكل الوسائل مع إعانتته للمرابطين فيه من طلبة علماء ومدرسين أمثال: محمد بن عبد الله الجلاي، محمد بن علي، الذين كانوا من المشاركين في الفتح الثاني الذي تم سنة 1792م.
 - إشادة بن هطال، بن سحنون، مسلم بن عبد القادر والزهار بالسيرة الحسنة للحكام العثمانيين وجهودهم في الإصلاح والتعمير أمثال: محمد بن عثمان باشا مصطفى باشا، الباي محمد الكبير الذي ذاع صيته ببايلك الغرب وصالح باي ببايلك الشرق.
 - انتشار ظاهرة الاغتيالات بين الحكام العثمانيين خاصة في فترة الدايات لغرض الوصول إلى سدة الحكم، ما نتج عنها كثرة الاضطرابات واللااستقرار، وتولي

حكام ضعاف يفتقدون للكفاءة والحنكة السياسية، الأمر الذي نتج عنه ظلم الرعية بغير وجه حق.

- استياء وتذمر بعض المؤرخين الجزائريين في كتاباتهم من الحكام العثمانيين بعدما تغيرت سيرهم وأواخر عهدهم خاصة بعد استيلائهم على أموال الأوقاف، ظلم الرعية، انتشار الفساد، الرشوة، بيع المناصب وتعيين أشخاص غير أكفاء بالإضافة إلى شرب الخمر وانتشار الزنا والدعارة، مع تساهل وتشجيع السلطة العثمانية الحاكمة على ذلك واستفادتها من صفقات إقامة العلاقات غير الشرعية التي كانت تتم بعلمها وبتواطؤها وبشكل منظم، رغم أنها تعيش في مجتمع إسلامي محافظ.

- أشارت الكتابات التاريخية إلى أن سبب انتشار ظاهرة التخلف والركود الثقافي في الجزائر كان نتيجة اهتمام الحكام العثمانيين بالشؤون العسكرية، خاصة في ظرف كانت الجزائر تعيش فيه تحت خطر الهجومات الأوروبية والاحتلال الإسباني، مما أدى إلى تغييبها للجانب الثقافي، ولكن رغم حالة الركود والتخلف هذه، إلا أن هذا لم يمنع من ظهور العديد من الحواضر الجزائرية التي انتشرت فيها حركة ثقافية وعلمية كمدينة الجزائر، قسنطينة، تلمسان، كما ظهرت العديد من تآليف المؤرخين الجزائريين الذين كان لهم فضل كبير في دفع عجلة الحركة الفكرية والثقافية في البلاد.

- إن الركود الثقافي الذي عاشته الجزائر العثمانية لم يمنع من انتشار التعليم فيها إلا أنه بقي تعليماً بسيطاً تقليدياً يعتمد على تلقي المبادئ الأولية في الدين وحفظ القرآن، بفضل جهود الأفراد والمؤسسات الوقفية، في الوقت الذي لم يلق فيه تشجيعاً من العثمانيين، ومع ذلك فإن هذا لم يحل دون إسهامات بعض الحكام العثمانيين في تشجيع الحركة العلمية والثقافية في الجزائر أواخر القرن 18م أمثال: الباي محمد الكبير وصالح باي.

- التحالف والتقارب بين السلطة العثمانية الحاكمة والطرق الصوفية بداية العهد العثماني، غير أن هذه العلاقة ما فتئت أن تغيرت وأخره، حيث تميزت بالتوتر خاصة بعد توقف حركة الجهاد وتحرير الجزائر من الاحتلال الإسباني ووقف العثمانيين للامتيازات التي كانت تمنح لرجال الطرق الصوفية كالإعفاء من الضرائب والهدايا، وهو ما أدى إلى اتساع الهوة بين الطرفين.
- التقارب والانسجام بين السلطة العثمانية وفئة العلماء، حيث كان العلماء الداعم الأكبر لهم بسبب دفاعهم عن الجزائر ضد الاحتلال الإسباني، إلا أن علاقتهم ساءت أواخر القرن 18م، خاصة بعد التحرير النهائي لمدينة وهران سنة 1792م، وتقلص الموارد البحرية ومحاولة العثمانيين تعويض هذا النقص من موارد الداخل بفرض الضرائب، فكانت المعارضة من قبل العلماء الذين تعرض بعضهم للاغتيال، السجن، العزل من الوظائف والظلم، وهو ما نتج عنه هجرة العديد منهم خارج الجزائر.
- دور قبائل المخزن البارز في الوساطة بين السكان والسلطة الحاكمة، من خلال إخضاع قبائل الرعية لدفع الضرائب مقابل حصول المخزن على العديد من الامتيازات، مع تعرض قبائل الرعية للاضطهاد والتسلط من قبل الحكام العثمانيين وقبائل المخزن جراء إلزامها بدفع ضرائب مجحفة، بينما تفاقم الخلاف بين السلطة العثمانية والقبائل الممتعة، خاصة بعد تردي العلاقة بينهما مع أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م، والتي تزامنت مع شح الموارد البحرية.
- ظهور العديد من الثورات ضد السلطة الحاكمة أواخر العهد العثماني كثورات بن الأحرش، الدرقاوية والتيجانية، نتيجة السياسة الضريبية المجحفة وظلم الحكام العثمانيين، رغم ذلك إلا أن الكتابات التاريخية المحلية ساندت السلطة العثمانية، ونظرت لهؤلاء الثوار نظرة تدمير واستياء أمثال: مسلم بن عبد القادر، أبو راس الناصري، العنصري وابن المبارك.

- فشل الداى حسين باشا في صد الاحتلال الفرنسى على الجزائر، بسبب سوء تسييره واعتماده على أعضاء حاشيته، الذين يفتقدون للخبرة والشجاعة والحنكة السياسية أمثال صهره إبراهيم آغا، بعد عزله ليحي آغا الذي تميز بكفاءته.
- مساعي الدولة العثمانية لإيجاد حل للقضية الجزائرية قبل وبعد احتلالها، إلا أن مجهوداتها باءت بالفشل خاصة مع تراجع نفوذها الخارجي وتخبطها في مشاكلها الداخلية.
- الجهود الإصلاحية لابن العنابي بعد معاصرته للفساد السياسي بداية القرن 19م، ودعوته للتغيير بإنشاء جيش ذي كفاءة وتوطيد علاقة الحاكم بالمحكومين من خلال تجسيد العدل لتجنب مغبة الوقوع تحت براثن الاحتلال الفرنسى، إلا أنه لم يجد آذانا صاغية فوق ما كان قد حذر منه.
- مقارنة الكتابات التاريخية الجزائرية بين العهدين العثماني والفرنسي، التي أظهرت تأييدها ومساندتها للعهد العثماني، الذي اتسم بعدل حكامه عكس العهد الفرنسى الذي عرف بالظلم والجور، مع إدراك المؤرخين الجزائريين بأن العهد العثماني لا يمكن مقارنته بالسلطة الفرنسية المحتلة التي أبادت الشعب وشردته واستولت على أملاك وأراضي الجزائريين، وهو ما ينفي ادعائها بأنها دولة أتت بالحضارة والتمدن للجزائر.
- اختلاف رؤى ووجهات نظر الكتابات التاريخية حول طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، بين من يرى أنها دولة تتمتع بالاستقلال كاملة السيادة، مستدلين بأن الدولة العثمانية اتخذت عامل الجهاد للدفاع عن الجزائر من الهجمات الأوروبية وذلك بطلب من الجزائريين، وهو ما يثبت أنها لم تكن مستعمرة فهم لم يحتلوا شعبا ولم يغتصبوا أرضا، بينما هناك من يرى بأن الجزائر مستعمرة تركية، وهو ما تقر به الكتابات الغربية التي تحاول تشويه صورة الدولة العثمانية.

- يعد مؤرخو أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من المؤرخين المخضرمين، الذين ساهموا في إمطة اللثام عن العديد من القضايا التاريخية، كما أبرزوا لنا التحول الذي جرى بين العهدين أمثال: مسلم بن عبد القادر، حمدان خوجة والزهار.
- إن أغلب كتابات مؤرخي القرن 18م كتبت بطلب من الباى محمد الكبير، الذي عرف بتشجيعه لحركة التأليف وخدمة له أمثال: بن هطال، بن رقية، بن سحنون، بن زرفة وأبو راس الناصري، فكانت كتاباتهم ظرفية، بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها الجزائر، إلا أن ما يلاحظ عليهم هو أنهم لم يتقربوا من السلطة بدافع الارتزاق أو الغنى، فأغلبهم توفي معدما، فقد كتبوا انطلاقا من إيمانهم بشرعية السلطة الحاكمة، التي كانت تقوم على الجهاد، الرياسة والعدل.
- أرخ بن ميمون لفتح وهران الأول عهد الداى محمد بكداش، بينما اشترك كل من بن سحنون، ابن زرفة وأبى راس الناصر في التأريخ لحدث فتح وهران الثاني وذكر مآثر الباى محمد الكبير، أما بن رقية فكتب عن الحملات الأوروبية التي تعرضت لها الجزائر، في حين ألف ابن المفتى عن علماء مدينة الجزائر.
- يعد مسلم بن عبد القادر صاحب "أنيس الغريب" من الكتابات الهامة التي أرخت لنهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، فهو يعد شاهد عيان لهذه الأحداث، حيث أرخ لنا انحرافات بعض بايات بايلك الغرب، التي رأى بأنها من بين أسباب زوال الحكم العثماني وظهور الاحتلال الفرنسي سنة 1830م أمثال حسن باى، رغم أنه كان كاتباً لديه، إلا أنه عرف بمعارضته له عندما تغيرت سياسته.
- ألف مؤرخو بداية القرن 19م بدافع مناهضتهم للاحتلال الفرنسي أمثال حمدان خوجة، أما بن العنابي فكتب داعياً للتغيير والإصلاح، في حين كتب العنتري وأحمد بن المبارك خدمة للسلطة الفرنسية.

- اتسمت أغلب الكتابات التاريخية الجزائرية بصراحتها في تناول العديد من المواضيع التاريخية، وهو ما يثبت صدق وصحة ما جاءت به أمثال: الورتلاني، بن حمادوش، بن رقية، المشرفي والزهار.
- تعد كتابات مؤرخي القرن 18م حتى النصف الأول من القرن 19م من المؤلفات التي لها قيمة تاريخية هامة، حيث أرخت لمختلف القضايا التاريخية سواء السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، كما أن هناك من المؤرخين من جمع بين كتابة التاريخ والأدب، مما أظهر لنا براعتهم في الكتابة الشعرية أمثال: بن ميمون، أبو راس الناصر وبن سحنون، وبذلك فهي تعد كتابات سابقة لزمانها.
- أغلب المؤرخين الجزائريين كتبوا انطلاقا من البيئة التي ينتمون إليها، فعلى سبيل المثال أبو راس الناصر ومسلم بن عبد القادر أرخا لبايلك الغرب، بينما العنتري وبن المبارك كتبا عن مدينة قسنطينة، أما حمدان خوجة فكتب عن مدينة الجزائر العاصمة.
- رغم ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله في كتابه "قضايا شائكة" «إن العالم الإسلامي ما يزال يعيش التخلف ولا يمكن أن يكون لأمة متخلفة نظرية أو مدرسة تاريخية إلا إذا كان لها اختيارها السياسي والفكري»، إلا أن الكتابات التاريخية الجزائرية التي ألفت في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م نجحت إلى حد ما في التأسيس لإرهاصات المدرسة التاريخية الجزائرية.
- بعد ذكر نتائج البحث لا بد من الإشارة إلى أن بعض الكتابات التاريخية المحلية احتوت على العديد من المواضيع، التي مازال يكتنفها الغموض وبالتالي فهي تحتاج إلى المزيد من البحث والإثراء، رغم تطرقنا إليها، إلا أنه وفي اعتقادنا تحتاج إلى دراستها بشكل مركز ومستفيض، خاصة فيما يخص قضايا المجتمع والانحرافات التي كانت تعيشها الجزائر أثناء العهد العثماني، ذلك أنه لا بد من رفع الستار عن بعض المواضيع التي تعد من الطابوهات والتي تصلح لأن تكون دراسات أكاديمية مستقلة لوحدها، في ظل توفر وثائق

أخرى جديدة، خاصة وأن الكتابات التاريخية أشارت إليها بشكل محتشم على سبيل المثال لا الحصر: الزنا، الرشوة، شرب الخمر، السرقة ونهب الأموال.

يزخر النصف الثاني من القرن 19م بالعديد من الكتابات التاريخية لمؤرخين جزائريين أرخوا للعهد العثماني، رغم أنهم لم يعايشوا هذه الفترة إلا أنهم كانوا قريبين منها أمثال: "طلوع سعد السعود للآغا" بن عودة المزاري، "القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط" لأحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" لمحمد بن عبد القادر، والذين لم نتطرق لهم لأنهم خارج حدود دراستنا، وبالتالي فإن دراسة شخصيات هؤلاء المؤرخين ومؤلفاتهم بحاجة إلى المزيد من البحث والإثراء بالإضافة حتى تخرج إلى النور، بعد إخضاعها لدراسة تحليلية نقدية تتضافر فيها جهود جماعية لا فردية للباحثين، إضافة إلى ذلك توجد العديد من المخطوطات التي هي بحاجة إلى تحقيق أو إعادة تحقيق لعدم التزامها بالشروط، على سبيل المثال لا الحصر الرحلة القمرية لابن زرفة.

الملاحق

الملحق رقم: 1

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد

الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون



الملحق رقم 2:

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب
الصحراوي الجزائري لأحمد بن هطال



الملحق رقم: 3

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار

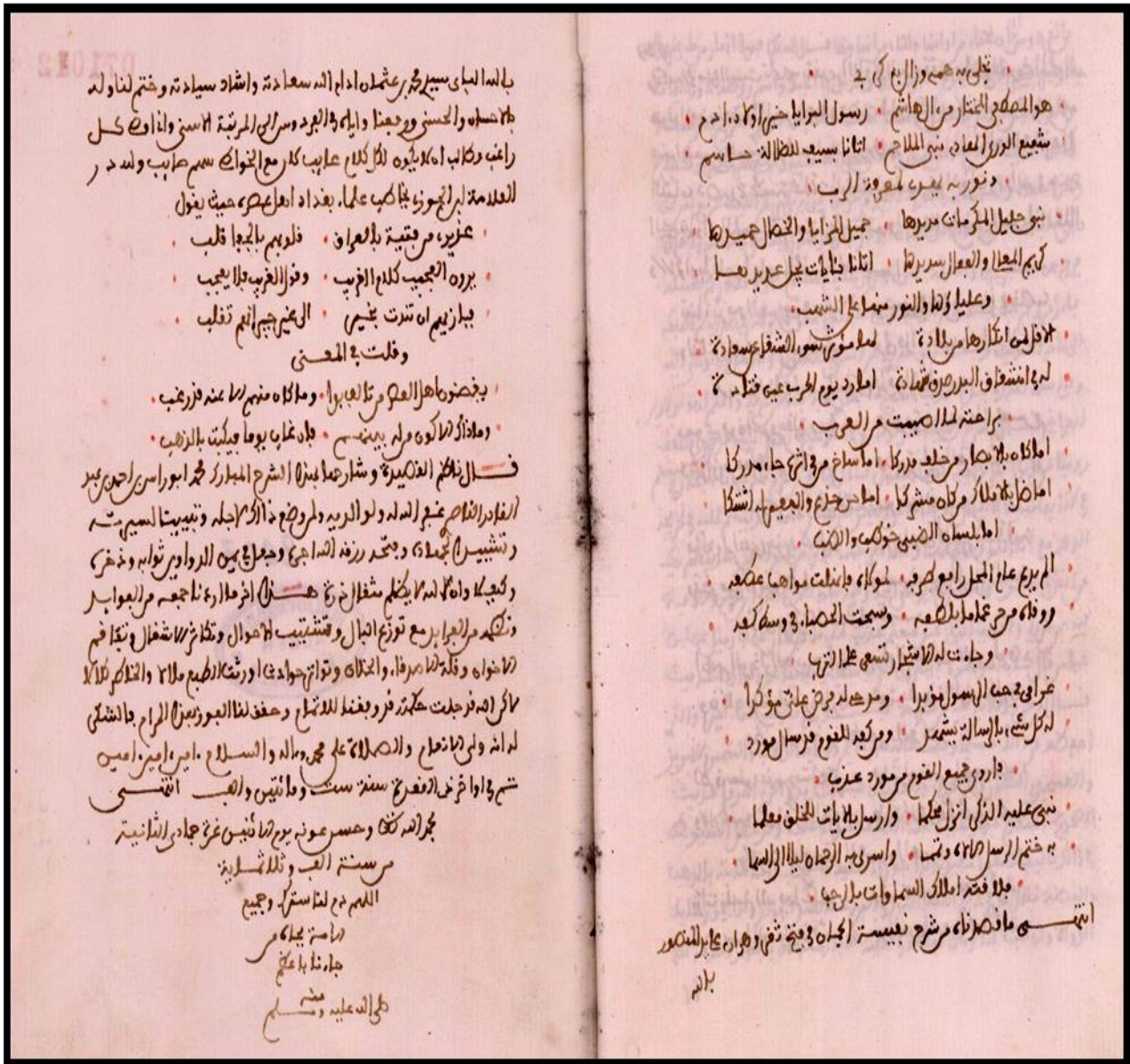
لمحمد بن أبي راس الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

قال الشيخ العالم الفقيه الحبر
الزكية النبيه فخرنا أبو راس
ابن أحمد بن عبد القادر رحمه
الله تعالى

الحمد لله الذي راح لنا النسيان والادب حتى انقضى في السنين والسنين وشاد منوار
بما اجتمعتا، وذلك لاننا من البصاة في كتماننا، واولئك لنا من مشكلاتنا ما تنفعنا
بمسلكنا، وصار لنا اللذع عبرة يحمينا من تاديبنا، وسما يصيب الغرض
اذا رغبنا في الصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اصعد الله على سبيل
الخلق واحببنا له، وعلى الرسول والهجرة صفة الله من خلقه اهل عناية
ورحمته **باب** من كان له في التاريخ من تفرغ شانه الادب
فانما اقل من اوا بصيرته، وفراغته من اهل كل صفة، وجماعة كل ولد من علمها،
السلب وحراف الخلق في كل عصر عصابة هم اهل الصابية، فالجور
واولاد وادب وبنوا اولاد واولاد واولاد واولاد واولاد واولاد واولاد
فانما صفتنا من اهل الله رضوانه، واحلم من بلان الفردوس حيطاته **وكان**
اعلم الناس به في الاسلام، بعز نينا عليه الصلاة والسلام، ابو بكر الصديق
وابن عمر بن الخطاب، وعقيل بن ابي طالب رضي الله عنهم، ومن الترابيين
ابن سيرين والزهري، وامثالهم، وفيهم يعرهم الامم، وابو عبيدة والي خاشع
وانتسبيل، وامثالهم، واشتمى بنو بني تميم من العلماء، الجاهلي والوليد،
فان كل من كان له في اهل نعيم صاحب حلية الاولياء، وهو اجبر عبد الله بن سليمان
الزهري

ابن موسى بن عمران، فانه من كل من اهل الجاهلية والحديث، وله كتاب تاريخ اصحابه
ذكر فيه اهل جرد ميمان هو اول من اسلم منهم، وهو مولد عبد الله بن عبد الوهاب
عبد الله بن يحيى بن ابي طالب، تسوية سنة ثلاثين واربعمائة، واصحابه بكس
الهمزة من هذه الجمال والعبودية ايضا، التخصيب الجملة احمر ثابتا، وكنت
ابو بكر، نسبه بغداد، كان من العلماء المتبحرين، وله في كل سنة التاريخ للعلماء
فانه يدل على اطلاع عظيم، وله في بيت مولد من صنف، وبطلان اسمه قرأه يوم
تسوية سنة ثلاث وستين واربعمائة، والعجبا انه في وقت حافية المشي في
وابر عبد الله بن النمر حطبة المغرب، وما تارة علمه والسر، وكان له في العبدية البلاغ
وذكر في جبه اهل مينية، نسبت للملك ابا اسمر، مينا فاش، ولانها بعد اوانه
قالا، وبنت مريضة بها بسببها، فلا جزا لعل لاهل ان قاله خلاو ابوه
ايضا، شيم الدين ابو عبد الله بن ابراهيم بن عثمان المعروف بالزلفي، الترخيز الرمشي
وتاريخه فيه عشرة اجزاء، كبر رتبته على السنين من اول الهجرة، يجعل كل عشر من
السنين كصحة الى المائة السابعة، هاه وهاه كانت سنة ثمان واربعين وسبعين
بعض شيمه، ابا الجمال بكس الميم، نسبتا سنين، وهو كتاب هاجل في بيع شذذة، ولا
بادة لما تشوف النفس اليه من علم التاريخ، وانفان كان جمع الاحرف في العبد
واخرج طارئين، عنما اخبار من حصرها وقت الترخيز، الجاهل مغفلا،
ايضا، وتر كسرة نسبة الى جليل الترخيز، هو ابا الله، او من مائة اليه في مشي
واحد فقالوا، انك ايمان ثم خفيج، يعيل تر كسرة، والتر كسرة هو القابل بان
المهدى هو عمر بن عبد العزيز، ولم يسلموا له في ذلك الا لانه كثير عارضة، والقب
فيه ان في علم التاريخ المسعود، كتابا كبيرا اسمر مروج الزهبي، والقب فيه ايضا
ابن مالك، وابر التخصيب المسلمين، والشيخ احمد المغربي، وابر خلدون، والسيوطي
من لا يصح ويعدو، لا يدخل تحت حصو، وهو العبدية قبل تاسلا، ادم العربي
بدلوني، ويوصف من يكون من اسما، يل وهو شيموش الرومي، ومن القب فيه

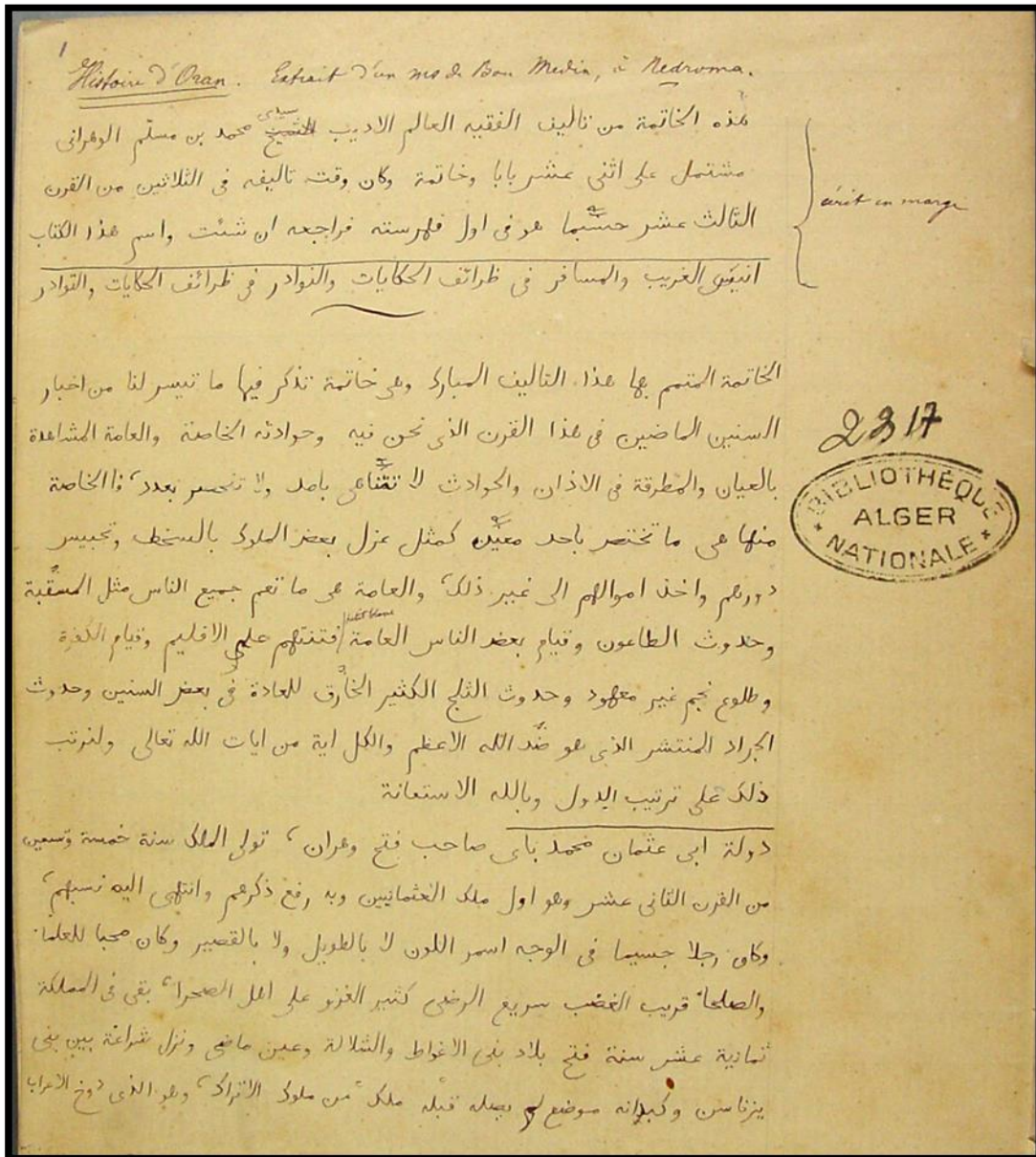


المصدر: محمد بن أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط رقم: 2003،

قسم المخطوطات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط خاتمة أنيس الغريب والمسافر

لمسلم بن عبد القادر



اطلقوا على الجزائر اربعين الف مدفع، وسافر الباي على هذا في ثار عشرين جمادى
 الاخيرة سنة ثلاثة وعشرين بمملكة قاصدا جبل انزارة مواخذا لهم بها كانوا
 عليه من نصرة ابن الاحرش رضى به فقام وقتل منهم اربعة وثلاثين رجلا وسبا
 تسعين امرأة وكان معه في الغزوة هذه خليفة جاء اليه من الجزائر وهو عمر
 ائمة وقد اشار الى ما ذكر المؤلف حيث ذكر ان قاب عمراة لانتارة لداران
 الاحرش وهدمها وتولى بعد الباي على الباي حسن وفي عام 1238 تولى مولانا
 عبد الرحمن سلطنة المغرب بتسليم مولانا سليمان له ذلك وفي عام 1244 اخذ
 الروم الجزائر ووهران

2317



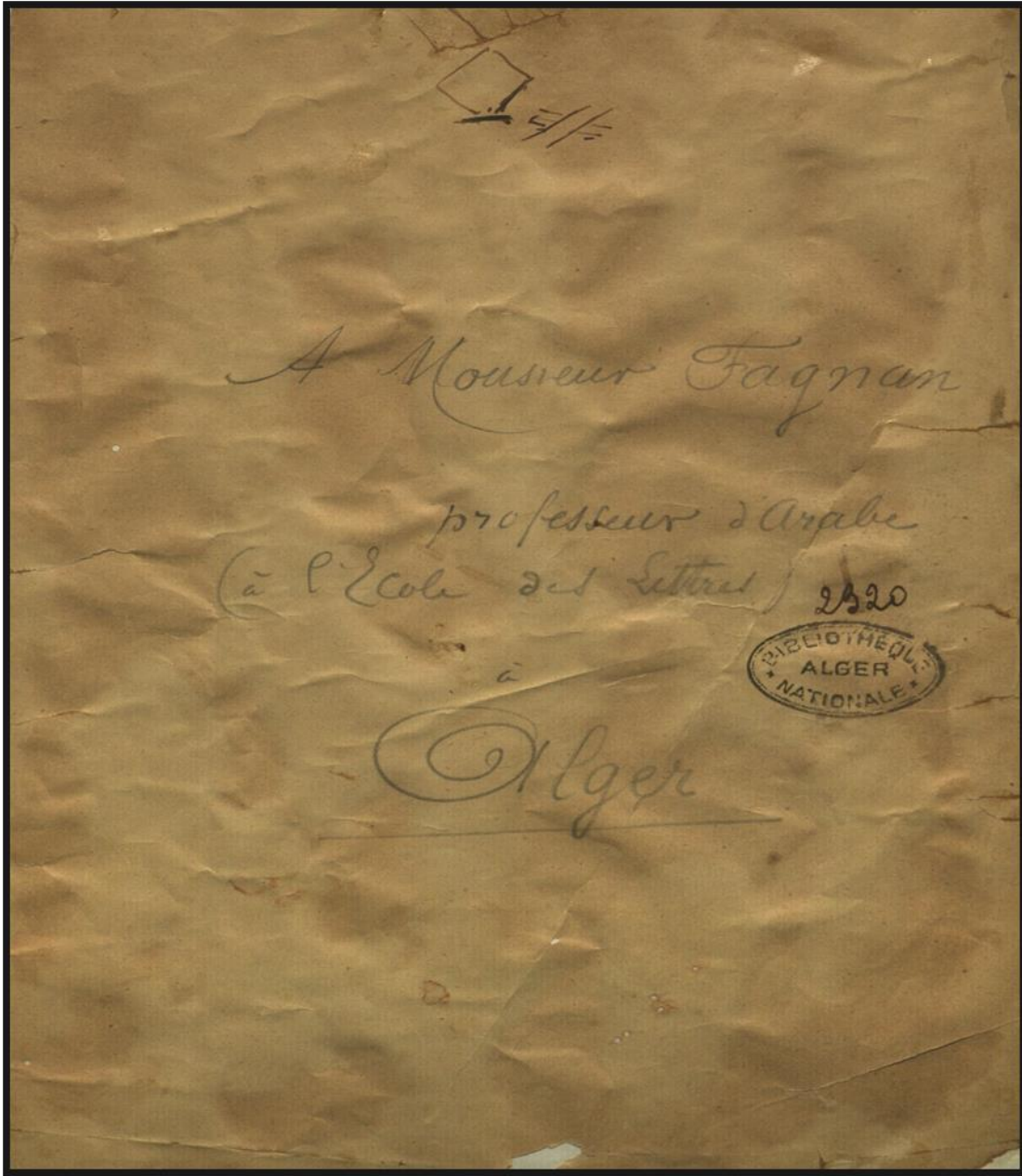
071410

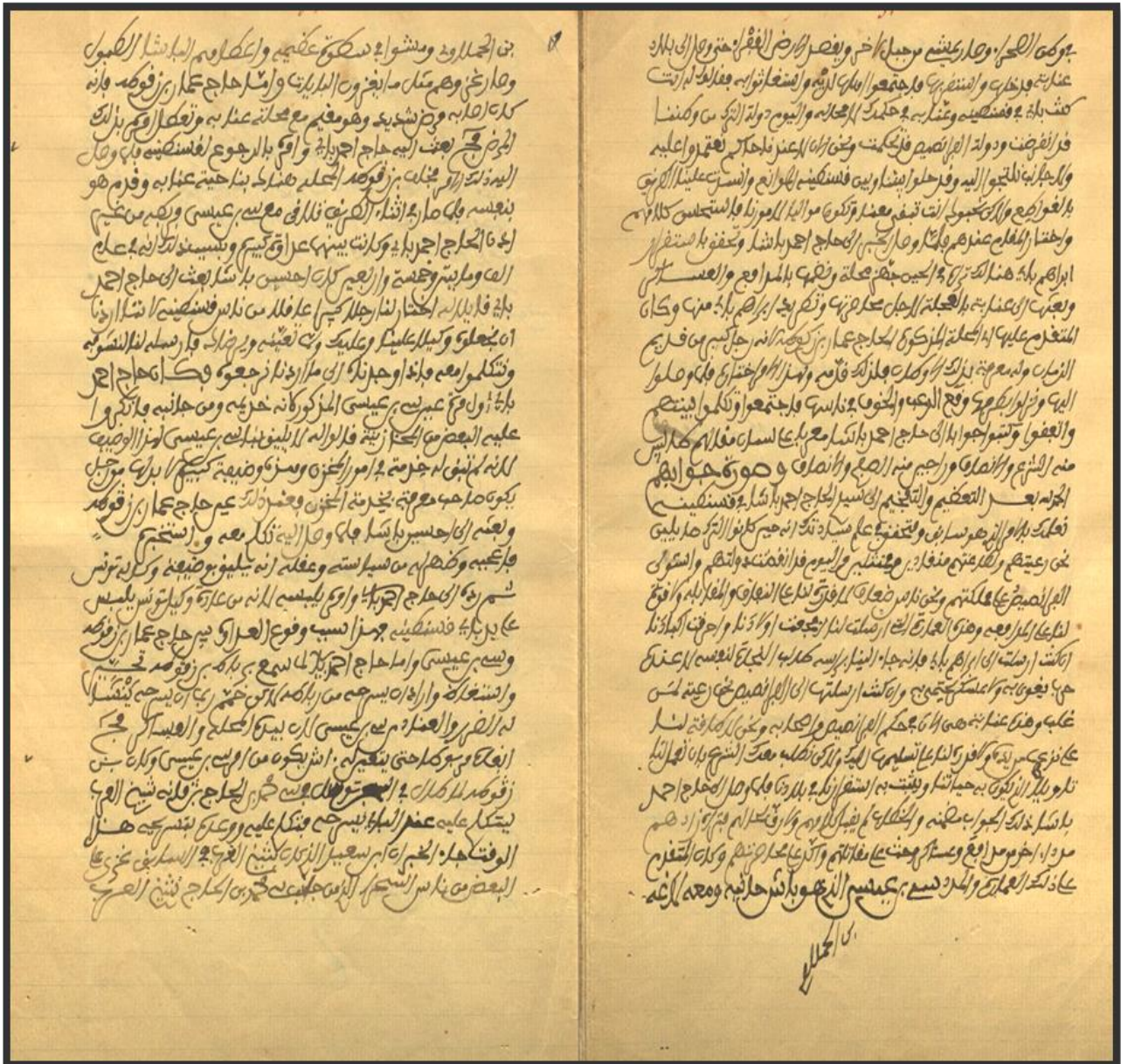
المصدر: مسلم بن عبد القادر، خاتمة أنيس الغريب والمسافر، مخطوط رقم: 2317، قسم

المخطوطات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.

الملحق رقم: 5

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط فريدة منيصة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة لمحمد الصالح بن العنتري

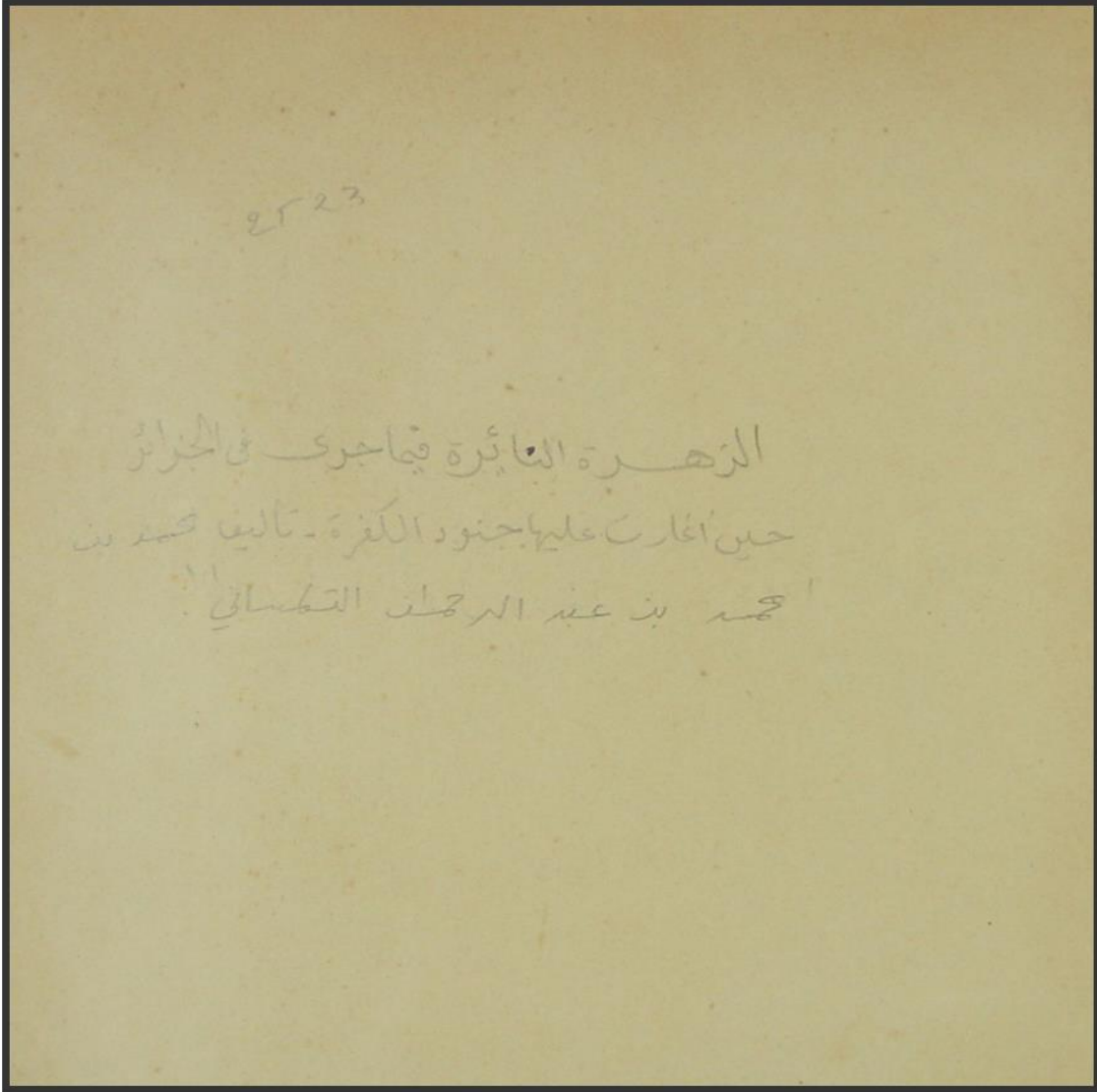




المصدر: محمد الصالح بن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مخطوط رقم: 2320، قسم المخطوطات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.

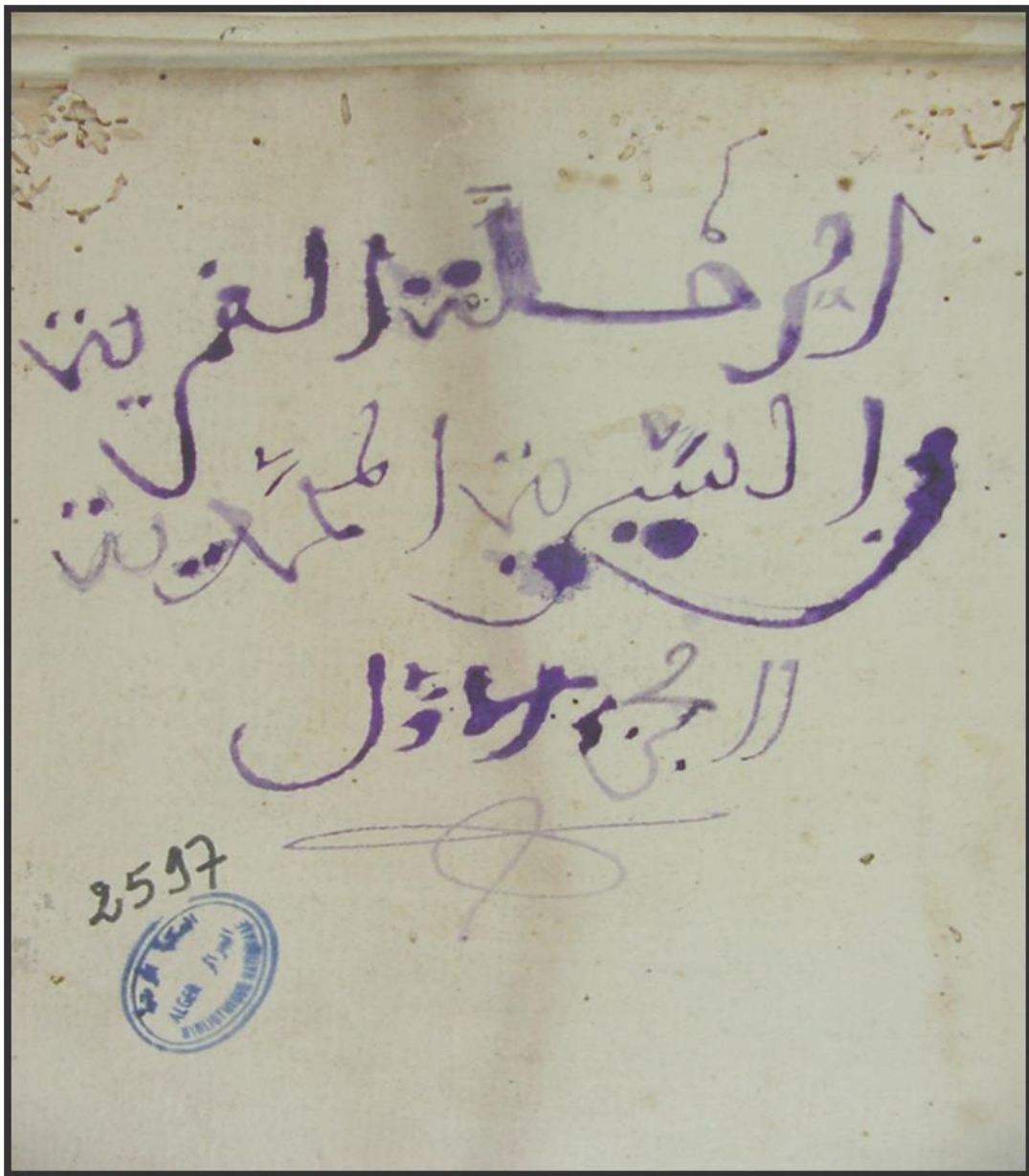
الملحق رقم: 6

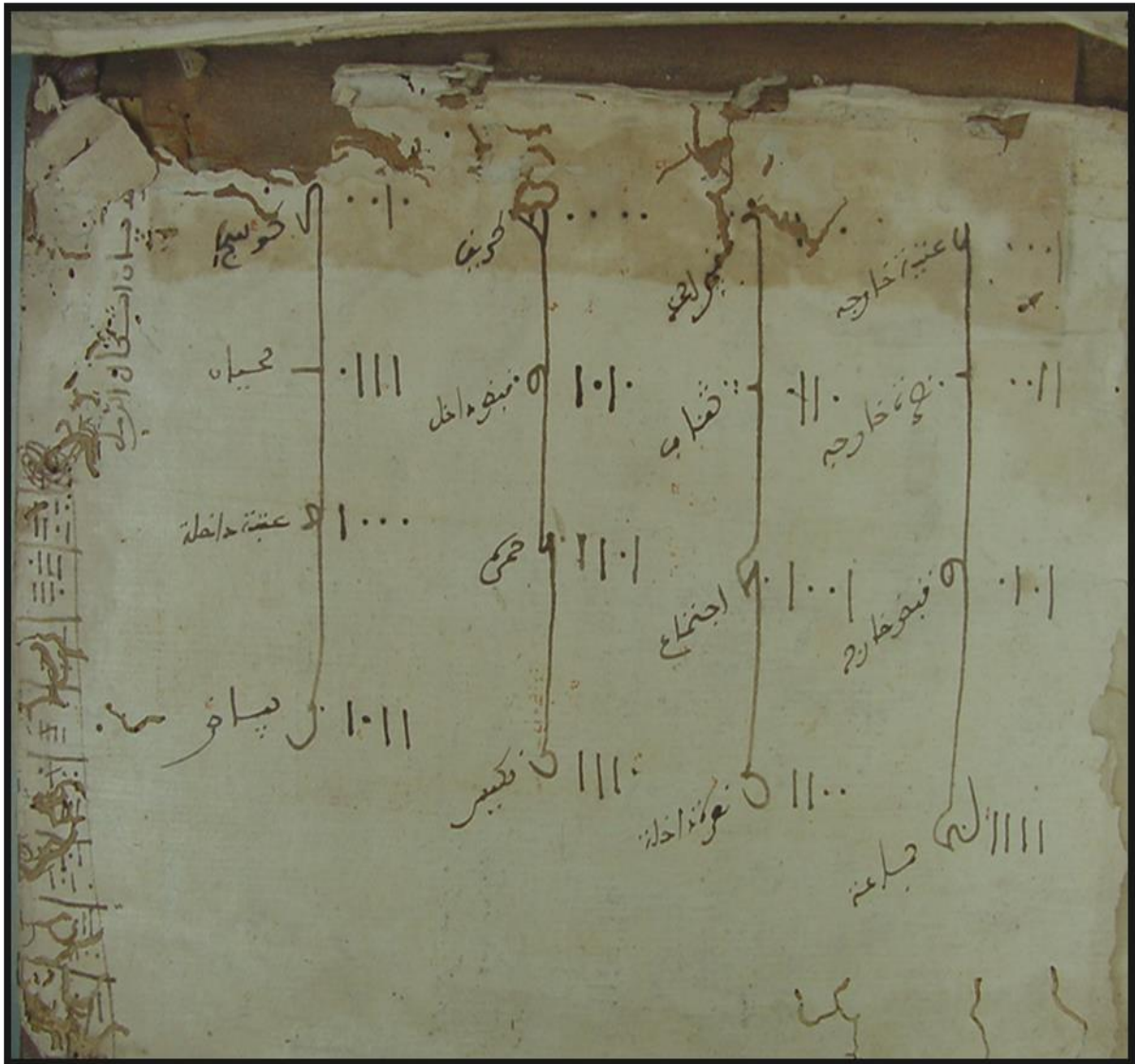
الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت
عليها جنود الكفرة لمحمد بن رقية التلمساني



الملحق رقم: 7

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط الرحلة القمرية لمحمد المصطفى بن زرفة الدحاوي



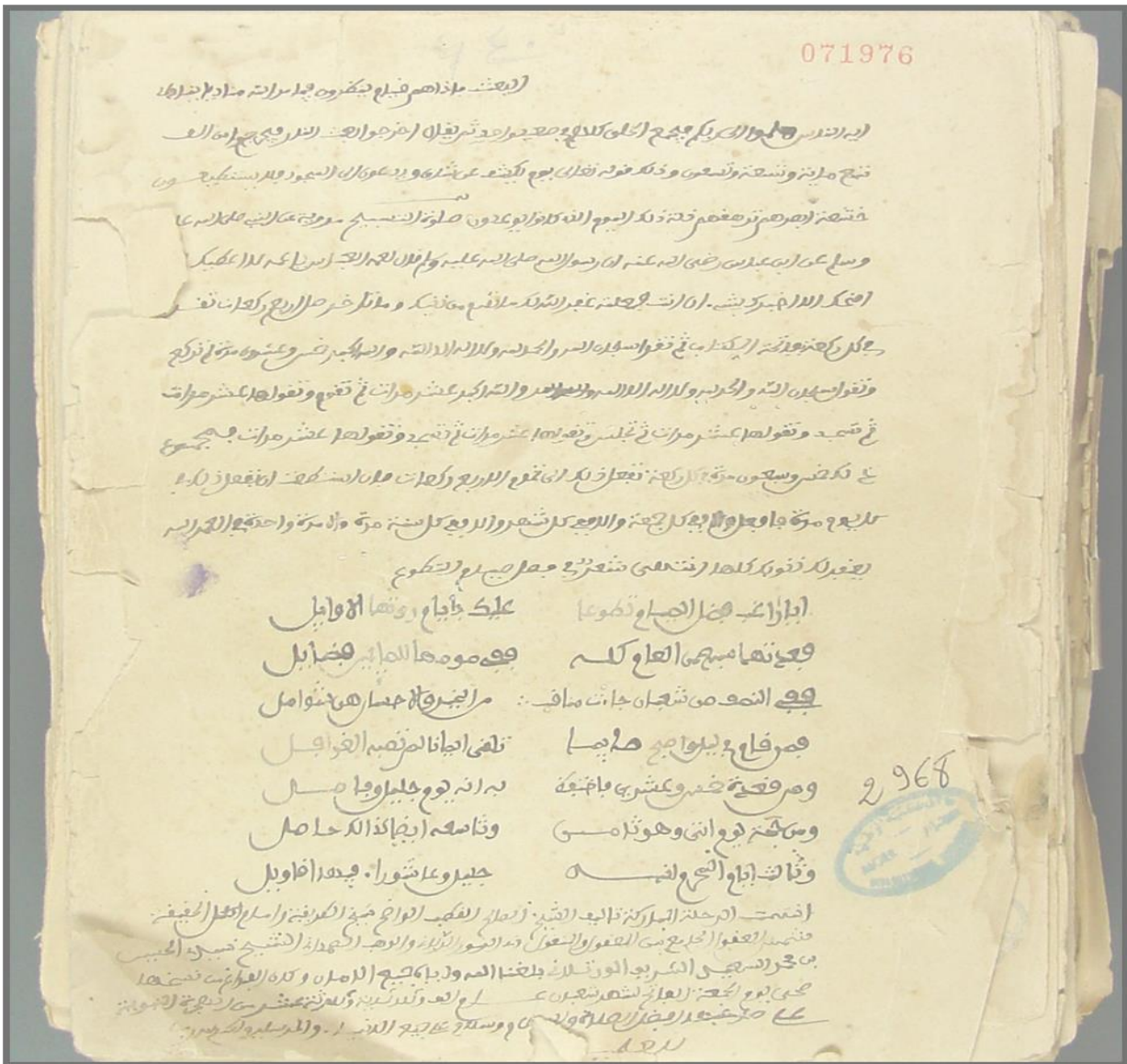


المصدر: محمد المصطفى ابن زرفة الدحاوي، الرحلة القمرية، ج1، مخطوط رقم:

2597، قسم المخطوطات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.

الملحق رقم: 8

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوط نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية للحسين بن محمد الورتلاني



البييلوغرافيا

القرآن الكريم

المصادر والمراجع باللغة العربية:

(1) المصادر:

1. ابن أبي راس الناصر محمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، ج2، تح، تق: محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا، وهران، الجزائر، [د.ت].
2. ابن أحمد أبو عبد الله محمد: ديوان ابن المسايب، تق: الحفناوي أمقران السحنوني، أسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
3. ابن الدين الأغواطي الحاج: رحلة الأغواطي في الشمال الإفريقي والسودان والدرعية، تر، تح: أبو القاسم سعد الله، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2011م.
4. ابن العطار أحمد بن المبارك: تاريخ بلد قسنطينة، تح: عبد الله حمادي، دار الفائز، قسنطينة، الجزائر، 2011م.
5. ابن العنابي الجزائري محمد: السعي المحمود في نظام الجنود، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2018م.
6. ابن المفتي حسين رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م.
7. ابن بكار بلهاشمي: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبوعة ابن خلدون، تلمسان، 1961م.
8. ابن حمادوش الجزائري عبد الرزاق: رحلة ابن حمادوش الجزائري لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م.
9. ابن رقية التلمساني محمد بن محمد: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح: خير الدين سعيدي الجزائري، أوراق ثقافية، الجزائر، ط1، 2017م.

10. ابن عبد السلام الناصري الدرعي محمد: الرحلة الناصرية الصغرى، تح: محسن آخريف، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2019م.
11. ابن عبد القادر محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، عني به: داود بخاري، رابح قادري، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2015م.
12. ابن عبد القادر مسلم: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تح: تق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
13. ابن عبد الوهاب المكناسي محمد: رحلة المكناسي "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبل الحبيب 1785م، تح: محمد بوكبوط، دار السويدية، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2003م.
14. ابن محمد الإسحاقى أبي محمد سيدي الشرفي: رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، ج:1، تح: محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2017م.
15. ابن محمد الشويهد عبد الله: قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/1695-1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار البصائر، الجزائر، [د.ت.].
16. ابن ميمون الجزائري محمد: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: تق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981م.
17. ابن هطال أحمد: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، عالم النشر، القاهرة، ط1، 1969م.
18. أبو راس الجزائري محمد: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [د.ت.].

19. أبي العباس أحمد المقرئ: رسائل المقرئ، تح: أسماء الحسني، دار الخليل القاسمي، الجزائر، ط1، 2008م.
20. بن مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ.
21. بن يوسف الزياني محمد: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، دار عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م.
22. الجامعي عبد الرحمان: مدينة وهران الرباط والتحرير من خلال شرح أرجوزة الحفاوي التلمساني، تح: العربي بوعمامة، حمدادو بن عمر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2015م.
23. حساني مختار: تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين: الجزء الأول: فتح مدينة وهران للجامعي، الجزء الثاني: الرحلة القمرية لابن زرفة، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003م.
24. الحفاوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، تح: خير الدين شترة، دار كرادادة، بوسعادة، الجزائر، ط1، 2012م.
25. خوجة حمدان بن عثمان: المرأة "لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر"، تع، تق، تل: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م.
26. خوجة حمدان بن عثمان: المرأة، تح، تق، تع: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982م.
27. الراشدي أحمد بن سحنون: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م.
28. الزهار أحمد الشريف: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

29. الزياني أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة، الرباط، 1991م.
30. شالر وليام: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982م.
31. عبد الكبير الكتاني عبد الحي: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، ج1، ج2، اعتنى به: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، [د.ت].
32. العنتري صالح: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تح: يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.
33. العنتري صالح: مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
34. الفاسي ابن زاكور: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر، الجزائر، 2011م.
35. كاتكارث: مذكرات أسير الداى كاتكارث قنصل أمريكا في المغرب، تر: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
36. كرخال مارمول: إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، دار المعرفة، الرباط، [د.ت].
37. المزارى بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
38. المشرفى الجزائرى عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تح: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م.

39. المنداسي سعيد: ديوان، تح وتق: رابح بونار، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.
40. هابنسترايت. ج. أو: رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، تر، تق، تل: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، [د.ت].
41. الورتلاني الحسين: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "الرحلة الورتلانية"، ج3، تل: العلامة بن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها: محفوظ بوكراع، ضيف مصطفى، [د.ن.]، [د.ب.]، [د.ت].
42. الورتلاني الحسين: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية، ج1، تع: العلامة بن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها: محفوظ بوكراع-عمار بسطة، [د.ن.]، [د.ب.]، [د.ت].
43. الوزان حسن: وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.
- (2) المراجع:
1. أحمد سليمان: النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، [د.ت].
2. الأرقش دلندة، الأرقش عبد الحميد: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003م.
3. ايفانوف نيقولاوي: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، تر: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988م.
4. بديرة المازري: "حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1988م.

5. بك المحامي محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: حسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981م.
6. بلاح بشير: تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989م)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، [د.ت.].
7. بلعربي خالد: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية 633-681هـ / 1235-1282م، [د.ن.]، [د.ب.]، 2011م.
8. بن عبد الكريم محمد: حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م.
9. بن عتو بلبروات: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري، كوكب العلوم، الجزائر، 2016م.
10. بن عتو بلبروات: المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني، ج2، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2016م.
11. بن قينة عمر: الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وبين العنابي والكواكبي، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 2000م.
12. بن محمد الهلالي الميللي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م.
13. بوحمشوش نعيمة: مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، دار القافلة، الجزائر، 2016م.
14. بوشنافي محمد: "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني"، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق عبيد بوداود، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد، جامعة معسكر، الجزائر، 2014م.
15. البوعبدلي المهدي: الحياة الثقافية بالجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2013م.

16. البوعبدلي المهدي: جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني من القرن (10-13هـ)، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، دار المعرفة، الجزائر، 2013م.
17. بوعزة بوضرساية: الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري رجل دولة ومقاوم (1830-1848م)، دار الحكمة، الجزائر، ط2، 2012م.
18. بوعزيز يحيى: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م.
19. بوعزيز يحيى: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م.
20. بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
21. بوعزيز يحيى: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2009م.
22. بوغفالة ودان: الثورة الفرنسية الكبرى عند علماء معسكر -أحمد بن سحنون الراشدي نموذجا-، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2014م.
23. التازي عبد الهادي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج2، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 2005م.
24. تريكي حسين: هذه الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002م.
25. التميمي عبد الجليل: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس، الجزائر، ليبيا من 1816 إلى 1871م، تق: روبر منتران، الدار التونسية، تونس، ط1، 1972م.
26. الجزائري أحمد: كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر وصف شاهد عيان، تق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962م.

27. الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ المدن الثلاث الجزائر-المدينة-مليانة، شركة دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م.
28. حليمي علي عبد القادر: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، [د.ن.]، الجزائر، ط1، 1972م.
29. خير فارس محمد: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، [د.ن.]، [د.ب.]، ط1، 1969م.
30. خيراني ليلي: المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1818-1830م) دراسة أرشيفية، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2017م.
31. دودو أبو العيد: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.
32. الزبيري محمد العربي: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، [د.ت.]، 1975م.
33. الزبيري محمد العربي: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
34. زيادة نقولا: إفريقياات دراسات في المغرب العربي والسودان، رياض الريس للكتب، [د.ب.]، ط1، 1991م.
35. سالم أحمد: السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2011م.
36. سامح ألتز عزيز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1989م.
37. سبنسر وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، دار القصب، الجزائر، 2006م.

38. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007م.
39. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2007م.
40. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار البصائر، الجزائر، 2007م.
41. سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900م، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.
42. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2017م.
43. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.
44. سعد الله أبو القاسم: تأملات وأفكار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م.
45. سعد الله أبو القاسم: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1990م.
46. سعد الله أبو القاسم: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986م.
47. سعد الله أبو القاسم: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م.
48. سعدي عثمان: الجزائر في التاريخ، دار الأمة، الجزائر، 2013م.
49. سعيدوني ناصر الدين: الجزائر منطلقات وآفاق مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م.

50. سعيدوني ناصر الدين: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني 1791-1830م، دار البصائر، الجزائر، 2013م.
51. سعيدوني ناصر الدين: الشرق الجزائري بايك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف مراسلات وتقايد ومذكرات وتقارير، دار البصائر، الجزائر، 2013م.
52. سعيدوني ناصر الدين: الملكية والجبابة في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2013م.
53. سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، دار البصائر، الجزائر، ط3، 2012م.
54. سعيدوني ناصر الدين: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2014م.
55. سعيدوني ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.
56. سعيدوني ناصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.
57. سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2012م.
58. سعيدوني ناصر الدين: ولايات المغرب العثمانية الجزائر - تونس - طرابلس الغرب، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2014.
59. سعيدوني ناصر الدين، البوعبدلي المهدي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
60. شارف رقية: الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م وبداية القرن 19م -دراسة تحليلية نقدية-، دار الملكية، الجزائر، ط1، 2007م.

61. شاطو محمد: نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2020م.
62. شويتام أرزقي: دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2، 2016م.
63. شويتام أرزقي: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 2011م.
64. صحراوي فتيحة: الجزائر في عهد الداى حسين (1818-1830م)، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2016م.
65. عباد صالح: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، دار هومة، الجزائر، 2012م.
66. عبد القادر نور الدين: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006م.
67. غانم محمد: التاريخ والمؤرخون خلال القرن الثامن عشر، وحدة البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية U.R.A.S.C، جامعة وهران، الجزائر، 1988م.
68. لزغم فوزية: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1518-1830م، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، الجزائر، [د.ت.].
69. محرز أمين: الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671م، دار البصائر، الجزائر، [د.ت.].
70. المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1792-1492م، دار البعث، الجزائر، [د.ت.].
71. المدني أحمد توفيق: محمد عثمان باشا داى الجزائر 1766-1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

72. المدني أحمد توفيق: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
73. مريوش أحمد: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الأبيار، الجزائر، 2007م.
74. هلايلي حنفي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2008م.
75. ولد النبيرة يوسف: السردية عند أبي راس الناصري من خلال سيرته الذاتية فتح الإله، معسكر المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2014م.
76. وولف. جون. ب: الجزائر وأوروبا 1500-1830م، تر، تع: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.
- (3) المجلات والدوريات:**
1. آجقو علي، شلبي شهرزاد: "مؤسسة الخزينة في الجزائر أواخر العهد العثماني ودورها الاقتصادي والعسكري 1798-1830م"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، مج: 5، ع: 4، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2016م.
2. احميدة عميراي: "مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج: 19، ع: 1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2004م.

3. آل سيد الشيخ سعاد: "جوانب من الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية بالجزائر العثمانية من خلال كتابات بعض الرحالين المغاربة، مجلة التراث، مج:1، ج2، ع: 29، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، 2018م.
4. آيت بلقاسم فاطمة زهرة: "الحكم العثماني في الجزائر وتونس دراسة مقارنة"، مجلة كان التاريخية، س: 10، ع: 37، مؤسسة كان التاريخية، القاهرة، 2017م.
5. إيمان شريط، حمدادو بن عمر: "النساء الحضر والنشاط الحرفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية على ضوء الكتابات الأجنبية"، مجلة عصور الجديدة، مج:10، ع: 2، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2020م.
6. بحري نصيرة: "استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائر"، مجلة مدارات تاريخية، مج:1، ع:4، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، الجزائر، 2019م.
7. بكاري عبد القادر: "الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري -رحلة أبو راس الناصري نموذجاً-"مجلة عصور الجديدة، مج: 5، ع: 20، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران -1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2015م.
8. بكاري عبد القادر: "حسين الورتلاني والكتابة التاريخية علم التاريخ والأخبار"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج:8، ع:1، جامعة معسكر، الجزائر، 2017م.
9. بكاري عبد القادر: "عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، مجلة عصور الجديدة، مج:7، ع: 26، مختبر تاريخ جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2017م.
10. بكاري عبد القادر: "نظرة الكتابات التاريخية للصراع الإسباني الجزائري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن 18م فتح وهران أنموذجاً"، مجلة العبر

- للدراستات التاريخية والأثرية، مج:2، ع:2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م.
11. بلاعدة العمري: "الرحلات الجزائرية الحجازية الرحلة الورتلانية أنموذجاً"، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، مج:1، ع:1، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2016م.
12. بن صحراوي كمال: "أثر الاحتلال الإسباني على ريف بايلك الغرب الجزائري"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج:2، ع:2، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م.
13. بن صحراوي كمال: "أضواء حول بعض المؤلفات ببايلك الغرب الجزائري من خلال المجلة الإفريقية"، مجلة عصور الجديدة، مج:7، ع:27، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1-أحمد بلة، وهران، الجزائر، 2018م.
14. بن عتو بلبروات: "الباي محمد الكبير باي وهران 1779-1797م حياته وسيرته"، مجلة عصور، مج:2، ع:1، مخبر البحث التاريخي-مصادر وتراجم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2003م.
15. بن عتو بلبروات: "التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م"، مجلة عصور، مج:3، ع:2، مخبر البحث التاريخي-مصادر وتراجم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2004م.
16. بن عتو بلبروات: "اهتمام الاستشراق الفرنسي برحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:3، ع:1، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، الجزائر، 2012م.

17. بن عتو بلبروات: "نظرات استشرافية لعادات وتقاليد مجتمع مدينة الجزائر العثمانية مدينة الجزائر نموذجا"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:2 ع:1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي الياوس سيدي بلعباس، الجزائر، 2010م.
18. بن عمر حمدادو: "أبو راس الناصر المعسكري وعدوة الأندلس من خلال عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، مجلة العلوم الإنسانية، مج:2 ع:1، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2012م.
19. بن عمر حمدادو: "الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج:9 ع:12، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2005م.
20. بن عيسى فاطمة، فغرور دحو: "إصلاحات محمد علي باشا في مصر من وجهات نظر مختلفة-دراسة تقييمية-"، مجلة عصور الجديدة، مج:10 ع:3، مختبر التاريخ جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2020م.
21. بن قادة صادق: "الذاكرة المكتوبة والتاريخ أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران القرن 13هـ/19م"، مجلة إنسانيات، مج:1 ع:3، مركز البحوث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 1997م.
22. بن يغزر أحمد: "فترة الحكم العثماني بالجزائر في كتابات الأستاذ أبو القاسم سعد الله"، مجلة البحوث التاريخية، مج:2 ع:1، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2018م.
23. بوجلال قدور، فغرور دحو: "إسهامات الشيخ عبد القادر المشرفي في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج:17 ع:

- 29، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2006م.
24. بوخلوة حسين: "العلماء وطلبة العلم ودورهم في تحرير مدينة وهران 1792م"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج: 2، ع: 2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019م.
25. بودريعة ياسين: "شخصية الداوي حسين بين كتاب المرأة ومذكرات الشريف الزهار (1818-1830م)"، مجلة تاريخ العلوم، مج: 5، ع: 3، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2020م.
26. بوزوادة حبيب: "دور علماء معسكر في فتح وهران من الاحتلال الإسباني (1206هـ/1792م)"، مجلة عصور، مج: 18، ع: 1، مخبر البحث التاريخي - مصادر وتراجم-، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019م.
27. بوسليم صالح، الزين محمد: "ملاح من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 6، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجبالي الياوس، سيدي بلعباس، الجزائر، [د.ت].
28. بوشنافي محمد: "الداوي حسين وسقوط الإيالة الجزائرية 1818-1830م"، مجلة عصور، مج: 4، ع: 1، مخبر البحث التاريخي، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، الجزائر، 2005م.
29. بوشنافي محمد: "ظاهرة الصراع السياسي والاعتقالات بالجزائر أثناء العهد العثماني (1520-1830م) من خلال المصادر الأجنبية"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 1، ع: 1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جبالي الياوس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2009م.

30. بوعباش مراد: "أعلام الجزائر حمدان بن عثمان خوجة المواقف السياسية والقضية الوطنية"، مجلة الباحث، مج:2، ع:1، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2010م.
31. بوكعبر تقي الدين، فغرور دحو: "الإسهامات العلمية للشيخ محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي العسكري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج:15، ع:1، جامعة معسكر، الجزائر، 2019م.
32. بونقاب مختار: "انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج:3، ع:1، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر، الجزائر، 2008م.
33. تيتة ليلي: "تطور البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج:6، ع:17، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2014م.
34. حاجي فريد: "محمد بن محمود ابن العنابي وموقفه من حضارة الغرب في القرن 19م"، مجلة الدراسات التاريخية، مج:14، ع:2، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2، الجزائر، 2013م.
35. حسناوي الساسي: "الحافظ محمد أبو راس الناصري الجزائري وأجوبته الفقهية من خلال كتابه فتح الإله"، مجلة الشريعة والاقتصاد، مج:4، ع:7، كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، [د.ت.].
36. حسيني الطاهر: "تجليات سلطة الكاتب من خلال النص المقامي في التحفة المرضية لابن ميمون"، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج:3، ع:3، كلية الآداب واللغات بجامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي، الجزائر، 2011م.
37. حيمي عبد الحفيظ: "الطريقة التجانية في الجزائر وموقف السلطة العثمانية منها من خلال المصادر المحلية (1196-1242هـ/1782-1829م)"، مجلة آفاق

- فكرية، مج:7، ع:1، عدد خاص، مختبر دراسات الفكر الإسلامي بالجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، أعمال الملتقى الدولي "تاريخ الجزائر الديني في العهد العثماني من خلال الكتابات المحلية والأجنبية يومي 6-7 مارس، الجزائر، 2018م.
38. دباح عائشة: "الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات-رحلة الورتلاني أنموذجاً-"، مجلة قضايا تاريخية، مج:2، ع:4، مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة بالمدرسة العليا بوزريعة، الجزائر، 2017م.
39. درويش الشافعي: "علاقات قبائل أولاد نايل بالسلطة العثمانية في الجزائر من خلال كتاب رحلة الباي محمد الكبير"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج:4، ع:1، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2020م.
40. دقياني عبد المجيد، الباح دليلة: "سيميائية المركز والهامش في مقامة التحفة المرضية"، مجلة العلوم الإنسانية، مج:14، ع:2، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مارس 2014م.
41. دوالي خديجة: "إسهامات الكراغلة في بناء الجزائر العثمانية"، مجلة الخلدونية، مج:10، ع:1، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2017م.
42. رقية شارف: "الواقع الاقتصادي للجزائر من خلال نماذج لمؤرخين جزائريين نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م"، مجلة العلوم الإنسانية، مج:25، ع:2، جامعة منتوري قسنطينة-1، الجزائر، 2014م.
43. الزين محمد: "تظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج:5، ع:2، جامعة غرداية، الجزائر، 2012م.

44. سعد الله أبو القاسم: "الجديد عن ابن العنابي"، مجلة حوليات جامعة الجزائر-1، مج:1، ع:1، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 1986م.
45. سعد الله أبو القاسم: "رسالة من العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو"، مجلة الدراسات التاريخية، مج:1، ع:1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر-2، الجزائر، 1986م.
46. سعيدوني ناصر الدين: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي)"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، 2010م.
47. سعيدي خير الدين: "الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1518-1775م) من خلال مخطوط الزهرة النائرة لابن رقية التلمساني"، مجلة دراسات وأبحاث، مج:15، ع:29، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2017م.
48. سعيدو إبراهيم: "تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر"، مجلة الدراسات التاريخية، مج:16، ع:2، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2، الجزائر، [د.ت.].
49. سلطاني أحمد: "من قضايا الإصلاح عند المفتي الجزائري ابن العنابي (1775-1850م)"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج:1، ع:2، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2018م.
50. سلطاني الجيلالي: "فتح وهران من خلال كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، مجلة الحضارة الإسلامية، مج:9، ع:12، كلية

- العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2005م.
51. سهيل جمال الدين: "ملاح من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج: 3، ع: 2، جامعة غرداية، الجزائر، 2011م.
52. شاطو محمد: "السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية (1791-1830م)"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج: 3، ع: 1، جامعة مصطفى إستانبولي-معسكر، الجزائر، 2008م.
53. شافو رضوان، لمقدم عمر: "نظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج: 1، ع: 1، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2017م.
54. شرويك محمد الأمين: "جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مج: 3، ع: 2، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، 2018م.
55. شيخ فطيمة: "الداي حسين باشا آخر شخصية عثمانية تحكم الجزائر"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 6، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2015م.
56. صحراوي عبد القادر: "الورتلاني مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 6، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، [د.ت.].
57. طوبال نجوى: "طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700-1830م)-الهجرات وأماكن الإقامة-"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 4، ع: 1، جامعة الوادي، الجزائر، 2013م.

58. عابد سلطانة: "قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830م أنموذج حمدان خوجة وأحمد بوضربة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج:2، ع:1، جامعة معسكر، الجزائر، 2012م.
59. عابد فكرات: "الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن لابن العنابي الجزائري الحنفي نموذجا"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج:8، ع:9، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2012م.
60. عابد فكرات: "قراءة في مخطوطات ثبت ابن العنابي الجزائري"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج:6، ع:7، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2010م.
61. العايش بكار: "الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي"، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، مج:1، ع:2، مخبر التاريخ والجغرافيا التطبيقية، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، الجزائر، 2008م.
62. عبو إبراهيم: "الثورات المحلية ضد الحكم العثماني في الجزائر ثورة ابن الأحرش أنموذجا"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، مج:1، ع:1، مختبر الجزائر والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2015م.
63. عصماني أحمد: "النخبة الجزائرية وموقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر 1830م"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مج:10، ع:1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة-2، الجزائر، 2017م.
64. عقيب محمد السعيد، المقدم عمر: "قبائل المخزن ودورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان (إيالة الجزائر)"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج:9، ع:2، جامعة الوادي، الجزائر، 2018م.

65. علوي الزهيد: "بعض مواقف علماء الجزائر من أوضاع مغرب القرن 19م -أبو حامد العربي المشرفي نموذجا-"، مجلة عصور الجديدة، مج: 9، ع: 1، مختبر تاريخ، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019م.
66. عياشي بلقاسم: "واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني من خلال كتابات الباحثين الجزائريين"، حوليات التاريخ والجغرافيا، مج: 4، ع: 7، مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية بالمدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2013م.
67. العيد فارس: "التركيبة الاجتماعية في الغرب الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي"، مجلة عصور، مج: 11، ع: 1، مخبر البحث التاريخي، وهران، الجزائر، [د.ت].
68. غالم فاطمة: "مدرسة مازونة ودورها في الحركة العلمية والثقافية"، مجلة عصور الجديدة، مج: 6، ع: 23، مختبر التاريخ، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2016م.
69. غريش صادق: "قراءة تأصيلية في مخطوط إمعان البيان في حكم الأجرة على القرآن لابن العنابي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج: 11، ع: 12، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2015م.
70. فاطمة درعي: "العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية"، مجلة الحوار المتوسطي، مج: 7، ع: 2، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية، جامعة الجيلاي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2016م.
71. قاسمي طاهر: "كتابات المؤرخين المغاربة خلال العهد العثماني"، مجلة الإنسان والمجال، ع: 5، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي نور البشير، البيض، الجزائر، 2017م.
72. قاصري محمد السعيد: "موقف السلطان المغربي من الداوي حسين عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م"، مجلة منتدى الأستاذ، ع: 3، المدرسة العليا للأساتذة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، 2007م.

73. قرياش بلقاسم: "الكتابات الغربية ودورها في تشويه الجزائر العثمانية"، مجلة كان التاريخية، س: 7، ع: 23، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر، الكويت، 2014م.
74. متاجر صورية، هلايلي حنيفي: "بنو ميزاب والأنشطة التجارية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني في ضوء مخطوط قانون أسواق"، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مج: 16، ع: 1، مخبر أنثروبولوجية الأديان ومقارنتها، جامعة تلمسان، الجزائر، 2020م.
75. مخفي مختار، بن عتو بلبروات: "دور علماء الجزائر اجتماعيا سياسيا خلال العهد العثماني (1518-1830م)"، مجلة متون، مج: 8، ع: 4، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر، 2017م.
76. المشهداني مؤيد محمود حمد، رمضان سلوان رشيد: "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518-1830م)"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: 5، ع: 16، [د.ن.]، [د.ب.]، 2013م.
77. مشوشة سمير: "الرحالة أبو عبد الله المكناسي يؤرخ للعلاقات الاقتصادية بين الجزائر وتونس خلال القرن 18م"، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، مج: 2، ع: 1، المركز الجامعي تندوف، الجزائر، 2017م.
78. مصطفى بن واز، عبد الحفيظ حيمي: "علاقة الطرق الصوفية في الجزائر بالسلطة العثمانية بين المساندة والمعارضة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج: 15، ع: 1، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2019م.
79. مقلاتي فريدة: "صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري (المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج: 8، ع: 4، المركز الجامعي، تمنراست، الجزائر، 2019م.

80. هشام بوبكر، بلقاسم عياشي: "جوانب من الحياة الديمغرافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أواخر الفترة العثمانية (دراسة سوسيو تاريخية للجماعات السكانية الحضرية المكونة للمجتمع الجزائري)"، مجلة آفاق للعلوم، مج:2، ع: 7، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2017م.
81. هلايلي حنفي: "الثورات الشعبية في الجزائر أوائل العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج: 21، ع: 1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2006م.
82. هلايلي حنفي: "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492-1614م)"، مجلة الحوار المتوسطي، مج:5، ع:1، مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014م.
83. يعيش محمد، بوعزيز جهيدة: "إشكالية البحث في طبعة كتابات الوجود العثماني في الجزائر"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 6، ع: 10، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2016م.

4) الملتقيات:

1. سعد الله أبو القاسم: "لوحة عن نظام التعليم بالجزائر في العهد العثماني"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال (1830-1962م) المنعقد بعنابة أيام 14-15 جوان 2009، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، طبع العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2011م.
2. لبصير سعاد: «دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني»، أعمال الملتقى العلمي الأول حول سوسيوولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي

والحاضر ماي 2008م، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، جوان 2009م.

(5) المعاجم:

1. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، دار الوعي، الجزائر، 2017م.

(6) رسائل الماجستير والدكتوراه:

1. بحري أحمد: حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500-1900م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2012-2013م.

2. بلغيث عبد القادر: الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: أحمد الحمدي، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م.

3. بن بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 2007-2008م.

4. بن عتو حمدون: الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م) من خلال كتب الرحالة والجواسيس ورجال الدين الكتابات الفرنسية والإسبانية نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: حنيفة هلايلي، كلية العلوم الإنسانية

- والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 2016-2017م.
5. بوبكر محمد السعيد: العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مختار حساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، السنة الجامعية 2010-2011م.
6. بوعزة بوضرساية: الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم (1826-1848م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: جمال قنان، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 1990-1991م.
7. بوعزيز جهيدة: الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني (1791-1837م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: جميلة معاشي، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة-2، الجزائر، السنة الجامعية: 2011-2012م.
8. بولحبال رياض: أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات العليا في علم المخطوط العربي، إشراف: إسماعيل سامعي، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية: 2009-2010م.
9. جبور ميلودية: ظاهر الاغتيال في نظام الحكم العثماني بالجزائر 1519-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث الدولة والمجتمع، إشراف: رنيمة أحمد، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1-أحمد بن بلة، الجزائر، السنة الجامعية: 2014-2015م.

10. جميل عائشة: **الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-** 1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2017-2018م.
11. حسيني الطاهر: **الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، إشراف: العيد جلولي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م.
12. دحماني توفيق: **الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/1792-1865م) دراسة مقارنة**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، السنة الجامعية، 2007-2008م.
13. درقاوي منصور: **الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 10-** 13هـ/16-19م **بين التأثير والتأثر**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فغورور دحو، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية 2014-2015م.
14. دغموش كاميلية: **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: محمد دادة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2013-2014م.
15. دلباز محمد: **الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في الجزائر أواخر العهد العثماني على ضوء تشریفات ترجمة وتعليق**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: حنيفي هلايلي، قسم التاريخ، كلية العلوم

- الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2014-2015م.
16. زيتوني حمزة إسحاق: **البحرية الجزائرية وتأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية (1519-1800م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2011-2012م.
17. شارف رقية: **التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1267هـ/1850م -دراسة وصفية تحليلية نقدية مقارنة مقارنة في المنهج التاريخي-**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: أرزقي شويتام، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر-2-أبو القاسم سعد الله، السنة الجامعية، 2016-2017م.
18. شاطو محمد: **نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2005-2006م.
19. شكري معمر رشيدة: **العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830م**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: فلة موساوي قشاعي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م.
20. شويتام أرزقي: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م.

21. طوبال فاطمة الزهراء: **النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد البايات 1671-1830م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: رابح لونيبي، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2019-2020م.
22. طوبال نجوى: **طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700-1830م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2004-2005م.
23. عبد القادر بكاري: **منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، إشراف: دحو فغرور، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، السنة الجامعية: 2015-2016م.
24. العزيزي الحبيب: **ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث-المحلة التونسية أنموذجاً-**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006-2007م.
25. العمري فاتح: **الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص المدينة والحياة الحضرية في الغرب الإسلامي، إشراف: أحمد صاري، قسم التاريخ، كلية الآداب والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2016-2017م.
26. غطاس عائشة: **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، مقارنة اجتماعية-اقتصادية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث،

- إشراف: مولاي بلحميسي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2000-2001م.
27. كشرود حسان: رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر العثمانية 1659-1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص التاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، إشراف: فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008م.
28. كليل صالح: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: علي أجقو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2006-2007م.
29. لحر كمال: صورة المجتمع الجزائري في (La Revue Africaine) 1856-1962م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، إشراف: ميلود سفاري، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2010-2011م.
30. لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246هـ/1830-1520م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-1- أحمد بن بلة، السنة الجامعية 2013-2014م.
31. معاشي جميلة: الإنكشارية والمجتمع ببابلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، إشراف: كمال فيلالي،

كلية الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،
السنة الجامعية: 2007-2008م.

32. مقصودة محمد: **الکراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-**

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،

إشراف: محمد دادة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة

الإسلامية، جامعة وهران-1-أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، السنة الجامعية:

2013-2014م.

33. موقفي امحمد: **العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا (1200-**

1425هـ/1786-1830م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

الحديث، إشراف: مختار حساني، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية،

المركز الجامعي غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2010-2011م.

34. ميسوم بلقاسم: **الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-**

1962م -دراسة تحليلية-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ

الحديث والمعاصر، إشراف: بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية

والاجتماعية، جامعة الجزائر-2-، الجزائر، السنة الجامعية 2011-2012م.

35. الواليش فتيحة: **الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن**

عشر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي

بلحميسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية: 1993-1994م.

-المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

1) Sources:

1. A. Devoulx, *Tachrifat recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne d'Alger*, conservateur d'archives arabes des domaines imprimerie du gouvernement ,Alger, 1852.
2. Abou-Ras En-Nasri Mohammed: *Les Vêtements au sujet D'Oran et de la Péninsule Espagnole Poésie*, Tra : G. Faure Biguet, Imprimerie Orientale P. Fontana, Alger, 1903.

3. Aramburu, **ORAN ET L'OUEST ALGERIEN AU 18^{ème} SIECLE d'après le rapport Aramburu**, TRa: Mohamed EL KORSO, Mikel DE EPALZA, Bibliothèque Nationale, ALGER, 1978.
4. Charles Féraud. L: **Histoire des Villes de la province de Constantine**, Libraire éditeur, Constantine, 1869.
5. de Grammont Henri delmas: **Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)**, ERNEST LE ROUX Éditeur, Paris, 1887.
6. estrhazy walsin.M: **de la domination turque dans L'ancienne Régence D'Alger**, Librairie de Charles gosselin, Paris, 1840.
7. Henri Aucapitaine Baron: **Les Confins Militaires de la grand Kabylie sous la domination Turque (Province D'Alger)**, Libraire Imprimeur, Paris, 1857.
8. Léon FEy Henri, **Histoire D'oran Avant Pendant et après la domination Espagnole**, typographie Adolphe éditeur, Oran, 1858.
9. Mercier Ernest : **L'Algérie en 1880**, éditeur Librairie Algérienne et Coloniale, Paris, 1880.
10. Mercier Ernest: **Constantine avant la Conquête Française 1837 notice sur cette Ville à L'époque des dernier Bey**, Vol: 19, Typographie L. ARNOLET AD. BRARAM, Constantine, 1879.
11. Rousseau Alphonse: **Chronique de La régence D'Alger Traduites d'un manuscrit arabe intitulé**, Imprimerie du gouvernement, Alger, 1841.
12. Shaw Thomas: **Voyage dans la régence D'Alger ou description géographique, physique philologique, etc de cet étale**, Trd de L'anglaise par: Mac carthy Chez Marlin éditeur, Paris, 1830.

2) **Revue et journaux :**

1. ARNAUD : «**Voyages Extraquidaitres et nouvelles Agréables par Mohammed abou Ras Ben Ahmed Ben Abd-El-Kader En-NASRI, Histoire de L'Afrique Septentrionale**», In R.A, Vol :26, Alger, 1882.
2. Ben CHENEB. M: «**Itinéraire de Tlemcen à la Mekke par ben Messaib 18 siècle** », In R.A, Vol : 44, Alger, 1900.
3. Bodin Marcel: «**L'Agrément du Lecture Notice Historique sur les arabes Soumis aux Espagnoles pendant les occupations D'Oran par si ABDEL KADER EL MECHERI**», In R.A, Vol : 65, Alger, 1924.
4. Delpech Adrian: «**Résumé Historique sur le Soulèvement des DERK'AOUA de La Province D'Oron, D'après La Chronique D'El-Mossellem Ben Mohammed Bach deftar du Bey Hassan de 1800 à 1813 (HÉG 1215à 1228)** », in R. A, Vol : 18, Alger, 1874.

5. Dournon. A: « *Kitâb Tarîkh Qosantina par El-Hadj Ahmed EL. Mobârek* », In R.A, Vol: 57, Alger, 1913.
6. Faure G Biguet: « *Notice sur Le Cheikh Mohammed Abou-Ras EN NASRI de MASCARA* » in J.A, Série 9, T: 14, Publié Par La Société Asiatique, Imprimerie Nationale Ernett leroux édideur, Paris, 1899.
7. Gorgruos .A: « *Expédition de Mohammed El KEBIR Bey Mascara dans les contrées du sud* », in R.A, Vol: 03, Alger, 1858.
8. Gorgruos. A: « *Notice sur le bey D'Oran Mohammed ELKEBIR* », In R.A, Vol: 2, Alger, 1857.
9. Hadj Sadok Mahammed: « *À travers la berbèrie oriental du 18 siècle avec le voyageur Al-Warthîlânî* », in R.A, Vol: 95, Alger, 1951.
10. Saint Calbre Charles: « *Constantine et quelques Auteurs Arabes Constantinois* », in R.A, Vol: 57, Alger, 1913.
11. Vayssettes. E: « *Histoire des derniers Beys de Constantine, Depuis 1793 Jusqu' à la chute D'Hadj-Ahmed Kara Moustafa 1818* », In R.A, Vol: 06, Alger, 1862.
12. Vayssettes. E: « *Histoire des derniers Beys de Constantine, Depuis 1793 Jusqu' à la chute D'Hadj-Ahmed* », In R.A, Vol: 03, Alger, 1858.

فهرس الأعلام

- 218، 231، 257، 258، 259، 310،
311، 317، 335.
- أحمد بن يوسف الملياني: 236، 239.
- الشريف بن الأحرش: 26، 259، 260،
261، 262، 263، 264، 265، 266،
270، 271.
- الورتلاني: 60، 71، 72، 73، 74، 75،
76، 161، 172، 174، 184، 185، 186،
198، 200، 212، 308، 315، 319.
- أوزن حسن: 76، 139، 140، 141،
143، 166.
- محمد التيجاني: 273، 274.
- ب-
- بن حمادوش: 26، 60، 62، 63، 79،
80، 81، 82، 83، 84، 235، 236، 309،
315، 333، 334.
- بن زرفة: 32، 34، 52، 84، 87، 89،
90، 91، 92، 93، 94، 100، 162، 209،
213، 217، 219، 230، 231، 310،
311، 314، 316، 317، 320، 334.
- بن سحنون الراشدي: 136، 137، 151،
152، 154، 155، 162، 170، 199،
209، 211، 213، 229، 231، 239،
249، 291، 309.
- بوشناق: 277، 290.
- أ-
- ابن الشريف الدرقاي: 95، 317.
- ابن المفتي: 65، 66، 67، 166، 187،
190، 218، 234، 235، 307، 314،
332.
- أبو القاسم سعد الله: 60، 65، 81، 84،
94، 96، 98، 102، 109، 114، 116،
175، 199، 202، 203، 204، 205.
- أبو راس: 68، 70، 88، 90، 91، 97،
98، 99، 100، 102، 103، 135، 136،
142، 144، 148، 156، 157، 158،
162، 219، 224، 229، 230، 231،
234، 271، 310، 311، 314، 315،
317، 320، 333، 335.
- أحمد الشريف الزهار: 60، 109، 112،
116، 118، 152، 158، 164، 218،
316.
- أحمد توفيق المدني: 97، 118، 172،
200، 298، 299، 300، 301، 302،
336.
- أحمد بن المبارك: 60، 82، 121،
123، 206، 313، 336، 337.
- أحمد بن هطال: 33، 60، 94، 95،
146، 147، 148، 162، 163، 182.

- ح-
- عبد القادر المشرفي: 60، 68، 69، 70، 229، 249، 314، 317، 332.
- حسین باشا: 29، 111، 112، 113، 119، 278، 281، 282، 283، 284، 285، 292، 293، 325، 327، 328.
- حمدان بن عثمان خوجة: 60، 107، 109، 219، 221، 282، 292.
- خ-
- خير الدين: 19، 20، 21، 22، 23، 28، 127، 129، 130، 131، 133، 134، 212، 217، 223، 237، 297، 300، 318.
- ش-
- شارلكان: 26، 130، 131، 132، 318.
- ص-
- صالح العنتري: 119، 120، 164، 271، 293، 329، 330، 331.
- صالح باي: 31، 40، 119، 123، 134، 164، 165، 167، 176، 186، 209، 214، 215، 233، 255، 256، 273، 329، 330، 331.
- ع-
- عروج: 19، 20، 21، 127، 128، 131، 236، 237، 297، 299.
- م-
- محمد الكبير: 33، 85، 86، 88، 89، 90، 92، 93، 94، 95، 96، 101، 137، 146، 148، 149، 151، 157، 161، 162، 182، 186، 209، 21، 212، 213، 217، 219، 223، 229، 230، 231، 232، 239، 256، 257، 273، 309، 310، 311، 314، 316، 317، 334، 335.
- محمد المقلش: 106، 234، 269.
- محمد بكداش: 61، 63، 64، 137، 139، 140، 141، 142، 143، 145، 166، 183، 185، 212، 221، 228، 232، 307، 321.
- محمد بن رقية التلمساني: 60، 77، 78، 127، 128، 129، 130، 132، 217، 223، 314.
- محمد بن عبد الله الجلاي: 85، 149، 209، 230.
- محمد بن عثمان بوكابوس: 106، 170.
- محمد بن ميمون: 60، 61، 62، 63، 64، 65، 81، 137، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 201، 202.

204، 207، 221، 228، 231، 307،
314، 320، 321.

- محمد عثمان باشا: 78، 135، 146،
167، 176، 182.

- مسلم بن عبد القادر: 60، 89، 103،
104، 105، 106، 136، 163، 176،
269، 271، 272، 311، 319، 320،
324، 335.

- مصطفى بن يوسف بوشلاغم: 85،
136، 139، 140، 144، 145، 146،
151، 154، 211، 271، 220، 221.

- مصطفى قارة: 192.

-ن-

- ناصر الدين سعيدوني: 84، 240،
253، 261، 296، 297.

-ي-

يحي آغا: 160، 182، 281، 282، 327.

فهرس الأمكن والبلمان

- أ-
- تونس: 16، 17، 19، 21، 28، 31، 40، 148، 149، 169، 175، 183، 191، 200، 203، 207، 220، 223، 235، 262، 263، 280، 287، 317، 336.
- تلمسان: 20، 22، 45، 46، 55، 57، 77، 92، 128، 130، 163، 178، 179، 180، 181، 186، 199، 205، 210، 235، 237، 238، 239، 269، 318.
- ع-
- عنابة: 18، 20، 23، 31، 34، 45، 52، 53، 67، 111، 263، 328.
- ف-
- فرنسا: 24، 29، 41، 42، 50، 107، 110، 113، 117، 118، 158، 207، 208، 214، 252، 262، 275، 277، 278، 279، 280، 283، 284، 285، 287، 290، 292، 295، 301، 302، 303، 327، 328، 336.
- ق-
- قسنطينة: 20، 23، 26، 28، 31، 36، 39، 40، 45، 50، 52، 53، 55، 117، 119، 120، 121، 122، 123، 135، 164، 165، 167، 174، 175، 182، 183، 186، 192، 195، 197، 198، 200، 205، 206، 212، 214، 215.
- ب-
- بسكرة: 45، 172، 173، 185، 200، 240، 255، 298، 319.
- ت-
- المغرب الأقصى: 16، 17، 79، 83، 117، 136، 148، 207، 235، 237، 260، 269، 272، 299.
- أزميز: 66، 289.
- إسبانيا: 18، 19، 41، 127، 128، 131، 149، 150.
- إسطنبول: 130، 235، 316.
- الأغواط: 33، 96، 165، 213، 224، 258، 259، 270.
- الباب العالي: 25، 33، 140، 177، 287، 296، 300، 304.
- الجزائر: جل صفحات الأطروحة
- القسنطينية: 108، 323.
- المدينة: 29، 31، 45، 252، 266.
- المرسى الكبير: 19، 149، 150، 155، 229، 239.
- أوروبا: 32، 48، 107، 108، 172، 204، 207، 285، 300، 311، 316، 327.

،218 ،233 ،234 ،235 ،238 ،240
،252 ،261 ،263 ،264 ،265 ،273
،274 ،282 ،287 ،288 ،289 ،293
،294 ،295 ،312 ،313 ،328 ،329
.336

-ل-

ليبيا: 74 ،76 ،235.

-م-

- مصر: 57 ،108 ،112 ،113 ،114 ،115
،204 ،262 ،279 ،287 ،288
.333

- المغرب الأوسط: 16 ،56.

- معسكر: 28 ،40 ،68 ،85 ،89 ،90
،92 ،96 ،97 ،98 ،99 ،135 ،146 ،147
،148 ،149 ،152 ،161 ،163 ،199
،209 ،210 ،211 ،213 ،228 ،230
،233 ،257 ،267 ،268 ،274 ،282
.283 ،299

-و-

- وهران: جل صفحات الأطروحة

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
	شكر وعرهان
	الإهداء
02	مقدمة.....
مدخل تمهيدى: الأوضاع العامة فى الجزائر من القرن 16م حتى بداية القرن 19م	
16	أولاً: الأوضاع السياسية.....
23	1- عهد البايلىربايات (1518-1587م).....
24	2- عهد الباشوات (1587-1659م).....
24	3- عهد الآغوات (1659-1671م).....
25	4- عهد الـدايات (1671-1830م).....
27	-النظام الإدارى.....
31	ثانياً: الأوضاع الاقتصادية.....
31	1-الزراعة.....
36	2-الصناعة.....
37	3-الحرف والأسواق.....
40	4-التجارة.....
40	4-1-التجارة الداخلية.....
41	4-2-التجارة الخارجية.....
43	ثالثاً: الحياة الاجتماعية.....
43	1-عدد السكان.....
44	2-التركيبة الاجتماعية.....
44	2-1-سكان المدن.....

441-1-2-الأقلية التركية
452-1-2-فئة الكراغلة
453-1-2-طبقة الحضر
464-1-2-فئة البرانية
465-1-2-الجالية اليهودية
476-1-2-الدخلاء
482-2-سكان الأرياف
481-2-2-قبائل المخزن
492-2-2-قبائل الرعية
493-2-2-المجموعات السكانية المتحالفة "الأحلاف"
504-2-2-المجموعات السكانية الممتنعة عن سلطة البايليك
503-بعض ملامح الحياة الاجتماعية
55رابعا: الأوضاع الثقافية
الفصل الأول: المؤرخون الجزائريون وإنتاجهم خلال القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م	
61أولا: مؤرخو القرن 18م
611-محمد بن ميمون
611-1-التعريف به
621-2-شيوخه وتلامذته
631-3-إنتاجه الفكري
652-ابن المفتي
651-2-التعريف به

662-2-شيوخه
673-2-إنتاجه الفكري
683-عبد القادر المشرفي
681-3-التعريف به
692-3-شيوخه وتلامذته
703-3-إنتاجه الفكري
714-الحسين الورتلاني
711-4-التعريف به
742-4-شيوخه وتلامذته
753-4-إنتاجه الفكري
775-محمد بن رقية التلمساني
771-5-التعريف به
782-5-إنتاجه الفكري
796-عبد الرزاق بن حمادوش
791-6-التعريف به
812-6-شيوخه وتلامذته
823-6-إنتاجه الفكري
847-أحمد بن سحنون الراشدي
841-7-التعريف به
852-7-شيوخه وتلامذته
853-7-إنتاجه الفكري
878-ابن زرفة

871-8-التعريف به.....
892-8-شيوخه وتلامذته.....
913-8-إنتاجه الفكري.....
949-أحمد بن هطال.....
941-9-التعريف به.....
962-9-إنتاجه الفكري.....
9710-أبو راس الناصر.....
971-10-التعريف به.....
982-10-شيوخه وتلامذته.....
1013-10-إنتاجه الفكري.....
103ثانيا: مؤرخو النصف الأول من القرن 19م.....
1031-مسلم بن عبد القادر.....
1031-1-التعريف به.....
1052-1-إنتاجه الفكري.....
1072-حمدان بن عثمان خوجة.....
1071-2-التعريف به.....
1092-2-شيوخه.....
1093-2-إنتاجه الفكري.....
1113-محمد بن العنابي.....
1111-3-التعريف به.....
1132-3-شيوخه وتلامذته.....
1143-3-إنتاجه الفكري.....

116	4-أحمد الشريف الزهار.....
116	4-1-التعريف به.....
117	4-2-شيوخه.....
118	4-3-إنتاجه الفكري.....
119	5-صالح بن محمد العنتري.....
119	5-1-التعريف به.....
120	5-2-شيوخه.....
120	5-3-إنتاجه الفكري.....
121	6-الحاج أحمد بن المبارك.....
121	6-1-التعريف به.....
122	6-2-شيوخه.....
123	6-3-إنتاجه الفكري.....
الفصل الثاني: سير الحكام وأعمالهم من وجهة نظر الكتابات التاريخية الجزائرية في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م	
127	أولاً: مجابهة الحملات الخارجية وتأمين الحدود.....
127	1-المنظومة الدفاعية للعثمانيين تجاه الحملات الخارجية على الجزائر.....
135	2-فتح وهران الأول 1708م.....
146	3-فتح وهران الثاني 1792م.....
149	3-1-المفاوضات بين الجزائر وإسبانيا.....
151	3-2-دخول الباي محمد الكبير مدينة وهران 1792م.....
155	3-3-الأشعار التي قيلت في الباي محمد بن عثمان.....
158	4-سلوك الحكام العثمانيين وجهودهم في الإصلاح والتعمير.....

166	ثانيا: العنف والأعمال غير المشروعة.....
166	1- اغتياالات الحكام.....
172	2- انتشار الظلم.....
181	3- الرشوة ونهب الأموال.....
188	4- البغاء وشرب الخمر.....
199	ثالثا: الواقع الثقافي للجزائر في القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م.....
199	1- حالة الركود والتخلف الثقافي.....
207	2- وضع التعليم.....
209	3- جهود بعض الحكام العثمانيين في تشجيع الحركة الثقافية في الجزائر العثمانية.....
209	3-1- الإسهامات الثقافية للباي محمد الكبير ببايلك الغرب.....
209	أ- إحياء وتشيد المدارس.....
211	ب- الاهتمام بالوقف الثقافي.....
212	ج- تنشيط حركة النسخ والتأليف.....
214	3-2- الإسهامات الثقافية للباي صالح ببايلك الشرق.....
214	أ- إحياء وتشيد المدارس.....
215	ب- الاهتمام بالوقف الثقافي.....
215	4- الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية.....
218	5- العدل وحفظ الأمن.....
الفصل الثالث: جدلية علاقة السلطة العثمانية في الجزائر بالمجتمع	
227	أولا: تأرجح العلاقة بين الاتفاق والاختلاف.....
227	1- علاقتها بالعلماء والنخب المثقفة.....
227	1-1- أسباب التقارب والتحالف بين الحكام والعلماء.....

231	1-2-أسباب التوتر والقطيعة بين الحكام والعلماء.....
236	2-علاقتها بالطرق الصوفية.....
240	3-علاقتها بالقبائل.....
240	3-1-مع قبائل المخزن.....
244	3-2-مع قبائل الرعية.....
245	3-3-مع القبائل المستقلة.....
250	ثانيا: علاقة التوتر والقطيعة مع السلطة.....
250	1-التهميش السياسي.....
252	2-الضرائب.....
259	3-الثورات ضد السلطة العثمانية.....
260	3-1-ثورة بن الأحرش 1804م.....
260	3-1-1-التعريف بالتائر بن الأحرش.....
261	3-1-2-أسباب اندلاع الثورة.....
262	3-1-3-مجرياتها.....
265	3-1-4-أسباب فشلها.....
265	3-1-5-نتائجها.....
267	3-2-الثورة الدرقاوية 1805م.....
273	3-3-الثورة التيجانية 1826م.....
277	ثالثا: موقف الكتابات التاريخية الجزائرية من سقوط نظام الحكم العثماني في الجزائر سنة 1830م.....
277	1-موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي.....
288	2-أسباب زوال نظام الحكم العثماني في الجزائر من منظور مؤرخي القرن 19م.....

292	3-الحكم العثماني في الجزائر والحكم الفرنسي من منظور الكتابات التاريخية الجزائرية ..
الفصل الرابع: دراسة تحليلية نقدية للكتابات التاريخية الجزائرية في القرن 18م إلى غاية النصف الأول من القرن 19م	
307	أولاً: دوافع التأليف.....
314	ثانياً: الكتابات التاريخية بين الذاتية والموضوعية في نظرتها للسلطة العثمانية في الجزائر.....
332	ثالثاً: القيمة التاريخية للكتابات الجزائرية.....
339	خاتمة.....
347	الملاحق.....
364	البيبلوغرافيا.....
398	فهرس الأعلام.....
402	فهرس الأماكن والبلدان.....
405	فهرس المحتويات.....